

دولـــــة فــلـــســطـــيــن
وزارة الأوقــاف والشئون الـديـنـيـة
كـلـيــة الـدعــوة الإسلامـيـــة

دراسات في التاريخ الإسلامي



إعـــداد

أ. حسن عبدالله أبو حلبية

استاذ التاريخ بكلية الدعوة الإسلامية فرع الشمال

الطبعة الأولى

1441هـ_2020م

دراسات في التاريخ الإسلامي

إعداد: أ. حسن عبدالله أبو حلبية

مقدمة:

الحمد لله الذي شرح صدور المؤمنين فانقادوا لطاعته، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم.. فلم يجدوا حرجاً في الاحتكام إلى شريعته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

حفل تاريخ الإسلام عبر مراحله المختلفة بكثيرٍ من الأحداث والأمور، ولقد تميّز بكثيرٍ من الميّزات عن غيره بسبب ارتباطه بالرّسالة الخاتمة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام، ولقد كانت في تاريخ الإسلام فترات سمّيت بالفترات الذّهبيّة حيث كان للشّريعة والدّين والأخلاق دورها الرّئيسي. بينما ابتعدت فتراتٌ أخرى عن منهج الله وشريعة الرحمن فضعفت وبدا وهنها حتّى استقوى عليها القريب والبعيد وتكالبت عليها الأمم.

لقد مرّ التاريخ الإسلامي بعدة مراحل تطور من خلالها لتنشأ فيما بعد أقوى إمبراطورية تحمل الإسلام شعاراً لها ومنهج حياة، ونذكر منها ما يلي: فجر الإسلام ابتدأ تاريخ الإسلام منذ أن بزغ فجره للبشريّة حينما بعث الله نبيّه محمّد ﷺ إلى العالمين، وقد كانت بداية دعوته في قريش في الجزيرة العربية، حيث دعا عشيرته الأقربين فآمن به من آمن وكفر به آخرون. لقد لاقت الدّعوة الإسلاميّة صعوباتٍ ومشاق حيث ظلّ النّبي في مكّة ثلاثة عشر عامًا سخّرها في سبيل الدّعوة إلى هذا الدّين، وقد جاء الأمر الإلهي بعد ذلك للنّبي والمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنوّرة لتبدأ مرحلة بناء الدّولة الإسلاميّة الأولى في المدينة . الدّولة الإسلاميّة الأولى أخذت الدّعوة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة طابعًا آخر، حين أذن للمسلمين بالقتال وردع المعتدين، فجهّز النّبي الكريم الجيوش في سبيل نشر الدّعوة الإسلاميّة وحمايتها فكانت معارك النّبي والمسلمين مثالًا في التّضحية والبذل والعطاء، وسرعان ما انتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربيّة بل وطرق أبواب الشّام.

ويمتد التاريخ الإسلامي على فترة زمنية طويلة تغطي معظم العصور الوسيطة على مساحة جغرافية واسعة تمتد من حدود الصين في آسيا إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولا إلى الأندلس، ويمكن اعتبار التاريخ الإسلامي يمتد منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي في شبه الجزيرة العربية على النبي محمد ﷺ بمكة ثم تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة مرورا بالدولة الأموية في دمشق التي امتدت من حدود الصين حتى جبال البرانس شمال الأندلس ثم الدولة العباسية، بما تضمنته هذه الدول الإسلامية من إمارات، ودويلات، مثل:

السلاجقة، والبويهيين، وفي المغرب الأدارسة، والمرابطون، ثم الموحدون، في الشام الحمدانيون، والزنكيون وغيرهم، وأخيراً في مصر الفاطميون، وفي الشام، ومصر الأيوبيون والمماليك، ثم سيطرة الدولة العثمانية التي تُعد آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسم الإسلام على امتداد رقعة جغرافية واسعة، وكانت تلك الإمبراطوريات التي ذكرت قد حكمت رُقع واسعة من البلاد غير العربية، وقد وصلوا إلى بلاد ما وراء النهر شرقاً، وفرنسا وإسبانيا غرباً.

وقد تم إعداد كتاب دراسات في التاريخ الإسلامي، ليكون أول كتاب لهذا المساق من جهد محاضري كلية الدعوة الإسلامية التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ليتم تدريسه لطلبة الكلية، وتسهيل وتبسيط هذا المساق لهم.

وجاء تقسيم الكتاب فيما يلي:

- **الفصل الأول: الخلافة الراشدة (11-40هـ).**
- **الفصل الثاني: الدولة الأموية (41-132هـ).**
- **الفصل الثالث: الدولة العباسية (132-656هـ).**
- **الفصل الرابع: الدولة الفاطمية (385-567هـ).**
- **الفصل الخامس: الدولة الأيوبية (567-648هـ).**
- **الفصل السادس: دولة المماليك (648-923هـ).**
- **الفصل السابع: المسلمون في الأندلس (92-798هـ).**
- **الفصل الثامن: الدولة العثمانية (698-1342هـ).**

والله الهادي إلى سواء السبيل...

الفصل الأول

الخلافة الراشدة

(11-40هـ)

الفصل الأول

الخلافة الراشدة (11-40هـ)

دولةُ الخُلَفاءُ الرَّاشِدين، هي أولى دُول الخِلافة الإسلاميَّة التي قامت عقِب وفاة النبي ﷺ يوم الاثنين 12 ربيع الأوَّل سنة11 هـ، 7 (حزيران) يونيو سنة632 م، وهي دولةُ الخِلافة الوحيدة التي لم يكن الحكم فيها وراثيًا بل قائمٌ على الشورى، عكس دول الخِلافة التالية التي كان الحُكمُ فيها قائمًا على التوريث.

وتوالى على حكم الدولة أربع خُلفاء من كِبار الصحابة، وجميعهم من العشرة المُبشرين بالجنّة وِفق المُعتقد الإسلامي السُنّي تحديدًا، وهم: أبو بكر الصدّيق وعُمر بن الخطّاب وعُثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب، يُضاف إليهم الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب الذي يعدّ البعض عهده القصير في الحكم مُتممًا لعهد الأربعة الذين سبقوه. اشتهر الخُلفاءُ الراشدون بالزُهد والتواضع وعاشوا حياتهم دون أي أبَّهة وبشكلٍ مُماثل لباقي الناس، وقد بلغت الخِلافةُ الرَّاشِدة أوج اتساعها خلال عهد الخليفة الثالث عُثمان بن عفّان، فامتدت أراضيها من الجزيرة العربيَّة إلى الشام فالقوقاز شمالاً، ومن مصر إلى تونس غربًا، ومن الهضبة الإيرانيّة إلى آسيا الوسطى شرقًا، وبهذا تكون الدولة قد استوعبت كافّة أراضي الإمبراطوريَّة الفارسيَّة الساسانيّة وحوالي ثُلثيّ أراضي الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وقد وقعت أغلب الفتوحات الإسلاميَّة في عهد الخليفة الثاني عُمر بن الخطّاب، وأخذت القبائل العربيَّة تتوطن في البلاد الجديدة وتعمل على نشر الإسلام بين أهلها، فأصابت في ذلك نجاحًا كبيرًا حيث اعتنقت الأغلبيَّة الساحقة من أهالي تلك البلدان الإسلام خلال السنوات اللاحقة، وقد برز في عهد الخِلافة الراشدة أسماء عدد من القادة العسكريين الذين احتلّوا منذ ذلك الحين مكانةً مرموقة في عالم الفاتحين التاريخيّن، ومنهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقّاص، وكان اتساع الدولة سببًا في جعل العرب يقتبسون لأوّل مرّة النظم الإداريّة الأجنبيّة، فاتبعوا التنظيمات والتقسيمات الإداريَّة البيزنطيَّة والفارسيَّة وأبقوا على بعضها كما هو وأدخلوا تعديلاتٍ على أخرى حتى تتناسب مع الظروف المُعاصرة.

وقد أخذت المشاكل تدبُّ في جسم دولة الخِلافة الراشدة خلال عهد عُثمان بن عفّان، عندما وقع الانقسام بين المُسلمين لأوّل مرّة وأدّى إلى مقتل عثمان، وتفاقمت المشاكل لاحقًا

في عهد علي بن أبي طالب، وقد انتهى العهد الراشِدي واقعيًّا بعد أن تحاكم عليّ ومُعاوية بن أبي سُفيان بعد رفع المصاحف في معركة صفين، وانقسمت الدولة على إقليمين، أحدهما خاضعٌ لعليّ والآخر لمُعاوية، وانتهت تمامًا بعد أن تنازل الحسن بن علي عن الخِلافة لمُعاوية في عام الجماعة حقنًا لدماء المُسلمين، وبعد وفاة الحسن ثبَّت مُعاوية الحكم في البيت الأموي وجعلها وراثيَّة، فكان بذلك المؤسس للدولة الإسلاميَّة الثانية؛ **الدولة الأموية.**

تمهيد:

كانت الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام مجموعة من القبائل العربية والبدو الرحل ينتظمون في قبائل، ويعدّ الولاء للقبيلة وتحالفاتها الأساس في تنظيم المجتمع العربي، كانت الغالبية العظمى تدين في مكة بالوثنية إضافة للديانة اليهودية في يثرب والمسيحية في نجران ونجد، وكانت مكة مركزاً دينياً يؤمه العرب من كل صوب لأداء الحج إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا الجو ظهر رسول الله ﷺ ليجهر بالإسلام، وكان أهم تأثير سياسي للإسلام أنه استطاع إقامة دولة في المدينة المنورة يسودها تشريع يحكم الجميع، ووثائق ومعاهدات مع يهود يثرب الذين كانوا يسكنون المدينة. ولاحقا استطاع المسلمون هزم المشركين في عدة معارك وفتحت مكة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين فحطمت أوثان العرب التي كانت موجودة في الكعبة وأعلن التوحيد.

والتوحيد الذي جاء به الإسلام لم يكن دينياً روحياً فقط بل كان أيضاً اجتماعياً سياسياً، فالجزيرة العربية كلها دخلت في عقيدة واحدة وأصبح لها كيان واحد وقبلة واحدة وإله واحد هو الله ﷻ، وقد ضعفت العصبيات القبلية والمطامع المادية في تلك الفترة مؤقتاً قبل أن تعود للظهور بعد أن حقق المسلمون انتصارات مهمة لإسقاط دولة الساسانيين، وفتح بلاد الشام.

وأحدث خبر وفاة رسول الله ﷺ صدمة هائلة عند كثير من المسلمين، فمنهم من قال أن رسول الله مات ومنهم من قال أنه لم يمت. ولما بلغ الخبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبّله، وخرج إلى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **أيها الناس، إنه مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.** ثم تلا قول الله تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشّاكِرِين﴾** [آل عمران :144].

وقد بايع الناس أبا بكر رضي الله عنه في المسجد بعد بيعة قادة المهاجرين والأنصار له في **سقيفة بني ساعدة** فقام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا في الناس ليُعلِن عن منهجه، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: "**أما بعد، أيها الناس، فإني قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإنْ أحسنتُ فأعينوني، وإنْ**

أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقّه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحقّ منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

أولاً: خلافة أبى بكر الصديق (11 – 13هـ):

هو "عبد الله بن عثمان بن عامر"، من قبيلة "**تيم بن مرة بن كعب**"، ويلتقى نسبه مع نسب النبى ﷺ فى "**مرة بن كعب**" ، وكنيته: "أبو بكر"، ولقبه: "عتيق".

وولُد "أبو بكر" سنة (573م) بعد مولد الرسول ﷺ بثلاثة أعوام، ونشأ في "مكة"، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته.

وعُرف "أبو بكر" بترفعه عن عادات الجاهلية، وما كانوا يقترفونه من مجون وشرب خمر، وارتبط قبل البعثة بصداقة قوية مع رسول الله ﷺ، وكان الاتفاق فى الطباع وصفاء النفس من أقوى الروابط بين النبى و "أبى بكر".

وتُجمع مصادر السيرة والتاريخ على أن "أبا بكر" كان أول من أسلم وآمن بالنبى ﷺ من الرجال الأحرار، وكان لسلامة فطرته التى كانت تعاف ما عليه قومه من عبادة الأوثان أثر في تبكيره بالدخول فى الإسلام، وما إن دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم على الفور؛ لثقته بصدق النبى ﷺ وأمانته، يقول النبى ﷺ: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة – تأخر فى الإجابة– إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه – تأخر عنه – حين ذكرته له، وما تردد فيه".

ومنذ أن أسلم وهو يهب نفسه وماله لله ورسوله، فكان يشترى من أسلم من العبيد الذين كانت "**قريش**" تعذبهم، ويعتقهم **كبلال بن رباح**، وكان يذود عن النبى ﷺ بكل ما أوتى من قوة، فيروى "**البخارى**" عن "**عبد الله بن عمرو بن العاص**" قوله: "**رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺوهو يصلى، فوضع رداءه فى عنقه، وخنقه به خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر ﷺ حتى دفعه عنه، فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**". [صحيح البخارى].

ومن أجَلِّ مواقف "أبى بكر" تصديقه للنبى ﷺ فى حادثة **الإسراء**، فحين أخبر النبى ﷺ بذلك أسرعوا إلى "أبى بكر" يخبرونه، ظنا منهم أنه لن يصدق، فقال لهم: "والله لئن كان قاله لقد صدق، فإنى أصدقه فى أبعد من هذا، أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى ساعة من ليل أو نهار"، فلُقب بالصديق من يومئذٍ. واختاره النبى ﷺ – لثقته – به ليرافقه فى رحلة الهجرة دون غيره من الصحابة، ثم لازم النبى بعد الهجرة فى ليله ونهاره، فلم يتخلف عن غزوة من غزواته أو مشهد من مشاهده، وكان مجاهدًا بنفسه وماله حتى وصفه النبى ﷺ بقوله: "**ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه بها، إلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر**".

ومما لاشك فيه أن "أبا بكر الصديق" عند علماء الأمة أفضل المسلمين مطلقًا بعد رسول الله ﷺ، ودليل ذلك أنه جعله أميرًا على الحج فى العام التاسع من الهجرة، وأنابه في الصلاة عند مرضه ، وكان هذا أقوى مرشح له لتولى الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ.

1- سياسة الصديق الداخلية:

أراد الصديق ﷺ أن ينفذ السياسة التي رسمها لدولته واتخذ من الصحابة الكرام أعواناً يساعدونه على ذلك، فأسند إلى **أبي عبيدة بن الجراح شؤون بيت المال**، وتولى **عمر بن الخطاب القضاء**، وتولى **زيد بن ثابت الكتابة**، وأطلق المسلمون على الصديق لقب **خليفة رسول الله**، ورأى الصحابة ضرورة تفريغ الصديق للخلافة، فقد كان أبو بكر ﷺ رجلاً تاجراً يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع فلما استُخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: **السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالا: (انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. ففرضوا له كل يوم شطر شاه، وكانت لا تكفي عياله، فزادوا له بعد ذلك.**

وقد عاش الصديق ﷺ بين المسلمين كخليفة لرسول الله ﷺ، فكانت مواقفه تشع على من حوله من الرعية بالهدى والإيمان والأخلاق.

2- العقبات التي واجهها أبو بكر الصديق بعد توليه الخلافة:

وبعد أن بويع "أبو بكر الصديق" واجه العديد من العقبات، ومنها قراره بإنفاذ جيش "**أسامة**" إلى "جنوبي الشام"، كما أمر به رسول الله ﷺ، وذلك لأن "الصديق" أقدم عليه فى ظروف دقيقة وحرجة، فالعربُ قد ارتدت عن الإسلام، حتى "مكة" نفسها همت بالردة، لولا أن

"**سهيل بن عمرو**" روَّعهم، قائلا: "لماذا ترتدون والنبوة كانت فيكم، والخلافة أصبحت فيكم؟"، وحاولت "الطائف" أن ترتد، فمنع من حدوث ذلك عقلاؤها؛ إذ قالوا لقومهم: لقد كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من يرتد.

أ. إنفاذ أبي بكر الصديق جيش أسامة:

في العام الحادي عشر ندب النبي ﷺ الناس لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، وفيهم كبار المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أسامة رضي الله عنهم ومرض النبي ﷺ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين، فلم يخرج هذا الجيش وظل معسكراً بالجرف، ورجع إلى المدينة بعد وفاة النبي الكريم ﷺ، ولما تولى الخلافة الصديق أمر ﷺ رجلاً في اليوم الثالث بعد وفاة رسول الله ﷺ أن ينادي في الناس: **ليُتم بعث أسامة ﷺ، ألا لا يبيتنَّ في المدينة أحد من جند أسامة ﷺ إلا خرج إلى عسكره بالجرف.**

- ما تمّ بين الصديق والصحابة في أمر إنفاذ الجيش:

وقد اقترح بعض الصحابة على الصديق ﷺ بأن يبقى الجيش فقالوا: **إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب كما ترى -قد انتفضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين،** وأرسل أسامة من معسكره من الجرف عمر بن الخطاب إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال: **إنّ معي وجوه المسلمين وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وحرم رسول الله ﷺ، والمسلمين أن يتخطفهم المشركون.**

ولكن أبا بكر أصر، وخاطب الصحابة قائلاً: **والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ. ولو لم يبقى في القرى غيري لأنفذته.**

وطلبت **الأنصار** رجلاً أقدم سناً من أسامة يتولى أمر الجيش وأرسلوا **عمر بن الخطاب** ليحدث الصديق في ذلك، فوثب أبو بكر ﷺ وكان جالساً وأخذ بلحية عمر ﷺ وقال: **ثكلتك أمك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله.**

ثم خرج أبو بكر وشيعهم، وهو ماش، فقال له أسامة ﷺ: **يا خليفة رسول الله ﷺ: والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله لا تنزل، و والله لا أركب. وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله. ثم قال الصديق ﷺ لأسامة ﷺ : إن رأيت تعينني بعمر ﷺ فافعل، فأذن له.**

ثم توجه الصديق ﷺ إلى الجيش فقال: **يا أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها**

عني: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا (حلقوا) أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله.

وأوصى الصديق أسامة قائلاً: **اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة، ثم إيت آبل، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ ولا تعجلنَّ لما خلَّفت عن عهده، ومضى أسامة رضي الله عنه بجيشه، وبث الخيول في قبائل قضاعة، والغارة على آبل، وكان مسيره ذاهباً وقافلاً أربعين يوماً.**

وقدم بنعي رسول الله على **هرقل** وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبراً واحداً، فقالت الروم: **ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ثم أغاروا على أرضنا.**

وقد ظهرت نتائج سياسة "الصديق" الموفقة، عندما ذهب جيش "أسامة" وحقق ما قصده الرسول ﷺ من أهداف، وعاد محمَّلا بالغنائم، وألقى الرعب والفزع فى قلوب القبائل العربية التى مرَّ عليها فى شمالى شبه الجزيرة العربية وهو فى طريقه إلى الشام.

ب. حركة الردة:

يعد موقف "الصديق" من حركة الردة ومواجهته لها من أروع المواقف فى التاريخ، لأنه آمن إيمانًا عميقًا بانتصار الحق مهما تكن قوة أعدائه، وأظهر تصميمًا على الدفاع عن الإسلام مهما يبذل من جهد.

- **أسباب الردة:**

إن الردة التي قامت بها القبائل بعد وفاة رسول الله ﷺ لها أسباب، منها: **الصدمة بموت رسول الله ﷺ**، كما ترجع إلى **عدم تغلغل الايمان في القلوب لتأخر اسلامهم** وبسبب **قصر الزمن الذي تم فيه تبلغ الدعوة، والحنين إلى الجاهلية ومقارفة موبقاتها، وطبيعة الأعراب المتسمة بالجفاء** مع **ضعف المستوى الثقافي** مما جر إلى **ضعف فقه تعاليم الدين** وخاصة بالنسبة للزكاة التي اعتبرها البعض ضريبة مهينة، واستثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى، **والتكسب بالدين والشح بالمال، والتحاسد**، كما أن **العصبية القبلية** لازالت عميقة في تلك البلاد النائية ووسط نجد حيث ترى القبائل أنها أضخم عددا وعُدة من قريش وبالتالي فهي

أولى **بالزعامة**، وعلى الأقل **لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش**. وقد **ظهر زعماء طموحون تطلعوا إلى القيادة مقلدين الرسول ﷺ في أسلوب العمل والدعوة**، ولم ينتبهوا إلى الفروق الكبيرة بين النبوة الصادقة وانتحالها لأغراض شخصية، ومن هنا كان ادعاء النبوة من قبل زعماء الحركات الانشقاقية، إضافة إلى **المؤثرات الأجنبية كدور اليهود والنصارى والمجوس.**

- **موقف الصديق من المرتدين:**

ولما كانت الردة قام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيباً وقال: **... والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتل شهيداً من أهل الجنة، ويبقى منها خليفته وذريته في أرضه قضاء الله الحق.**

وقوله الذي لا خلف له ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور:55]، وقد أشار بعض الصحابة ومنهم عمر على الصديق بأن يترك مانعي الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم فامتنع الصديق عن ذلك، واحتج عمر بحديث النبي ﷺ: **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله**، فقال أبو بكر: **والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها.** قال عمر: **فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر، فعرفت أنه الحق.**

- **أشهر حركات الردة في عهد أبو بكر الصديق:**

ظهرت العديد من حركات الردة في عهد أبو بكر الصديق في الجزيرة العربية، ومن أشهرها: **ردة الأسود العنسي في حضرموت، وردة مسيلمة الكذاب في اليمامة، وردة طليحة الأسدي في سميراء، وردة سجاح ومالك بن نويرة في بنو تميم، وردة لقيط بن مالك الأزدي في عُمان، وردة المنذر بن النعمان الغرور في البحرين.**

- **المواجهة السلمية:**

أراد "أبو بكر الصديق" أن يبصِّر المرتدين بخطورة ما أقدموا عليه، فواجههم مواجهة سلمية بأن دعاهم إلى العودة بدون قتال إلى الإسلام، الذى أكرمهم الله به، وأرسل إليهم كتابًا

يقرأ على القبائل كلها؛ لعلهم يعقلون، جاء فى أخره: "وإنى بعثت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكف وعمل صالحًا، قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحدٍ منهم قدر عليه، .. ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ... ".

– **الاستعداد العسكرى:**

وفى الوقت الذى كان يأمل فيه أن يستجيب المرتدون، ويعودوا إلى دين الله دون قتال؛ كان يعد أحد عشر جيشًا فى وقت واحد، تغطى المناطق التى ارتد أهلها فى شبه جزيرة العرب، جاهزة للانطلاق إلى كل منطقة؛ ليشغل كل قبيلة بالدفاع عن نفسها فى ديارها، ولا تأخذ فرصة للتجمع والتكتل ضده، وكان هذا تصرفًا بارعًا وحكيمًا من "الصديق".

واختار "الصديق" لهذه الجيوش أمهر القادة وأكثرهم خبرة بالقتال، وهم: "**خالد بن الوليد**"، سيف الله وعبقرى الحرب، وأمره بقتال المرتدين من "**بنى أسد**" و "**غطفان**" وحلفائهم بقيادة "**طليحة بن خويلد**" فى "**بزاخة**"، فإذا انتهى من مهمته توجه لقتال المرتدين من "**بنى تميم**" فى "**البطاح**"، إلى الشرق من ديار "بنى أسد". و"**عكرمة بن أبى جهل**" وأردفه **بشرحبيل بن حسنة**، وأمرهما بالتوجه إلى "**مسيلمة الكذاب**" ومن معه فى "**اليمامة**"، وأمرهما ألا يقاتلاه حتى يأمرهما بذلك، لمعرفة "أبى بكر" بقوة جيش "مسيلمة"، وأنهما لن يقدرا على هزيمته بسهولة، بل يشغلاه حتى يحين الوقت المناسب لإرسال قوات أكبر؛ لمواجهة "**بنى حنيفة**" في جموعهم الكبيرة. و"**العلاء بن الحضرمى**"، وأمره بقتال المرتدين فى "**البحرين**" وما والاها. و"**حذيفة بن محصن**"، وأمره بقتال المرتدين فى "**دبا**" فى جنوبى شرقى شبه الجزيرة. و"**عرفجة بن هرثمة**"، وأمره بقتال المرتدين فى "**مهرة**" في جنوبى شبه الجزيرة. و"**المهاجر بن أبى أمية المخزومى**"، وأمره بقتال المرتدين في جنوبى "**اليمن**". و"**سويد بن مقرن**"، وأمره بقتال المرتدين فى "**تهامة اليمن**" على ساحل "البحر الأحمر". و"**عمرو بن العاص**"، وأمره بقتال قبائل "**قضاعة**" فى الشمال. و"**معن بن حاجز**" وأمره بقتال المرتدين فى "**هوازن**" و "**بنى سليم**". و"**خالد بن سعيد بن العاص**"، وأمره أن يعسكر فى "**تيماء**"، ولا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل.

- **أهم معارك حروب الردة:**

لم يستجب المرتدون لدعوة "أبى بكر" السلمية، فبدأ قادته ينفذون ما عهد إليهم من مهام، وخاض "**خالد بن الوليد**" أول معارك الردة فى "**بزاخة**" ضد المرتدين من "غطفان" و "بنى أسد" وحلفائهم ممن التفوا حول "**طليحة بن خويلد الأسدى**" مدعى النبوة، وكان النصر حليف "خالد"، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة وغنم كثيرًا، وأرسل عددًا من زعمائهم أسرى إلى الخليفة، وفر "طليحة"، وظهر كذبه، ويجدر بالذكرى أن "طليحة" قد أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه في عهد "أبى بكر الصديق"، واشترك فى الفتوحات الإسلامية في "فارس"، فى عهد "عمر بن الخطاب"، وكان له دور بارز فيها.

وبعد ذلك توجه "**خالد بن الوليد**" إلى "**البطاح**" فى "**نجد**" لقتال المرتدين من "**بنى تميم**" بزعامة "**مالك بن نويرة**"، ونجح فى إلحاق الهزيمة بهم، والقضاء على الردة فى بلادهم.

- **معركة اليمامة:**

لقد أرسل أبو بكر "**عكرمة بن أبى جهل**" و "**شرحبيل بن حسنة**" للوقوف فى وجه "**مسيلمة**"، ولم يأمرهما بقتال؛ لكنهما تعجلا مخالفين أوامر الخليفة، واشتبكا مع "مسيلمة" فى حرب لم يصمدا فيها، وعادا منهزمين، ولعلهما أرادا أن يتشبها بخالد بن الوليد حتى يحوزا أكاليل النصر، كما حازها هو. وما إن وصلت أنباء هزيمتهما إلى "أبى بكر" حتى غضب غضبًا شديدًا، وطلب منهما ألا يعودا إلى "المدينة"، وقرر فى الوقت نفسه أن يرسل "**خالد بن الوليد**" إلى "اليمامة" للقضاء على فتنة "مسيلمة"، فهو أصلح الناس لهذه المهمة. وكان "خالد" قد فرغ من القضاء على فتنة المرتدين من "بنى أسد" و "غطفان" و "تميم"، فجاءته أوامر من "أبى بكر" بالتوجه إلى "اليمامة" للقضاء على فتنة "مسيلمة الكذاب".

وامتثل "خالد بن الوليد" لأوامر الخليفة، وسار فى صحراء وعرة نحو ألف كيلو متر، حتى التقى بجيوش "مسيلمة" – وكانت نحو أربعين ألفًا – فى مكان يسمى "**عقرباء**" فى حين كانت قوات "خالد" تبلغ نحو ثلاثة عشر ألفًا، فيهم عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ودارت الحرب بين الفريقين، وكانت حربًا شرسة، اشتدت وطأتها على المسلمين فى البداية، وكادوا ينهزمون، لولا أن زأر "خالد" كالأسد الهصور، ونادى بأعلى صوته "وامحمداه"، وكان شعار المسلمين فى المعركة، فاشتعلت جذوة الإيمان فى القلوب، وهانت الحياة على النفوس، وأقبل المسلمون على القتال دون خوف أو وجل، طمعًا فى النصر أو الشهادة، وصبروا لأعداء الله

حتى هزموهم هزيمة منكرة، وقتلوا "مسيلمة" الكذاب مع نحو عشرين ألفًا من رجاله، واستسلم من بقى من قواته أسرى للمسلمين، واستشهد من المسلمين أكثر من ألف ومائتى رجل، منهم عدد كبير من القراء وحفظة القرآن الكريم.

وحين وصلت إلى المرتدين أخبار انتصارات "خالد" وما فعله في "بنى حنيفة"، وقر فى أذهانهم أن المسلمين لا ينهزمون؛ ولذا كانت مهمة بقية القادة فى المناطق التى توجهوا إليها أقل صعوبة مما واجهه "خالد بن الوليد" فى "اليمامة".

وقبل أن يمضى عام على بدء حركة الردة كان "أبو بكر الصديق" قد نجح فى القضاء عليها فى كل مكان، وعادت شبه الجزيرة العربية موحدة دينيًا وسياسيًا تحت لواء المسلمين وحكومتهم في "المدينة" على ما كانت عليه فى آخر حياة الرسول ﷺ.

ت. الجمع الأول للقرآن فى عهد أبى بكر الصديق:

لقد فزع "عمر بن الخطاب" لاستشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، وبخاصة معركة "اليمامة"، فأشار على "أبى بكر" بضرورة جمع القرآن فى مصحف واحد؛ خشية أن يُستشهد عدد آخر من الحفاظ، فيضيع القرآن، أو يدخله تحريف إذا تباعد الزمن بين نزوله وجمعه، كما حدث للكتب السابقة.

وتردد "أبو بكر" فى بادئ الأمر من اقتراح "عمر"، وقال: "كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ"، فقال له "عمر": "أرى والله أنه خير"، فلم يزل "عمر" بأبى بكر حتى قبل، ثم استدعى "أبو بكر" "**زيد بن ثابت الأنصارى**"، وكلفه بمهمة جمع القرآن، قائلا له: "إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه"، فقبل "زيد" هذه المهمة الثقيلة، وبدأ فى تتبع القرآن، وجمعه من الرقاع والعظام، والعسب (سعف النخل) التى كان مكتوبًا عليها ومن صدور الرجال، وجعل ذلك فى مصحف واحد.

وقد ظل هذا المصحف عند "أبى بكر"، ثم انتقل بعد وفاته إلى "عمر بن الخطاب"، ثم انتقل بعد وفاته إلى ابنته أم المؤمنين "حفصة"، وفى عهد "عثمان" دعت الضرورة إلى جمع الناس على قراءة واحدة، فأخذه "عثمان" منها، ونسخ منه عدة نسخ ووزعها على الأمصار. وهكذا توّج "أبو بكر الصديق" أعماله الجليلة بجمع القرآن.

ث. الفتوحات الإسلامية فى عهد الصديق:

من يتتبع حركة الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية يجد أنها جاءت استطرادًا، وجاءت تحت ضغط الظروف، وأن المسلمين اضطروا إليها اضطرارًا؛ إذ لم يكن لهم برنامج أو خطة معدة من قبل للفتح أو التصادم مع الآخرين؛ لأن نشر الإسلام، وهو الغاية الأولى للمسلمين، لا يتطلب أعمالا حربية أو الدخول فى معارك عسكرية، وكل ما كان يطلبه المسلمون هو أن يفسح لهم الآخرون الطريق ليدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن الفرس والروم لم يعطوا المسلمين هذه الفرصة، فكادوا لهم واعتدوا عليهم، مما اضطر المسلمين إلى خوض الحروب معهم، ورد عدوانهم، وتحقيق الحرية لنشر العقيدة الإسلامية دون عوائق، وليس لنشر العقيدة، والفرق كبير بين المعنيين.

- فتح العراق:

فى أثناء حروب الردة طارد "**المثنى بن حارثة**" المرتدين إلى الشمال، على الساحل الغربى للخليج العربى، فلما وصل إلى حدود "العراق" تكاثرت عليه قوات الفرس، بعد أن رأوا فشل عملائهم من المرتدين فى القضاء على الإسلام فألقوا بثقلهم فى المعارك ضد المسلمين.

ولما رأى "المثنى" أنه غير قادر بمن معه على مواجهة القوات الفارسية، أرسل إلى الخليفة يشرح له الموقف، ويطلب منه المدد، فأدرك الخليفة خطورة الموقف، ورأى أن يردع الفرس ويرد عدوانهم، فرماهم بخالد بن الوليد أعظم قواده، وأردفه بعياض بن غنم.

وفى المحرم من العام الثانى عشر من الهجرة تحرك "خالد بن الوليد" من "اليمامة"، وكان لايزال بها، بعد أن قضى على فتنة "**مسيلمة الكذاب**"، وتوجه إلى "العراق". حيث خاض سلسلة من المعارك ضد الفرس فى خلال عدة شهور، فى "ذات السلاسل"و"المذار"، و"الولجة"، و "أليس"، وهذه أسماء الأماكن التى دارت فيها الحروب، وكان النصر حليفه فيها، ثم توَّج انتصاراته بفتح "الحيرة" عاصمة "العراق" فى ذلك الوقت، واستقر بها فى شهر ربيع الأول من العام نفسه، ثم فتح "الأنبار" و "عين التمر" إلى الشمال من "الحيرة"، ثم جاءته أوامر من "أبى بكر" أن يعود إلى "الحيرة" ويستقر بها إلى أن تأتيه أوامر أخرى.

وخلاصة القول أنه فى خلال بضعة أشهر نجح "خالد" فى فتح أكثر من نصف "العراق"، وصالح أهله على دفع الجزية، ولم يجبر أحدًا على الدخول فى الإسلام".

- **فتح الشام**:

كان "**خالد بن سعيد بن العاص**"، أحد قادة حروب الردة، معسكرًا بقواته فى "تيماء" شمالى "الحجاز" بأمر من الخليفة الذى ألزمه بألا يقاتل أحدًا إلا إذا قوتل، وقصد الخليفة بذلك أن يكون هذا الجيش احتياطيًا، يمد -عند الضرورة - القوات المحاربة فى جهات أخرى، وأن يراقب تحركات الروم؛ لأنه كان على يقين أنهم سوف يستغلون فرصة انشغاله بحروب الردة، ويكرروا عدوانهم.

وحدث ما توقعه "أبو بكر الصديق"، فقد هجم الروم على جيش "خالد"، ومعهم القبائل العربية القاطنة فى الشام، وألحقوا به هزيمة قاسية، وقتلوا معظم جنوده، واستشهد ابنه فى المعركة، فلما وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة "أبى بكر" جمع كبار الصحابة لدراسة الموقف، فاستقر رأيهم على ضرورة صد العدوان، وشرع "أبو بكر" فى حشد أربعة جيوش لتحقيق ذلك: جيش بقيادة "**أبى عبيدة بن الجراح**" وجهه إلى "**حمص**" شمالى الشام. وجيش بقيادة "**يزيد بن أبى سفيان**"، ووجهه إلى "**دمشق**" في وسط الشام. وجيش بقيادة "**شرحبيل بن حسنة**"، ووجهه إلى "**الأردن**". وجيش بقيادة "**عمرو بن العاص**"، ووجهه إلى "**فلسطين**".

وقال "أبو بكر" لقادة جيوشه: إذا عملتم منفردين، فكل واحد منكم أمير على من معه من قوات - وكان مع كل واحد منهم نحو ثمانية آلاف جندى - ثم أمير على المنطقة التى يفتحها، أما إذا ألجأتكم الظروف إلى الاجتماع فى مكان واحد، فالقائد العام "أبو عبيدة بن الجراح".

- **موقعة اليرموك**:

تحرك القادة الأربعة بجيوشهم، فلما دخلوا جنوبى الشام، وجدوا جيشًا روميا، قوامه نحو (250) ألف جندى، بقيادة "**تذراق**" أخى "**هرقل**"، يساندهم نحو ستين ألفًا من العرب - تقريبًا - بقيادة "**جبلة بن الأيهم الغسانى**"، فلم يستطيعوا الالتحام مع هذه الجموع الحاشدة، فدارت بينهم مراسلات تجمعوا بعدها فى وادى "**اليرموك**"، تحت قيادة "**أبى عبيدة بن الجراح**".

لكن تجمعهم لم يؤدِ إلى تحريك للموقف ضد الروم، فأخبروا الخليفة "أبا بكر" بما هم فيه، وطلبوا المدد منه، فرأى أنه لن ينقذ الموقف فى الشام سوى "خالد بن الوليد"، وقال عبارته المشهورة: "**والله لأُنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**"، ثم كتب رسالة إليه: "أما بعد فإذا جاءك كتابى هذا، فدع العراق، وأخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه

وامضِ متخففًا فى أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتى الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك".

وامتثل "خالد" لأوامر الخليفة، وسار من "العراق" فى سبعة آلاف جندى فى واحدة من أجرأ المسيرات العسكرية فى التاريخ وأكثرها خطرًا، حيث قطعوا أكثر من ألف كيلو متر فى ثمانية عشر يومًا، في صحراء قاحلة مهلكة، حتى وصلوا إلى "وادى اليرموك" فتسلم "خالد بن الوليد" القيادة من "أبى عبيدة" وخاض معركة مع الروم تُعد من أعظم المعارك وأبعدها أثرًا فى حركة الفتح الإسلامى.

- **وفاة أبى بكر الصديق**:

قضى "أبو بكر" فى الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام قام فيها بجلائل الأعمال، ونهض بمسئولية قيادة الدولة على خير وجه، وعاش حياته للإسلام وللمسلمين، ووهب حياته لخدمة رعيته، والدفاع عن عقيدتها، دون أن يأخذ أجرًا على تحمله تبعات هذا المنصب الجليل، منصب الخليفة، وعاش مثل بقية رعيته دون أن يمتاز عنهم فى مسكن أو ملبس، بل إنه رد ما خصصه له كبار الصحابة من راتب ضئيل، كى يترك التجارة ويتفرغ لمنصبه.

وفى أواخر شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، فاضت روح "أبى بكر" إلى بارئها بعد مرض استمر أسبوعين، كان سببه الحمى، وتولى بعده **الفاروق** "**عمر بن الخطاب**".

ثانياً: خلافة عمر بن الخطاب (13ـ 23 هـ):

هو "عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبدالعُزى بن رباح"، وأسلم فى العام الخامس من البعثة، وعمره سبع وعشرون سنة، بعد أربعين رجلا، وإحدى عشرة امرأة، أسلموا قبله، وكان قبل إسلامه معاديًا للإسلام شديدًا فى عداوته، لكن الله شرح صدره للإسلام استجابة لدعاء النبى ﷺ له: "**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**".

وعُرف "عمر بن الخطاب" بشخصية قوية، وإرادة لا تلين، وحزم وعزم فى الأمور، وهيبة فى القلوب، وكان سفير "قريش" فى الجاهلية، وهى مهمة تحتاج إلى علم وعقل، وكياسة وحسن تصرف.

وعمل "عمر" فى بداية نشأته بالرعى، ثم عمل فى التجارة إلى الشام وإلى "اليمن"، وكان يحرص على مقابلة ذوى الشأن فى تلك البلاد؛ ليزداد علمًا وخبرة بالحياة، وكان واحدًا من سبعة عشر رجلا من "قريش" يعرفون القراءة والكتابة فى "مكة".

واشتهر "عمر بن الخطاب" أنه كان قوى البنية، طويل القامة، إذا مشى بين الناس أشرف عليهم، كأنه راكب على دابته، أبيض اللون تعلوه حمرة، جهورى الصوت، قليل الضحك، لا يمازح أحدًا، مقبلا على شأنه.

أما صفاته الأخلاقية فهى "الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة والفراسة، والعدل والهيبة، وواضح أن هذه الصفات هى نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة "عمر" الأولى وثقافته، والقيم التى غرسها الإسلام فى نفسه. أما إحساس "عمر" الكامل بمسئوليته قِبَل الرَّعية، فذلك ما لاحاجة بنا إلى التدليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التى ملكت عليه شغاف نفسه، والتى شهد له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فالعقيدة وحدها هى التى تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسى، وهى التى تجعل الإنسان رقيبًا على نفسه فى جميع حركاته وسكناته، ولن تغنى عنها أية رقابة أخرى".

1- عمر والرسول ﷺ:

احتل "عمر بن الخطاب" منذ أن أسلم المكانة التالية لمكانة "أبى بكر الصديق" عند النبى ﷺ، لصفاته العالية التى سبق أن ذكرنا بعضها، ولدعوة النبى ﷺ أن يُعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب، وكانت دعوة ناشئة عن معرفة دقيقة بخصائص الرجل الذى سيكون ثالث ثلاثة فى الإسلام قدرًا ومنزلة.

ومنذ أن أسلم "عمر بن الخطاب"، وهو من أكثر الصحابة ملازمة للنبى ﷺ، حتى إن الصحابة أطلقوا عليه وعلى أبى بكر الصديق: وزيرَى محمد.

وقد اشتهر "عمر" دون غيره من الصحابة بمواقف كثيرة، كان يناقش النبى ﷺ فيها ويعترض عليه فى صراحة، مثل: موقفه من أسرى "بدر"، و "صلح الحديبية" والصلاة على "**عبد الله بن أبى بن سلول**" رأس النفاق، ولم يكن النبى ﷺ يضيق بذلك، بل يسمع برحابة صدر وسعة أفق، ويشجع "عمر" وغيره على إبداء آرائهم دون خوف أو وجل، يعلمهم بذلك حرية الرأى، والمشاركة فى صنع القرار.

وكثير من تلك الآراء التى عارض فيها النبى ﷺ نزل القرآن مؤيدًا لها لفرط إخلاصه لدينه، وشفافية روحه، وقد عدَّ العلماء نحو عشرين موقفًا من هذا القبيل منها: تحريم الخمر، وضرب الحجاب على زوجات النبى ﷺ. وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل "عمر"، منها قوله ﷺ: "**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**".

2- **توليه الخلافة**:

أراد "الصديق" أن يختار المسلمون خليفتهم بأنفسهم دون قيد، وبإرادتهم الحرة بلا تدخل، فقال لهم وهو على فراش المرض: "**إنى قد نزل بى ما ترون، ولا أظننى إلا ميتاً لما بى من المرض، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحلَّ عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى**".

لكنهم طلبوا منه أن يرشح لهم من يراه أهلا لتولى الخلافة بعده، وأقدر على تحمل تبعاتها الجسام، فقبل ذلك، وطلب منهم مهلة حتى ينظر لله ولدينه ولعباده، وبعد تفكير عميق، واستشارة لكبار الصحابة مثل: "عثمان بن عفان" و"على بن أبى طالب"، و"عبدالرحمن بن عوف"، واستقر رأيه على "عمر بن الخطاب".

ولم يكن ترشيح كبار الصحابة "عمر بن الخطاب" للخلافة وتزكيتهم له، بعد "أبى بكر" غريبًا أو مفاجأة، فهم يعرفون قدره ومنزلته، وقد سبق أن ذكرنا تقديم النبى ﷺ "أبا بكر" ليؤم الناس فى الصلاة، ورفضه أن يقوم بهذا "عمر بن الخطاب"، فلما تأخر "أبو بكر" يومًا عن الصلاة، قدَّم "بلال" "عمر بن الخطاب" اجتهادًا منه ليؤم الناس، فلما سمع الرسول "عمر" يقيم الصلاة رفض ذلك، وقال "أين أبو بكر؛ يأبى الله ذلك والمسلمون".

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التصرف التلقائى من "بلال" يدل على أن الصحابة كانوا يعلمون أن أفضل الناس بعد "أبى بكر الصديق" هو "عمر بن الخطاب".

ولم يعترض على ترشيح "عمر" للخلافة إلا عدد قليل من كبار الصحابة، وعللوا ذلك **بغلظته وشدته**، لكن "أبا بكر" **طمأنهم وبين لهم أن ما يجدونه من شدته، إنما هو لله وفى الله، وإنه يشتد لأنه يرانى أحيانًا لينًا، حتى يحدث نوعًا من التعادل، وأنه لو أفضى الأمر – أى الخلافة – إليه لترك كثيرًا مما هو فيه.**

ولا يقلل هذا الاعتراض من سداد رأى "أبى بكر" فى "عمر"، ولا من شأن "عمر" نفسه، بل يدل ذلك على حرية الرأى تجاه الشخصية التى ستلى أمر الخلافة، فلن يضير "عمر" أن نفرًا من ذوى الرأى لم يؤيدوا ترشيحه، بل يكفيه أن أغلب الصحابة أجمعوا على تزكيته، ورضوا به لهذا المنصب الجليل، وهذا ما تسير عليه الآن الأمم الحرة فى اختيار حكامها، فالإجماع ليس شرطًا ضروريًا فى اختيار الحاكم.

اطمأنت نفس "أبى بكر الصديق" بعد أن استشار كبار الصحابة إلى اختيار "عمر بن الخطاب" خليفة من بعده، فأشرف على الناس وهو مريض، وقال: "أترضون بمن أستخلف عليكم؟، فإنى والله ما آلوت من جهد الرأى، ولا وليت ذا قربة، وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا" فقالوا: سمعنا وأطعنا.

وبايع المسلمون "عمر بن الخطاب"، وبذا أصبحت خلافته شرعية. وبعد الفراغ من دفن "أبى بكر الصديق" صعد "عمر بن الخطاب" منبر رسول الله ﷺ، ووقف على درجة أدنى من الدرجة التى كان يقف عليها "أبو بكر الصديق"، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ، وذكر "أبا بكر" رضي الله عنه بكل خير، وقال: "**أيها الناس ما أنا إلا رجل منكم، ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم**"، فأثنى المسلمون عليه خيرًا، وزاد ثناؤهم حين رأوه يرفع بصره إلى السماء ويقول: "**اللهم إنى غليظ فليِّنّى، اللهم إنى ضعيف فقونى، اللهم إنى بخيل فسخِّنى**".

3- الفتوحات فى عهد عمر بن الخطاب:

أ. مواصلة فتح العراق:

بعد أن رحل "خالد بن الوليد" من "العراق" إلى الشام؛ ليتولى قيادة الجيوش فى "اليرموك"؛ تنمَّر الفرس بالمثنى بن حارثة خليفة "خالد" على قيادة الجيش فى "العراق" وبدءوا فى الضغط عليه، فطلب مددًا من "أبى بكر"، الذى كان مشغولاً بحرب الروم.

فلما تأخر رد "الصديق أبى بكر" على "المثنى" جاء بنفسه ليعرف سبب ذلك، فوجد الخليفة على فراش المرض، فلم يستطع أن يكلمه، ولما علم بذلك الخليفة أدرك أن "المثنى" لم يأت إلا لضرورة، فكان أخر كلامه لعمر بن الخطاب أن أوصاه بتجهيز جيش، يرسله مع "المثنى" إلى "العراق"، لصد عدوان الفرس، فعمل "عمر" بوصية "أبى بكر"، وأرسل جيشًا على الفور إلى "العراق" بقيادة "**أبى عبيد بن مسعود الثقفى**".

- موقعة الجسر:

وفى شهر شعبان من سنة 13هـ خاض "**أبو عبيد بن مسعود**" معركة ضد الفرس سميت بموقعة **الجسر**، لأن المسلمين أقاموا جسرًا على "نهر الفرات" لعبور قواتهم البالغة تسعة آلاف جندى، وكان عبورهم النهر خطأ عسكريًا جسيمًا وقع فيه "أبو عبيد"، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه ومنهم "**المثنى بن حارثة**"، الذين نبهوه إلى خطورة ذلك، وأن موقف المسلمين غربى النهر أفضل وضع لهم، وليتركوا قوات الفرس تعبر إليهم، فإذا انتصروا كان عبور النهر إلى الشرق أمرًا سهلا، وإذا انهزموا كانت الصحراء وراءهم يتراجعون فيها، ليعيدوا ترتيب أوضاعهم، لكن "أبا عبيد" لم يستجب لهم، فحلت الهزيمة بالمسلمين على يد القائد الفارسى "**بهمن جاذويه**"، وقُتل "أبو عبيد" نفسه، واستشهد أربعة آلاف مسلم.

- معركة القادسية:

لما وصلت إلى "عمر بن الخطاب" تقارير "المثنى" عن الوضع في جبهة "العراق" عزم على الخروج بنفسه على رأس جيش كبير، لينسى الفرس وساوس الشيطان كما أنسى "خالد بن الوليد" الروم تلك الوساوس، لكن الصحابة لم يوافقوه على رأيه، ورأوا أن الأفضل أن يبقى هو فى "المدينة" يدير أمور الدولة، ويشرف على تجهيز الجيوش، ويختار واحدًا لقيادة الحرب ضد الفرس، فقبل نصيحتهم، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه **بسعد بن أبى وقاص،**

وقالوا عنه: هو الأسد فى عرينه، فاستدعى "سعدًا" وأمَّره على الجيش، فاتجه به "سعد" إلى "العراق" حيث عسكر فى القادسية.

وقبل نشوب المعركة أرسل "سعد" وفدًا إلى بلاط فارس، ليعرض الإسلام على "**يزدجرد الثالث**" أخر ملوكهم، فإذا قبله فسيتركونه ملكًا على بلاده، كما ترك رسول الله ﷺ "باذان" ملكًا على "اليمن"، وإذا رفض الدخول فى الإسلام، فلن يكرهه عليه أحد، ولكن لابد من دفع الجزية دليلا على عدم المقاومة، فإذا امتنع عن دفعها، حاربوه، لأن رفضه دفع الجزية يعنى عزمه على حرب المسلمين، ومنعهم بالقوة من تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس.

وقد رفض الملك عرض المسلمين فى كبرياء وصلف، ثقة منه بقدرة جيوشه بقيادة "**رستم**" على سحق هؤلاء العرب، وعاد الوفد إلى "**سعد بن أبى وقاص**" وقصوا عليه ما حدث، فاستعد هو للمعركة الحاسمة. وفى "**القادسية**" دارت رحى الحرب بين الفريقين، واستمرت ثلاثة أيام ونصف اليوم الرابع، وأسفرت عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للفرس، وقتل قائدهم "**رستم**"، وتشتيت من نجا منهم من القتل.

وتُعد معركة "القادسية" من المعارك الفاصلة فى التاريخ؛ لأنها حسمت أمر "العراق" العربى نهائيا، وأخرجته من السيطرة الفارسية التى دامت قرونًا، وأعادته إلى أهله العرب المسلمين.

- فتح المدائن:

انفتح الطريق أمام المسلمين بعد انتصارهم فى "القادسية" إلى "المدائن" عاصمة الفرس، فعبر "سعد" نهر "دجلة" من أضيق مكان فيه بنصيحة "**سلمان الفارسى**"، ودخل "المدائن"؛ ليجد الملك الفارسى قد فرَّ منها، وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمين ويتوعدهم من قصره الأبيض، مقر ملك الأكاسرة، الذى كان آية من آيات الفخامة والبهاء.

وفى ذلك القصر صلى "سعد ابن أبى وقاص" صلاة الشكر لله على هذا الفتح العظيم وتلا فى خشوع قول الله تعالى: ﴿**كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قومًا آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾. [الدخان: 25 – 29].

وأرسل "سعد" إلى "عمر بن الخطاب" رسولا يبشره بالنصر وبما حازوه من غنائم، ويطلب منه السماح لهم بمواصلة الفتح فى بلاد فارس، لكن "عمر" رفض ذلك، وقال له:

"وددت لو أن بيننا وبينهم سدًا من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد – أى أرض العراق– إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال".

– معركة نهاوند:

اعتقد "عمر بن الخطاب" أن الفرس سيجنحون إلى السلام بعد هزيمتهم فى "القادسية"، واسترداد المسلمين "العراق" وهى أرض عربية، لكن الحوادث كثيرًا ماتكون أقوى من الرجال، وتدفعهم دفعًا إلى تعديل سياساتهم، فقد وردت الأنباء إلى "عمر" أن الفرس التفوا حول ملكهم الذى هرب من "المدائن"، واحتشدوا فى جموع هائلة في "نهاوند" تصل إلى نحو مائتى ألف جندى بقيادة "**الفيرزان**".

وكانت سياسة "عمر بن الخطاب" أن يقف بالفتوحات الإسلامية عند حدود "العراق" و "الشام"، ولايتعداها، حيث قبائل العرب التى نزحت من شبه الجزيرة العربية وأقامت هناك، أما ما وراء ذلك من أرض الفرس والروم فلم يكن للمسلمين مطمع فى غزوه وفتحه، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد حملت حوادث الفتوحات وتطوراتها "عمر بن الخطاب" على تعديل سياسته تجاه الفرس والروم.

ولما وصلت أخبار استعداد الفرس جمع "عمر" كبار الصحابة واستشارهم فى كيفية مواجهة هذا الموقف، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس قبل أن ينقضوا على المسلمين فى بلادهم، فعمل بمشورتهم، وجهز جيشًا قوامه نحو أربعين ألف مجاهد تحت قيادة "**النعمان بن مقرن**".

ودارت معركة "**نهاوند**"، وانتهت بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للفرس، وقد سمى المؤرخون المسلمون هذ النصر "فتح الفتوح"، لأن الفرس قد تفرقت كلمتهم، وانفرط عقد دولتهم بهذا النصر.

– الانسياح فى بلاد فارس:

كانت معركة "نهاوند" من المعارك الفاصلة فى التاريخ، فقد أزالت نهائيًا الإمبراطورية الفارسية بعد معركتى "القادسية" و "نهاوند"، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

وبعد "نهاوند" عقد "عمر بن الخطاب" العزم على القضاء تمامًا على التهديد الفارسى للدولة الإسلامية ودعوتها، فأعد تسعة جيوش في وقت واحد، لفتح جميع المقاطعات الفارسية، من"خراسان" في أقصى الشمال الشرقى إلى إقليم "فارس" فى الجنوب الغربى، ومن "أذربيجان"

فى الشمال الغربى إلى "مكران" فى الجنوب الشرقى، وفى خلال سنة (22هـ) كانت تلك المقاطعات كلها تحت السيادة الإسلامية، ولم يجبر المسلمون أحدًا من سكانها على الدخول فى الإسلام، وإنما قبلوا منهم الجزية، وأعطوهم معاهدات، ضمنوا لهم بمقتضاها حرية العبادة، وحفظوا لهم أنفسهم وأموالهم.

وبدأ تاريخ جديد لبلاد فارس، ذاقت فيه طعم الحرية والعدل؛ وعرفت معنى المساواة، وتحررت من استبداد الأكاسرة وظلمهم.

ب. استكمال فتح الشام:

بعد تولى "عمر بن الخطاب" الخلافة عزل "خالد بن الوليد" من قيادة جيوش الشام، وأعاد "أبا عبيدة بن الجراح" إليها، وجعل "خالداً" تحت قيادته، وقد قبل القائد البطل هذا التعديل دون تذمر، لأنه كان جنديًا يعمل للإسلام لا لمجده الشخصى، وإذا كان قد احتل المكان الأعلى بين قادة الفتوحات ببطولاته وانتصاراته، فإنه اعتلى ذروة أعلى بقبوله العزل، وضرب أروع الأمثلة فى الانضباط والطاعة، وتلك أهم صفات القادة العظام.

وكانت تعليمات "عمر" لأبى عبيدة بعد "اليرموك"، أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل فى مطلع فتح الشام، حين رتب ذلك "أبو بكر الصديق"، فيسير "أبو عبيدة" ومعه "خالد بن الوليد" إلى "حمص"، و "يزيد بن أبى سفيان" إلى "دمشق"، و "شرحبيل بن حسنة" إلى "الأردن"، و "عمرو بن العاص" إلى "فلسطين"، وكل قائد يكون أميرًا على منطقته التى يفتحها، على أن يكون ذلك بعد أن يشتركوا جميعًا فى فتح "دمشق".

وبعد أن نجح القادة جميعهم فى فتح "دمشق" وأعطوا أهلها معاهدة صلح بقى "يزيد بن أبى سفيان" أميرًا عليها، فى حين اتجه القادة الباقون إلى مناطقهم، وفى خلال عامين فقط تم فتح الشام كله.

وفى سنة(15هـ) جاء "عمر ابن الخطاب" إلى "**فلسطين**"؛ ليتسلم مفاتيح "بيت المقدس" من البطريرك "**صفرونيوس**"، وأعطى معاهدة لأهلها هى آية فى التسامح والعدل، أمنهم على عقائدهم وأموالهم وأنفسهم، وأخذت منهم نظير ذلك الجزية لرفضهم الدخول في الإسلام.

وقد رفض "عمر بن الخطاب" أن يصلى فى "كنيسة القيامة"، معللاً ذلك بخوفه أن يأتى من المسلمين من يقول: لقد صلى "عمر" في الكنيسة فهى من حقنا، وهذا ظلم للمعاهدين لا يقره عمر.

ت. فتح مصر:

بعد فتح "بيت المقدس" اتجه "عمر" إلى الشمال، وعقد في "الجابية" جنوبى "دمشق" مؤتمرًا حضره جميع القادة المسلمين، ناقش فيه ماتم إنجازه والترتيبات اللازمة لإدارة البلاد المفتوحة إدارة حسنة، والعمل على إشاعة العدل والحرية بين الناس بعد الظلم والاستبداد والاستعباد الذى ذاقوه من الروم. وفى هذا المؤتمر عرض "عمرو بن العاص" والى "فلسطين" على "عمر بن الخطاب" ضرورة فتح "مصر"، لأن فلول قوات الروم في "الشام" لجأت إلى "مصر" التى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الروم، كما لجأ "**الأرطبون**" قائد قواتهم فى فلسطين إلى "مصر"؛ ليستعد من جديد للانقضاض على المسلمين فى الشام، ولذا فإن بقاء "مصر" فى أيدى الروم سيكون خطرًا على فتوحات المسلمين في الشام، بل قد يصل الخطر إلى شبه الجزيرة العربية نفسها.

ولما اقتنع "عمر بن الخطاب" بما أبداه "عمرو بن العاص" أذن له بالسير إلى "مصر" لفتحها، فخرج فى أربعة آلاف جندى، ودخل "العريش" دون قتال، ثم توجه إلى "**الفرما**" (مدينة قديمة شرقى "بور سعيد") ففتحها بعد معارك يسيرة مع حاميتها الرومية، ثم توجه إلى "**بلبيس**" فى محافظة "الشرقية" الحالية، فهزم جيشًا روميا كان يقوده " **الأرطبون**"، ثم هزم الروم مرة أخرى فى "عين شمس". ولما تجمعت قوات الروم كلها فى "**حصن بابليون**" بالقرب من "مصر القديمة" الحالية؛ طلب "عمرو" مددًا من الخليفة "عمر"، فأمده بثمانية آلاف جندى، مكنته من فتح الحصن والاستيلاء عليه، ثم اتجه إلى "الإسكندرية" ففتحها، وأرسل فرقة من قواته لفتح "الفيوم".

وفى نحو "عامين" (19-21هـ) فتُحت "مصر" بأكملها، وكان فتحًا سهلا ويسيرًا، لأن القبط لم يشتركوا فى معارك ضد المسلمين، بل ساعدوهم وقدموا لهم يد العون، فدلوهم على أيسر الطرق، وأمدوهم بالطعام، تخلُصًا من حكم الروم الذين اضطهدوهم دينيا، مع أنهم مسيحيون مثلهم، وأرهقوهم بالضرائب، واستغلوهم أبشع استغلال.

ولما تعامل أهل "مصر" مع الفاتحين المسلمين أدركوا أن ما سمعوه كان حقيقة، فقد منحوهم الحرية الدينية الكاملة، وأعادوا بطريركهم "بنيامين" إلى كنيسته بالإسكندرية، وكان الروم قد نفوه إلى "وادى النطرون"، وقد حفظ الرجل هذا العمل الجليل لعمرو بن العاص، فعاونه كثيرًا فى إدارة "مصر" إدارة حسنة.

وقد عمل المسلمون بوصية رسول الله ﷺ التى أوصاهم فيها بأهل "مصر" خيرًا عندما يفتحونها؛ لأن لهم ذمة ورحمًا، كما نصحهم أن يتخذوا منها جندًا كثيفًا، فأجنادها من خير أجناد الأرض، لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة.

4- عمر وإدارة الدولة:

لقد ضبط عمر بن الخطاب نظم الدولة الإسلامية، وكانت مترامية الأطراف، وأحكم إدارتها بمقدرة فائقة تثير الدهشة والإعجاب، فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال بطيئة تمامًا.

أ. عمر واختيار الولاة:

استعان "عمر بن الخطاب" برجال يديرون شئون الولايات البعيدة عنه، أما القريبة منه فكان يديرها بنفسه، وكان لعمر بن الخطاب طريقة فى اختيار ولاته، فلم يكن يستعمل أحدًا من أهل بيته، وقلما استعمل كبار الصحابة على الأمصار، بل استبقاهم معه فى "المدينة" ليعينوه فى شئون الدولة، ويقدموا له المشورة، **ومن أهم شروط "عمر" فى الوالى:**

- **القوة والأمانة:** والمقصود بالقوة قوة الدين، وقوة الإرادة والحزم فى الأمور، ومن أقواله المأثورة: "**إنى لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه**".
- **الهيبة مع التواضع:** أدرك "عمر بن الخطاب" حاجة ولى الأمر إلى الهيبة واحترام الناس، حتى يستطيع أن يقودهم، ولكن لا ينبغى لها أن تتجاوز الحد لتصبح تسلطًا وتعاليًا، وكان يقول: "**أريد رجلا – أى واليًا – إذا كان فى القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم**".
- **الرحمة بالناس:** كان "عمر" يختار للولاية من اشتهر بالرحمة ولين الجانب وحب الخير للناس، وحين كان يولى أحدًا يكتب له كتاب تولية، ويشهد عليه بعض الصحابة، ويشترط عليه ألا يظلم أحدًا فى جسده ولا فى ماله، ومن وصاياه لعماله: "**ألا وإنى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يهتدى بكم فادرءوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولاتغلقوا الأبواب دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم، ولا تجهلوا عليهم**".

ب. قواعد العمل بالنسبة إلى العمال والولاة:

لم يكن "عمر" يقنع بحسن اختيار الولاة وفق شروطه، وإنما كان يحدد لهم أسلوب العمل، والقواعد التى يسيرون عليها، إما في صورة خاصة محددة كما كان يحدث فى عهد

الولاية، وإما في توجيهات عامة كما فى المؤتمرات التى كان يعقدها للعمال والولاة، وبخاصة فى موسم الحج.

ت. المتابعة:

فطن "عمر بن الخطاب" إلى فاعلية المتابعة، وأثرها فى حسن سير الإدارة، ولذا لم يكتفِ بالتدقيق فى اختيار الولاة، وإنما وضع عليهم العيون والأرصاد، يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم، ويسجلون أعمالهم وينقلونها إلى الخليفة فور وقوعها.

ث. سياسة الباب المفتوح:

أدرك "عمر بن الخطاب" أن آفة الإدارة فى كل عصر هى احتجاب كبار المسئولين عن أصحاب الحاجات فتضيع مصالح الناس أو تتعطل، ولذا لم يكن يتهاون مع أى أمير أو والٍ يسمع أنه يحتجب عن الناس مهما يكن شأنه، وقد أرسل إليه "**محمد بن مسلمة الأنصارى**"، وكان مبعوث "عمر" فى المهمات الكبيرة، وأمره أن يحرق ذلك الباب الذى يحول بين الأمير وبين الناس، وأن يقدم بسعد معه، فلما قدم عليه وبخه ولم يقبل اعتذاره بأن داره قريبة من السوق وأنه كان يتضايق من ارتفاع أصوات الناس وجلبتهم، ثم رده إلى عمله بعد أن أكد عليه ألا يعود إلى مثل هذا أبدًا.

ج. المؤتمرات العامة:

لقد ابتكر "عمر" عقد المؤتمرات العامة لمناقشة أمور الدولة، حتى يتيح لأكبر عدد من المسلمين المشاركة فى صنع السياسة والقرار بالحوار والمشاورة، فاهتدى إلى استثمار مناسبة الحج، وتجمع الناس في البلد الحرام، وقرر أن يحج كل عام، وأن يحج معه كل ولاة الأمصار، وهناك يدور النقاش والحساب مع الولاة عما صنعوا فى عامهم الذى مضى، وما ينوون عمله فى العام القادم، وفوق ذلك تكون تقارير عيونه بين يديه قبل مجيء الولاة، بحيث تكون أمورهم كلها واضحة، ولا يستطيع أحد منهم أن ينكر شيئًا، ولما كانوا يعرفون ذلك فإنهم حرصوا على أن تكون سجلات أعمالهم نظيفة، فالخليفة لا يتهاون فى حساب المقصر أو من تثبت عليه مخالفة لشرع الله.

ح. محاسبة الولاة والأمراء:

دأب "عمر بن الخطاب" على محاسبة كل والٍ مقصر، أو من يشتبه أنه قصر فى عمله، لا يمنعه من ذلك كون الوالى كبير القدر أوصاحب سابقة فى الإسلام، وقلما نجا والٍ

من ولاته من المحاسبة، وإذا كان الجرم صغيرًا يمكن إصلاحه؛ اكتفى بالتوبيخ، ورد الوالى إلى عمله.

خ. القدوة الحسنة:

أدرك "عمر" أثر القدوة فى سياسة الناس، وأن عليه أن يعلم الناس بأعماله قبل أن يعلمهم أقواله. وكثيرًا ما كان يردد للناس قوله: "**سأسوكم بالأعمال وليس بالأقوال، وأن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا**".

وكان "عمر" قدوة فى حياته الخاصة، يعيش كما يعيش عامة الناس دون تميز، وحين فرضوا له عطاءً (راتبًا) من بيت مال المسلمين، ليعول منه أسرته قدروا له راتبًا يمكنه من معيشة رجل من أوسط الناس، لا أغناهم ولا أفقرهم. وفوق ذلك هو يشارك المسلمين ويواسيهم إذا أصابهم ضر.

وقد حرص "عمر" على أن يجعل من أبنائه وأهله قدوة كذلك، فأخذهم بما أخذ به نفسه، لأنه الناس ينظرون إليهم، وكان يقول لهم إذا عزم على أمر يهم المسلمين: "لقد عزمت على كذا وكذا، أو نهيت الناس عن كذا وكذا، وأقسم بالله لو خالفنى أحد منكم لأضاعفن له العقوبة".

بهذه الإجراءات حصن "عمر" نفسه وأولاده وكل من يلوذون به ضد أية انحرافات أو إغراءات، فأطاعه المسلمون وأحبوه سواء أكانوا أمراء أم من عامة الناس، ولم يعرف التاريخ رجلا بعد رسول الله ﷺ و "أبى بكر الصديق" أطاعه كبار الأمراء وصغارهم كما أطاعوا "عمر بن الخطاب"، لا لهيبته فى عيونهم فحسب، بل للقدوة الحسنة فى حياته وانضباطه الشديد، ولهذا كله احتل مكانة عالية فى التاريخ الإنسانى.

5- عدل عمر بن الخطاب:

لم ترتبط صفة من صفات "عمر" الكثيرة باسمه كما ارتبطت به صفة العدل، فإذا ذُكر "عمر" ذكر الناس عدله، الذى كان لا يفرّق بين قريب وبعيد، أو كبير وصغير، أو صديق وعدو، والأخبار المتواترة فى ذلك أكثر من أن تحصى، وامتد عدل "عمر" ليشمل كل من يعيش على أرض الإسلام، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فحين رأى يهوديا يتسول أحزنه ذلك. وأخذ الرجل من يده، وأعطاه معونة عاجلة من بيت الدقيق، وأمر له براتب دائم من بيت مال المسلمين.

6- **إحساسه بالمسئولية:**

بلغ من شدة إحساس "عمر" بالمسئولية أنه لم يكتفِ بأن يكون مسئولا عن حياة البشر الذين يعيشون فى دولته، بل مسئولا عن البهائم والدواب أيضًا. وذلك فى مقولته الشهيرة: "والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسئولا عنها أمام الله، لماذا لم أعبد – أسوى – لها الطريق".

وأعمال "عمر" العظيمة من الفتوحات واستكمال بناء الدولة ومؤسساتها لم تشغله عن متابعة أحوال الناس وتفقدها؛ ليقف على أوجه النقص ليتلافاها أولا بأول، فكان كثير الطواف ليلا بالمدينة، وسمع ذات ليلة طفلا يبكى بكاء مستمرا، فسأل عن أمره، فعرف أن أمه منعت عنه الرضاع، لأنه لا يُفرض عطاء من بيت المال إلا للأطفال المفطومين، فانزعج "عمر"، وأصدر أوامره أن يفرض عطاء لكل مولود فى الإسلام، ونادى مناديه: لا تعجلوا فطام أولادكم.

7- **عمر والقضاء:**

عندما بويع "أبو بكر" بالخلافة شكى لعمر من كثرة أعبائها وخوفه من عدم النهوض بكل مسئولياتها، فقال له "عمر": "**أنا أكفيك القضاء وأبو عبيدة يكفيك الأموال**"، ومعنى ذلك أن "عمر" كان قاضيًا لأبى بكر.

وفى عهد "عمر" اتسعت الدولة، واحتاج كل إقليم إلى قاضٍ، فعين "عمر" القضاة وكان يدقق فى اختيارهم، فعين: "**شريح بن الحارث الكندى**" على قضاء "الكوفة"، و "**أبا الدرداء**" على قضاء الشام، و "**عثمان بن قيس**" على قضاء "مصر".

ولم يكن "عمر" فى حاجة إلى سن قوانين للقضاة، لأنهم يحكمون طبقًا لكتاب الله وسنة رسوله، ولكنه كان فى حاجة إلى تعليمهم كيف يتصرفون حين يلتبس الأمر عليهم.

ومن أعظم وصاياه للقضاة وصيته لأبى موسى الأشعرى، ومما جاء فيها: "**آس – أى سوِّ بين الناس فى مجلسك ووجهك – حتى لا يطمع شريف فى حيفك – ظلمك – ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرَّم حلالا أو حلل حرامًا** .. ".

8- إصلاحات عمر بن الخطاب وإنشاءاته:

لعمر بن الخطاب كثير من الإصلاحات والإنشاءات التى لم يُسبق إليها، وسماها مؤرخو سيرته "أوليات عمر"، فهو **أول من سُمى أمير المؤمنين، وأول من اتخذ حادث الهجرة مبدأ التاريخ للدولة الإسلامية**، بعد أن استشار فى ذلك كبار الصحابة، وهو **أول من اتخذ بيت المال**، وهو يشبه خزانة الدولة، **وأول من مصَّر الأمصار**، أى بنى مدنًا جديدة كالبصرة و "الكوفة" فى "العراق"، و "الفسطاط" – حى مصر القديمة حاليا – فى "مصر"، **وأول من وسَّع مسجد رسول الله ﷺ**، وأدخل فيه دار "العباس بن عبد المطلب"، وفرشه بالحصباء، أى الحجارة الصغيرة، وكانوا قبل ذلك يصلون على التراب.

وهو **أول من دوَّن الدواوين**، وهى تشبه الوزارات فى الوقت الحاضر، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس والروم، فأنشأ "**ديوان العطاء**"، وكان مختصًا بالعطاء الذى فرضه "عمر" للمسلمين، وأنشأ "**ديوان الجند**"-وزارة الدفاع حاليًا- و"**ديوان الخراج**" -وزارة المالية – و"**نظام البريد**" الذى كان يُستخدم فى أمور الدولة.

ومن أعظم اجتهاداته إبقاؤه الأرض المفتوحة فى أيدى أهلها يزرعونها، ويدفعون خراجًا -إيجارًا – للدولة، تنفق منه على الجيش والمرافق العامة، كما أمر بإعادة مسح الأرض- أى قياسها واختبارها – ووضع الخراج المناسب عليها. حسب جودة الأرض.

وهو **أول من قنن الجزية على أهل الذمة**، فوضع على الأغنياء ثمانية وأربعين درهما للفرد الواحد فى السنة، وعلى متوسطى الحال أربعة وعشرين درهمًا، وعلى الفقراء القادرين على الكسب اثنى عشر درهمًا، وأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين والعاجزين عن الكسب، وقد سبق القول إنه فرض للعاجزين عن الكسب من أهل الذمة عطاءً من بيت المال.

وكما ترك "عمر بن الخطاب" الأرض لأهلها يزرعونها؛ ترك معظم الدواوين – وبخاصة "**ديوان الخراج**" – فى أيدى أبناء البلاد المفتوحة يزاولونها بلغاتها، ولاشك أن ترك تلك الأعمال فى أيدى أبناء البلاد المفتوحة كان مبعث ارتياح لهم، فاطمأنوا للحكم الإسلامى، بل أخذوا يعتنقون الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية.

9- استشهاده:

وفى يوم الأربعاء الموافق 26 من شهر ذى الحجة سنة 23هـ وبينما "عمر بن الخطاب" يسوِّى صفوف المسلمين فى صلاة الفجر كعادته كل يوم، وبدأ ينوى مكبرًا للصلاة، إذا **بأبى لؤلؤة المجوسى** يسدد للخليفة عدة طعنات بخنجر مسموم، فقطع أمعاءه، وسقط مغشيًا عليه، واضطرب المسلمون فى الصلاة اضطرابًا شديدًا من هول المفاجأة، وأقبلوا على القاتل محاولين القبض عليه، لكنه أخذ يضرب شمالا ويمينًا بدون هدى، فأصاب اثنى عشر من الصحابة، مات ستة منهم، ثم أتاه رجل من خلفه وألقى عليه رداءه وطرحه أرضًا فلما أيقن "أبو لؤلؤة" أنه مقبوض عليه لا محالة، طعن نفسه بالخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين، ومات على الفور قبل موت الخليفة نفسه ومات معه السر الخفى الذى دفعه إلى هذه الجريمة البشعة.

وحمل المسلمون الخليفة إلى بيته، وظل فاقد الوعى فترة طويلة، فلما أفاق كان أول سؤال سأله للمسلمين: هل صليتم الصبح؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله، لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم سأل: من الذى قتلنى؟ قالوا: "أبو لؤلؤة" غلام "**المغيرة بن شعبة**". قال: الحمد لله الذى جعل منيتى على يد رجل كافر، لم يسجد لله سجدة واحدة يحاجنى بها عند الله يوم القيامة.

- المؤامرة:

كان "**أبو لؤلؤة**" غلامًا مجوسيا، أُسِرَ فى معركة "نهاوند"، ووقع من نصيب المغيرة بن شعبة، وكان يجيد حرفًا كثيرة كالحدادة والنجارة، وكان سيده يتركه يعمل ويأخذ منه درهمين فى اليوم، فاشتكى إلى أمير المؤمنين "عمر" مستكثرًا الدرهمين، فسأله "عمر" عن صناعته، فأخبره، فقال: لا أرى ذلك كثيرًا، وكانت تلك المهن رائجة فى ذلك الوقت وتدرُّ عليه مالا وفيرًا، فحقدها العبد المجوسى وعزم على قتله.

وهذا هو السبب الظاهر الذى روته كتب التاريخ والسير، لكنه لا يقنع وحده بارتكاب جريمة خطيرة كهذه، فالأمر أكبر من ذلك وأبعد مدى، ووراءه تدبير واسع ومؤامرة محكمة نُسجت خيوطها فى بلاد فارس وكان فيها "أبو لؤلؤة" أداة تنفيذ فحسب، وكان هو مستعدًا بتكوينه للقيام بها، فقد رُوى عنه أنه كان كلما رأى أسرى بلاده فى "المدينة"، يقول: "أكل عمر كبدى"، لأن "عمر" هو الذى أزال دولة الفرس وأنزل الأكاسرة من على عروشهم.

ولم تكن الجريمة فارسية فقط باشتراك "**أبى لؤلؤة**"، و"**الهرمزان**" الذى كان أميرًا فارسيا وأُسِرَ فى إحدى الحروب وجاء إلى "المدينة" وأظهر الإسلام، بل كانت يهودية باشتراك "**كعب الأحبار**"، ونصرانية باشتراك "**جفينة**".

وكان "**كعب الأحبار**" يهوديا ادعى الإسلام، جاء إلى "عمر" قبل طعنه بثلاثة أيام، وقال له: يا أمير المؤمنين اعهد – أى اختر لك خلفًا يعقبك فى الحكم – فإنك ميت بعد ثلاثة أيام، فتعجب "عمر" وسأله كيف عرفت ذلك؟ قال: أجده فى التوراة، فقال "عمر": يا سبحان الله! هل تجد "عمر بن الخطاب" مذكورًا فى التوراة، قال: أجدك بصفتك. لكن "عمر" لم يعط لهذا الحديث اهتمامًا.

أما "**الهرمزان**" و "**جفينة**" فأمرهما أوضح من أمر "كعب الأحبار"، واشتراكهما فى الجريمة لا لبس فيه، فقد شهد "عبدالرحمن بن عوف" أنه رأى الخنجر الذى طُعِن به "عمر" مع "الهرمزان" و "جفينة" في اليوم السابق ليوم الجريمة، وسألهما ماذا يصنعان به؟ فقالا: نقطع به اللحم، وشهد "**عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق**" أنه مرَّ فى الليلة التى طعن "أبو لؤلؤة" "عمر" فى صبيحتها فى أحد طرق "المدينة"، فوجد "**أبا لؤلؤة**" **و** "**الهرمزان**" **و** "**جفينة**" يتناجون – يتحدثون سرا – فلما طلع عليهم فجأة، قام "أبو لؤلؤة" مرتبكًا، فسقط منه الخنجر نفسه الذى طعن به "عمر".

ومما يؤكد أن قتل "عمر بن الخطاب" كان مؤامرة انتحار "أبى لؤلؤة" نفسه، فليس هناك رجل يقدم على عمل كهذا من أجل بضعة دراهم، حتى لو رأى أن "عمر" لم ينصفه، فقد كان بإمكانه أن يعاود الشكوى ويأخذ حقه، ولكن العبد المجوسى مُلئ حقدًا، وأوعز عليه فأقدم على جريمته إقدام من يؤمن بأنه يقوم بعمل بطولى يستحق أن يدفع من أجله حياته.

10- تفكير عمر فى أمر الخلافة ووفاته:

أيقن "عمر بن الخطاب" بعد طعنه أنه لم يبق من عمره سوى ساعات، وكذلك أيقن المسلمون، ولذا ألحوا عليه أن يختار لهم من يخلفه فيهم، فرشَّح لهم ستة من الصحابة، هم بقية العشرة المبشرين بالجنة، يختارون من بينهم واحدًا للخلافة، ومع أن ابن عمه "**سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل**" واحد من العشرة المبشرين بالجنة، فقد استبعده من الترشيح، خوفًا أن يقع عليه الاختيار لقرابته منه، كما استبعد ابنه "**عبد الله**" من الترشيح تمامًا، بل رد على من اقترح

عليه ترشيحه ردا قاسيًا، إبعادًا لشبهة الوراثة عن نظام الحكم الإسلامى، وجعل الأمر فى يد الأمة تختار الأصلح ليتولى أمرها.

قال "عمر" لهم: "عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة، **سعيد بن زيد بن عمرو** بن نفيل منهم، ولست مدخله فيهم، ولكن الستة، هم: "**على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله**".

واهتم "عمر" وهو فى تلك الحال بأمر دفنه، وطلب أن يُدفن إلى جوار الرسول ﷺ و"أبى بكر الصديق" ﷺ فى بيت "عائشة"، لينعم بصحبته فى الآخرة كما نعم بها في الدنيا، فأرسل ابنه "عبد الله" إلى "عائشة" – رضى الله عنهما – وقال له: قل لها: "عمر" يقرأ عليك السلام ويستأذنك فى أن يُدفن مع صاحبيه، فأتاها "عبد الله" فوجدها تبكى، فسلم عليها، ثم قال لها ما أمره به أبوه، فقالت: "كنت والله أريده لنفسى – أى المكان – ولأوثرنه به اليوم على نفسى"، فلما رجع "عبد الله"، وأخبر أباه أن "عائشة" أذنت له، تهلل وجهه، وقال: الحمد لله ماكان شيء أهم إلى من ذلك المضجع.

وفى اليوم التالى لطعنه أى يوم الخميس الموافق 27 من ذى الحجة سنة 23هـ فاضت روح "عمر" بعد أن قضى فى الخلافة عشر سنوات وبضعة شهور، وكُفن فى ثلاثة أثواب أسوة بكفن رسول الله، وصلى عليه "**صهيب الرومى**" ﷺ وكان "عمر" قد أمره أن يصلى بالناس بعد طعنه، ودُفن مع رسول الله ﷺ و "أبى بكر الصديق".

ثالثاً: خلافة عثمان بن عفان (24 – 35هـ):

هو "عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف"، ولِد بعد "**عام الفيل**" بست سنوات (576م)، ويلتقى فى نسبه من جهة أمه وأبيه مع النبى ﷺ فى "عبد مناف"، وكان ربعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، حسن الوجه أبيض مشربًا بحمرة، غزير الشعر يكسو ذراعيه شعر طويل، طويل اللحية، ومن أحسن الناس ثغرًا.

وقد أجمعت المصادر التى أرخت له على وصفه بسماحة النفس، ورقة المشاعر، وكان رضى الخلق، كريمًا، شديد الحياء، صوَّامًا قوَّامًا، محبوبًا من الناس فى جاهليته وإسلامه.

1- إسلامه:

أسلم "عثمان" مبكرًا، وكان الذى دعاه إلى الإسلام هو "أبو بكر الصديق"، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه بعد إسلام "أبى بكر" مباشرة، ولذا كان يقول: "إنى لرابع أربعة فى الإسلام بعد "**أبى بكر**" و "**خديجة**" و "**زيد بن حارثة**"، وحرص عثمان على إسلامه أشد الحرص، على الرغم من الضغوط التى تعرض لها، فعندما علم عمه "**الحكم بن أبى العاص**" بإسلامه أوثقه بالحبال، وقال له: "ترغب عن دين آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أدعك حتى تدع ما أنت فيه" فأجابه "عثمان": "والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه".

2- مصاهرته للرسول ﷺ:

تزوج "عثمان بن عفان" من ابنتى رسول الله ﷺ، فتزوج "**رقية**"، وظلت معه حتى تُوفيت يوم انتصار المسلمين في غزوة "بدر"، ولهذا لم يحضر "عثمان" "**بدرًا**"، لأن الرسول ﷺأمره بالبقاء معها لتمريضها، وقد عده النبى ﷺ من البدريين رغم غيابه عن المعركة، وفرض له في غنائمها، ثم زوجه النبى ﷺابنته "**أم كلثوم**"، ولهذا لُقب **بذى النورين**، فلما توفيت فى العام التاسع من الهجرة؛ حزن "عُثمان" حزنًا شديدًا؛ لانقطاع مصاهرته للنبى ﷺ، فواساه مواساة رقيقة قائلا: "لو كانت لنا أخرى لزوجناكها يا عثمان".

3- عثمان مع النبى ﷺ:

جاهد "عثمان بن عفان" منذ أن أسلم مع النبى ﷺبماله ونفسه، فهاجر الهجرتين: إلى "الحبشة" وإلى "المدينة"، وصاحبته زوجه رقية بنت النبى ﷺ، وتحمل كثيرًا من الأذى.

وبذل "عثمان" ماله فى سبيل الله ونصرة دعوته، وكان من أكثر "قريش" مالا، فاشترى "**بئر رومة**" باثنى عشر ألف درهم، وجعلها للمسلمين فى "المدينة"، وكانوا يعانون من قلة المياه، وغلاء أسعارها.

كما أنفق ماله فى تجهيز الجيوش وبخاصة **جيش العسرة فى غزوة "تبوك"** فى العام التاسع من الهجرة، فقد جهز وحده ثلث الجيش، وكان عدده نحو ثلاثين ألفًا، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال: "ماضر عثمان مافعل بعد اليوم"، قالها مرتين.

وشهد "عثمان" المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، عدا غزوة "بدر"، فقد تخلف عنها بأمر من النبى ﷺ، وأرسله النبى إلى "مكة" عام "الحديبية" لمفاوضة "قريش"، بعد اعتذار "عمر بن الخطاب" لرسول الله بقوله: "إنى أخشى على نفسى من "قريش" لشدتى عليها وعداوتى إياها، ولكنى أدلك على رجل أمنع وأقوى بها منى، عثمان بن عفان".

ولما أشيع أن "قريشًا" قد قتلت "عثمان"، قال النبى ﷺ: "لو كانوا فعلوها فلن نبرح حتى نناجزهم"، وبايعه أصحابه "**بيعة الرضوان**" تحت الشجرة، وبايع النبى نفسه نيابة عن "عثمان"، وقال: "إن عثمان بن عفان فى حاجة الله وحاجة رسوله" وضرب بإحدى يديه على الأخرى مشيرًا إلى أن هذه بيعة "عثمان"، فكانت يد النبى ﷺ لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم. وكان من كُتاب الوحى كما هو معلوم.

4- ثناء النبى ﷺ على عثمان:

الأحاديث الواردة فى فضل "عثمان بن عفان" وثناء النبى عليه كثيرة، من ذلك قوله ﷺ: "**ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة؟**".

وكان عثمان بن عفان قريبًا من الخليفتين، "أبى بكر الصديق" و "عمر بن الخطاب"، وموضع ثقتهما وأحد أركان حكومتهما، ومن كبار مستشاريهما، وكان يكتب لهما، وهو الذى كتب كتاب ولاية العهد من "أبى بكر" إلى "عمر بن الخطاب" – رضى الله عنهما – وترتيب "عثمان" فى الفضل بين الصحابة كترتيبه فى تولِّى الخلافة عند جمهور علماء الأمة.

5- أهل الشورى وبيعة عثمان:

لم يشأ "عمر بن الخطاب" أن يعهد بالخلافة إلى شخص بعينه، وقال: "إن أعهد – يعنى لشخص محدد – فقد عهد من هو خير منى – يقصد أبا بكر عندما عهد إليه هو نفسه –

وإن لم أعهد فلم يعهد من هو خير منى - يقصد رسول الله ﷺ حين تركها شورى بين المسلمين".

ولعل اجتهاده أدَّاه إلى أن تصرف الرسول و "أبى بكر" يعطى له الفرصة أيضًا أن يختار طريقة أخرى لاختيار من يخلفه، ليثرى بذلك طرق الاختيار، وليرسخ فى أذهان الناس أن أمر اختيار الحاكم منوط دائمًا بالأمة وإرادتها ورضاها، وهى التى تملك محاسبته وعزله إن ارتكب ما يوجب العزل.

وقد رشح "عمر بن الخطاب" ستة من الصحابة، ليتولى واحد منهم منصب الخلافة، ولم يأمر أحدًا منهم أن يصلى بالناس إمامًا، حتى لا يظن الناس أنه يميل إليه، بل أمر صهيبًا أن يصلى بالناس، لتكون فرصتهم فى الاختيار متساوية، وشدد على ألا تمضى ثلاثة أيام بعد وفاته إلا ويكون عليهم أمير من هؤلاء الستة يتولى مسئولية الخلافة ويتحمل تبعاتها.

وبعد أن فرغ المسلمون من دفن "عمر"، شرع المرشحون الستة في التفاوض، وبعد نقاش طويل اقترح عليهم "**عبد الرحمن بن عوف**" أن يتنازل عن حقه فى الخلافة. ويتركوا له اختيار الخليفة، فوافقوا على ذلك، فشرع فى معرفة آرائهم واحدًا بعد واحد على انفراد، فرأى أن الأغلبية تميل إلى "عثمان"، ثم أخذ يسأل غيرهم من الصحابة، "فلا يخلو به رجل ذو رأى فيعدل بعثمان". اطمأن "عبد الرحمن" إلى أن الأغلبية تزكى "عثمان بن عفان" فأعلن ذلك على ملأ من الصحابة فى مسجد النبى ﷺ، ولما كان يعلم أن الذى يلى "عثمان" فى المنزلة عند الصحابة، هو "على بن أبى طالب"، الذى مال إليه عدد منهم، فإنه رأى أن يوضح له أن الأغلبية مع "عثمان"، فقال له: "**أما بعد ياعلى، فإنى نظرت فى الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلا**" - كأنه يحذره من المخالفة- ثم أخذ بيد "عثمان"، فقال: "نبايعك على سنة الله ورسوله، وسنة الخليفتين بعده"، فبايعه "عبد الرحمن"، وبايعه المهاجرون والأنصار؛ ولم يتخلف أحد عن بيعته من الصحابة، وكان ذلك بعد وفاة "عمر" بثلاثة أيام.

6- **خطبة البيعة**:

استقبل "عثمان" بخلافته أول المحرم سنة 24هـ، وصعد المنبر بعد تمام البيعة، وخطبهم قائلا -بعد حمد الله والصلاة على رسوله: "**إنكم فى دار قلعة -أى دار الدنيا - وفى بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه .. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، اعتبروا بما مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا**

يغفُل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها: الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا، ألم تلفظهم؟ ارموا الدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة .. ".

وأول ما يُلاحظ على الخطبة الأولى، التى افتتح بها "عثمان" خلافته، خلوها من الإشارة إلى المنهج الذى سيسير عليه، ولعله اكتفى بما قاله لعبدالرحمن بن عوف لحظة البيعة، من أنه سيعمل بكتاب الله، وسنة نبيه، وسيرة الخليفتين بعده.

7- **كتبه إلى العمال والولاة:**

كتب "عثمان" ﷺ فى الأيام الأولى من خلافته عددًا من الكتب إلى الولاة وأمراء الجند، وإلى عامة الناس، تتضمن نصائحه وإرشاداته، يقول "الطبرى": أول كتاب كتبه "عثمان" إلى عماله: "**أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة – يرعون مصالح الأمة – ولم يتقدم إليهم – أى لم يطلب منهم – أن يكون جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا دعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا دعاة، فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم، وتأخذوهم بالذى عليهم، ثم العدو الذى تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء**".

وهذه الكتب توضح سياسة "عثمان بن عفان" العامة، التى كان يتوخى أن يتبعها عماله وولاته فى إدارة شئون الأمة، وهى سياسة طابعها الرفق بالرعية، والسهر على مصالحها، والإنصاف فى جمع الخراج، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، والإحسان إلى أهل الذمة، ورعاية جميع طوائف الأمة.

ويقسم عادة المؤرخون خلافة عثمان بن عفان (اثنتا عشر سنة إلى قسمين : ست سنوات هادئة وست سنوات في اضطرابات وفتن. الست سنوات الأولى توبعت فيها الفتوحات واستمر تقدم الجيوش الإسلامية في شمال أفريقيا وآسيا الوسطى، أما الست السنوات الأخيرة فقد تميزت بظهور الاضطرابات لاسيما في مناطق مثل العراق ومصر.

8- الفتوحات فى عهد عثمان بن عفان:

أ. المسلمون والفرس:

كان "عمر بن الخطاب" قد أمر المسلمين بالانسياح فى بلاد فارس بعد موقعة "نهاوند" سنة (21هـ) وكلمة الانسياح من تعبيرات المؤرخين القدماء، وهى تدل على سهولة الفتح بعد "نهاوند"؛ إذ لم يلق المسلمون هناك مقاومة تذكر.

وقد نجح قادة الجيوش التى أرسلها "عمر" فى فتح المقاطعات الفارسية كهمذان، و"خراسان" و "أذربيجان"، و "اصطخر"، و "أصبهان"، وكان أمراؤها الفرس قد رأوا عدم جدوى المقاومة، فسلموا بلادهم على شروط المسلمين، وقبلوا دفع الجزية، ووقعت معهم معاهدات، وبعد مقتل "عمر" نقضت معظم المقاطعات الفارسية معاهداتها مع المسلمين، ظنا من أمرائها أن فى مقتل "عمر" فرصة لطرد المسلمين من البلاد التى فتحوها، فوقف "عثمان بن عفان" لهذه الثورة وقضى عليها، كما فعل "أبو بكر" حيث قمع الردة فى شبه الجزيرة العربية، وأعاد إليها وحدتها الدينية والسياسية، وأخذ "عثمان" يجهز الجيوش، ويصدر أوامره إلى أمراء الأمصار: "**الوليد بن عقبة**" فى "الكوفة"، و "**عبدالله بن عامر**" فى "البصرة"، للتصدى بحزم لحركة الردة الفارسية، وإعادة الفرس إلى الطاعة والنظام.

وكانت إعادة فتح تلك المقاطعات أصعب من فتحها الأول فى عهد "عمر بن الخطاب"؛ لأنها حينذاك سلمت بدون قتال تقريبًا بعد هزيمتهم فى "نهاوند" فى حين بذل المسلمون فى عهد "عثمان" جهدًا كبيرًا، وخاضوا معارك شرسة فى بضع سنوات (24-31هـ) لإعادة فتح بلاد فارس مرة أخرى، وقد شهدت تلك المعارك الفصل الأخير من حياة آخر ملوك "آل ساسان" "**يزدجرد الثالث**"، حيث لقى مصرعه على يد رجل فارسى فى "مرو" سنة (31هـ)، وبموته طويت صفحة دولة فارس من التاريخ.

ومما يجدر ذكره ويثير الإعجاب أن المسلمين لم يقسوا على الفرس ولم ينكلوا بهم بعد ثورتهم وخروجهم، بل قبلوا اعتذارهم، ولم يفرضوا عليهم التزامات جديدة، واستمروا فى معاملتهم طبقًا للمعاهدات الأولى.

وبدأت بلاد فارس تشهد تاريخًا جديدًا تحت راية الإسلام، يملؤه العدل والتسامح والرحمة، وأسلمت الأمة الفارسية، وأصبحت جزءًا مهما من العالم الإسلامى وأسهمت إسهامًا كبيرًا فى بناء الحضارة الإسلامية.

ب. المسلمون والروم فى عهد عثمان:

بعد وفاة "عمر بن الخطاب"، قام الروم بمحاولة لطرد المسلمين، فهاجموا الشام – فى السنة الأولى من خلافة "عثمان" بقوات كبيرة من آسيا الصغيرة، جعلت والى الشام القدير "معاوية بن أبى سفيان" يطلب المدد من "عثمان بن عفان"، الذى أمر بتحريك قوات من "العراق" لنجدة الشام.

وكتب "عثمان بن عفان" إلى والى "الكوفة" "**الوليد بن عقبة**" كتابًا يقول فيه: "أما بعد فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلىَّ يخبرنى أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة – أى هاجمت – وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإن أتاك كتابى هذا، فابعث رجلا ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف، إليهم من المكان الذى يأتيك فيه رسولى، والسلام".

ولما بلغ الكتاب والى "الكوفة"، جمع الناس وخطب فيهم وأبلغهم أمر الخليفة، وقال: "قد كتب إلىَّ أمير المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع **سلمان بن ربيعة الباهلى**، فانتدب الناس، فلم يمض ثالثة – أى ثلاثة أيام – حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام **حبيب بن مسلمة بن خالد الفهرى**، وعلى جند أهل الكوفة **سلمان بن ربيعة**، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ماشاءوا من سبى، وملئوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصونًا كثيرة".

– محاولات الروم العودة إلى مصر:

لم يكف الروم عن محاولاتهم الهجوم على المسلمين، على الرغم من هزيمتهم فى الشام، وما إن اعتلى الإمبراطور "**قنسطانز الثانى**" (22–48هـ =642 – 668م) حتى سيطرت عليه فكرة استرداد الشام و "مصر" من أيدى المسلمين، كما استردها جده "هرقل" من الفرس قبل سنوات قليلة من الفتح الإسلامى، فأرسل فى سنة (25هـ=645م) حملة بحرية كبيرة إلى "مصر"، بقيادة "**مانويل**"، تمكنت من الاستيلاء على "**الإسكندرية**"، بمساندة من بقى فيها من الروم والإغريق، وبدأت تتوغل جنوبًا قاصدة "**حصن بابليون**"، فكلف الخليفة "عثمان" قائده "**عمرو بن العاص**" بمهمة الدفاع عن "مصر" وطرد الروم، وكان "عمرو" قد أعفى من

ولايتها بناء على طلبه في مطلع خلافة "عثمان"، فلم يتردد الفاتح الكبير فى العودة إلى "مصر" للقيام بهذه المهمة، ونجح فى طرد الروم نهائيا، بعد أن ألحق بهم هزيمة منكرة، وقتل "**مانويل**" قائد حملتهم.

- استمرار فتح شمال إفريقيا فى عهد عثمان:

لما ولى "**عبدالله بن سعد بن أبى السرح**" ولاية "مصر" من قبل "عثمان بن عفان"؛ كتب إليه أن الروم الذين لا يزالون يسيطرون على "شمال إفريقيا" يغيرون على حدود "مصر" الغربية، ولابد من مواجهتهم قبل أن يتجرءوا ويهاجموا "مصر" نفسها، فاقتنع "عثمان" بعد أن استشار كبار الصحابة، وأذن له بتجريد حملات عسكرية لردعهم وكف عدوانهم، كما أرسل إليه جيشًا من "المدينة" مددًا، يضم عددًا من الصحابة كابن عباس، و "عبد الله بن الزبير" رضى الله عنهما.

وفى سنة (27هـ = 647م) انطلق جيش المسلمين بقيادة "**عبدالله بن سعد**"، وتوغل غربًا حتى وصل إلى "**قرطاجنة**" عاصمة إقليم "تونس" فى ذلك الوقت، ودارت عدة معارك بين المسلمين وبين ملكها "**جريجوار**" أو "**جرجير**"، وانتهت بانتصار المسلمين وقتل الملك "جريجوار" على يد "**عبدالله بن الزبير**". ولم تكن تلك الحملة تهدف إلى الاستقرار، بل إلى ردع العدوان، ولذا اكتفى "عبدالله بن سعد" بعقد معاهدات صلح مع زعماء تلك البلاد تعهدوا فيها بدفع مبلغ كبير.

وبعد عودة "**عبدالله بن سعد**" إلى "مصر"، قام بفتح بلاد النوبة جنوبًا سنة (31هـ=651م)، وعلى الرغم من أنها لم تخضع بلاد "**النوبة**" للمسلمين، فإنها انتهت بعقد صلح بين الطرفين، اتفقا فيه على تبادل التجارة والمنافع.

ت. نشأة الأسطول الإسلامي:

يُعد إنشاء الأسطول الحربى الإسلامى من أعظم الإنجازات التى تمت فى عهد أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" فبعد الفتوحات الإسلامية فى "مصر" و "الشام" وجد المسلمون أنفسهم قد سيطروا على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، الذى كان يُعرَف وقتئذٍ ببحر الروم، لأن سيطرتهم عليه كانت كاملة، ولم تنازعهم فى ذلك دولة أخرى؛ ولذا كان المسلمون فى حاجة إلى قوة بحرية تمكنهم من الحفاظ على شواطئهم ضد هجمات الأسطول البيزنطى.

وكان أول من تنبه إلى ذلك "**معاوية بن أبى سفيان**" والى الشام؛ لأنه اضطلع بفتح سواحل الشام، مثل: "صور"، و "عكا"، و "صيدا"، و "بيروت" منذ عهد الخليفتين "أبى بكر الصديق" و "عمر بن الخطاب"، وواجه صعوبات كثيرة فى فتح تلك المدن، لقوة تحصينها من ناحية، وتوالى الإمدادات التى تأتيها من البحر من ناحية أخرى، كما أنها كانت محطات للأساطيل البيزنطية. ولما أدرك "معاوية" أنه بدون قوة بحرية إسلامية فلن يتمكن من الدفاع عن كل الساحل الشامى، فعرض الأمر على الخليفة "عمر بن الخطاب"، مصورًا له حجم الخطر بقوله: "يا أمير المؤمنين، هناك قرية من قرى الروم–يقصد جزيرة قبرص– فى عرض البحر، تتخذها أساطيلهم قاعدة للعدوان علينا، وهذه القرية قريبة من حدودنا إلى درجة أن أهل "حمص" من مدن الشام – يسمعون نباح كلابها وصياح دجاجها، فأذن لنا ببناء أسطول حربى بحرى"، لكن "عمر" رفض ذلك رفضًا قاطعًا؛ لخوفه على المسلمين من أهوال البحار، وأن الوقت لا يزال مبكرًا للدخول فى هذا المجال، وقال لمعاوية: "لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم"، يقصد أن سلامة المسلمين عنده مقدمة على أى شىء آخر، وطلب من "معاوية" أن يستعيض عن ذلك بتقوية حصون السواحل، فامتثل "معاوية"، لكنه لم يفقد الأمل في تحقيق ما يصبو إليه.

– بناء الأسطول:

بادر "**معاوية بن أبى سفيان**" بعد تولى "عثمان بن عفان" الخلافة سنة (**24هـ**) إلى عرض مشروعه القديم عليه، الذى يقضى بإنشاء أسطول بحرى، لكن "عثمان" رفض فى البداية، وذكره بمادار بينه وبين "عمر بن الخطاب" فى ذلك الشأن، وأنه حريص على سلامة المسلمين كحرص "عمر" من قبل لكن "معاوية" ألح عليه إلحاحًا شديدًا، وكان أجرأ عليه من "عمر"، ولم يكف عن المحاولة حتى ظفر منه بالإذن، وكان إذنًا مشروطًا، بألا يُكره أحدًا من الجنود على العمل فى الأسطول.

بدأ "معاوية بن أبى سفيان" يعمل على الفور فى بناء الأسطول، متعاونًا مع "**عبدالله بن سعد بن أبى السرح**"، والى "مصر"، ومستثمرًا كل الإمكانات المتاحة والصالحة لصناعة السفن فى "مصر" والشام، حيث كانت فى "مصر" دور قديمة لصناعة السفن، وعدد كبير من العمال المهرة المدربين، وأشجار "السنط" التى تصلح لعمل الصوارى وضلوع السفن، وكانت

الشام تتمتع بكثير من المواد اللازمة مثل أخشاب "الصنوبر" و "البلوط" و "العرعر"، وأدى هذا التعاون بين "مصر" والشام إلى بروز الأسطول الإسلامى وظهوره.

ث. فتح جزيرة قبرص سنة (28هـ):

كان أول عمل بحرى ناجح قام به الأسطول الإسلامى، هو فتح "جزيرة قبرص" التى كانت تهدد شواطئ المسلمين باستمرار لقربها منها من ناحية، وباعتبارها محطة مهمة من محطات الأساطيل البيزنطية من ناحية أخرى.

وقد غزاها "معاوية" سنة (28هـ)، أى بعد أربع سنوات فقط من بناء الأسطول الإسلامى، وهى مدة ليست بالطويلة لإنشاء أسطول بحرى، ولكنها عزيمة الرجال وإصرارهم على إنجاز العمل.

وكانت الغزوة مشتركة أسهمت فيها قوات الشام، وقوات "مصر" بقيادة "عبدالله بن سعد"، ونزلوا "قبرص" واستولوا عليها، فعرض أهلها الصلح، فقبل "معاوية"، واشترط لعقده عدة شروط:

- أن يدفع أهل "قبرص" جزية سنوية، مقدارها سبعة آلاف دينار.
- وأن يُعلموا المسلمين بأية تحركات عدائية من جانب الروم ضد سواحلهم.
- وأن يقف أهل "قبرص" على الحياد، إذا نشبت حرب بين المسلمين والروم، ولكن لا يمنعون المسلمين من المرور بجزيرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك.

ولم يلتزم أهل "قبرص" بما تعاهدوا عليه فى الصلح، مما جعل "معاوية" يعاود غزو الجزيرة مرة أخرى سنة (33هـ) ويضمها إلى دولة الخلافة، وينقل إليها اثنى عشر ألفًا من المسلمين من أهل الشام، وأسكنهم فيها، وبنى لهم الدور والمساجد.

- موقعة ذات الصوارى سنة (34هـ):

أثار ظهور الأسطول الإسلامى فى البحر حفيظة "**قنسطانز الثانى**" الإمبراطور البيزنطى، وجعله يفكر فى القضاء عليه وتحطيمه، قبل أن تكتمل قوته، ويزداد خطره، وحتى تظل السيطرة على "البحر المتوسط" للأسطول البيزنطى وحده دون غيره، فعبأ الإمبراطور قواته البحرية كلها، واتجه بها قاصدًا سواحل الشام، وهو لا يراوده شك فى قدرته على تدمير السفن الإسلامية؛ لحداثة نشأتها، وقلة خبرة رجالها، لكن المسلمين استعدوا لهذا اللقاء جيدًا

وتعاون الأسطولان فى "مصر" والشام، لرد هذا العدوان، وأسندت قيادتهما إلى "**عبدالله بن سعد**" والى "مصر".

والتقى الأسطولان الإسلامى والبيزنطى - الذى كان بقيادة الإمبراطور نفسه - فى شرقى "البحر المتوسط"، جنوبى شاطئ "آسيا الصغرى" (تركيا الحالية)، ودارت بينهما معركة بحرية كبيرة، سُميت بمعركة "**ذات الصوارى**"، لكثرة السفن التى اشتركت من الجانبين (خمسمائة سفينة من جانب الروم، مقابل مائتى سفينة من جانب المسلمين) وانتهت المعركة بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للأسطول البيزنطى، ونجاة الإمبراطور من القتل بأعجوبة. ونتيجة لهذه الهزيمة لم يرجع الإمبراطور إلى عاصمة "القسطنطينية" بعد المعركة، وإنما ذهب إلى "جزيرة صقلية"، قبالة شاطئ "تونس"، فى محاولة منه لحماية ما تبقى من دولة الروم فى "شمال إفريقيا"، لكنه قتل فى "صقلية" سنة (68هـ = 688م).

7- مصحف عثمان:

إذا كان لعهد "**عثمان بن عفان**" ﷺ أن يفخر بما أنجز فيه من الأعمال العظيمة؛ فإن له أن يفخر بما هو أعظم منها جميعًا، وهو جمع القرآن الكريم على لغة واحدة.

للقرآن صورتان: **صورة صوتية مقروءة**، وأخرى **مكتوبة مدونة**، وقد حرص الرسول ﷺ على تدوين الآيات فور نزولها، وقبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى راجع مع "**جبريل**" ﵇ ترتيب الآيات والسور مرتين. وقد حفظ الصحابة القرآن باللهجات التى درجوا عليها، وأجاز لهم النبى ﷺ ذلك، ولذا ظهرالاختلاف فى وجوه القراءة بين الصحابة من بدء نزول القرآن، نتيجة للهجة التى اعتادها اللسان.

ولما جُمِعَ القرآن الكريم **الجمع الأول** فى الصحف فى عهد "**أبى بكر**" بهيئته المكتوبة، بقيت الصورة الصوتية كما هى، ولما فُتحت البلاد وتفرق الصحابة فيها، أخذ أهل كل إقليم يقرءون القرآن بقراءة الصحابى أو الصحابة الذين عاشوا بينهم، فتمسك أهل "الكوفة" بقراءة "**عبدالله بن مسعود**"، وأهل الشام بقراءة "**أبى بن كعب**"، وأهل "البصرة" بقراءة "**أبى موسى الأشعرى**"، ومع اتساع الفتوحات، زاد الخلاف بين المسلمين حول قراءة القرآن، وتحول الأمر إلى تعصب، بل كاد أن يؤدى إلى فتنة بينهم، مما أفزع "**حذيفة بن اليمان**" الصحابى الجليل، وكان يقرأ فى "أذربيجان"، فرجع إلى "المدينة"، وأخبر "عثمان بن عفان"" بما رأى.

وجمع "عثمان" الصحابة، وأخبرهم الخبر، فأعظموه، ورأوا جميعًا مارأى "حذيفة" من ضرورة جمع الناس على مصحف واحد، وأرسل "عثمان" إلى أم المؤمنين "**حفصة بنت عمر**" أن تبعث إليه بالمصحف الذى جُمع فى عهد "أبى بكر" – وكان "عمر بن الخطاب" قد أخذه بعد وفاة "أبى بكر"، ثم حُفظ بعد موته عند ابنته "حفصة" – ثم أمر "**زيد بن ثابت**" – الذى جمع القرآن الجمع الأول فى عهد "أبى بكر الصديق" – و"**عبدالله بن الزبير**"، و"**سعيد بن العاص**"، و"**عبدالرحمن بن الحارث بن هشام**"، أن ينسخوه، وقال لهم: إذا اختلفتم – يعنى فى كلمة أوكلمات– فاكتبوها بلسان "**قريش**"، فإنما نزل بلسانهم، فلما نسخوه، أرسل إلى كل إقليم مصحفًا وأمر بإحراق ما سوى ذلك، وقد سمى هذا المصحف **بالمصحف الإمام** أو "**مصحف عثمان**".

8- الفتنة وأسبابها:

سارت الأمور فى الدولة الإسلامية على خير ما يرام فى الشطر الأول من خلافة "عثمان" ﷺ (24-30هـ)، ولكن مع بداية سنة (31هـ) هبت على الأمة الإسلامية رياح فتنة عاتية، زلزلت أركانها، وكلفتها تضحيات جسيمة، واستمرت هذه الفتنة نحو عشر سنين، شملت ما تبقى من خلافة "عثمان بن عفان"، وكل زمن خلافة "على بن أبى طالب" –رضى الله عنهما– (31-40هـ). ومما لاشك فيه أن تلك الفتنة كانت نتيجة لمؤامرة واسعة النطاق كانت أحكم فى تدبيرها، وأوسع فى أهدافها، وأخطر فى نتائجها من مؤامرة اغتيال "عمر بن الخطاب" ﷺ ، لأن اغتيال "عمر" لم يخلف آثارًا خطيرة بين المسلمين، ولم يقسمهم شيعًا وأحزابًا كما حدث فى آخر عهد "عثمان"، ولأن الذين خططوا لقتل "عمر" والذين قاموا بتنفيذ ذلك كانوا غير مسلمين وغير عرب، في حين أن الذين قتلوا "عثمان" و "عليا" من بعده كانوًا عربًا مسلمين، وهذا هو وجه الخطورة، حتى وإن كان التخطيط من غيرهم. والذى لاشك فيه أن الذى تولى التخطيط للفتنة، وقتل "عثمان"، وإغراق الأمة فى بحر من الدماء، هو "**عبد الله بن سبأ**" اليهودى، الذى ادعى الإسلام؛ ليتمكن من الكيد له من داخله، والذى لُقِّب **بابن السوداء**.

- الأسباب التي أدت لوقوع الفتنة في عهد عثمان بن عفان:

قال الإمام الزهري: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميرا للمؤمنين، أول ست سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئا، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ لأن عمر كان شديدا

عليهم، أما عثمان فقد لان لهم ووصلهم. ثم حدثت الفتنة بعد ذلـك، وقـد سـمى المؤرخـون المسلمون الأحداث في النصف الثاني من ولاية عثمان 30–35هـ (**الفتنة**) التـي أدت إلـى استشهاد عثمان ﷺ. كان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعا من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى وقوع الفتنة زمن عثمان بن عفان:

أـ الرخاء وأثره في المجتمع الإسلامي:

أثر الرخاء على حالة المجتمع الإسلامي، من خلال وفرة الخيرات وإدرار الأمـوال، وما آل إليه أمر الناس من البطر وعدم الشكر، قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرا، وكان عثمان يقول لهم: يا معشر المسلمين، اغدوا على أعطيـاتكم فيأخـذونها وافـرة، واغدوا على السمن والعسل. الأعطيات جارية، والأرزاق دارَّة، والعدو متقـى، وذات البـين حسن، والخير كثير... والأخرى كان السيف مغمدا على أهل الإسلام فسـلوه علـى أنفسـهم، فوالله ما زال مسلولا إلى يوم الناس هذا، وأيم الله، إني لأراه سيفا مسلولا إلى يوم القيامة.

بـ المتغيرات في نسيج المجتمع البشري:

- **مكونات المجتمع الإسلامي في عهد عثمان:**

- **قطاع الأسبقين ممن بقى من الصحابة:** ومن الذين نالوا قسطا من رعاية الصـحابة، ولكن هذا القطاع وذاك ظل يتناقص إما عن طريق الموت والقتل في ميادين الفتوح.
- **سكان المناطق المفتوحة:** وقد كان **الأعاجم** الذين جاءوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة، لأن أغلب الأعاجم من الأمم الموتورة، والشعوب المقهورة، فتكثـر مسارعتهم للفتن لأسباب كثيرة. **ومن أسباب دخول الأعاجم في الفتنة:** جهلهم وحداثة عهد أكثرهم بالكفر، والملك والعز الذي كانوا عليه، ثم سُلبوه، وقلة فقههم في الـدين، بسبب العجمة وغيرها، وطوائف منهم دخلت الإسلام ظاهرا وخوفا مـن السـيف أو الجزية، وأضمروا للإسلام والمسلمين الشر والكيد.
- **الأعراب:** وذلك لأنهم أقسى قلوبا وأغلظ طبعا وأجفى قـولا، ولصـفاتهم هـذه فهـم جديرون وأخلق بهم أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكـام والجهـاد؛ فهم من أسرع الناس في الفتن ولمسارعتهم فيها أسباب، **ومن أسباب دخول الأعـراب**

في الفتنة: قلة فقههم في الدين، وسرعة اغترار الواحد منهم بما يتعلمه من القرآن، فيظن أنه صار عالما بقليل من العلم، وجفاؤهم للعلماء، وترك التلقي عنهم والاقتداء بهم، وتمكن العصبية القبلية من نفوسهم، وتغرير أهل المطامع بهم، واستغلال سذاجتهم وجهلهم، وحدة طباعهم ونفورهم من المدنية والخلطة، إساءة الظن بالآخرين ممن لا يعرفونهم، وتشددهم في الدين، وتنطعهم بلا علم.

وخرج من هؤلاء الأعراب رجال عرفوا **(بالقراء)** فمنهم من كان على طريقة الخوارج، يفهمون القرآن بطريقتهم الخاصة، ومنهم من كان زاهدا لا يفقه حقيقة ما يقرأ ولم يستطع التأقلم مع واقع المجتمع.

- **اليهود والنصارى:** وكان بعضهم –وهو كثير– قد خرج أو أخرج من جزيرة العرب فاستقروا في الأمصار الكبيرة، ومنها الكوفة والبصرة، وكان اليهود خاصة –حسب طبعهم– ظلوا في تلك الأمصار المطلة على ميادين الفتوح يمارسون مهنتهم المشهورة المزدوجة، السيطرة المالية بوسائلهم المختلفة، والتآمر على قطع اليد التي تمد لهم المساعدة.

ت- انتشار الإشاعات والأقاويل والأكاذيب:

وكان المجتمع مهيأ لقبول الأقاويل والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيأة، ونسيج المجتمع قابلا لتلقي الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطعن في الأمراء بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى استمالوا الناس إلى صفوفهم، ووصل الطعن إلى عثمان بن عفان ﷺ نفسه باعتباره قائد الدولة. وإذا ما حصرنا الدعاوي التي روجت ضد الخليفة وطعنوه بها، وانقسمت تلك الإشاعات والأقاويل إلى مجموعات خمس: مواقف شخصية له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات والمواقع)، وسياسته المالية: الأعطيات، الحمى، وسياسته الإدارية النافذة: تولية أقربائه، طريقته في التولية، واجتهادات خاصة به أو بمصلحة الأمة (إتمام الصلاة بمنى، جمع القرآن، الزيادة في المسجد)، ومعاملته لبعض الصحابة: عمار، أبي ذر، ابن مسعود.

ث- دور عبد الله بن سبأ في إثارة الفتنة:

الأفكار التي نادى بها عبد الله بن سبأ تهدف لهدم الإسلام، وتشكيك المسلمين في دينهم:

- **القول بعقيدة الرجعة:** وهي من الثوابت عند الشيعة، وأصلها في المجوسية، وادعى كان عيسى بن مريم سيرجع فكيف لا يرجع محمد ﷺ، فمحمد ﷺ سيرجع، وتمادى الشيعة في الأمر، وقالوا ليس محمدًا فحسب بل علي بن أبي طالب وغيره، واعتمد على قوله تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**﴾ [القصص:85].
- **عقيدة الوصاية:** زعم ابن سبأ إن أمر النبوة منذ آدم حتى محمد ﷺ بالوصاية، أي أن كل نبي يوصي للنبي الذي بعده، وأن محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء، كيف لا يوصي بالأمر من بعده لأحد، إذن أوصى محمد ﷺ إلى أحد الناس، فأوصى بالأمر لعلي.

- الطوائف التي اتبعت عبد الله بن سبأ في دعوته للفتنة.

اتبع ابن سبأ مجموعة من الطوائف، فمنهم الذين هم على شاكلته، هي:

أ. دخلوا في الإسلام ظاهرا، وأبطنوا الكفر والنفاق.

ب. يرغبون في الإمارة والرئاسة والسيطرة، ولم يولهم عثمان ﷺ، إما لسوء خلقهم، أو لوجود من هو أفضل منهم.

ت. الموتورين الذي أقام عثمان ﷺ الحد على أحدهم، أو على قريب لهم، فقاموا حمية له.

ث. جهال المسلمين الذين ينقصهم العلم، فتبعوا ابن سبأ بدافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليقتلوا عثمان بن عفان ﷺ .

- موقف عثمان من الفتنة:

لما سمع "عثمان بن عفان" ما يقال عن ولاة أقاليمه جمع أهل "المدينة"، وقال لهم: أشيروا على، فأشاروا عليه أن يرسل رجالا إلى الأقاليم للتحقيق فيما وصله من كلام عنهم، كما كان يفعل "عمر بن الخطاب"، فاستجاب على الفور، وحدد أربعة من الصحابة من غير "بنى أمية" – حتى لا يتهمهم أحد بالتحيز للولاة – للقيام بما كلفهم به، فأرسل "**محمد بن مسلمة**" إلى "الكوفة"، و "**أسامة بن زيد**" إلى "البصرة"، و "**عبدالله بن عمر**" إلى الشام، و"**عمار بن ياسر**" إلى "مصر"، وعاد الثلاثة الأول إلى "المدينة"، وقدموا تقارير للخليفة بأن الأمور تجرى على خير وجه، وأن الشكاوى التى تصل إلى "المدينة" كلها باطلة، ولا أساس لها من الصحة؛ وأن الولاة يقومون بعملهم خير قيام، أما "**عمار بن ياسر**" فلم يعد من "مصر"، لأنه لما وصل إليها، تصادف وجود "**ابن سبأ**" فيها، فاستقطبه للأسف وضمه إلى صفه، مما جعل الأمر يستفحل ويزداد خطرًا.

وبعد أن تبين بطلان مزاعم أتباع "ابن سبأ"، الذين ألبوا الناس على "عثمان" – وكلهم عرب مسلمون– لان لهم الخليفة، وعطف عليهم وحاول استرضاءهم بدلا من عقابهم وأخذهم بالشدة. ولما تهيأ الجو، ورأى زعماء الفتنة أن الفرصة سانحة للتخلص من الخليفة، خرجوا إلى "المدينة" على رأس وفود أهل "**مصر**" و"**البصرة**" و"**الكوفة**"، وكانوا نحو عشرة آلاف متظاهرين بالحج، مخفين نياتهم الخبيثة عن عامة الناس، الذين شكوا إلى الخليفة من تصرفات لولاتهم لا يرضونها، فوعدهم خيرًا، وأمرهم بالعودة إلى أمصارهم، فرضوا لما رأوه من سماحته وعطفه، وعادوا. أما زعماء الفتنة من أمثال: "**الأشتر النخعى**"، و "**عمرو بن الأصم**"، و"**حرقوص بن زهير السعدى**"، و"**الغافقى بن حرب**"، فقد ساءهم عودة عامة الناس الذين لا علم لهم بالمؤامرة، وسُقِطَ فى أيديهم، وعزموا على قتل الخليفة أو عزله، فتخلفوا فى "المدينة"، وزوَّروا كتابًا، ادعوا كذبًا أنهم وجدوه مع غلام من غلمان "عثمان"، موجه إلى "**عبدالله بن سعد**" والى "مصر" يأمره فيه بقتل بعض الثائرين وتعذيب بعضهم الآخر.

عاد الثائرون من الطريق بهذا الكتاب، فعرضوه على "**على بن أبى طالب**"، فأدرك أنه مزور، لأن الذين ادعوا أنهم وجدوه هم أهل "مصر"، ولكنهم عندما عادوا عادوا جميعًا، أهل "مصر" و "الكوفة" و "البصرة"، مع أن طرقهم مختلفة، فعودتهم فى وقت واحد، تدل على أن الأمر مدبر، فقال لهم على: "كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وطريقكم مختلف وقد سرتم على مراحل؟! **هذا والله أمر أبرم بالمدينة**".

- **محاصرة بيت الخليفة وقتله**:

تشبث الأشرار بهذا الكتاب المزور، ولم يستجيبوا لنصح الصحابة بالرجوع إلى بلادهم؛ لأن الخليفة لم يرتكب خطأ يستحق عليه العقاب، فحاصروه فى بيته، ولم تكن هناك قوة تدافع عنه، فقد رفض عرضًا من "**معاوية بن أبى سفيان**" بالذهاب معه إلى الشام، وكره أن يغادر جوار رسول الله كما رفض أن يرسل "معاوية" إليه جندًا من الشام لحمايته، لأنه كره أن يضيق على أهل مدينة رسول الله ﷺ بجيش يضايقهم فى معاشهم. ولما رأى "**على بن أبى طالب**" و "**الزبير بن العوام**" و "**طلحة بن عبيد الله**" وغيرهم الحصار المضروب على بيت الخليفة؛ أرسلوا أبناءهم لحراسته، لكنه رفض ذلك أيضًا، وأقسم عليهم بما له من حق الطاعة عليهم أن يذهبوا إلى بيوتهم ويغمدوا سيوفهم، لأنه أدرك أن أبناء الصحابة وهم عدد قليل، إن تصدوا لهؤلاء الأشرار – وكانوا زهاء عشرة آلاف – فقد يقتلونهم جميعًا، فآثر سلامتهم

وحقن دماءهم، ولعله كان يفكر أن الثوار إذا قتلوه هو فستنتهى المشكلة، فرأى أن يضحى بنفسه، حقنًا للدماء، ولم يدر أن دمه الطاهر الذى سيُسفك، كان مقدمة لبحور من دماء المسلمين، سالت بعد ذلك نتيجة مقتله.

وامتثل أبناء الصحابة لأمره، وعادوا إلى بيوتهم، لكنه طلب منهم ماء للشرب، بعد أن منعه الثوار عنه، وهو الذى اشترى للمسلمين "بئر رومة" ووهبها لهم، بناء على طلب من الرسول ﷺ الذى بشره بنهر عظيم فى الجنة.

وكانت أم المؤمنين "**أم حبيبة بنت أبى سفيان**" أول المغيثين لعثمان، لكنها لم تستطع أن توصل الماء إليه لأن الثوار منعوها، وأساءوا معها الأدب وسبوها، ولم يراعوا لها حرمة.

فلما فعلوا بأم حبيبة ذلك، ذهب إليهم "على بن أبى طالب" – رضى الله عنهم – وقال لهم: "إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لاتقطعوا عن الرجل المادة (الطعام والشراب) فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله؟! قالوا: لا والله ولا قطرة ماء تصله لا نتركه يأكل ويشرب".

وبعد ذلك اقتحموا على الخليفة داره اقتحامًا، متسلقين من دور مجاورة، وقتلوه وهو صائم يقرأ القرآن، وروعوا الأمة الإسلامية في إمامها، الذى كانت تستحى منه الملائكة، والذى بشره النبى ﷺ بالجنة، وتنبأ له بالشهادة، وكان استشهاده في أواخر شهر ذى الحجة سنة (35هـ).

رابعاً: خلافة على بن أبى طالب (35 – 40هـ):

هو "على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف"، وهو ابن عم النبى ﷺ، وتربى فى بيته، لأن أباه كان كثير العيال قليل المال، فأراد النبى أن يخفف عن عمه أعباء المعيشة، فأخذ "عليًّا" ليعيش معه فى بيته، وكان عمره يومئذٍ ست سنوات، فشاءت إرادة الله أن ينشأ "على" فى بيت النبوة، فوقاه الله أرجاس الجاهلية، فلم يسجد لصنم قط، وكان **أول من أسلم من الصبيان.**

وعُرف "على بن أبى طالب" بالشجاعة والعلم الغزير، والزهد في الدنيا مع القدرة عليها، وكان واحدًا ممن حفظوا القرآن كله من الصحابة، وعرضوه على النبى ﷺ، ومن أكثرهم معرفة بالقرآن وبتفسيره وأسباب نزوله، وأحكامه، وكان من كتاب الوحى، ولذا

اختص فى سيرته بلقب "**الإمام**" لأفضليته العلمية والفقهية، وكان أقضى الصحابة رضى الله عنهم جميعًا، واشتهر بالفصاحة والخطابة وقوة الحجة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد تآخى الرسول ﷺ مع على بعد الهجرة، ثم زوجه ابنته "**فاطمة**"، وأنجب منها "**الحسن**" و "**الحسين**"، وهما اللذان حفظا نسل الرسول ﷺ.

وشهد "على" المشاهد كلها -عدا تبوك - مع رسول الله ﷺ، فكان فى طليعة من صرعوا المشركين فى "بدر"، وواحداً من الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺفى غزوة "أحد"، وحمل اللواء عندما سقط من يد "**مصعب بن عمير**" بعد استشهاده، حمله بيده اليسرى، وظل يقاتل بيده اليمنى، وصرع في غزوة الخندق "**عمرو بن عبد ود**" فارس "قريش" والعرب كلها عندما لم يقدم أحد على مبارزته وأعطاه الرسول ﷺالراية يوم "خيبر"، وقال: "**لأعطين اللواء غدًا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**"، وأخبر أن الفتح سيكون على يديه، وتحقق ذلك، وثبت مع من ثبتوا مع النبى ﷺفى "حنين".

وفى غزوة "تبوك" خلفه النبى ﷺفى أهله يرعى مصالحهم وشئونهم، ولما تأذى من ذلك، وقال: يارسول الله، تخلفنى فى النساء والصبيان؟!، فقال له النبى ﷺ: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى؟"، إشارة من النبى إلى أن "موسى" عندما ذهب لمناجاة ربه، ترك أخاه "هارون"، خلفًا له فى قومه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾. [الأعراف:142].

وكان ﷺ موضع ثقة واحترام من الصحابة جميعًا، فكان من أكبر أعوان "أبى بكر الصديق" فى قمع حروب الردة، ولازم "عمر بن الخطاب"، فكان لا يقطع أمرًا دون مشاورته، والاستنارة برأيه، وكان "عمر" يقول: "قضية ولا أبا حسن لها". وعاون "عثمان" بالرأى والمشورة مثلما كان يفعل مع "أبى بكر" و "عمر"، فلم يحجب عنه نصحه ومؤازرته فى الفتنة التى أطبقت على الأمة، أرسل أولاده مع بقية أولاد الصحابة لحراسته والدفاع عنه، ثم ذهب بنفسه لمواجهة الأشرار.

1- **بيعته بالخلافة**:

رُوِّعت "مدينة" رسول الله ﷺ بمقتل أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" ﷺ وعم الناس الهلع والرعب، لهذه الجريمة التى أقدم عليها هؤلاء الأشرار.

سيطر الثائرون على "المدينة"، وظل "**الغافقى بن حرب**" زعيم ثوار "مصر"، وأحد كبار زعماء الفتنة يصلى بالناس إمامًا فى مسجد رسول الله ﷺ خمسة أيام، والدولة كلها بدون خليفة، ولم يكن فى وسع أحد من الثوار أن يرشح نفسه لها، لأنهم يعلمون أن هذا الأمر يخص المهاجرين وحدهم.

وبدأ الثائرون يعرضون منصب الخلافة على كبار الصحابة: "**على بن أبى طالب**"، و"**طلحة بن عبيد الله**"، و "**سعد بن أبى وقاص**"، و "**الزبير بن العوام**"، و "**عبدالله بن عمر بن الخطاب**"، فرفضوا جميعًا، وسماهم "على بن أبى طالب" الثائرين ولعنهم على فعلتهم الشنعاء، فهددهم الثائرون بقتلهم جميعًا كما قتلوا "عثمان" إن لم يقبل أحدهم منصب الخلافة.

وفى مثل هذه الظروف العصيبة كان لابد من رجل شجاع غير هياب، يتقدم الصفوف لحمل الأمانة وسط الأخطار المحدقة بها، واتجهت الأنظار إلى "على بن أبى طالب"، وتعلقت به الآمال، ترجوه تحمل المسئولية، وقيادة الركب إلى بر الأمان، وألح عليه كبار الصحابة إلحاحًا شديدًا لتولى المنصب الشاغر، منصب الخلافة الجليل، فقبل تجشم تبعاتها فى هذه الظروف الدقيقة، وكان قبوله لها ضربًا من ضروب الفروسية والشجاعة، والاحتساب عند الله، والنزول على رغبة كبار الصحابة.

وكان "**على بن أبى طالب**" **هو أول خليفة يخطب قبل البيعة**، وكانت خطبة قصيرة، أشهد الله عليهم، وأشهدهم على أنفسهم أنهم هم الذين ألحوا عليه تقبل أمرٍ كان له كارهًا، لتبعاته ومسئولياته، فلما وافقوا بايعوه، ولهذا كان عليه أن يخطب مرة أخرى خطبة يوضح فيها أسلوبه فى الحكم، والخطبة القصيرة كانت مناسبة للمقام وللظرف الذى قيلت فيه، فقد بدأها بالتذكير بالله، وحث المسلمين على عمل الخير وتجنب الشر، وحذرهم حرمات الله والوقوع فيها، وأهمها حرمة دم المسلم، ولعله بذلك يعرض بقتلة "عثمان" ويحدد موقفه من هذه الفعلة الشنعاء، وأنه لن يتساهل فى القصاص منهم، وإقامة الحد عليهم.

2- على والقرارات الصعبة:

تمت بيعة "على بن أبى طالب" فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة (35هـ)، فاستقبل بخلافته عام (36هـ)، وكان عليه أن يواجه الموقف العصيب، الذى نتج عن استشهاد أمير المؤمنين "عثمان بن عفان"، باتخاذ قرارات صعبة تجاه عدد من المعضلات، التى كان أولها:

أ. القصاص من قتلة "عثمان" ﷺ وكان ذلك مطلب الصحابة، ففى أول يوم من خلافته ذهب إليه "طلحة" و "الزبير"، وطالباه بإقامة الحد على القتلة، ولذلك كان رأى الإمام التريث حتى تهدأ الأمور، ويعود الناس إلى بلادهم، حتى يتمكن من التحقيق فى الأمر وإقامة الحد، وقد اقتنع الصحابة بهذا الحل، لكن الأمور تطورت تطورًا آخر على غير ما يهوى الجميع.

ب. وتغيير كل ولاة "عثمان" على الولايات الكبرى: "مصر" و "الشام"، و "الكوفة"، و "البصرة" حتى تهدأ الفتنة، وهذا القرار الخطير راجعه فيه أقرب الناس وأخلصهم له، ابن عمه "**عبدالله بن عباس**"، ونصحه بالانتظار فترة ولو لمدة سنة، لتكون الأمور قد هدأت واستقرت، ويتم التغيير فى ظرف مناسب، لكن الإمام أصر على تنفيذ قراره محتجًا بأن هؤلاء الثوار ثاروا غضبًا من ولاة "عثمان"، سواء أكانوا مخطئين أم مصيبين، ولن تهدأ ثورتهم إلا إذا عُزِلوا.

وإزاء إصرار على ﷺ على تنفيذ قراره، اقترح "ابن عباس" أمرًا آخر، بأن يعزل من يشاء من الولاة، ويُبقى "معاوية" على ولاية الشام، وكان اقتراحًا ذكيًا وجيهًا، فمعاوية لم يكن موضع شكوى أحد من رعيته، ولم يشترك أهل الشام فى الثورة على "عثمان" وقتله، وعلى هذا فلو أقره علىّ فى ولاية الشام، فلن يلومه أحد، وكان "ابن عباس" يعرف من ناحية أخرى أن "معاوية" لن يذعن لقرار العزل، وسيبقى فى لايته، مسببًا متاعب كثيرة، ومع هذا صمم الإمام "على بن أبى طالب" على عزل ولاة "عثمان" جميعًا بما فيهم "معاوية".

وعندما بدأ الولاة الجدد يتجهون إلى ولاياتهم لمباشرة أعمالهم، فذهب "قيس بن سعد" إلى "مصر"، ودخلها بدون متاعب؛ لأن واليها القديم "عبدالله بن سعد" تركها منذ علمه بمقتل "عثمان"، وذهب إلى "فلسطين"، واعتزل الفتنة، وبقى هناك حتى مات فى مدينة "عسقلان" سنة (37هــ). وكذلك دخل "**عثمان بن حنيف**" "البصرة"، وتولى شئونها بدون مشاكل؛ لأن واليها "**عبدالله بن عامر**" كان قد تركها وذهب إلى "مكة". أما "عمارة بن شهاب" فلم يمكنه أهل "الكوفة" من دخولها، وتمسكوا بواليهم "أبى موسى الأشعرى"، فوافق الإمام "على" على ذلك، وأقر عليهم "أبا موسى الأشعرى". وكذلك لم يستطع "سهل بن حنيف" دخول الشام، فقد منعه "معاوية بن أبى سفيان"، رافضًا قرار العزل. وهنا لم يعامل الإمام "على" الشام معاملة

"الكوفة"، فإنه رفض إقرار "معاوية" فى ولاية الشام، مع أن تمسك أهلها به كان أشد من تمسك أهل "الكوفة" بأبى موسى الأشعرى.

3- **بين على ومعاوية**:

دارت مراسلات عديدة بين "على" و "معاوية" - رضى الله عنهما - يطلب الأول من الآخر مبايعته بالخلافة، والإذعان لأوامره، باعتباره الخليفة الشرعى الذى بايعه معظم الصحابة فى "المدينة"، على حين يطلب الثانى من الأول القصاص من قتلة "عثمان"، باعتباره ولى دمه، لأنه ابن عمه، وبعدها ينظر فى بيعته.

ولم تكن وجهة نظر الإمام فى قضية القصاص رافضة، لكنه كان يرغب فى تأجيلها حتى تتهيأ الظروف المناسبة، ولكن "معاوية" تمسك بالقصاص أولا، وجعله شرطًا لازمًا يسبق البيعة.

ولما لم تؤد الاتصالات بينهما إلى نتيجة، وصلت رسالة من "معاوية" إلى "على" تتضمن جملة واحدة، هى: "من معاوية إلى على"، بعثها "معاوية" بيضاء مع رجل يدعى "قبيصة" من "بنى عبس"، وأمره أن يدخل بها "المدينة"، رافعًا يده حتى يراها الناس، ويعلموا أن "معاوية" لم يبايع "عليًّا"، إذ يخاطبه باسمه فقط دون أن يصفه بأمير المؤمنين.

وأدرك علىٌّ ﷺ أن حمل معاوية على البيعة سلمًا غير ممكن، فأخذ يعد العدة لحمله على البيعة بالقوة، باعتباره خارجًا على طاعة الخليفة، على الرغم من أن كثيرين نصحوه بعدم اللجوء إلى الحرب لعواقبها الوخيمة، ومن بينهم ابنه "الحسن" لكن الإمام "على" أصر على موقفه، وبينما هو يستعد لذلك، جاءته أخبار أخرى مفزعة من "مكة"، تخبره بمسير "عائشة" وجماعتها إلى "البصرة".

4- **موقعة الجمل** (36هـ):

كانت أم المؤمنين "**عائشة**" -رضى الله عنها - عائدة من أداء فريضة الحج، وسمعت بمقتل "عثمان"، فعادت من الطريق إلى "مكة"، وأعلنت سخطها على قتله، وأخذت تردد "قُتل والله عثمان مظلومًا لأطلبن بدمه"، ثم وافاها فى "مكة" "طلحة" و "الزبير" - رضى الله عنهما - و "بنو أمية"، وكل من أغضبه مقتل "عثمان"، وراحوا يتباحثون فى الأمر، وهداهم تفكيرهم إلى تجهيز جيش للأخذ بالثأر من قتلة "عثمان" والسير به إلى "البصرة"، باعتبارها أقرب بلد إليهم من البلاد التى اشترك أهلها فى الثورة على "عثمان" وقتله، وكان هذا اجتهادًا منهم

مجانبًا للصواب، لأنهم بهذا العمل كأنهم أقاموا حكومة أخرى غير حكومة الإمام، المبايع شرعًا من الأمة، والمنوط به وحده إقامة الحدود والقصاص من القتلة، وربما كان الأفضل من هذا أن يتوجهوا إلى "المدينة"، ليشدوا من أزر الخليفة فى هذا الوقت العصيب الذى تمر الأمة به، ويتشاوروا معه فى إيجاد طريقة لحل المشكلات التى تواجهها الأمة.

ووصلت أخبار سير "عائشة" ومن معها إلى "على" وهو يتأهب للخروج إلى الشام لقتال "معاوية"، فاضطر إلى تغيير خطته، فلم يعد ممكنًا أن يذهب إلى الشام، ويترك هؤلاء يذهبون إلى "البصرة"، فاستعد للذهاب إلى هناك.

وقد خرجت السيدة "عائشة" – رضى الله عنها – ومعها فى البداية نحو ألف رجل لكن هذا العدد تضاعف عدة مرات، بانضمام كثيرين إلى الجيش، نظرًا إلى مكانة "عائشة"، فلما اقتربوا من "البصرة"، أرسل واليها "عثمان بن حنيف" إلى أم المؤمنين "عائشة" رسولين من عنده، هما "**عمران بن حصين**" و "**أبو الأسود الدؤلى**" يسألانها عن سبب مجيئها. فقالت لهما: "إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا لعنة الله ورسوله، مع مانالوا من قتل إمام المسلمين، بلا ترة ولا عذر، فخرجت في المسلمين، أعلمهم ما أتى هؤلاء".

وكذلك سأل الرسولان "طلحة" و "الزبير" – رضى الله عنهما – عن سبب مجيئهما، فقالا: "الطلب بدم عثمان"، فرجع الرجلان وأخبرا "عثمان بن حنيف"، فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون! دارت رحى الإسلام ورب الكعبة"، وأصرَّ على منعهم من دخول "البصرة"، فدارت بينه وبينهم معركة عند مكان يُسمى "**الزابوقة**" قُتل فيها نحو ستمائة من الفريقين، فلما رأوا كثرة القتلى تنادوا إلى الصلح والكف عن القتال، وانتظار قدوم الإمام "على" إلى "البصرة"، وتم الصلح على أن يتركوا للوالى دار الإمارة والمسجد وبيت المال، وينزلوا هم فى أى مكان بالبصرة.

– وصول "على" إلى البصرة:

وصل "على" إلى "البصرة" وعلم بما حدث من سفك الدماء وهاله ذلك، فأرسل على الفور "**القعقاع بن عمرو التميمى**" إلى معسكر "عائشة" و "طلحة" و "الزبير"، ليعرف ماذا يريدون، فقالت "عائشة" – رضى الله عنها: "خرجنا لنصلح بين الناس"، وكذلك قال "طلحة" و "الزبير"، فسألهم "ما وجه الإصلاح الذى تريدون"، قالوا: "قتلة عثمان"، قال: "لقد قتلتم ستمائة

من قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف من قبائلهم، وكنتم قبل ذلك أقرب إلى السلامة منكم الآن"، قالوا: "فماذا ترى أنت؟"، قال: "أرى أن هذا الأمر دواؤه التسكين"، واقترح عليهم تجديد البيعة لعلى، ومقابلته، والتفكير بعد ذلك فيما يصلح المسلمين، فقبلوا. ومعنى ذلك أن الجميع كانوا راغبين، فى الإصلاح، كل على حسب اجتهاده، لكن عناصر الشر التى كانت لاتزال فى معسكر "على" هى التى أفسدت السعى الذى قام به "القعقاع".

- **أتباع ابن سبأ يفسدون الصلح ويبدءون المعركة**:

كانت نقطة الضعف التى فى معسكر الإمام "على" هى وجود كثيرين ممن اشتركوا فى قتل "عثمان" والتخطيط له، وعلى رأسهم "**عبدالله بن سبأ**"، و "**الأشتر النخعى**"، ولم يكن لعلى حيلة فى وجودهم معه، ولا قدرة على إبعادهم، لكونهم قوة كبيرة تساندهم عصبات قبلية، وقد أدرك زعماؤهم الذين تولوا كبر الثورة على "عثمان" أن الصلح بين الفريقين سيجعل "عليًّا" يتقوى بانضمام الفريق الآخر إليه، ويقيم الحد عليهم باعتبارهم قتلة "عثمان"، فعزموا على إفساد الأمر كله.

وترتب على هذا العزم أن عقد "ابن سبأ" لهم مؤتمرًا تدارسوا فيه الأمر، فاقترح "الأشتر" أن يقتلوا "عليًا" كما قتلوا "عثمان" من قبل، فتهيج الدنيا من جديد، ولا يقدر عليهم أحد، لكن هذا الاقتراح لم يعجب "ابن سبأ"، فهو يريد أن يدخل الأمة كلها فى حرب طاحنة، لا أن يقتل فرد واحد وإن كان خليفة المسلمين، فأمرهم بشن هجوم فى ظلام الليل على جيش "عائشة" و "طلحة" و "الزبير"، بدون علم الإمام "على"، فاستجابوا لرأيه، وبينما الناس نائمون مطمئنون بعد أن رأوا بوادر الصلح تلوح فى الأفق، إذا بهم يفاجئون بقعقعة السلاح، وكانت هذه هى بداية حرب "الجمل" المشئومة التى راح ضحيتها خيرة الصحابة "طلحة" و "الزبير" المبشران بالجنة، ونحو عشرين ألفًا من المسلمين.

- **أسباب خروج عائشة ومن معها**:

لم تكن أم المؤمنين "عائشة"، ولا "طلحة" ولا "الزبير" ولا أمير المؤمنين "على" يريدون سفك الدماء، ولا يتصورون حدوث ذلك، وكل ما دفع السيدة "عائشة" ومن معها إلى الخروج إنما هو اقتناعهم بأن "عثمان" قُتل مظلومًا، وعليهم تقع مسئولية إقامة الحد على قتلته، ولم يكونوا أبدًا معادين لعلى، أو معترضين على خلافته، وقد رأينا ميلهم جميعًا إلى الصلح،

لولا أن أتباع "ابن سبأ" (السبئية) أفسدوا كل شىء وأشعلوا الحرب، ولقد ندمت السيدة "عائشة" ندمًا شديدًا على ماحدث، وقالت: "والله لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة".

وخلاصة القول أن تبعة هذه المأساة تقع على عاتق "السبئية"، فهم الذين أشعلوا الفتنة من البداية، وقتلوا خليفة المسلمين ظلمًا، وأشعلوا حرب "الجمل"، أما الصحابة، فقد وصف "ابن خلدون" موقفهم وصفًا دقيقًا، فقال: "وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت القوم أجمعين، وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة".

5- معركة صفين:

بعد معركة "**الجمل**" توجه "على ابن أبى طالب" بجيش يبلغ عدده نحو مائة ألف إلى "صفين"، واستعد "معاوية" لمقابلته بجيش يقاربه فى العدد، ودارت بينهما معركة شرسة فى شهر صفر سنة (37هـ) قُتِل فيها من الجانبين نحو سبعين ألفًا، خمسة وعشرين ألفًا من جيش "على"، وخمسة وأربعين ألفًا من جيش "معاوية"، ولما رأى الناس كثرة القتلى من الجانبين تنادوا يطلبون وقف القتال، فجعل أهل "العراق" (جيش "على") يصيحون فى أهل الشام (جيش "معاوية") قائلين: من لثغور "العراق" إن فنى أهل "العراق". ويرد الآخرون: من لثغور الشام إن فنى أهل الشام. ومن هنا جاءت فكرة التحكيم.

- التحكيم:

رفع جيش "معاوية" المصاحف للاحتكام إليها، ووقف القتال فورًا، بدلا من سفك الدماء، وكانت فكرة التحكيم من عند "**عمرو بن العاص**"، وقد قبلها الطرفان، وأوقفت الحرب، بعد أن فزع الناس لكثرة عدد القتلى. وأوقفت الحرب، وطلب من "على" و "معاوية" أن ينيب كل منهما شخصًا يتفاوض باسمه، للفصل فى القضايا محل الخلاف، فأناب "معاوية" "**عمرو بن العاص**"، وأناب "على" "**أبا موسى الأشعرى**" على كره منه وذلك فى شهر صفر (37هـ) وكان "على" قد حاول أن ينيب عنه "**عبدالله بن عباس**"، لكن أنصاره، وبخاصة من أبناء "اليمن" بزعامة "الأشعث بن قيس"، رفضوا ذلك بحجة عصبية، وأعلنوها صراحة، كيف يكون الخلاف بين رجلين من "قريش"، ثم يكون الحكمان رجلين من "قريش" أيضًا، لقد حسدوا قريشًا على زعامتها للدولة الإسلامية التى استحقتها بسابقتها فى الإسلام، لا بنسبها فقط.

واتفق على أن يأخذ الطرفان مهلة مدتها ستة أشهر، تهدأ فيها النفوس، ويجتمع الحكمان للتباحث والوصول إلى حل، وبعد مفاوضات طويلة وصل الحكمان إلى نتيجة رأياها

أفضل الحلول، وهى عزل "على" ﷺ عن الخلافة، ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملى فى إدارة البلاد التى كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين، فيبقى كما كان: "على" يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه عدا الشام، و"معاوية" يتصرف فى البلاد التى تحت حكمه (الشام).

- موقف على وأنصاره من التحكيم:

اجتهد الحكمان فيما توصلا إليه، وأعلناه على الناس، غير أن "عليًّا" ﷺ لم يقبل تلك النتيجة، واعتبر الحكمين قد تجاوزا حدودهما؛ لأن الخلاف لم يكن على منصب الخلافة، وإنما على إقامة الحد على قتلة "عثمان"، وبيعة "معاوية" له، أيهما يسبق الآخر، ولذلك عدَّ نفسه فى حل من هذه النتيجة، فعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم، أى إلى حالة الحرب.

6- ظهور الخوارج:

حاول "على" أن يدعو أنصاره إلى حرب "معاوية" من جديد لكنهم كانوا قد ملوا القتال، وتقاعسوا عنه، بل إنهم انقسموا إلى "شيعة" وافقوه على ماصنع "وخوارج" اعتبروا التحكيم كان خاطئًا من أساسه، مع أنهم هم الذين فرضوه عليه، ثم تجاوزوا ذلك إلى ما هو أكثر تطرفًا، فاتهموا "عليًّا" بالكفر، لأنه حكَّم الرجال فى القرآن، وصاغوا شعارًا أخذوا يرددونه "الحكم لله لا لك يا على"، وكان هو يقول لهم: "كلمة حق أريد بها باطل"، وطالبوه بأن يعلن كفره، ويتوب ويسلم من جديد، حتى يعودوا إليه ويقاتلوا معه، فإذا لم يفعل فسوف يقاتلونه.

- الاتفاق بين على ومعاوية:

بعد انقسام جبهة "على" إلى "شيعة" و "خوارج" ازداد موقفه ضعفًا؛ لأن صراعه مع "الخوارج" كبده متاعب جسيمة، وفى الوقت نفسه كان موقف "معاوية" يزداد قوة، وبخاصة بعد أن استطاع الاستيلاء على "مصر" سنة (38هـ)، بجيش قاده فاتحها الأول "عمرو بن العاص"، ونشر قوات له فى أطراف "العراق"، وضم "اليمن" إليه، وأصبحت دولته تتسع بمرور الزمن، فى الوقت الذى تضيق فيه دولة "على".

وانتهى الأمر بأن جرت بينهما مفاوضات طويلة، اتفقا على وضع الحرب بينهما وتكون لعلى "العراق" وبلاد فارس ولمعاوية الشام فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة .. وتراضيا على ذلك" .. وهكذا أجبرت الظروف التى تكون أحيانًا أقوى من الرجال "على بن أبى طالب" أن يصالح "معاوية"، ويسلم له بنصف الدولة الإسلامية تقريبًا،

يحكمها حكمًا مستقلا، وهو الذى رفض فى بادئ الأمر إبقاءه واليًا على الشام وحدها يأتمر بأمره، وينتهى بنهيه.

7- إدارة الدولة وتثبيت الفتوحات فى عهده:

على الرغم من الظروف الصعبة التى واجهت الإمام "عليًا" ﷺ فإنه أدار الدولة باقتدار وعدالة ونزاهة وتجرد، ولم يقصر في شأن من شئونها، واتخذ من "الكوفة" عاصمة لدولته منذ أن خرج من "المدينة" إلى "البصرة" وبعد معركة "الجمل"، وظل يحكم منها إلى أن لقى الله، وعهد بإدارة بقية أجزاء دولته إلى أقرب الناس إليه، وأخلصهم له، فجعل "عبدالله بن عباس" واليًا على "البصرة" وأخاه "عبيد الله بن عباس" واليًا على "اليمن"، وأخاهما الثالث "قثم بن عباس" على "مكة" و "الطائف"، وعزل "قيس بن سعد" عن "مصر"، وولى مكانه "محمد بن أبى بكر الصديق". ولا لوم على "عثمان" و "على" إذا وليا أهل قرابتهما؛ لأن كل واحد منهما اجتهد لمصلحة الأمة، وكان أمينًا عليها، فعهد بإدارة الدولة إلى من رأى أنهم ينفذون سياسته، ولم يولِّ أى منهما أحدًا محاباة أو لقرابة.

ولم تشغل الإمام "عليًا" مشكلات الدولة الداخلية عن التصدى لمحاولات الانتقاض التى حدثت فى بلاد فارس، فقد حاول الفرس تكرار ما فعلوه بعد استشهاد "عمر بن الخطاب"، فأرسل إليهم "**زياد بن أبيه**" فى جمع كثير، "فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرمت، فلم يزل يبعث إلى رءوسهم، يعد من ينصره ويعينه، ويخوّف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضًا، وصفت له فارس، فلم يلقَ منهم جمعًا ولا حربًا".

أما الروم فلم يتحركوا؛ لأن الإمبراطور "**قنسطانز**" رأى بأن غزوه لمصر والشام سيجعل المسلمين يتصالحون ويتحدون ويقاتلوهم جميعاً، ولن يقوى عليهم، ورأى أن يتركهم يقتل بعضهم بعضًا حتى يضعف شأنهم.

8- استشهاد على رضي الله عنه:

جاءت نهاية الإمام "على بن أبى طالب" على يد "**الخوارج**"، أنصاره السابقين، الذين بلغ بهم الغلو والتطرف حدًا اعتبروا فيه "عليًا" و "معاوية" و "عمرو بن العاص" أئمة ضلالة، وحمّلوهم مسئولية ما حدث، وقرروا قتل الثلاثة جميعًا، واتفقوا أن يتم التنفيذ فى وقت واحد، هو فجر اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة (40هـ)؛ تيمناً بذكرى معركة "بدر" حسب

تصور نفوسهم المريضة وعقولهم الفاسدة، وانتدبوا ثلاثة للقيام بهذه المهمة، هم "**عبدالرحمن بن ملجم**"، و "**البرك بن عبدالله**"، و "**عمرو بن بكر**"، على أن يذهب الأول إلى "الكوفة" لقتل "على"، والثانى إلى "دمشق" لقتل "معاوية"، والثالث إلى "مصر" لقتل "عمرو بن العاص".

وشاءت إرادة الله – تعالى – أن ينجو "معاوية" و "عمرو" من القتل، وأن تكون الشهادة من نصيب "على"، حيث ضربه "عبدالرحمن بن ملجم" بسيف مسموم فى جبهته، فشقها فمات من أثر الضربة بعد وقت يسير، بعد أن قضى أربع سنوات وبضعة شهور، لم يذق فيها طعم الراحة، وحاصرته المشكلات والمتاعب، وأنهكته الحروب من كل جانب.

خامسًا خلافة الحسن بن على (40 - 41هـ):

وبعد وفاة الإمام "على" بايع أنصاره ابنه "الحسن"، وكان "**جندب بن عبد الله**" قد دخل على الخليفة بعد طعنه وتيقن ألا أمل فى حياته، وسأله: "يا أمير المؤمنين إن فقدناك – ولا نفقدك – أنبايع للحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر"، ولم يوصِ لأحد من بعده، بل قال لهم: "ولكن أدعو الله – تعالى– أن يجمعكم بعدى على خيركم كما جمعنا بعد نبينا على خيرنا" –يقصد أبا بكر–، مرسخًا بذلك قاعدة الشورى التى اتُبِعَت فى بيعته هو وبيعة الثلاثة الراشدين من قبله. وقد أراد أنصار "الحسن" أن يتأهبوا لقتال "معاوية" من جديد، لكنه رفض، ورأى عدم جدوى ذلك، بل إنه وقف ضد فكرة اقتتال المسلمين من البداية.

وراسل "الحسن" "معاوية" بشأن الصلح، فسر به سرورًا عظيمًا، وجاء إلى "الكوفة" فى شهر ربيع الأول سنة (41هـ)، بعد ستة أشهر من خلافة "الحسن"، وبايعه "الحسن" و"الحسين"، وتبعهما الناس، وبهذا قامت الدولة الأموية رسميًّا، وأصبح "معاوية" خليفة للأمة الإسلامية كلها، ولُقب لأول مرة بأمير المؤمنين، وكان يلقب قبل ذلك بالأمير فقط.

واستبشر المسلمون خيرًا بتلك المصالحة، وحمدوا الله على انتهاء الفتنة وسفك الدماء، وسمُّوا ذلك العام "عام الجماعة"، وترك صنيع "الحسن" صدى طيبًا عند جمهور المسلمين، وأثنى عليه كثير من علماء أهل السنة، ورأوا فيما فعل تحقيقًا لنبوءة جده محمد ﷺ، الذى قال "ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".

سادساً: التنظيم الإداري:

1. الخُلفاء والولاة والعمَّال:

امتاز عصر الخلافة الراشدة باتّباع الدولة مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان التنظيم الإداري في الدولة يتألّف من سلطة مركزية يترأسها الخليفة، وإدارات إقليمية تتفرّع عنها للإشراف على ولايات الدولة المختلفة، تعمل مثل الإدارة المحلية في العصر الحديث، وعُمِلَ في إدارة الولايات على فصل السلطة التشريعية -التي يترأسها الخليفة – عن السلطة التنفيذية -التي يترأسها الولاة –، كما فُصِلَ جهاز القضاء عن السلطة الحاكمة.

كانت الخلافة تتمُّ بالبيعة، حيث يبايع الناس الخليفة على أن ينتهج سنة الله ونبيه ﷺ في حكمه لهم، وإن التزم بذلك فإن البيعة قائمة، وإن نكصه بَطُلَت وأُلغيت، وإذا ما التزم الخليفة، فإنّ حكمه كان يدوم مدى الحياة، وكان الحكم الأول والأخير في جميع الأمور هو للخليفة نفسه. لم تكن هناك في عهد الخلفاء الراشدين قيادةٌ جماعية للدولة، ولم يكن للخليفة نائب ولا ولي ولا وكيل، إلا إن اضطرّ للغياب فإنّه يُعيّن عندها من يتولّى مكانه ويُدبِّر شؤون الدولة إلى حين عودته، تعد دولة الخلفاء الراشدين هي نظام الحكم الإسلامي المثالي في خلافة الرسول، خصوصاً في عهدي أبي بكرٍ وعمر، وهي النموذج الذي يصبو إليه مؤيّدو الخلافة الإسلامية في العصر الحديث.

واختلفت سياسات الخلفاء الراشدين وطرق تعاملهم مع شؤون الدولة فيما بينهم، فكانت لكلِّ منهم معاييره الخاصة في انتقاء الولاة والعمّال على أقاليم الدولة. فعمرُ كان يرى دائماً تقديم الصحابة للولاية، وأما عثمانُ فلم يكن يهتم بذلك كثيراً، وكان يضع الأولوية لقوة وأمانة الوالي، فيما أنّ علياً كان يضع الأولوية للقوة والشدة، وعندما يأتي ولاته الأفعال غير المناسبة كان يعالج ذلك بمعاقبتهم وتقويمهم، ورغم ذلك، فقد اتّجه جميع الخلفاء بالمجمل إلى تولية الصّحابة لقدراتهم ومؤهلاتهم، وكان معظم ولاتهم من صحابة الرسول. ولم تدم ولاية العامل لمدّة معيّنة، وإنّما كانت ترجع إلى رضا الخليفة عنه وعن نجاحه في إدارة ولايته. وقد شملت مهامُّ الوالي تحصين الثغور وتدريب الجنود وتقصّي أخبار الأعداء، وتعيين العمال والموظّفين الأقل رتبة على المدن، وإعمار الولايات (كحفر العيون والأنهار وتعبيد الطرق وإقامة الجسور والأسواق والمساجد وتخطيط المدن وغيرها، إلا أنّ سلطات العمّال وأعمالهم اتسعت تدريجياً مع تقدم الخلافة الراشدة، حتى امتلكوا في عهد عثمان سلطاتٍ عسكرية كاملة، حيث يقومون

بالفتوحات ويبنون الحصون، إلا أنَّ هذه الصلاحيات لم تتسع لتشمل السلطة المالية التي بقيت في أيدي عمّال الخراج وجامعي الصدقات والزكوات.

وبعد تولِّي أبي بكرٍ الحكم، رفض عددٌ من ولاة النبي ﷺ أن يعملوا لغيره من الخلفاء، فتنازلوا عن مناصبهم، وقام أبو بكر بتعيين ولاة جدد. قام عمر بن الخطاب – بعد الفتوحات الواسعة التي شهدها عصره – بتقسيم دولة الخلافة الراشدة إلى ولاياتٍ مختلفة، وعيَّن على كل ولاية منها عاملاً ينوب عنه في تدبُّر شؤون حكمها، وكان يراقب ويحاسب هؤلاء العمّال بدقّة، حيث كان أقسى الخلفاء الراشدين في معاملة الولاة وأشدّهم إصراراً على التقشُّف والتزام العدل، حتى أنه كان يستدعيهم في الحج من كلِّ عامٍ لتفقُّد أحوالهم،وكان يطلب من حملة البريد أن يقفوا (بعد وصولهم إلى الولايات والأقاليم) فيسألوا الناس من عنده شكوى على الوالي، وذلك ليرسلها إلى الخليفة دون تدخُّل الوالي نفسه وحيوله دون وصول الشكوى.وإلى جانب العمال، كان هناك في كل ولاية قاضٍ لتولِّي القانون وعامل خراج لتحصيل الضّرائب .

وأسَّس عمر عدَّة أنظمةٍ للمساعدة في إدارة هذه الأقاليم وتنظيمها، من أبرزها **العسس والحسبة والبريد والقضاء**، وقرَّر عمر أن على الأراضي المفتوحة أن تظلّ تحت إدارة فاتحيها لأنهم الأدرى بها والأكثر قدرةً على الانتفاع منها، فعُرِفَ ذلك باسم **الخراج**، وقد أمر عمر بإلغاء العديد من الضرائب التي قد فرضها الفرس والبيزنطيون، وأعفى النساء والأطفال والشيوخ والفقراء من أداء الجزية، إلا أنَّ عثمان لم يدر الدولة في تُعييّن الولاة بنفس صرامة عمر، بل يعتقد الكثيرون أنه حابا بعض أقربائه ونسبائه بمنحهم منصب الولاية، فكان ذلك سبباً في ثورة أهالي الأقاليم عليه وتشكِّيهم من ظلم أقربائه.وقد خلع عليٌّ عند تولِّيه الخلافة معظم ولاة عثمان، ورغم أنه ولّى عمالاً من أقاربه مثل عثمان، إلا أنّه حاسبهم بصرامةٍ عندما ارتكبوا التجاوزات، مثل **عبد الله بن عباس** الذي عزله عن البصرة.

2. الولايات والأجناد:

لقد انقسمت دولة الخلافة الراشدة في عهد أبي بكر إلى سبع ولايات، هي:الحجاز ونجد والبحرين وعمان واليمن مع حضرموت والعراق والشام .وكانت المدينة عاصمة الدولة التي تخضع لإدارة الخليفة المباشرة، فإن تغيَّب لسببٍ ما ولّى أحدًا مكانه عليها إلى حين عودته.وكان تقسيم الدولة في عهد أبي بكر أشبه بامتدادٍ للتقسيم الذي تم العمل به في العهد

النبوي. لكن الدولة اتّسعت اتساعاً كبيراً في عهد عمر حتى شملت الكثير من البلاد الجديدة، وكان سُكّان هذه البلاد من الشعوب المتحضِّرة المتطورة، فأخذ العرب عنهم وسائلهم في التّقسيم الإداري، ويعد عمر أوّل من وضع نظام تقسيم إداريٍّ متطور للدولة الإسلامية. انقسمت فارس في عهد الدولة الراشدة إلى ثلاثة ولايات، **والعراق** إلى ولايتين(**البصرة والكوفة)**، **والشام** إلى ولايتين **(دمشق وحمص)**، **وفلسطين** ولاية مستقلة، وشمال أفريقيا إلى ثلاث ولايات. ولم يشهد عهد عثمان ولا علي لاحقاً تغيّرات أو تطوّرات إداريّة ذات شأن بعد ما أنجزه عمر. قام عمر خلال فترة تولّيه الخلافة بتوحيد اليمن تحت حكم والٍ واحد، وأما بلاد الشام فقد عاملها كمقاطعاتٍ عسكرية مؤقتة، حيث قُسِّمَت بين فاتحيها إلى **خمسة أقسامٍ سُمِّيت أجناداً**، وكانت هذه الأجناد هي: **(جند دمشق وجند حمص وجند قنسرين وجند الأردن وجند فلسطين)** ولم يُستَعمل تقسيم الأجناد هذا في أي ولاية أخرى من ولايات الدولة، وكانت بعض هذه الأجناد تُجمَع أحياناً تحت إدارة والٍ واحد، حيث ضُمَّت – على سبيل المثال – قنسرين وحمص معاً إلى معاوية بن أبي سفيان عام 31هـ، وبعدها جند فلسطين، وكذلك كانت اليمن تُقسَّم أحياناً إلى ولايتين فيتبع قسمٌ منها صنعاء والآخر الجند، وأحياناً أخرى تُوحَّد ضمن ولاية واحدة.

3. الشورى:

تفاوت الخلفاء الراشدون في منهج تطبيقهم للشورى وتعاملهم مع السياسة، فكان أبو بكرٍ على سبيل المثال يستشير ثم يُقرِّر، فيما كان عمر يستشير ثم يُنفِّذ، ولم يكن مجلس الشورى في عصر الراشدين يتألّف من عددٍ محدد من الناس، ولم تكن آراء أهل الشورى ملزمةً للخليفة، ولم تكن تتخذ القرارات فيه بالأغلبية أو بالجماعة، بل كان البتُّ الأخير في الأمر للخليفة نفسه، اعتمد أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان بصورةٍ كبيرة على الشورى، فكانت لها آثارٌ إيجابية كبيرةٌ خلال فترات حكمهم، وساعدت على اتخاذ وتسوية القرارات والخلافات في تدبير شؤون الدولة. لكن من جهةٍ أخرى، اختلفت هذه الحال في عهد علي، ففي بداية حكمه كان يستشير صحابة المدينة مثل باقي الراشدين، وكانت أمور الشورى تسير جيداً، إلا أنّه بعد انتقاله إلى الكوفة لم يكن حوله من يعتمد عليه من الصحابة، فقد أصبح معظم من حوله من جيل التابعين الأقل منزلة، فخسرت الشورى نتائجها المرجوّة التي حقّقتها

في عهد من سبقوه من الخلفاء. ورغم أن الشورى استمرّت في الدولة الإسلامية بعد انقضاء عهد الراشدين، فإنّها لم تكتسب قطّ الأهمية والقوة التي اكتسبتها في عهدهم.

وللشورى في عهد الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة، كان منها ما عَقُبَ وفاة الرسول مباشرةً، حيث كان قدّ أعد جيشاً بقيادة أسامة بن زيد لغزو الدولة البيزنطية، وعسكر الجيش خارج المدينة ينتظر حشد المقاتلين، إلا أنَّ النبي محمّداً توفِّي في هذه الأثناء، وبدأت حركة الردة. وأمر أبو بكرٍ أسامة بالسير بجيشه، لكنَّ عدداً من الصحابة قلقوا من تهديد المرتدِّين للمدينة بينما يتجه كلُّ رجاله لغزو الروم، فجاء إلى أبي بكرٍ، عمر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، وطلبوا منه تأجيل حملة أسامة إلى ما بعد القضاء على حركة الردة، حتى يأمنوا خطر المرتدِّين، إلا أنَّ أبا بكرٍ أقنعهم بعد أن ذكّرهم بتوصية الرسول بإنفاذ حملة أسامة وهو على فراش الموت، وقد أعاد أبو بكرٍ الكرة عند وفاته، حيث طلب من الصحابة في البداية اختيار خليفتهم بأنفسهم، فلمّا احتاروا في أمرهم طلبوا منه أن يرشِّح لهم أحداً، ففكّر في عمر، وأخذ يشاور الصَّحابة في أمره، حتى قرَّر ترشيحه للخلافة، ويمكن القول أنَّ مجلس شورى أبي بكر تألّف بصورةٍ أساسية من **عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت.**

4. الشرطة:

اتّسم جهاز الشرطة في عهد الخلافة الراشدة بالبساطة، وكان في البداية تابعاً للنظام القضائي يُعنَى بتطبيق الأحكام القضائية، ثمّ تطور فانفصل عن القضاء وصار لكلِّ مدينةٍ نظام شرطة، لم يكن للشرطة وجودٌ حقيقيٌّ طوال عهدي أبي بكرٍ وعمر، حيث كانت الدولة عسكرية اعتمدت في الجيش على حماية أمنها، لكنَّ الحاجة برزت للشرطة بعد انقضاء عهد عمر، كان **أول من أسَّس نظام العسس** للقيام بمهامّ **الشرطة في الليل** هو **عمر بن الخطاب،** والذي كان يتولّى مهامَّ العسس هذه بنفسه مع الصحابي عبد الرحمن بن عوف، وكان كذلك أول من أنشأ حبساً لاعتقال الجناة أطلق عليه السّجن بعد أن كان هؤلاء يحبسون في المساجد، ثم قام **عثمان** بتأسيس أجهزة شرطة في الولايات والأقاليم، فكان **أول من أنشأ جهاز الشرطة** في الدولة الراشدة، وقام من بعده **علي بن أبي طالب** بتنظيم جهاز الشرطة في عهده، وعيَّن له رئيساً يُسمَّى **صاحب الشرطة،** وعُرِفَت هذه باسم **شرطة الخميس.**

5. القضاء:

اهتمَّ الخلفاء الراشدون بتحرِّي العدل وتطبيقه طوال فترة حكمهم، لكونه إحدى قيم المجتمع الإسلامي المهمة، وقد قامت الدولة الراشدة على احترام حقوق الإنسان والعدل، رغم أنَّ هذه القيم انهارت بدرجةٍ كبيرة بعد انتهاء الدولة وانبثاق الخلافة الأموية وما تبعها من دولٍ عنها، قام أبو بكر في عهده – مثل الرسول ﷺ – بأداء مهمَّة القضاء والتحكيم بنفسه، إلى جانب عددٍ من الصحابة الذين كان يستشيرهم الناس، وكان أول من بدأ بتعيين القضاة على ولايات الدولة وأقاليمها البعيدة هو عمر، فقد كان عمر أوَّل من فصل السلطة القضائية عن سلطة الحكم، وعيَّن قضاة لكل الولايات، وقد قام بسنِّ قوانين وأحكام لقضاة الدولة ليسيروا عليها، وأمرهم بتحرِّي العدل.

6. الدواوين:

نشأ نظام **الدواوين** في الدولة الإسلامية خلال عهد الخليفة عمر، واختلف المؤرخون في توقيت هذا، فيقول الطبري أن الدواوين تأسَّست عام 15 هـ (636م)، بينما يذكر الماوردي أنها تأسَّست عام 20 هـ. ويُروَى أنَّ ذلك كان عندما جاء أبو هريرة من إقليم البحرين ومعه نصف مليون درهم، فخطب عمر بالناس مقترحاً طرقاً لتوزيعها، وكان أن أشار أحد الحاضرين إلى تدوين ديوانٍ تُسجَّل فيه هذه الأجور، فأمر عمر بذلك. ولاحقاً مع ازدياد تدفُّق أموال الغنائم من فتوح فارس والشام ظهرت الحاجة إلى تنظيم توزيع وتشغيل هذه الأموال، فأنشأ عمر لذلك ديوان بيت المال، وكانت تلك بداية العمل بالدواوين في تاريخ الإسلام، وقد توسَّعت الدواوين لاحقاً، فنشأ ديوان العطاء لتنظيم منح الأعطيات للناس (وفاضل عمر بين الناس، فجعل الأولوية لآل البيت، فالأسبق إسلاماً، فالأسبق جهاداً، فالأقدر قتالاً)، وكذلك ديوان الجيش لتسجيل أسماء الجنود والمقاتلين وتنظيم صرف مُرتّباتهم، وديوان الاستيفاء لتسجيل وحساب خراج البلاد المفتوحة.

سابعاً: الاقتصاد:

1. الموارد الاقتصاديَّة:

سارت دولة الخِلافة الراشدة بمنهج يعمل على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها، وكانت حاصلاتها تأتيها عن طريق: **الزكاة، والعُشور، والجزية، والأخماس،**

والفيء، والخِراج، والغنائم العسكريّة، أمَّا **الزكاة** فهي **المبلغ السنويّ الذي يتوجّب على كُل مُسلمٍ أن يدفعه بحال تخطّت ثروته نسبة مُعيّنة**، وهي فري**ضة من الفرائض الإسلاميّة وركُنٌ من أركان الإسلام**، أمّا فُقراء المُسلمين المُعدمين أو الذين لم تتخطّ ثروتهم تلك النسبة فلا تُفرض عليهم الزكاة بل قد يكونوا من مُستحقيها. وتصل نسبة ما يدفعه المُسلم المُقتدر منها سنويًّا إلى 2.5% من مدخوله السنويّ، وقد سار الخُلفاء الراشدين على نهج النبيّ مُحمَّد ﷺ الذي شرّعه الإسلام، فكانوا يجمعون الزكاة ويوزعونها على فُقراء المُسلمين بالعدل.

أمّا **الخِراج** فهي **الضريبة المفروضة على الأرض التي فتحها المُسلمون عنوة، أي بالسيف**. ولم تُقسم بين الغانمين، فهذه تصير للمُسلمين، يضرب الإمام أو الخليفة عليها خِراجًا معلومًا يُؤخذ في كل عام، وتقر في أيدي أربابها ما داموا يؤدون خراجها، سواء كانوا مُسلمين أو من أهل الذمّة، ولا يسقط خراجها بإسلام أربابها ولا بانتقالها إلى مُسلم، بل إذا أسلم أهلها أو انتقلت إلى مُسلم يجتمع مع الخراج أيضًا عُشر ما تخرج، زكاةً عليها، ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر، وهذا وفق رأي جمهور العُلماء المُسلمين**وأوّل من وظّف الخراج هو عُمر بن الخطّاب** عندما فُتح العراق، حيث اجتهد مع الصحابة، ولم تُقسم بين الفاتحين وضرب عليها الخِراج، وكذلك سائر ما فُتح في عصره، كأرض الشام ومصر وغيرها، لم يقسم منها شيء، وضرب عليها الخِراج.وكان هُناك نظامين لجباية الخِراج: **نظام المُقاسمة ونظام الالتزام**، وكان الخُلفاء الراشدون يُعينون عمّالًا مُستقلين عن الولاة والقادة لجباية الخِراج، وكان يجب أن تتوفر فيمن يتولى جباية الخِراج شروط مُعيّنة، فهو يجب أن يكون فقيهًا وعالمًا ومشاورًا لأهل الرأي، ويشتهر بالعفّة والتُقى. أمّا نصاب الخِراج فهو ما يُعادل عشرون دينارًا ذهبيًّا.

كذلك اعتمد الخلفاء على "**العُشور**"، وهي **ما يُقابل الجمارك والضرائب على التجار في الزمن المُعاصر، وأوّل من اعتمدها كان عُمر بن الخطّاب** كذلك، فبعد فتح الشام كتب إليه أبو موسى الأشعري يُخبره أنّ السلطات البيزنطيّة في الشام كانت تأخذ من التجار العُشر قبل الفتح الإسلامي، وكانوا يأخذون من التُجّار المُسلمين نفس القدر، فكتب له عُمر بأن يأخذ منهم كما كانوا يأخذون من تُجّار المُسلمين، وأن يأخذ من تُجّار أهل الذمّة نصف العُشر ومن المسلمين 2.5%، وجعل حد الإعفاء 200 درهم. أمّا **الجزية** فهي **مبلغٌ من المال يدفعه من توافرت فيه شروطٌ خاصّة، وتُشبه الخِراج، ووُجبت على أهل الكتاب الذين سبقوا المُسلمين في الإيمان**

بالله، وهم اليهود والمسيحيين والصابئة المندائيين، كما وُجبت الزكاة على المُسلمين حتى يتكافأ الفريقان في عيشهما في وطنٍ واحد، والجزية تجب على الرجال الأحرار العُقلاء الأصحَّاء القادرين على الدفع، ولا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدَّق عليه، أو الأعمى أو المُقعد، ولا تجب على النساء والأطفال. وبناءً على هذا كان المُسلمون يعفون من الجزية الرُهبان والمطارنة والأحبار المُعتكفين في الأديرة والصوامع، أمَّا نسبتها فكانت تقل عن نسبة الزكاة التي يدفعها المُسلمون، أي أقل من 2.5% سنويًّا.

كانت الغنائم العسكريَّة إحدى موارد الدولة الإسلاميَّة الرئيسيَّة، فقد أصاب المُسلمون نجاحًا كبيرًا في فتوحاتهم وعادوا بغنائم عظيمة، في مُقدِّمتها غنائم قصور فارس وإيوان كسرى، التي قيل بأنّها كانت "تفوق الوصف لكثرتها وعظمتها"، حتّى أصاب الفارس منهم إثنا عشر ألف دينار بعد أن عثروا على كنز كسرى في القصر الأبيض مما لم يستطع **يزدجرد** حمله فأخفاه في القصر، فأُرسلت تلك الغنائم إلى عُمر في المدينة حيثُ قام بتقسيمها بين المُسلمين على أساس الخُمس، وبناءً على هذا، فإنَّ **الخُمس** يُقصد به **دفع خُمس المال المغنوم في الحرب** وفق ما جاء في القرآن: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الأنفال: 41]، وهي محل خِلاف حاليًّا بين السُنَّة والشيعة. أخيرًا، كان من بين موارد الدولة الماليّة **المالُ الفيء،** وهو **كُل ما حصل عليه المُسلمون من ممتلكات الحربيين بدون قتال، وهو يُطلق أيضًا على ما بذله الطرف الآخر من أموال ومعدات للمُسلمين كي يكفّوا عن قِتالهم،** وورد ذِكره في القرآن بسورة الحشر: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الحشر:7].

2. بيتُ المال:

عرف المُسلمون نِظام بيتِ المال مُنذ عهد النبيّ ﷺ، فقد كان النبيُّ يُعينُ أُمراء وعُمّال الأقاليم، وكانت مُهمّة كُل أمير أن يقوم بجمع الصدقات والجزية وأخماس الغنائم والخِراج. وفي عهد عُمر بن الخطّاب اضطرَّ المُسلمون إلى تنظيم الجهاز المالي للدولة تنظيمًا أدق وأشمل بسبب توسّع الفتوحات وتدفّق الأموال على العاصمة وازدياد عدد المُسلمين بما فيهم من تجب عليه الصدّقة، فأمر عُمر على الفور بوضع الدواوين على غِرار دولتيّ الروم

والفُرس، فأنشأ **ديوان العطاء وديوان الجُند وديوان الجباية**، وقيل: بأنّ **خالد بن الوليد أو الهُرمزان أوالوليد بن هشام بن المُغيرة**، أشار بإنشاء مثل هذه الدواوين لإحصاء الأموال وطريقة توزيعها، وكانت سياسة عُمر بن الخطّاب تقوم على عدم ادِّخار الأموال في بيت المال للنوائب.

3. العِملة النقديَّة:

كان النظام المالي القائم في بداية العهد الراشدي هو نفس النظام الذي ساد فيصدر الإسلام، وهو نفسه الذي ساد أيّام الجاهليّة قبل ظهور الإسلام، وأقرّه النبي ﷺ، وسار عليه أبو بكر، ثمّ عُمر في بداية عهده، ولكن عندما اصطدمت الخِلافة الإسلاميّة بدولٍ ذات أنظمة نقديّة ثابتة، في فارس والشام ومصر، أصبح من الضروري التعامل مع تلك الأنظمة بنظامٍ نقديّ ثابت بدوره، فأظهرت الحاجة ضرورة وجود عملات تضربها الدولة الإسلاميّة، فظهرت عملات عُمر بن الخطّاب. وأبقى عُمر على النقود الذهبيّة والفضيّة التي كانت مُتداولة وعليها نقوشٌ بيزنطيّة مسيحيّة أو فارسيّة، لكنّه أضاف إلى هذه النقود كلمة "**جائز**" ليُميّزها عن النقود الزائفة. وفي سنة18 هـ المُوافقة لسنة639 م، أصبح **عُمر أوّل من ضرب النقود في الإسلام**، فاعتمد النقش الفارسي، وأضاف إليها عبارة "الحمد لله" وفي بعضها "لا إله إلا الله" وعلى جزء منها اسم "عُمر"، أمّا عُثمان بن عفّان فاكتفى بنقش "الله أكبر".

ثامناً: التركيبة السكَانيَّة:

1. المُسلمون:

كان مجتمع المسلمين متماسكاً بقوّة في بداية عصر الخلافة الراشدة، وكان الناس راضين عن الحكم وكانت الدولة في هذه الفترة لا زالت متواضعة اقتصادياً، فقد عاش سكانها حياة بسيطة، وانشغلوا بالقتال والفتوحات عوضاً عن تحسين ظروفهم المعيشية. إلا أنّ المال بدأ يكثر بعد ذلك نتيجة الفتوحات، خصوصاً في عهد عثمان، فارتفعت معيشة الناس، وأصبحوا أكثر تطلّباً، ومع توسُّع الدولة وازدياد وتيرة الفتوحات، أخذت التركيبة السكانية بالتغيُّر، إذ استقرّ كثيرٌ من العرب والمسلمين الفاتحين في البلاد المفتوحة حديثاً، فأقاموا فيها، واختلطوا بسكانها، ومن جهةٍ أخرى، قلّ سكان شبه الجزيرة العربية من العرب والمسلمين، إذ توجّه كثيرٌ منهم إلى الأمصار الجديدة للقتال أو غيره، خصوصاً سكان المدينة، فيما أنّ

الأجانب من الموالي والرق تدفقوا إلى المنطقة قادمين من الأقاليم المفتوحة، وتغيَّرت تركيبتها بصورةٍ كبيرة نتيجة لذلك، فأصبحت منطقةً مختلطة لا متجانسة. وقد تشكّلت بعض الفئات الطبقية في المجتمع بسبب هذه التغيُّرات، على عكس ما كان في السَّابق، انقسم المسلمون انقساماً كبيراً في عهد عثمان، إذ بدأ البعض بالاعتراض على عددٍ من السياسات التي كان ينتهجها في الحكم، واندلعت الفتنة في الدولة، حتى انتهى الأمر باقتحام منزل عثمان وقتله. استمرَّ هذا الانقسام في أيّام علي، خصوصاً بالنسبة لبني أميّة الذين ترك العديد منهم المدينة متّجهين إلى مكة، وتفرّق المسلمون بين فئتين: **أنصار علي ومؤيّدو خلافته (شيعة علي)، وأنصار عثمان المطالبون بالثأر من قتلته (شيعة عثمان)**، وكان من أبرز قادة الفئة الثانية **معاوية بن أبي سفيان وعائشة**، وتطوَّر هذا الانقسام إلى صراعٍ ومعارك عدّة دارت بين الطرفين، من أبرزها موقعة الجمل، ومعركة صفين، وازداد الانقسام حدة بظهور فئة جديدة أطلق عليها **الخوارج** إنشقوا عن معسكر علي بن أبي طالب، وظلّ الأمر على هذه الحال حتى مقتل عليّ على يد أحد هؤلاء الخوارج عام 40هـ-661م، وتسليم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، لتنتهي بذلك دولة الخلافة الراشدة وتخمد الفتنة.

2. الموالي وأهل الذمة:

بصورةٍ عامة، التزم الخلفاء الراشدون في تعاملهم مع غير المسلمين وغير العرب من سكان الجزيرة العربية والأقاليم المفتوحة (الموالي وأهل الذمة) نفس أسلوب النبي ﷺ، وذلك بضمان حقوقهم وكفل حرياتهم، وقد كان العاجزون والفقراء من غير المسلمين في الأماكن المفتوحة يُعفَون من الجزية، وأحياناً كانت تتمُّ إعانتهم بأعطياتٍ من بيت مال المسلمين .وكان أبو بكرٍ يأمر قادة الفتوحات بألا يتعرّضوا لأماكن عبادة غير المسلمين ولا يضايقوا أهلها، كما أعطى قادته العسكريّين عدّة توصيات أخرى لإحسان معاملة أهل الشام غير المسلمين عند فتحها، فقال: "**يا أيُّها الناس، قِفُوا أوصِيكم بعشرٍ فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرُّونَ بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع؛ فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له**". وكذلك خطب عمر عند دخوله القدس فاتحاً معطياً أهلها الأمان وكافلاً حرّياتهم الدينية، وكتب عمرو بن

العاص في عهده لأهل مصر بعد فتحها: "**هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ومِلّتِهم، وأموالِهِم، وكنائسِهِم، وصُلُبهم، وبَرِّهِم، وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا يُنتَقَص، ولا يساكنهم النُّوب** (أي أهل النوبة)".

تاسعاً: الجيش الإسلامي:

كان **عُمر بن الخطّاب أوّل من نظّم الجيش الإسلامي تنظيمًا حديثًا** بعد أن رأى ضرورة ذلك بفعل انتشار رقعة الإسلام، وأدرك أهميَّة الجيش في نشر الإسلام حتى أقصى الأصقاع المعروفة، لذلك أوجد فرقًا نظاميَّة تُقدَّر كلٌّ منها بأربعة آلاف فارس لتُرابط في كُل بلد من البُلدان الداخلة ضمن الحظيرة الإسلاميَّة. وهذا يعني تأسيس جيشٍ نظاميّ ثابت يُقدّر باِثنيّ وثلاثين ألف فارس عدا المُشاة والمُتطوعين مما يكفل حماية الدولة، ونظّم الرُتب في الجيش على أساسٍ عشريّ، فكان "**أمير الجيش**" على رأس عشرة آلاف عسكريّ أو أكثر بقليل، و"**أمير الكردوس**" على ألف، و"**القائد**" على مئة. وكان أبرز جزء من **سلاح المُشاة هو المُبارزون**، وهؤلاء كانوا في الغالب من أكثر الرجال قوّةً وشدّةً، ومُهمّتهم الأساس **تقويض الروح المعنويَّة للعدوّ، فكانوا يتقدمون لتحدّي أبطال الجيش المُقابل وقتلهم قبل بداية المعركة.** أمّا **سلاح الفُرسان** فكان أحد أنجح أسلحة ذلك العصر، واشتهر بكونه سلاحًا خفيفًا اعتمد عليه المُسلمون في مُقارعة الروم والفُرس في اليرموك والقادسيَّة، فكان سببًا من أسباب تفوقهم، إذ أنّ الفُرس والروم لم يُحسنوا استعمال هذا السلاح كما العرب، وكان هذا السلاح ينقسم إلى خيَّالة وهجّانة، **والخيَّالة** هم الفرسان مُمتطي الخيول، **والهجّانة** هم مُمتطي الجِمال، وبعض تلك الأخيرة كان يُستعمل في القتال وبعضها الآخر في نقل المياه والمؤن. بالإضافة إلى سلاح الفُرسان والمُشاة، قام **خالد بن الوليد** بتنظيم **سلاح الجاسوسيَّة،** وكانت مُهمّته الأساسيَّة **ضبط مُخابرات العدوّ ومعرفة تحرّكاته ونشاطاته، وكان الكثير من الجواسيس من أبناء القبائل العربيَّة قاطنة المناطق حديثة الفتح.**

وكان الجيش الإسلامي في عهد الخُلفاء الراشدين يتسلّح بأسلحة عهده المألوفة، وفي مُقدمتها **السيوف العربيَّة القصيرة**، وال**سيوف الفارسيَّة الطويلة والرماح والقسيّ والسهام،** وبعض هذه الأسلحة حصل عليها العرب عبر التجارة مع الشام والعراق وفارس وبيزنطة

ومصر، وبعضها الآخر كان غنيمة المعارك مع الروم والفُرس. وكان المُشاة أكثر الجنود تدرُّعًا، وارتدوا في بداية عهدهم الجلد القاسي المصنوع محليًّا في شبه الجزيرة العربيَّة، ثمَّ تحوّلوا إلى ارتداء دروعًا سلسليّة يُحتمل أنّها كانت من الغنائم وكان الفارس والراجل يحمل درعًا مصنوع من الجلد المُقوّى يقيه ضربات السيوف ويحميه من السهام. ولمّا احتكَّ المُسلمون بالروم في أطراف شبه الجزيرة العربيّة وفي الشام، اقتبسوا عنهم استعمال أسلحة الحِصار مثل المنجنيق والأبراج والدبّابة وأكباش الدّك.

- القوّات البحريَّة:

كان عُمر بن الخطّاب يكره ركوب البحر، ونهى قادة جيشه عن القتال فيه، وقد قام بعزل العلاء بن الحضرمي والي البحرين لأنّه ركب البحر في اثنيّ عشر ألفًا غازيًا بلاد فارس. وكان عامل الشام مُعاوية بن أبي سُفيان قد كتب إلى عُمر بن الخطّاب يطلب الإذن بإنشاء أسطول بحري إسلامي يواجه الروم ويعين على حصار طرابلس التي صمدت في وجه ضربات الجيوش الإسلامية، فرفض طلبه، ونصحه بإصلاح الحصون الساحليّة القديمة التي تركها العدو عوض ذلك، وإنشاء مناظر لترقّب الأعداء واتخاذ المواقيد لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجئ، وبعد وفاة عُمر عاود مُعاوية الكتابة إلى عُثمان بن عفّان يستأذنه في فتح جزيرة قبرص، ولكن الخليفة كرر الأمر بالالتزام بالسياسة الدفاعيّة المقرَّرة، ولكن بعد أن زاد تهديد الروم لسواحل الشام وافق الخليفة على بناء أُسطول إسلامي على أن لا يجبر الوالي المسلمين على ركوب البحر إلا باختيارهم، فشُيِّدَ أسطولٌ قويّ تمَّ بوساطته فتح جزيرتيّ قبرص ورودس، ولمّا اشتبك ذلك الأسطول مع أسطول الروم في مياه الإسكندريّة تمكّن من إنزال الهزيمة الفادحة به وأضحى سيّدَ البحر المتوسّط دون مُنازع.

ولمعت أسماء عدَّة قادة عسكريين في الجيش الإسلامي الراشدي وحُفظ ذكرهم في التاريخ ، ومنهم: **خالد بن الوليد وأبي عُبيدة بن الجرّاح وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقّاص**، وهم الذين أظهروا من النبوغ والمهارة في قيادة الجيوش وفنون الحرب.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير (عز الدين): **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولي، 1987م.
2. جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، جامعة بغداد، الطبعة الثانية، 1993م.
3. ابن حجر العسقلاني: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الجبل، بيروت، الطبعة الأولي، 1992م.
4. ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، المكتبة السلفية، القاهرة، ط3، 1407م.
5. سليمان الطماوي: **عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
6. السيد سابق: **فقه السنة**، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولي، 1988م.
7. السيوطي (جلال الدين): **تاريخ الخلفاء**، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
8. الصالحي (محمد بن يوسف): **سبيل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1413هـ = 1993م.
9. الطبري: **تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1418 هـ ـ 1998م.
10. عباس محمود العقاد: **عبقرية عمر**، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.
11. ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله): **الدرر في اختصار المغازي والسير**، دار المعارف، ط2، 1983م.
12. ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن): **فتوح مصر وأخبارها**، صححه: هنري ماسية، القاهرة، 1914م.
13. عبد الحي الكتاني: **التراتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية**، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
14. ابن كثير (إسماعيل بن عمر): **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 1408هـ = 1988م.
15. محمد بن الحسن الشيباني: **كتاب السير الكبير**، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، 1971م.
16. محمد حسين هيكل: **الفاروق عمر**، دار المعارف القاهرة، بدون تاريخ.
17. محمد أبو زهرة: **خاتم النبيين**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولي، 1973م.
18. محمد أبو شهبه: **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولي، 1988م.
19. محمد صادق عرجون: **محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة**، دار القلم، دمشق، ط1 1405 هـ = 1985م.
20. محمد بن عبد الله الأزدي: **فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، 1970م.

الفصل الثاني

الدولة الأموية

(41-132هـ)

الفصل الثاني

الدولة الأموية (41-132هـ)

الدولة الأموية هي أكبر دولة وثاني خلافة في تاريخ الإسلام، وواحدةٌ من أكبر الدُّوَلِ الحاكِمة في التاريخ، كان بنو أمية أُولى الأسر المسلمة الحاكمة، إذ حكموا من سنة 41 هـ (662م) إلى 132 هـ (750م)، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق، بلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في **عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك**، إذ امتدت حدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من فتح أفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر.

ويرجع نسب الأمويين إلى **أميّة بن عبد شمس** من قبيلة قريش، وكان لهم دورٌ هام في عهد الجاهلية وخلال العهد الإسلامي. وأسلَم **معاوية بن أبي سفيان** في عهد الرسول ﷺ، وتأسست الدولة الأموية على يده، وكان قبلاً واليًا على الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ثم نشب نزاع بينه وبين **علي بن أبي طالب** بعد فتنة مقتل عثمان، حتى تنازل ابنه **الحسن** عن الخلافة لصالح معاوية بعد مقتل أبيه علي، فتأسست الدولة الأموية بذلك. وأخذ معاوية عن البيزنطيين بعض مظاهر الحكم والإدارة، إذ جعل الخلافة وراثيّة عندما عهد لابنه يزيد بولاية العهد، واتخذ عرشًا وحراسًا وأحاط نفسه بأبّهة الملك، وبنى له مقصورة خاصّة في المسجد، كما أنشأ **ديوان الخاتم ونظام البريد.** بعد وفاة يزيد اضطربت الأمور، فطالب **عبد الله بن الزبير** بالخلافة، ثم تمكن **عبد الملك بن مروان بن الحكم** من هزيمته وقتله في مكة سنة 73هـ، فاستقرت الدولة مجدداً.

وجرت أكبر الفتوحات الأموية في عهد **الوليد بن عبد الملك**، فاستكمل فتح المغرب، وفُتحت الأندلس بكاملها، كما فُتحت **السند** بقيادة **محمد بن القاسم الثقفي**، وبلاد ما وراء النهر بقيادة **قتيبة بن مسلم**، ثم جاء بعده الخليفة **سليمان بن عبد الملك** الذي توفي مرابطًا في **مرج دابق** لإدارة **حصار القسطنطينية**، ثم الخليفة الزاهد **عمر بن عبد العزيز**، الذي يُعد من أفضل الخلفاء الأمويين سيرةً. ثم ابن عمه **يزيد بن عبد الملك**، ثم أخيه **هشام** الذي فُتح في عهده جنوب فرنسا، وكان عهده طويلاً وكثير الاستقرار، وبعد موته دخلت الدولة في حالة من

الاضطراب الشديد، حتى سيطر **مروان بن محمد** على الخلافة، فأخذ يتنقل بين الأقاليم ويقمع الثورات والاضطرابات، ثم التقى مع **العباسيين** في **معركة الزاب** فهُزم وقُتل، وكانت نهاية الدولة الأموية.

وشهد عهد الدولة الأموية ثورات وفتناً كثيرة، وكان منفذوا أغلب هذه الثورات إما **الخوارج** أو **الشيعة**، كما اعترض **الحسين بن علي** على حكم يزيد فلم يبايعه، بل قاومه وخرج إلى العراق مستجيباً لمن بايعوه، فَتَصَدّتْ له جيوش الأمويين في **معركة كربلاء** التي انتهت بمقتله. وقامت بعدها ثورات شيعية كثيرة للثأر له، منها: **ثورة التوابين، وثورة المختار الثقفي**، ثم هدأوا بعد قمعهما أكثر من نصف قرن حتى **ثورة زيد بن علي**، ثم ثار الخوارج مراراً وتكراراً ولم يهدؤوا إلا لقرابة عشرين عاماً بين أواسط **عهد عبد الملك وبداية عهد يزيد**. وقد كان لأشهر ولاة الأمويين **الحجاج بن يوسف الثقفي** دور كبير في إخماد هذه الثورات وتهدئتها خلال أواخر القرن الأول الهجري، خصوصاً وأنه كان والي العراق والمشرق، التي كانت – وخصوصاً مدينة الكوفة - ألد أعداء الحكم الأموي، فيما كانت الشام تعد حليفة الأمويين وعاصمتهم. ومن أعنف الثورات التي قامت على الدولة الأموية أيضاً ثورتا **عبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الأشعث.**

أولاً: التأسيس وخلافة معاوية:

لقد اشتعلت الفتنة في الدولة الإسلامية في عهد الخليفة **عثمان بن عفان** ، وأخذت بالانتشار شيئاً فشيئاً، ثمّ أدت إلى مقتله سنة35هــ، ولكن الفتنة لم تنته بذلك، فجاءَ عهد **علي بن أبي طالب** مليئاً بالقلاقل والنزاعات التي فشل في إنهاء مُعظمها. وفي سنة 40هــ اتفق ثلاثة من الخوارج - هُم **عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله التميميّ وعمرو بن بكر التميميّ السعديّ** - على أن يَقتل الأول منهم علياً بن أبي طالب والثاني معاوية بن أبي سفيان– والي الشام آنذاك– والثالث عمرو بن العاص– والي مصر آنذاك – معاً في نفس الليلة، فنجح الأول في مهمّته، وأما الاثنان الآخران ففشلا وقُتلا.

وبعد مقتل علي مُباشرة بايع أهل العراق ابنه **الحسن** على الخلافة، فيما بايع أهل الشام بدورهم **معاوية بن أبي سفيان**. وهُنا حشد معاوية جيوشه وسار إلى الحسن، غير أن الحسن رفضَ القتال، وراسل معاوية للصُلح، فسر هذا سروراً كبيراً بالعرض ووافق عليه، وعُقد الصلح في شهر ربيع الثاني سنة41هــ (أغسطس سنة661م)، وهكذا تنازل **الحسن** عن الخلافة لمعاوية، وسُمّي ذلك العام **بعام الجماعة**؛ لأن المسلمين اتفقوا فيه على خليفة لهم بعد خلاف طويل دام سنوات.

وكانت حركة الفتوحات الإسلامية قد توقّفت تماماً منذ اشتعال فتنة مقتل عثمان سنة35هــ، وظلّت متوقفة طوال عهد **علي بن أبي طالب**، حيث كانت الدولة منشغلة بنزاعاتها الداخلية. لكن بعد الاجتماع مجدداً على خلافة معاوية عادت الفتوحات من جديد، وقد ركّزت الفتوحات في عهده على الحرب مع البيزنطيين (في شمال أفريقيا والجبهات البحرية) وفتوحات المشرق (في سجستان وخراسان وبلاد ما وراء النهر، وتوقّفت الفتوحات في أرض الأناضول منذ فترة طويلة قبل حكم معاوية عند سفوح جبال طوروس قربَ مدينة مرسين، وهُناك أقام كل من المسلمين والروم على جانبي الحدود حصوناً وقلاعاً كثيرة، وعلى الرُّغم من الغزوات الكثيرة التي شنّها المسلمون في عهد معاوية (خصوصاً الصوائف والشواتي) فلم تتغير حدود الدولتين كثيراً. لكن من أبرز أحداث عهده تمكّن المسلمين من استعادة أرمينيا (والتي كانوا قد فتحوها سابقاً، لكنهم خسروها في أيام الفتنة)، بالإضافة إلى أن بعض **غزوات الصوائف والشواتي** التي تمكّنت من التوغل في الأناضول حتى **عمورية** (وهي قريبة من مدينة أنقرة).

كما أرسل معاوية سنة(50هـ–670م) حملته الأولى لفتح **القسطنطينية**، وكانت بقيادة **سفيان بن عوف الأزديّ**، لكنها فشلت وحل الشتاء وصعبت ظروف القتال، وفي آخر الأمر عادت خاسرة إلى الشام، وقُتل فيها الكثير من المسلمين بينهم **الصحابي أبو أيوب الأنصاري**. ثم أرسل حملته الثانية بقيادة **فضالة بن عبيد الأنصاري** سنة53هـ(673م)، وتمكّن الأسطول في طريقه من **فتح جزيرتي أرواد، ورودس** الواقعتين على ساحل آسيا الغربيّ، وقد أقام جيش المسلمين فيهما سبع سنين وجعلهما قاعدة لحصار القسطنطينية منها، ولذلك فقد سُميت أيضاً بـ"**حرب السنين السبعة**"، وكان المسلمون يُحاصرون المدينة خلال الصيف، ثم يرحلون في الشتاء، غير أن الروم صمدوا، واضطّرّ معاوية بن أبي سفيان في النهاية إلى سحب الأسطول وإعادته إلى قواعده دون فتح القسطنطينية سنة 60هـ (680م).

لقد وضع معاوية بن أبي سفيان **عقبة بن نافع** قائداً على جيش المغرب، وكان هو الذي قادَ العديد من الحملات في عهد معاوية في تلك البلاد. وبنى عقبة بإذن من معاوية **مدينة القيروان** بين سنتي 50و55هـ لتُصبح مركزاً للمسلمين تنطلق منه قواتهم للغزوات، وذلك بعد أن توسّعت بلادهم وأصبحت أرض مصر بعيدة، كما عقدَ مع قبائل البربر، وأقام معهم علاقات طيّبة، ونجح في إدخال الكثير من قبائلهم في الإسلام. وعسكرياً، وتتابعت فتوحات المغرب سيرها في عهد معاوية حتى فُتحَ أغلب المغرب الأوسط، ووصلت جيوش المسلمين إلى تلمسان، وأما في جبهة الشرق، فقد فتحَ المسلمون **سجستان فقوهستان** في سنتي 43-45هـ، وغزو **بلاد اللان** وما وراء النهر والسند وجبال الغور، غير أن أهالي هذه المناطق كانوا يَنكثون العهد مرة بعد أخرى، فعاد المسلمون لفتحها مجدداً مراراً وتكراراً.

وكان من أبرز التغيرات على الصّعيد السياسيّ في عهد **معاوية بن أبي سفيان**، أنه **نقلَ عاصمة الدولة من الكوفة إلى دمشق**، وقد أثار هذا سخطَ بعض أهل العراق والحجاز، كما شهدت الدولة في عهده فترة من الاستقرار والرخاء، ومُتابعة الفتوحات بعد توقف طويل، وقد **ألغى معاوية في عهده نظام مجلس الشورى**، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّ يَستشير أصحابه ومن حوله دائماً في أغلب أفعاله، وقد **أنشأ نظاماً للشرطة لحماية وحراسته يُعيّنه بنفسه**، كما **طوّر ديوان البريد وأنشأ ديواناً جديداً لتنظيمه أكثر هو ديوان الخاتم.**

ثانياً: انتقال الحكم إلى المروانيين:

قامت الكثير من القلاقل في بداية عهد **معاوية بن أبي سفيان،** حيث حاولَ **الخوارج** أن يثوروا من جديد على الخلافة، ولذلك فقد قاتلهم معاوية، وبحلول عام 45هـ نجحَ في إخماد ثورتهم وعادَ الاستقرار الداخليُّ إلى الدولة، وظلّ الوضع كذلك حتى وفاة معاوية سنة 60هـ(680م). وكان معاوية قد جعل أهل الشام والمدينة يُبايعون ابنه **يزيد** منذ سنة50هـ، فكان ذلك، وأصبح يزيد وليِّ العهد، وبما أنه كان بعيداً عن دمشق عند وفاة والده فقد أخذ البيعة له **الضحاك بن قيس،** وعندما عاد بدأت الوفود بالقدوم لتعزيته بوفاة أبيه وتهنئته بالخلافة.

وأعاد **يزيد** تعيين **عقبة بن نافع** قائداً لجيوش المغرب، فقادَ هذا حملته الكبيرة سنة62هـ التي عبرَ فيها ساحل شمال أفريقيا بأكمله حتى بلغ مدينة طنجة على سواحل المحيط الأطلسي، وهُناك قال مقولته الشهيرة: "**اللهم أشد أني قد بلغت المجهول، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد، أقاتل من كفر بك حتى لايعبد أحد دونك**"، لكن عندما كان عائداً من حملته هذه لم يَكن معه سوى جيش صغير من 300 مقاتل بعد أن سرَّحَ معظم جيشه وتركه يَسير أمامه على مسافة بعيدة، وعلمَ بذلك الرُّوم، فتحالفوا مع الأمير البربري **كسيلة بن كمرم،** ونصبوا كميناً لجيش المسلمين، **وقُتلَ في الكمين عقبة بن نافع** وكل من كانوا معه، كما قتلَ في الكمين قائد المغرب السَّابق **أبو المهاجر بن دينار،** وكان ذلك في عام 63هـ، وإثرَ اندحار جيش المسلمين فقد تمكّن كسيلة على رأس جيوش البربر من شقّ طريقه بسهولة واستعادة أرض أفريقية ومدينة القيروان، ومضى زمنٌ طويل قبل أن يَستعيد المسلمون هذه المناطق، واضطرُّوا على إثر ذلك إلى الانسحاب حتى إقليم برقة، كما شهدَ عهد يزيد بعض الفتوحات المحدودة في المشرق بخراسان وما وراء النهر.

لكن ظهرت مُشكلة جديدة مع بداية عهد **يزيد،** فقد كان من ضمن شروط تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية أن يُصبح هو الخليفة بعد وفاة معاوية، غير أنه توفيِّ قبل معاوية بعشر سنوات، وعندما حدثَ ذلك اجتمع أهل الكوفة في بيت **سليمان بن صرد الخزاعيّ،** واتفقوا على مُراسلة أخيه **الحسين بن علي** بالقدوم إليهم لمُبايعته على الخلافة، وقد ارتاب **عبد الله بن عباس** من هذه الدعوة، ونصح الحسين بالحذر من أهل الكوفة وعدم الاستجابة له، غير أن **عبد الله بن الزبير** حثّه على الذهاب وأقنعه بالاستجابة إليهم، فاقتنع **الحسين** بذلك،وكان

الحسين قد رفضَ بيعة يزيد من قبل (وكان معارضاً لها منذ تعيينه ولياً للعهد،وعندما جاءته رسائل أهل الكوفة أرسل ابن عمّه **مسلم بن عقيل؛** ليستطلع الأوضاع، فبايعه هناك أكثر من 12,000 من أهل المدينة، وعندما علمَ يزيد بذلك عزل **النعمان بن بشير** عن ولايتها وعيَّن مكانه **عبيد الله بن زياد،** فقبضَ هذا سريعاً على مسلم بعد أن تركه أهل الكوفة وانفضُّوا عنه وقتله، ووصلت هذه الأخبار إلى الحسين وهوَ في طريقه، لكن رجاله -وعددهم 70 - أصرُّوا على مواصلة السير للثأر لمسلم، والتقى هؤلاء قربَ **كربلاء** بجيش يفوقهم عدداً بـــ50 ضعفاً بقيادة **عمر بن سعد بن أبي وقاص،** وعلى الرغم من عرض الحسين السلام فقد أصرَّ عمر على أن يُسلِّم الحسين نفسه كأسير حرب أو أنه سيبدأ القتال، ورفضَ الحسين، فوقعت **معركة كربلاء** في 10 محرم سنة61هــ (12 أكتوبر سنة680م)، **وقُتلَ الحسين وكل من كان معه، وكانت تلك بادرة لانقسامات كبيرة في الدولة الإسلامية ستدوم قروناً طويلة.**

وكان عهد **يزيد** مليئاً بالفتن والقلاقل والانقسامات، ولذلك فقد سُمي بـــ«**الفتنة الثانية**»، وكان من أكبر هذه الفتن في عهده مقتل الحسين، ويَبقى حادث آخر إلى جانبها، فعندما قُتلَ الحسين استغلَ **عبد الله بن الزبير** الحدث ليُشهِّر بيزيد ويُحرض أهل الحجاز عليه، وبالفعل بايعه أهل الحجاز ومصر، وحاصروا بني أمية في المدينة بمنزل **مروان بن الحكم،** فغضب يزيد غضباً جماً، وأرسل إلى المدينة جيشاً بقيادة **مسلم بن عقبة،** وأمره بمحاصرتهم ثلاثة أيام، فإن أبوا إطلاق سراح بني أمية ومُبايعته فليقاتلهم، وعندما بلغَ المدينة دخلها من جهة تُسمِّى **الحرة،** وهناك التقى أهلها، لكنهم رفضوا مبايعة يزيد، وكانت **موقعة الحرة** سنة 61هــ، وهُزِمَ أهل المدينة وقتل300منهم، ودخل مسلم المدينة عنوة واستباحها وقتل الكثير من أهلها وأجبرهم على مُبايعة يزيد بالقوّة، وبعد هذه الأحداث سارَ مسلم نحو مكة للقضاء نهائياً على **ثورة ابن الزبير،** وقد توفيِّ مسلم في الطريق إلى مكة، فأكمل قيادة الجيش"**الحصين بن نمير**"، لكن عندَ وصوله وجدَ ابن الزبير ورجاله مُعتصمين في الكعبة أملاً في الحصول على الأمان نظراً إلى حرمتها. غير أن جيش يزيد نصبَ المنجنيقات حول الكعبة وأخذ بضربها، وكان ذلك في صيف عام 64هــ(683م)، لكن سُرعان ما وصلت أنباء وفاة الخليفة يزيد، فاضّطرب الجيش وعادَ إلى الشام تاركاً ابن الزبير دون قتله.

وكان يُفتَرض أن يَرث **معاوية بن يزيد** الحُكم بعد أن عيَّنه والده ولياً للعهد قبل وفاته، لكنه تنازل عن الخلافة وقال **أنه لا يُمكنه حمل عاتقها**، وتوفيَّ بعد ذلك بأسابيع، وهُنا تقدم **شيخ بني أمية ووالي المدينة مروان بن الحكم**، وطالبَ بالخلافة لنفسه وبايعه أهل المدينة واليمن، غير أن ابن الزبير أعلنَ نفسه خليفة في الآن ذاته، وبايعه أهل العراق ومصر بل ومعظم أهل الشام، ومنهم **الضحاك بن قيس الفهري**، فسارَ إليه مروان والتقاه في **معركة مرج راهط**، وقُتل الضحاك في المعركة وبُويع مروان، وقد استعادَ أيضاً مصر دون قتال كثير، كما أنه قضى سريعاً على **ثورة التوابين** عندما واجه **عبيد الله بن زياد** بجيش قوامه 60,000 مقاتل الثائرين الـ3,000، غير أن مروان سُرعان ما توفيَّ في شهر رمضان سنة 65هـ (685م) بعد حكم دامَ عشرة شهور. وقد تابع بعده ابنه **عبد الملك**، لكنه استلمَ الحكم وبلاد المسلمين مقسومة بين خمس دول، فإلى جانب **الدولة الأموية في مصر والشام** كانت هناك **دولة ابن الزبير في الحجاز والعراق**، كما نجحَ **المختار الثقفي** بعد ثورته في السِّيطرة على **الكوفة**، وسيطر بعض **الخوارج** بعد ثورتين على إقليمي **الأهواز والنجدات**، سُرعان ما قضى **مصعب بن الزبير** بجيشه على **المختار الثقفي**، والتحمَ عبد الملك بعد ذلك معه في «**معركة دير الجاثليق**» سنة 71هـ فاستعاد العراق، وفي آخر الأمر أرسلَ جيشاً بقيادة **الحجاج بن يوسف الثقفي** إلى مكة سنة 73هـ فحاصرَ ابن الزبير هُناك في الكعبة، وضربَ الكعبة بالمنجنيقات كما حدثَ من قبل، فأصابت الحجارة ابن الزبير وصرعته. كوفئ الحجاج بأن أصبح والي العراق والمشرق، وهكذا استتبَّ الحكم أخيراً لخليفة واحد في البلاد بعد أن عصفَت الصراعات الداخلية بالدولة الأموية لعقد ونصفٍ تقريباً، وسُميت سنة 73هـ بـ"**عام الجماعة الثاني**".

ثالثاً: عهد عبد الملك وأبنائه:

لم تستتبَّ الأمور تماماً في الدولة بسقوط الدولة الزبيرية، إذ ظلّت مشكلة **الخوارج**، الذين كلّف عبد الملك **المهلب بن أبي صفرة الأزدي** بقتالهم. وفي سنة 76هـ هاجمَ **صالح بن مسرح، وشبيب بن يزيد الخارجي** خيلاً لمحمَّد بن مروان (والي الجزيرة) وسرقاها، وكان معهم آنذاك 120شخصاً بايعا شبيب على الخلافة من أهل البصرة بعد أن نادى بها لنفسه، وبعدها دخلَ في حرب طويلة مع والي العراق والمشرق -**الحجاج بن يوسف**- الذي

سيَّر إليه جيوشاً ضخمة، وقيل أنه خاضَ مع **شبيب** 83 معركة في 100يوم، ولم يَربح منها كلها سوى واحدة. وفي آخر الأمر فرَّ شبيب من جيوش الحجاج، ولكنه **سقطَ في نهر بينما كان يَعبر جسراً في الأهواز وغرق بسبب ثقل دروعه سنة 73هـ**، وبعدها لم تقم للخوارج قائمة حتى عهد **عمر بن عبد العزيز**.

وقد تسبَّبت النزاعات الداخلية في الدولة بشلّ حركة الفتوحات لعقد تقريباً، لكن عندما اتّحدت الدولة أخيراً من جديد في عام 73هـ **(عام الجماعة الثاني)** عادت الفتوحات من جديد. تولّى **زهير بن قيس البلوي** قيادة جبهة **المغرب** بعد موت عقبة بن نافع، وعزمَ على الثأر له، غير أنه لم يَستطع التحرك حتى عام 69هـ بسبب مشكلات الدولة الداخلية، وحينها قادَ جيشه نحوَ المغرب واستعاد القيروان وقتل قائد البربر **كسيلة** في "**معركة ممس**"، لكنّه قتل بدوره في كمين بيزنطيٍّ خلال عودته سنة 71هـ، وبعد مقتل ابن الزبير عيَّن عبد الملك **حسان بن النعمان** مكان زهير وأعطاه جيشاً ضخماً من الشام ومصر قوامه 40,000 مقاتل، وتمكّن من القضاء على الوجود البيزنطيّ في شمال أفريقيا، كما دمّر مدينة **قرطاجنة**- أكبر مركز بيزنطي في المنطقة- بعد أن اقتتل فيها مع الروم والبربر وأجبرهم على الهرب نحو **صقلية والأندلس**، لكنه مع ذلك هُزم على يد **الكاهنة** التي كانت تقود البربر خلفاً لكسيلة، وبعدها عادَ الروم البيزنطيون إلى قرطاجنة وعاثوا فيها فساداً، ولكن عبد الملك لم يَستطع إمداده بجيش لمقاومتهم. وفي النهاية وصلَ المدد أخيراً فتوجَّه إلى قتال البربر سنة82هـ وقتلَ كاهنتهم، ثم فتح فاس وقرطاجنة وجلّ المغرب، وبنى قربَ قرطاجنة **مدينة تونس** التي لا زالت قائمة إلى اليوم، وأما على جبهة الشام والأناضول فقد اضطرَّ عبد الملك لمصالحة البيزنطيين ودفع مال لهم أثناء صراعه مع ابن الزبير لأنه لم يَكن يستطيع الدفاع ضد هجماتهم، لكن بعد انتهاء الصراع سنة 73هـ (692م) كانت **لعثمان بن الوليد** موقعة كبيرة معهم في **أرمينيا**، حيث التقى 60,000 منهم بجيش قوامه 4,000، فهزمهم وقتل الكثير منهم، وتُعرف هذه الموقعة بـ«**معركة سبياستوبولس**»، وقد تبعها فتح مُجمَل أرمينيا وضمُّها إلى الدولة الأموية.

لقد كانت هناك غزوات كثيرة في عهد عبد الملك لبلاد ما وراء النهر، لكنها لم تُفتَح، حيث كان المسلمون يغزونها ويغنمون منها ثمَّ يَنسحبون عائدين إلى معاقلهم، ومن أبرز غزواتهم **غزوة بخارى** سنة 80هـ. وقد كان من ملوك هذه الأرض الكبار ملك يُسمَّى "**رتبيل**"

غزاه المسلمون مراراً وتكراراً، فغزاهم سنة 79هـ وقتل أميرهم "**عبيد الله بن أبي بكرة**" فجهّز **الحجاج بن يوسف** جيشاً كبيراً سُمي بـ **(جيش الطواويس)** وأعطاه **لعبد الرحمن ابن الأشعث؛** ليغزو به رتبيل (على الرغم من البغض المتبادل الذي كان بين عبد الرحمن والحجاج)، فغزا ابن الأشعث رتبيل وفتح الكثير من أراضيه، لكنه أوقفَ القتال ولم يُكمل الفتوحات بعد ذلك، إنّما حرّض جيشه على الحجاج وعلى خلعه بل وخلع الخليفة، فوافقوه وبايعوه، وكانت تلك بداية واحدة من أعنف الثورات ضد الحُكم الأموي على الإطلاق، مع أن وازعها لم يَكن دينياً أو مذهبياً إنما شخصياً، دخل ابن الأشعث **البصرة** وتبعه أهلها، ثم طُردَ منها فذهب إلى **الكوفة،** وقربها دارت **وقعة دير الجماجم** سنة 83هـ وهُزِمَ فيها، فهربَ إلى **سجستان، وانتحرَ** هناك، كان والي العراق والمشرق (خراسان وسجستان وغيرها) طوالَ عهد عبد الملك وجزء كبير من عهد ابنه من بعده هو **الحجاج بن يوسف الثقفي،** وقد كان له دورٌ كبيرٌ في إخماد الخوارج وتهدئة الأوضاع في العراق بعد أن عصفت بها الثورات طوال العقود السابقة، حيث اتّخذ سياسة ترهيب ضدّ أهلها، وكان يُلاحق قادة الخوارج وكل من يَدعون لعصيان الخليفة وقتل الكثير منهم، وقد خلّف هذا سمعة سيّئة للدولة الأموية عند أهلها (على الرغم من أنهم كانوا بالفعل يبغضون الأمويين) كانت سبباً مهماً وبارزاً في سُقوط الدولة لاحقاً، كما فصلت بين أهل الشام كمؤيدين للخلافة وأهل العراق كمعارضين لها. وقد منحَ هذا الأمر الحجاج سُمعة سيئة في العراق، ويَقول البعض عنه أنه قتلَ 100 ألف من أهلها، ولو أن مثل هذا الرّقم غير مُثبَت.

وكان من أبرز الإنجازات في عهد عبد الملك أيضاً بناء **مسجد قبة الصخرة** في القدس بجوار المسجد الأقصى سنة 691م، كما أنه عرّب **الكثير من الدواوين وعرب سكّ النقود للمرة الأولى في تاريخ الدولة،** وقد توفيّ **عبد الملك بن مروان** سنة 86هـ(705م)، تاركاً الحكم لابنه **الوليد،** وقد جرت في عهده فتوحات عظيمة، وبلغت فيه الفتوحات الأموية ذروتها، حيث أنها يُمكن أن تعد الذروة الثانية **للفتوحات الإسلامية** بعدَ أيام **عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان.**

وعُزلَ **حسان** عن المغرب في عهد عبد الملك، وعُيّن مكانه **موسى بن نصير** سنة 86هـ، وقد سارَ على رأس جيش كبير، وأتمّ فتح المغرب، ونجحَ في إدخال الكثير من قبائل البربر بها في الإسلام، وفي سنة 90هـ وصل إلى مدينة **طنجة،** ففتحها ووضعَ فيها حامية

من12,000 رجل بقيادة **طارق بن زياد الليثي**، وقال **ابن الأثير:** أنّ أمير مدينة **سبتة** "**يوليان**" دعى ابن نصير بنفسه لفتح الأندلس وتخليصه من حكم **(القوط الغربيين)** الذي كانوا حكامها آنذاك، وأخبره بأن البلاد كانت في حالة من الفوضى والنزاعات الداخلية وأنها لن تشهد مقاومة كبيرة. وقد استأذن ابن نصير الخليفة في الفتح، فأذن له إن تأكد من حسن نوايا يوليان، فأرسل حملة استطلاعية من 500 رجل بقيادة **طريف بن مالك،** الذي أكد له أقوال يوليان، فأرسل **طارق بن زياد** مع 7,000جنديٍّ إلى الأندلس في شهر رجب سنة 92هـــ (مايو سنة711م)، وهُنا عادَ ملك البلاد **(رذريق)** وسارَ إليه بـــ100,000رجل، فأمده ابن نصير بخمسة آلاف، والتقى الجيشان في **معركة وادي لكة** التي **انتصرَ فيها المسلمون وقُتل رذريق، وفُتحت الأندلس بعدها مدينة تلو الأخرى دون مقاومة تُذكَر**، لكن وعلى الرُّغم من رغبة موسى بن نصير في إكمال الفتوحات، بل ونيّته في فتح أوروبا كلها من الأندلس حتى يَبلغ **القسطنطينية** من الغرب، فقد عارضَ الوليد بن عبد الملك مثل هذا الأمر بشدة لما قد يَعود به من عواقب على جيوش المسلمين في تلك البلاد البعيدة، وأمر ابن نصير وطارق بن زياد بالعودة إلى دمشق، فامتثلا لأمره وبقيا هناك حتى وفاتهما، وتوقّفت فتوحات أوروبا إثر ذلك حتى نهاية عهد الوليد.

وفي بلاد الروم –البيزنطيين– استمرَّ الصوائف والشواتي على الدوام، لكن كانت الحدود الفعلية شبه ثابتة، حيث يَعود المسلمون دائماً إلى حصونهم بعد الغزوات. ومن الغزوات الكبيرة غزوتان **لمسلمة بن عبد الملك،** واحدة سنة 89هـــ وصلَ فيها حتى مدينتي **عمورية وهرقلية،** وأخرى في سنة 92هـــ عبرَ فيها كل الأناضول حتى بلغ **بحر مرمرة،** كما غزا المسلمون في البحر جزيرتي **ميورقة، وصقلية** سنة 89هـــ، وجزيرة **سردينيا** سنة 92هـــ.

لقد عيَّن **الحجاج بن يوسف الثقفي** قائدين في **المشرق** كان لهما دورٌ بارز جداً في الفتوحات خلال عهد **الوليد بن عبد الملك،** وقد تولّى أولهما وهوَ **قتيبة بن مسلم الباهلي** قيادة جيوش خراسان سنة 87هـــ– 706م، وقد باشرَ قتيبة فتوحاته في **بلاد ما وراء النهر** (نهر سيحون) في العام نفسه، ففتح بيكند، ثم فتحَ بخارى، وبلخ سنة 90هـــ، وسمرقند سنة 93هـــ، وكابل سنة 94هـــ، وأخيراً **فتح كاشغر** سنة 96هـــ (وهي عاصمة تركستان الشرقية)، وهكذا بلغَ حدود الصين، ولم يَغزُ الصين قط، غير أنه **أجبر إمبراطورها على دفع الجزية للأمويين،**

وكانت تلك أقصى فتوحات المشرق، حيث عزل عن ولايته في العام ذاته، وقد بلغت بذلك مساحة الأراضي التي وُلِّيَ عليها (وهي ولاية خراسان وعاصمتها آنذاك مرو) أكثر من 4,000,000 كم2، وبلغ طول حدودها أكثر من 4,000كم، وأما **محمد بن القاسم الثقفي** فقد تولّى في الوقت ذاته **فتحَ إقليم السند،** حيث سارَ في شهر ربيع الأول سنة 89هـ (707م) على رأس جيش قوامه 6,000 رجل وهو ابن سبعة عشر عاماً، وفتح مدينة" الديبل" الواقعة مكان **كراتشي اليوم** سنة93هـ، وفرَّ منها **ملك السند داهر،** الذي التقاه المسلمون لاحقاً في معركة على **نهر مهران،** وانتصروا فيها وقتلوا **داهر** على الرغم من استعانة الهنود بالفيلة في المعركة، وأخيراً فتحَ مدينة **الملتان** سنة 94هـ، وهي من أهم مدن تلك البلاد، وبذلك أتمَّ فتح السند وضُمِّت بدورها إلى الدولة الأموية.

كان من الإنجازات البارزة الأخرى في عهد الوليد بناء **الجامع الأموي الكبير أو مسجد بني أمية** في مدينة دمشق، إذ كان متقسماً بين المسلمين والمسيحيين لتأدية عباداتهم منذ **فتح الشام،** لكن مع ازدياد أعداد المسلمين قرَّر الوليد تحويله بأكمله إلى مسجد، وذلك مقابل تعمير أربع كنائس للمسيحيين في المدينة، وكان ذلك في السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة، ولكن بناء المسجد لم يَكتمل إلا بعد عشر سنوات، في عام 715م، حيث أن العمل كان كبيراً واحتاجَ وقتاً طويلاً، كما قام الوليد بتوسعة **المسجد النبوي** في المدينة، واهتمَّ بتعبيد الطرق في الدولة، خصوصاً الطرق المؤدية إلى مكة؛ لتسهيل الحج إليها من أنحاء العالم الإسلامي، وتوفيَ الوليد سنة 96هـ(715م)، وتولّى الخلافة من بعده أخوه **سليمان بن عبد الملك،** وفي عهده فتحَ **يزيد بن المهلب** والي خراسان سنة 98هـ، إقليمي طبرستان وقهستان، وأما الحدث الأبرز في عهده فقد كان **حصار القسطنطينية** سنة98هـ، وهو حصار أداره بنفسه مع أخيه **مسلمة بن عبد الملك** من أرض دابق، وظلّ هناك سنة كاملة، حتى توفيَّ وهو لا يزال في دابق سنة (99هـ–717م)، وقد امتُدحت خلافته وقيل عنه أنه أحسن معاملة الناس بعد أن كان قد شدَّ عليهم الحجاج في أيام عبد الملك والوليد، كما امتُدحَ أيضاً لاختياره ابن عمه **عمر بن عبد العزيز** خليفة من بعده.

رابعاً: عهد عمر بن عبد العزيز:

واشتُهرَ عهد **عمر بن عبد العزيز** بأنه عهد عمِّ فيه رخاءٌ واستقرارٌ عظيم في أنحاء الدولة الأموية، وسادَ فيه العدل، حتى أنه يُقال أن المتصدقين كانوا يبحثون فيه عن فقراء ليعطوهم المال فلا يَجدون، ولُقب ب**(الخليفة الزاهد)** أو "**خامس الخلفاء الراشدين**"، عندما بُويع **عمر** على الخلافة قرَّر وقف الفتوحات نظراً لاتساع الدولة الكبير، وتوجَّه بدلاً من ذلك لتوطيد الحكم وإصلاحه والاهتمام بأمور الناس ودعوة أهل المناطق المفتوحة إلى الإسلام بدلاً من فتح المزيد من البلاد.

وقد أخذ عمر بن عبد العزيز أيضاً من أقربائه من بني أمية ما في أيديهم من مال وأعاده إلى بيت مال المسلمين، ووصفه بأنه «**مظالم**»، وقد أغضبَ ذلك بني أمية وجاؤوا إلى بيته يَشتكون، غير أنه رفضَ رفضاً شديداً، وقال:" **إن الله بعثَ محمَّداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافّة، ثم اختار له ما عند وترك للناس نهر شربهم سواء، ثم وليَ أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم وليَ عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد، ومروان، وعبد الملك ابنه والوليد، وسليمان ابنا عبد الملك حتى أفضي الأمر إليَّ وقد يبسَ النهر الأعظم، فلم يُروَ أصحابُه حتى يعود إلى ما كان عليه**".

وقد **أصلح عمر بن عبد العزيز الأراضي الزراعية وحفر الآبار ومهَد الطرقات وعمَر الخانات (الفنادق) لأبناء السبيل، كما بنى المساجد، وحكمَ بعودة الأراضي المغتصبة غير المُسجّلة إلى بيت مال المسلمين**، وساهمت إصلاحاته المختلفة هذه في القضاء على الفقر في أنحاء الدولة.

لقد شهدَ عهد **عمر بن عبد العزيز** أول تحرك جديدٍ **للخوارج** منذ أيام عبد الملك، بعد أن استكانوا لزهاء ثلاثة عقود منذ أيام الحجاج. وقد أرسل إليهم عمر جيشاً، غير أنه أمره بعدم الهُجوم، وفي حال سفك الخوارج دماءً أو اعتدوا على الناس فليحول الجيش دون ذلك، وفي الآن ذاته بعث رسولاً إلى قائد الخوارج «**بسطام اليشكوريّ**» يدعوه إلى التوقف، وبعد عدَّة مراسلة بينهما اقتنع بسطام بالتخلي عن التمرد،وأما الفتوحات والحروب فكانت محدودة في عهده، حيث أمرَ الجيش الذي أرسله سليمان لمحاصرة القسطنطينية بالرُّجوع، وعدى عن ذلك فلم تحدث في خلافته سوى بعض الغزوات في الأناضول وأذربيجان.

وقد توفيِّ عمر بن عبد العزيز سنة101هــ (720م)، بعدَ أن دامت خلافته لسنتين ونصف تقريباً. وقد تولّى الخلافة بعده ابن عمِّه **يزيد بن عبد الملك**، وقال الكثير من المؤرخين أن يزيد تأثر بعمر في بداية خلافته، وأرادَ اتباعه في خلافته وحسن سيرته، غير أن أقران السوء أفسدوه، وعلى أي حال فإن يزيد بن عبد الملك لم يَكن ذا خبرة ومقدرات تؤهله للخلافة، إذ كان شاباً لا يزيد عمره عن 29 عاماً قضى أغلب حياته في اللهو والترف، وقد كان يُمكن لعهده أن يَشهد انحطاطاً كبيراً للدولة لولا بعض رجالها الذين حافظوا على قوتها مثل **مسلمة بن عبد الملك**، وقد كان عهده بالفعل عهد ضعف نسبيٍّ للدولة.

لقد غزا المسلمون **إقليم الصغد** في ما وراء النهر عدّة مرات خلال خلافة يزيد بعد أن نقض أهله عهدهم مع المسلمين (في سنتي102و104هــ)، كما استمرُّوا بغزواتهم المعتادة في **الصوائف والشواتي** ضد **البيزنطيين**، كما كانت هناك موقعتان كبيرتان في فرنسا، حيث عبرَ **السمح بن مالك الخولاني** جبال البرانس بجيشه سنة102هــ وحاصر **تولوز**، فسار إليه دوق فرنسا والتقيا في **معركة تولوز** التي انتهت **بهَزيمة المُسلمين**، كما سار أمير الأندلس **عنبسة بن سحيم الكلبي**، بعدها على رأس جيش إلى فرنسا **وفتح سبتمانيا، وليون، وتوغل في منطقة بورغونيا**، وغزا في فترة مقاربة **محمد بن يزيد** جزيرة صقلية، وكان من أكبر الأحداث التي شهدها عهد يزيد ثورة ضخمة **للخوارج** قادها **يزيد بن المهلب**، حيثُ ثار على الخليفة ودعا إلى خلعه، وبايعه أهل البصرة، ثم امتدّ نفوذه إلى الجزيرة الفراتية والبحرين وفارس والأهواز، غير أنه هُزمَ وقُتلَ ضد **مسلمة** – أخو يزيد – في **معركة عقر** قرب الكوفة سنة 102هــ (720م).

خامساً: ذروة اتساع الدولة:

توفيَ **يزيد بن عبد الملك** سنة 105هــ (724م)، وكان قد وَصَّى بالخلافة من بعده لأخيه **هشام**، فابنه **الوليد**، كان **هشام بن عبد الملك** على عكس أخيه، فقد كان خليفة قوي ذا خبرة وحنكة سياسية، وأدار الدولة بكفاءة عالية، وقد تمكن من الحفاظ على استقرارها طيلة عهده الطويل، وعلى الرُّغم من عدم حدوث فتوحات كبيرة في عهده بضمِّ أراض جديدة للدولة، فقد كانت الغزوات واسعة جداً، وكان القتال محتدماً على جبهة الشرق في السند وما وراء النهر والشمال في الأناضول والقوقاز والغرب في الأندلس وجنوب غالة (فرنسا)، وعلى

الرُّغم من ذلك فقد شهدَ عهد هشام بلوغ الدولة الأموية ذروة اتساعها وأقصى حدودها، التي امتدّت من أطراف الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً.

وكان المسلمون قد بسطوا سيطرتهم على **إقليم سبتمانيا** منذ سنة 101هـ، وأصبحَ منذ ذلك الوقت مركزاً لهم للإغارة على مدينتي **برغاندي، وأكيتانية** في جنوب فرنسا الحالية، وقد انتصرَ عليهم **دوق أكيتانية** في **معركة تولوز** على أيام يزيد، وقتل قائدهم **عنبسة بن سحيم الكلبي،** غير أن المسلمين استأنفوا القتال بعدَ أن عُين **عبد الرحمن الغافقي** والياً جديداً للأندلس، والذي قادهم على رأس جيش من 8,000جندي، سنة112هـ(730م)، **فتحوا بونة، وفرضوا الجزية** على **سان، وفتحوا أفينيون،** وقد تابع المسلمون تقدمهم، فانطلق عبد الرحمن على رأس جيش سنة 112هـ، **وفتح بوردو، فأكيتانية، وبرديل** وغيرها، وفي النهاية خاض **معركة بلاط الشهداء (تور بواتيه) سنة 114هـ (732م)،** ووصلت بذلك فتوحات الأمويين في المغرب أقصاها في عهد هشام، وظلّ المسلمون محتفظين بحدودهم هذه بجنوب فرنسا (عندَ سفوح جبال البرانس الشمالية) حتى سنة 181هـ.

واستمرّت الغزوات **والصوائف والشواتي** ضد البيزنطيين في عهد هشام بن عبد الملك كما كانت الحال طوال العهد الأموي، غير أن هذه الغزوات - كالعادة أيضاً - لم تغير حدود الدولتين الأموية والبيزنطية. وقد قطعت صائفة سنة107هـ البحر إلى جزيرة قبرص، وفتحَ **مسلمة بن عبد الملك** مدينة **قيصرية** سنة108هـ، ووصلَ **سعيد وسليمان بن هشام** إليها أيضاً في سنة111هـ، وقد نجحَ الثاني في هزم **قسطنطين** وأسره خلال الغزوة، وفي البحر المتوسط غزا أمير أفريقية **حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع** جزيرة **صقلية** وفتح بها مدينة **سرقوسة** سنة 121هـ، كما غزا **عبيد الله بن الحبحاب** جزيرة **سردينيا** سنة117هـ، وتمكن من السيطرة على قلعتها، كما غزا المسلمون أيضاً **منطقة أرمينيا والقوقاز** مراراً وتكراراً في عهد هشام، حيث غزاها **الحجاج بن عبد الملك** بداية وفرضَ عليها الجزية، غير أن غزوها أعيد بعدَ نقضها العهد مرات كثيرة، بين عامي110هـ-113هـ، فقتلَ **ابن خاقان الترك** في الأخيرة، فتوجّه لقتال المسلمين انتقاماً لابنه سنة 114هـ غير أنه هزم، ثم نقض العهد مجدداً سنة 117هـ فغزاهم المسلمون مجدداً، ثم تكرّر الأمر ذاته سنة 120هـ، وأخيراً غزى **مروان بن محمد بلاد السرير** سنة121هـ وفرض عليها

الجزية، كما شهدَ ذلك العام وفاة **مسلمة بن عبد الملك** بعد أن قاتل بشدة لعقود ضد الأتراك والبينزطيين.

وعلى جبهة الشرق استمرّت الغزوات طوال الوقت لكن دون تحقيق فتوحات كبيرة، فقد غزى المسلمون **فرغانة** سنة106هـ، ثم **بلاد الجبل، وجبال هراة، وبلاد الختل**، غير أن أهل الأخيرة نقضوا العهد فأعيد غزوها سنة 112هـ، فرد سكانها بالأتراك بأن جاءوا وغزوا سمرقند فاقتتل معهم المسلمون قتالاً شديداً وانتصروا عليهم. وأعيد غزو **بلاد الختل** سنة 119هـ وقُتلَ ملكها **(بدر طرخان)**، كما قُتل **ملك الترك** سنة 120هـ، وقد غزى المسلمون ما وراء النهر ثلاث مرات سنة121هـ، وفرغانة مرتين سنة123هـ.

ولم تتوقف ثورات الخوارج في عهد هشام كما كانت الحال في أغلب فترة حكم الأمويين، وكان من أبرز ثوراتهم عليه **ثورة (شبيب بن صحاري)** الذي قُتلَ في معركة بالعراق سنة119هـ، كما شهدت السنة نفسها **ثورة في الجزيرة**، وشهدَ عهد هشام أيضاً ثورتين في المغرب وثالثة في الأندلس للخوارج، غير أن أكبر الثورات في عهده على الإطلاق كانت **ثورة زيد بن علي بن الحسين**، وقد بدأت ثورته بأن أرسلَ إليه أهل الكوفة يقولون له: "إنا لنرجو أن تكون المنصور وأن يَكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية"، فردّ عليهم: "إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلتكم بأبي وجدي"، لكنه استجابَ لهم على الرغم من ذلك وأعلنَ الثورة على هشام سنة121هـ وبايعه 15,000 رجل، وكانت تلك أول ثورة للشيعة منذ عهد مروان بن الحكم. وقد أمرَ هشام **والي الكوفة (يوسف بن عمر الثقفي)** بإخماد الثورة، فتوجّه إلى زيد بن علي، وهُنا انفضّ عنه أغلب من بايعه فلم يبقى ممن كان معه سوى 200رجل، وقد **هُزمَ وقُتلَ زيد في المعركة**، ومع ذلك فقد حزنَ هشام على موته لكرهه سفك الدماء.

سادساً: مرحلة السقوط:

توفيّ **هشام بن عبد الملك** سنة 125هـ (743م)، وكان آخر من حكمَ من أبناء عبد الملك بن مروان، وبعده آل الحكم إلى جيل الأحفاد، وكانت تلك بادرة انحطاط الدولة وقد كان حُكم جيل الأحفاد – المرحلة الثانية من عصر المروانيين – عهداً توقّفت فيه الفتوحات بعد كل ما حقّقته في العقود الماضية، وغرقت الدولة عوضاً عن ذلك في صراعاتها ونزاعاتها

الداخلية، وقد كان وليُّ عهد هشام هو **الوليد بن يزيد**، حيث عينه والده **يزيد بن عبد الملك** ولي عهد ثانٍ نظراً إلى صغر سنه آنذاك، ولكن حتى عندما توفي هشام بعد عقدين كان لا يَزال شاباً يعيش حياة لهو وترف على شاكلة والده، ولم تكن لديه مؤهلات كافية للخلافة، وقد كان عهد الوليد الثاني هو بداية انحطاط وسقوط الدولة الأموية.

وكان هشام يُخطط في عهده لوضع ابنه مسلمة ولياً للعهد بدلاً من الوليد، الذي لم يَرى فيه أهلاً للخلافة (على الرغم من أن مسلمة لم يَكن مختلفاً كثيراً في لهوه وترفه عن الوليد في الواقع)، وقد أيَّده بعض من حوله في ذلك، مما أخاف الوليد من أن يُدبر هشام لقتله، لكن الأجل وافى هشام قبل أن يَحدث ذلك، فاستغلّ الوليد الفرصة وأخذ الخلافة لنفسه، ثمَّ أخذ بملاحقة من أيَّد تنصيب مسلمة ولياً للعهد مكانه وانتقمَ منهم مستغلاً سلطاته كخليفة. وقد أدّت انتقامات الوليد هذه إلى ثوران بعض القبائل التي انتمى إليها ضحاياه، والتي طالبت بالثأر، فاجتمع عدد كبيرٌ منها، وأيَدت **القدرية** الثورة لأنها كانت ضد حكم بني أمية، وقد استمال هؤلاء **يزيد بن الوليد**، فقادهم وجمعَ 1,000 رجل في دمشق بعدَ أن عرض عليهم الكثير من المال، ثمَّ سار إلى منزل الخليفة فقبضَ على الوليد وقتله إذ أنه لم يَكن يملك حامية كبيرة، سنة 126هـ (744م)، وقد فتحَ مقتله باب فتن كبيرة عصفت بالدولة، وحاولَ **يزيد الثالث** أن يَكون خليفة صالحاً وزاهداً على طريقة عمر بن عبد العزيز، فحاول التقشف، وأعادَ رواتب الجند إلى ما كانت عليه بعد أن رفعها الوليد في عهده، فأغضبَ هذا الجند الذين منحوه لقب (**الناقص**) وقد فجعَ كثيرون آخرون بمقتل الخليفة ولم يُبايعوا يزيد، ولذلك فقد أخذت الدولة بالتدهور سريعاً في عهده، وسُرعان ما توفيِّ بعد حكم دام ستة أشهر وفي السنة نفسها التي تولى فيها الخلافة، بعدَ أن نصَّب أخاه **إبراهيم بن الوليد** ولياً للعهد بناءً على طلب القدرية.

لقد اضطّربت الأوضاع كثيراً عند وفاة يزيد، حيث رفضَ الكثير من الناس بيعة أخيه إبراهيم واعتبروه هو ويزيد مسؤولين أساسيِّين عن مقتل الوليد والفتن التي فجّرها، وهُنا تدخل **مروان بن محمّد** (ابن عم إبراهيم ويزيد ووالي أرمينيا وأذربيجان) وسارَ إلى دمشق على رأس جيش من 80,000 جنديّ، وكان قد أتاها من قبل في أيام يزيد، لكن ذاك استرضاه ووعده بالإصلاح، ولكنه عزمَ هذه المرة على خلع الخليفة، ودخل المدينة سنة 127هـ (745م)، فهربَ منها إبراهيم، وبويع مروان بالخلافة.

وكان **مروان بن محمد** خليفة قوياً ذو حنكة وكفاءة عاليتين في إدارة الدولة، وكان قائداً عسكرياً ذا خبرة عالية خاضَ حروباً طويلة مع البيزنطيين، وميَّزه ذلك عن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، غير أن الأوان كان قد فاتَ لإصلاح أمور الدولة، وكانت قد سقطت بالفعل في فوضى ونزاعات داخلية عارمة، ولذلك فقد كانت نهايتها في عهده. وعندما بُويع مروان بالخلافة كان من الأشياء الأولى التي فعلها هي **نقل العاصمة من دمشق إلى مدينة حران في الجزيرة**، إذ أنه لم يَثق بمن في الشام، وكانت ثقته محصورة بمساعديه وقادته الذين عرفهم وتعامل معهم لسنوات طويلة خلال ولايته على أرمينيا وأذربيجان، غير أن هذا التصرف جاء بعواقب وخيمة. حيثُ ثار عليه أهل الشام، فبدأت الثورة من **فلسطين**، ثم زحفت إلى **دمشق**، **فحمص**، وبذلك خسرَ تأييد أهل الشام أنفسهم وهم أنصار الأمويين الأساسيين، مع أنه سُرعان ما سار وقمع الثورة، لكن لم تستكن الأمور، فقامت الثورات واحدة تلو الأخرى، مرة في **الجزيرة واليمن** سنة 127هـ، وأخرى في **الموصل** سنة129هـ، ثم في **أفريقية** في سنتي 131و132هـ، فضلاً عن الانقسامات الداخلية بين القبائل العربية المختلفة وداخل البيت الأمويّ نفسه. وقد أنهكت هذه الثورات المتتالية مروان، فأخذ يَتنقل من منطقة إلى منطقة يُحاول السيطرة على الدولة ومنعها من الانهيار، لكنه تفاجأ وهو غارق في صراعاته الداخلية يَقمعها واحداً تلو الآخر **بالمدّ العباسي** يأتي من المشرق فيكتسح **خراسان فالعراق**، فسار إليهم فوقعت **معركة الزاب الكبير** سنة 132هـ (750م)، وقد كانت هذه المعركة هي نهاية الدولة الأموية وسُقوطها، وقُتلَ مروان بعدها ببضعة شهور.

لقد أخذ العباسيون بعدَ قيام دولتهم بمُلاحقة بني أمية وقتلهم، ولذلك فقد فرَّ الكثير منهم بعيداً محاولين النجاة بأنفسهم. وقد كان من بين هؤلاء **عبد الرحمن الداخل**، الذي فرَ إلى **الأندلس**، وأعلنَ استقلاله بها وتأسيس ولاية أموية في **قرطبة** سنة138هـ (755م)، وقد تمكّن الأمويون من البقاء بهذه الطريقة، فأسسوا **الدولة الأموية في الأندلس**، وظلُّوا يحكمونوها زهاء ثلاثة قرون، غير أن مصيرها في النهاية كان السُّقوط سنة422هـ بعد أن تفككت الأندلس إلى إمارات صغيرة مستقلة.

سابعاً: الدولة والحضارة:

1. المجتمع:

يُمكن القول أن المجتمع في عهد الدولة الأموية – على الرغم من عدم امتلاكه تدرجاً اجتماعياً دقيقاً أو صارماً – قد تألف من خمس طبقات أساسية، هي: **الخلفاء والولاة والعلماء والأثرياء والعامة.** فالطبقة **الأولى** هي **الخلفاء وعائلاتهم، وهم أصحاب السلطة والسيادة العليا في الدولة ولهم الصلاحيات المطلقة بها،** ثم يليهم **كبار الولاة والقادة وكاتبو الديوان، فالعلماء، الذين مع أنهم يأتون في الطبقة الثالثة فقد كان احترام العامة لبعضهم يفوق احترامهم وتقديرهم للولاة والخلفاء أنفسهم،** ثم **كبار الأثرياء من التجار وشيوخ العشائر.** وأخيراً تأتي **الطبقة الخامسة وهي عامة الناس، مثل المزارعين والحرفيين وغيرهم.**

لقد عاش العرب بشكل عام حياة بسيطة في أيام الإسلام وقبله، فكان طعامهم على سبيل المثال يتألف من بضعة أصناف فحسب، أفخرها على الإطلاق هو اللحم مع الثريد، لكن مع لقد توسع الفتوحات في العصر الأموي وترامي أطراف الدولة وازدهارها اختلفت الحال، إذ اقتبس العرب عادات الكثير من الثقافات التي احتكوا بها نتيجة الفتوحات، فأصبحوا يستخدمون أدوات فخارية وخشبية لتناول الطعام كانت تأتيهم من الصين مثل الشوك والملاعق، وأصبحوا يتناولون طعامهم على موائد وكراس خشبية بدلاً من أن يجلسوا على الأرض ويتناولوه بأيديهم كما في السّابق. وقد ساهم في نقل مثل هذه العادات الحياتية والاجتماعية إلى العرب إحضارهم الكثير من الجواري إلى بلادهم، فنقلن إلى العرب عادات وتقاليد شعوبهن.

وكانت المناسبات الإسلامية وأبرزها **عيدا الفطر، والأضحى** ذات صدى كبير في أنحاء الدولة الأموية، فكان يَخرج الخليفة في موكب مهيب وسط رجال الدولة الكبار يتقدمهم الجند لأداء صلاة العيد. كما أن الأعراس والأفراح وبعد أن كانت بسيطة جداً في عهود الخلفاء الراشدين وما قبل الإسلام باتت مترفة جداً وتُنفق عليها أموال طائلة، فكانوا يقيمون ولائم عظيمة في الأعراس، ثم يلعب الفتيان بالرامح ويتسابقون بالخيل فيما تجلس النساء يتحدثن إلى بعضهن البعض، وأما العروس فكانت تزين بزينة عظيمة، ويُحيط بها خدمها يُغنون لها حتى تذهب إلى بيت زوجها، وقد كان من وسائل الترفيه والتسلية الشائعة في تلك الحقبة جلب المغنين أو «**المضحكين**» الذين يلقون النكات ويضحكون الناس. كما كانت ألعاب

النرد، والشطرنج شائعة أيضاً، اللتين أخذهما العرب من الفرس كما كانوا يرفهون عن أنفسهم بالصيد والرياضة، وأقامت الدولة في عهد **هشام بن عبد الملك** سباقات كبيرة للخيل بلغ عدد المشاركين فيها 4,000 حصان في إحداها.

بشكل عام امتاز المجتمع في العصر الأموي بالترف الكثير على النقيض من عهود الإسلام السابقة. ولم ينعكس ذلك على المناسبات والعادات الاجتماعية فحسب، إنما على ملابس العامة أيضاً، فتنافس الناس وخصوصاً الخلفاء وكبار رجال البلاط في شراء الملابس الجديدة والفاخرة والمتميزة، وأصبحَ الجميع يرتدون جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس. ثم ومع ازدياد الإسراف أصبح التجار يجلبون معهم إلى البلاد الإسلامية مختلف أنواع الحرير والصوف بين موشّى ومطرّز ومحاك بالذهب والفضة ومرصع بالأحجار الكريمة، وكان خلفاء بني أمية يرتدون ملابس بيضاء على الأغلب ومن أفخر أنواع القماش المطرز، وكان من قطع الملابس التي ارتداها الأمويون: القباء (رداء أو زي خارجي مفتوح عند الرقبة أو يقفل بأزرار وهو ضيق الكمين وفي بعض الأحيان متوسط الاتساع) والدراعة (جبة مشقوفة من الأمام) والطيلسان (الطرح التي تغطي الرأس) والغلالة (ثوب رقيق شفاف يشبه القميص الذي ترتديه المرأة) الملحفة (ملاية) والإزار (لباس لستر العورة) والشاشية (قبعة) والتكة (رباط السروال)، كما أن أسلوب إنتاج الأقمشة الخاصة المطرزة في المناسج الملكية ولد في العصر الأموي، ثم تطور لاحقاً وساد في أنحاء الدولة الإسلامية خلال العصور الوسطى، وكان أول خليفة أموي يؤسس مصانع خاصة للنسيج المطرز هشام بن عبد الملك، وقد كان من الظواهر المهمة في العصر الأموي أن أصبحَ غير المسلمين يرتدون ملابس العرب الفاخرة، حتى جاء عهد **عمر بن عبد العزيز** الذي **حَرّم على أهل الذمة ارتداء لباس الرأس العربي ومنه العمامة والعصب والطيلسان والملابس العسكرية العربية والأردية الخاصة مثل القبعة،** وكان على هؤلاء أن يرتدوا حزاماً متميزاً يسمى **المِنْطَق** وأحياناً **الزُنّار**.

2. الحركة العلمية:

على الرُّغم من أن العصر الذهبي للعلوم والحضارة الإسلاميّين كان في العهد العباسيّ فقد كان للأمويين دورٌ بارز في التمهيد لهذا الازدهار والتهيأة له، إذ أنهم أرسوا أسس التراث العلميّ الذي بنى عليه العباسيون. ومن أهم هذه التطوُّرات التي هيأت للنهضة العلمية العباسية حركة التعريب في عهد **عبد الملك بن مروان،** الذي جعل من اللغة العربية لغة رسمية للدولة

أصبحت تستخدم في كل أصقاعها من المشرق إلى المغرب، كما ساهمَ الوليد كثيراً أيضاً بإنشائه المدارس والمستشفيات تحت رعاية الدولة التي ساهمت هي الأخرى في النهضة الإسلامية اللاحقة،وقد كان من أهم الإنجازات في تطوير الحركة العلمية في العصر الأمويّ تدوين العلوم وتعريبها للمرَّة الأولى، وهو ما أتاح لعلماء العرب والمسلمين الاطلاع عليها بسُهولة، كمان أن اتساع الدولة ودخول شعوب جديدة في الإسلام أتاح التعرف على حضاراتها والاستفادة من تلك المعارف في تطوير الحضارة الإسلامية.

وكان **أول من أنشأ مدارس منظمة تعمل برعاية الدولة وتحتَ إشرافها في التاريخ الإسلامي هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك**، وساعد انتشار المدارس على التهيأة أكثر للنهضة العلمية العباسية، كما كان من إنجازات الوليد الأخرى أنه **أول من أنشأ المستشفيات في التاريخ**، وأنشأ إلى جانبها **البيمارستانات**، وهي **دور وظيفتها إيواء المعاقين وذوي الأمراض العقلية والعصبية**، وقد اعتمدت الكثير من المشافي التي أنشأت لاحقاً في قارة أوروبا على نمط وأسس مشافي الوليد بن عبد الملك، وأصبح الأطباء الجدد يتتلمذون على أيدي أطباء هذه المشافي، وكان ذلك البادرة الأولى لولادة المدارس الطبية في التاريخ.

كانت حركات تدوين تاريخ العصر النبوي والراشدي وحتى الأمويّ نفسه في العصر العباسي في معظمها، غير أنَّ حركة تناقل الأخبار وتسجيلها على نحوٍ محدود بدأت منذ العهد الأموي، وحُفظت بذلك استعداداً لتدوينها في أيام العباسيين.

وقد ساهمت في هذه الحركة عدَّة عوامل، منها **دخول الكثير من الناس من الأمم الأخرى في الإسلام**، وقد **نقلَ هؤلاء أخبار تواريخ أممهم إلى العرب ورووها لهم**، كما **ألّف بعضهم كتباً خاصة تتحدث عن التاريخ ومغازي الرّسول منذ تلك الفترة،وهب بن منبه وعروة بن الزبير بن العوام (أوّل من دون سيرة الرسولﷺ)** وكذلك **أبان بن عثمان بن عفان وشهاب الزهريّ.**

3. فن العمارة:

قبل العصر الأمويّ كان فن العمارة الإسلامية بسيطاً جداً ولم يتسم بالكثير من المعالم والمميزات، ولم تبدأ العمارة الإسلامية باكتساب نمط مختلف أكثر تعقيداً حتى العهد الأموي، غير أن العمارة الأموية جاءت متأثرة كثيراً وشديدة الشبه بالعمارة البيزنطية التي كانت سائدة

قبلها في بلاد الشام، بل إنها استنسخت تقريباً معالم الفن المعماريّ البيزنطي في الكثير من الأحيان دون تغيير كبير أو إضفاء صبغة مميزة عليه. ويُمكن ملاحظة هذا التأثير على سبيل المثال في **مسجد قبة الصخرة**، فنمطه المعماريّ يشبه إلى حد بعيد النمط البيزنطي المسيحي، ولو أنه مع ذلك يتسم ببعض المميزات الإضافية المتسمدّة من العمارة الإسلامية، فقد أضيفت إليه بعض المعالم الإسلامية مثل القبة والمئذنة فضلاً عن الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة التي أضيفت إلى زخرفاته، وبهذا مزجَ الأمويون الطراز المعماريّ البيزنطي مع العربي فيما أصبحَ **الطراز المعماريّ الأموي**، وقد تميّز هذا الطراز المعماري بالزخارف والفسيفساء، وقد اهتمّ بالعمارة من الخلفاء الأمويين بشكل خاص هشام بن عبد الملك، الذي كان النشاط العمرانيّ في عهده في ذروته.

ونظراً إلى ترامي أطراف الدولة الأموية فبطبيعة الحال تفاوتت كثيراً الأنماط والطرازات المعمارية بين أنحائها المختلفة، التي اعتدات عليها شعوب المناطق المفتوحة حديثاً، وأما «**العمارة الأموية**» فظهرت في جلها بمنطقة بلاد الشام، مركز الدولة. وقد كانت القصور الأموية التي بنيت في هذه المنطقة فريدة، إذ لا توجد أي دلائل تاريخية أو أثرية على وجود مبانٍ مثلها وبمثل طرازها في الشام قبل الحكم الأموي.وبشكل عام تُعد القصور والمساجد الجامعة الكبيرة أبرز الإنجازات المعمارية في العصر الأموي.

ويُعد **مسجد قبة الصخرة** في مدينة **(القدس)** المبنيّ في **عهد عبد الملك بن مروان (وجامع بني أمية الكبير في دمشق)** المبنيّ في **عهد الوليد بن عبد الملك**، اثنين من أشهر وأهم الإنجازات المعمارية الأموية على الإطلاق،كما أن من أبرز الإنجازات المعمارية الأموية أيضاً توسعتا **المسجد الحرام** في **مكة والمسجد النبوي** في **المدينة المنورة**، بالإضافة إلى **قصري عمرة (قرب عمان) (والمشتى)** (قرب **أريحا)**، كما أنشؤوا مدناً كثيرة من أبرزها **الرصافة** في الشام، **وواسط** في العراق،**وقم** في فارس، **وحلوان** في مصر، **والقيروان** في تونس.

4. الاقتصاد:

لقد ازدهر الاقتصاد في عهد الدولة الأموية ازدهاراً كبيراً نتيجة للفتوحات الإسلامية الكبيرة التي أدّت إلى توسيع رقعة الدولة ووفّرت لها موارد هائلة أغنتها ووفرت لها كل حاجاتها.

فقد كان الاقتصاد الأمويّ كبيراً ومزدهراً، حيث غذته كثيراً الفتوحات الإسلامية الواسعة، فأصبحت الدولة الأموية مسيطرة على أغلب الطرق التجارية الأساسية في العالم القديم، وسيطرت من ثمَّ على الحركة التجارية فيها، فضلاً عن أن ربوعها شملت الكثير من المراكز الزراعية والصناعية الهامة التي أغنت وأثرت اقتصادها، كما أن توسعها أتاحَ نمو حركة تجارية ضخمة بين ولاياتها بدون عوائق، جعلت نقل البضائع والمتاجرة بها سهلاً ويسيراً، فازدهرت الحركة التجارية في الدولة.

إذ شهدت الدولة الأموية حركة تجارية نشطة عبرَ أنحائها المختلفة الواسعة ومع الدول والإمبراطوريات الأخرى المجاورة على حد سواء. ولم تُقم الدولة أي قيود من أي شكل على كافة أشكال التجارة بين ولايات الدولة نفسها، كما لم تفرض قيوداً أو تقنن بأي شكل التداولات التجارية مع الدول المجاورة، ولم تحتكر أي نوع من البضائع التجارية، وبذلك فإن القوانين التجارية لم تختلف في العهد الأموي كثيراً عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة.

وبشكل عام فقد كانت أغلب المبادلات التجارية في العالم القديم تدور بين أراضي الدولتين الأموية والبيزنطية الكبيرتين المتنازعتين، وقد أدَّت القطيعة بينهما نتيجة الحرب إلى شلل كبير في الحركة الاقتصادية خصوصاً في منطقة حوض المتوسط، **بلغ الاقتصاد الأمويّ ذروة ازدهاره في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز**، حتى أنه يُحكى عن عهده أن عمال الصدقات كانوا يَبحثون عن فقراء ليعطوهم المال فلا يَجدون. وقد وفّرت الدولة في عهده للأفراد خدمات كثيرة وساعدت على توفير العلاج وإعالة المحتاجين، كما ساعدت الشباب على الزواج وأعانت من يريد تأدية الحج، وغير ذلك من الحاجات.

5. **القضاء:**

خلال العصر الأموي شهد عدة التطوُّرات على الصعيد القضائي والقانوني، فقد توقف الخلفاء عن التدخل بأنفسهم في القضاء كما كان يَفعل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، الذين كثيراً ما كانوا يُصدرون الأحكام القضائية بأنفسهم أو يضعون أسسها، غير أن الخلفاء الأمويين استمرُّوا بتوجيه قضاء الدولة في ثلاثة أمور لأهميتها الكبيرة، وهي: تعيين القضاة مُباشرة في عاصمة الدولة دمشق، وتعيين وعزل قضاة الدولة والإشراف على أعمالهم والأحكام التي يُصدرونها، والتأكد من التزامهم بالأسلوب القضائي القويم. كما مارس الخلفاء الأمويون بالإضافة إلى ذلك **قضاء المظالم وقضاء الحسبة.**

وكان للقضاة دور كبيرٌ في ضمان سير العدل في الدولة الأموية، وقد خالفوا الخلفاء والولاة أنفسهم عندما لزمَ ذلك ووجهوهم إلى اللالتزام بالشريعة الإسلامية، مثل ما حدثَ عندما أراد والي مصر **عبد العزيز بن مروان** (85 -65هـ) أخذ الجزية من المسلمين الجدد، فعارضه قاضي مصر آنذاك «**ابن حجيرة**» قائلاً: "أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سنّ ذلك بمصر"، وقد تحقّق عدل شبه كامل في كل الجوانب المالية بالدولة عندما جاء عهد عمر بن عبد العزيز.

ولكن على الرغم من أن دخول المال إلى بيت مال المسلمين كان يَخضع لرقابة كبيرة من طرف القضاة، فإن خروجها منه لم يَكن بالمثل، إذ أن خلفاء بني أمية لم يَتبعوا الخلفاء الراشدين في هذا الأمر، حيث امتنع أولئك تماماً عن الاقتراب من بيت المال أو لمس ما فيه، وأما الخلفاء الأمويون فلم يعد في عهدهم فرق بين بيت مال الدولة وأموالهم الخاصة، وأصبحوا يأخذون منه ما يشاؤون ويغدقون المال على أغراضهم الخاصة، وأصبحوا أثرياء هم وأبناؤهم وعائلاتهم. ولم يُصلَح هذا الوضع حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيز، الذي كبحَ بني أمية ومنعهم من لمس بيت المال، وردّ الأموال إلى أصحابها، وتحرّى العدل في مختلف جوانب الدولة. غير أن أواخر الخلفاء الأمويين مع ذلك انحرفوا مجدداً عن هذا الطريق وأسرفوا في أموال الدولة كثيراً.

واتّبعَ الأمويون نفس أسلوب الخلفاء الراشدين في تعيين القضاة. حيث يَقوم الخلفاء بتعيين قاضٍ على كل إقليم من أقاليم الدولة حسبَ كفاءته وأهليته للعمل. وقد دوّن بعض هؤلاء القضاة أحاكمهم، مثل قاضي مصر في عهد **معاوية بن أبي سفيان** «**سليم التجيبي**» الذي **كان أوّل قاض يدون أحكامه**، وقد أصبحت بعض هذه الأحكام فيما بعد قواعد فقهية عندَ تدوين الفقه في العصر العباسي. ومن أبرز القضاة الأمويين: **عامر بن شراحيل الشعبي وعبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي وأبو إدريس الخولاني وعبد الرحمن بن حجيرة وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الرحمن بن أذينة وهشام بن هبيرة**، وآخرون غيرهم.

6. نظام الحكم:

أ. الخلافة:

كان الخلفاء الراشدون يعيشون حياةً بعيدة عن الأبّهة، ولم تكن تختلف عن حياة أي مواطن عادي في عهدهم، فلم يكن أبو بكر على سبيل المثال، يتقاضى راتبًا، وكان عمر يستعين

على الإنفاق على نفسه أبّان خلافته بما يربحه من التجارة. وعندما أعلن معاوية بن أبي سفيان نفسه خليفةً، إثر مقتل الإمام علي بن أبي طالب، تأثّر بنظم الحكم التي كان البيزنطيون يطبقونها في الشام فعاش حياة الملوك، واتخذ عرشًا للملك، وأقام الشرطة لحراسته، ودفعه مقتل ثلاثة خلفاء من قبله إلى أن يبني مقصورةً خاصةً في المسجد يُصلي بها منفردًا عن الناس. وحين عُهد بولاية العهد إلى ابنه يزيد استحدث للدولة الإسلامية تقليدًا جديدًا، فقد أصبحت الخلافة ملكًا وراثيًا بعد أن كانت باختيار أهل الحل والعقد لأبي بكر والتعيين لعمر والاختيار من أصحاب الشورى الستة لعثمان، وقد عارض أهل الحجاز وخاصة المدينة المنورة، بما فيهم أبناء الصحابة **عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب**، عارضوا جعل الخلافة الإسلامية وراثية، فأعلن **عبد الرحمن بن أبي بكر** استنكاره لولاية العهد قائلاً: "**ما الخيار أردتم لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل**"، كما قال **عبد الله بن عمر**: "**إن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء، ولو كانت كذلك كنت القائم بها بعد أبي، وقد عُرف التوريث بالهرقلية أو الكسروية تشبهًا بنظام أباطرة الروم وأكاسرة فارس الوراثي**"، وكان الخليفة طوال عهد الأسرة الأموية ملكًا لا يتقيد، في حكم البلاد، بدستور. وكانت جميع السلطات تجتمع في شخصه، فهو رئيس الدولة، وجميع الذين ينوبون عنه في إدارة الولايات، مسؤولون تجاهه.

ب. الوالي أو العامل:

كانت الدولة الأموية مقسمة إلى عدّة ولايات ذات حدود غير ثابتة، فقد كانت تتغير بين الحين والآخر وفق توسع الدولة. كان النظام الإداري في عهد الأمويين بسيطًا، فكان الأمويون يختارون ولاتهم من العرب الخلّص. واشتهر من عمّال الأمويين: **عمرو بن العاص** والي مصر، **وزياد بن أبيه**، وبعده **الحجاج بن يوسف** على العراقين الشمالي والجنوبي، وقد كانت سلطة كل من هؤلاء مطلقة في ولايته. وكانت مهمة الوالي في العصر الأموي تتمثل في إمامة الصلاة، وقيادة الجيش، وجباية الخراج، وإدارة البريد، وسائر الأعمال الإدارية. وكانت مصاريف الولاية يتم إخراجها من الضرائب المحلية، والفائض منها يُرسل إلى دمشق ليوضع في بيت المال. غير أنه في أواخر العهد الأموي، عندما أخذت سلطة الخليفة في دمشق تضعف،

أخذ عدد من الولاة يحتفظون بالفائض لأنفسهم، فكونوا ثروات طائلة، ولم يكن منصب الوزارة معروفًا في العصر الأموي، فقد كان الخلفاء يستيعنون ببعض المساعدين، ولكنهم لم يسموا أحدًا منهم وزيرًا، ما عدا زياد بن أبيه الذي لقبه بعضهم بالوزير في عهد معاوية.

ت. الكاتب:

ترجع مهنة الكتابة إلى عهد النبي ﷺ، عندما كان يتخذ كتابًا يدونون له آيات القرآن الكريم، ولمّا توسعت الدولة الإسلامية في العهد الأموي، وبلغت مشارف الصين شرقًا وفرنسا غربًا، أخذ كل خليفة يعتمد على كاتبه لإنشاء الرسائل التي يبعث بها إلى الولاة والقادة والملوك الآخرين، وأن يتلقى الرسائل التي ترد إلى الخليفة. ولمّا تشعبت أمور الدولة إزداد اعتماد الخلفاء على كتبتهم، وقد أصبح الكاتب موضع ثقة الخليفة زمن **سليمان بن عبد الملك،** وقد اكتفى الخليفة بأن يوقع على الرسائل. وأصبحت الكتابة صناعة ذات قواعد وشروط **عبد الحميد بن يحيى،** كاتب مروان بن محمد في رسالة معروفة في تاريخ النثر العربي. وبلغت حدًا جعل الكاتب وكأنه وزير له رأي في أمور الدولة، وكان الكتّاب يمتازون بسعة العلم وصواب الفكر وطول الخبرة. وإلى جانب كاتب الرسائل، كان هناك أصناف أخرى من الكتّاب أقل شأنًا مثل **كاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب القضاء.**

المصادر والمراجع

1. إبراهيم نجيب: **القضاء في الإسلام.**
2. بن الأثير (عز الدين): **الكامل في التاريخ.**
3. أحمد أمين: **ضحي الإسلام،** دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة، بدون تاريخ.
4. ألأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل): **مقالات الإسلاميين،** المكتبة العصرية، بيروت، 1990م.
5. البلاذري (أحمد بن يحي): **فتوح البلدان،** دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
6. توماس أرلوند: **الدعوة إلى الإسلام.**
7. ابن تيميه (أحمد بن عبد الحليم): **مناهج السنة النبوية،** مكتبة ابن تيميه، القاهرة، ط2، 1989م.
8. ثابت إسماعيل الراوي: **العراق في العصر الأموي.**
9. جاك ديسلر: **الحضارة العربية.**
10. ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي): **سيرة عمر بن الخطاب.**
11. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): **فتح الباري بشرح صحيح البخاري.**
12. حسن إبراهيم حسن: **النظم الإسلامية.**
13. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): **العبر،** مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، 1979م.
14. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): **مقدمة ابن خلدون** – تحقيق علي عبد الواحد.
15. الذهبي: **سير أعلام النبلاء،** مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة السابعة، 1991م.
16. ابن سعد (محمد بن سعد): **الطبقات.**
17. سيدة الكاشف: **مصر في فجر الإسلام،** دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1986م.
18. شاكر مصطفي: **موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها.**
19. شكري فيصل: **حركة الفتح الإسلامي، المجتمعات الإسلامية.**
20. شوقي ضيف: **تاريخ الأدب العربي،** دار المعارف القاهرة، الطبعة الحادية عشرة، بدون تاريخ.
21. ضياء الدين الريس: **عبد الملك بن مروان،** وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ط1، 1964م.
22. الطبري (محمد بن جرير): **تاريخ الطبري.**
23. ابن عبد الحكم (عبد الله بن عبد الحكم): **فتوح مصر.**
24. عبد الله الطراز: **موسوعة التاريخ الإسلامي.**
25. ابن عذارى: **البيان المغرب،** دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1980م.
26. الفخري: **الآداب السلطانية والولايات الدينية.**
27. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): **عيون الأخبار.**
28. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): **المعارف.**

29. ابن كثير (إسماعيل بن عمر): **البداية والنهاية**.

30. الإمام مالك (مالك أبن أنس): **الموطأ**.

31. المالكي (الحسن بن محمد): **رياض النفوس**.

32. الماوردي (على بن محمد): **الأحكام السلطانية**.

33. المسعودى (علي بن الحسين): **مروج الذهب**.

34. اليعقوبي (أحمد بن إسحاق): **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

35. راغب السرجاني: **فتح جزيرة** رودس.. قاعدة مهمة للبحرية الإسلامية ، موقع قصة الإسلام.

36. ابن كثير، **الكامل في التاريخ**، المجلد الثاني 1979.

الفصل الثالث

الدولة العباسية

(132-656هـ)

الفصـــل الثالـــث

الدولـة العبـاسيـة (132-656هـ)

الخلافة العباسية أو **العباسيون** هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية. استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة وطاردوا أبناءها حتى قضوا على أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس، وكان من ضمنهم **عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم**، فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية، وبقيت في عقبه لسنة 1029م.

وأسس الدولة العباسية رجالٌ من سلالة **العباس بن عبد المطلب** أصغر أعمام الرسول ﷺ وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظ العرب بها، كذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية. ونقل العباسيون عاصمة الدولة، بعد نجاح ثورتهم، من **دمشق**، إلى **الكوفة**، ثم **الأنبار** قبل أن يقوموا بتشييد مدينة **بغداد** لتكون عاصمة لهم، والتي ازدهرت طيلة ثلاث قرون من الزمن، وأصبحت أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل، ونقل **المعتصم** عاصمة الدولة من **بغداد** إلى **سامراء** التي اطلق عليها **سر من رأى** ثم أعيدت إلى بغداد بعد أربعين سنة. عرفت الدولة العباسية عصرها الذهبي خلال عهدي **هارون الرشيد** وابنه **المأمون**، إذ نشطت الحركة العلمية وازدهرت ترجمة كتب العلوم الإغريقية والهندية والفهلوية إلى اللغة العربية على يد السريان والفرس والروم من أهالي الدولة العباسية، وعمل المسلمون على تطوير تلك العلوم وابتكروا عدة اختراعات مفيدة، كما ازدهرت الفلسفة الإسلامية واكتمل تدوين المذاهب الفقهية الكبرى: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية عند أهل السنة، والجعفرية والزيدية عند الشيعة، وبرزت الكثير من الأعمال الأدبية والفنية مثل كتاب ألف ليلة وليلة وغيرها، وساهم أهل الكتاب من المسيحيين واليهود والصابئة بهذه النهضة الحضارية، وبرز منهم علماء وأدباء وفلاسفة كبار.

لقد تنوّعت الأسباب التي أدّت لانهيار الدولة العباسية، ومن أبرزها: بروز حركات شعوبية ودينية مختلفة في هذا العصر، وقد أدّت النزعة الشعوبية إلى تفضيل الشعوب غير العربية على العرب، وقام جدل طويل بين طرفيّ النزاع، وانتصر لكل فريق أبناؤه. وإلى جانب الشعوبية السياسية، تكوّنت فرق دينية متعددة عارضت الحكم العبّاسي. وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحكام العبّاسيين هو «**الخلافة**» أو إمامة المسلمين. وكان لكل جماعة منهم مبادئها الخاصة ونظامها الخاص وشعاراتها وطريقتها في الدعوة إلى هذه المبادئ الهادفة لتحقيق أهدافها في إقامة الحكم الذي تريد. وجعلت هذه الفرق الناس طوائف وأحزابًا، وأصبحت المجتمعات العباسيّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة العبّاسية وساعد على تصدّع الوحدة العقائدية التي هي أساس الوحدة السياسية. ومن العوامل الداخلية التي شجعت على انتشار الحركات الانفصالية، اتساع رقعة الدولة العبّاسية، ذلك أن بعد العاصمة والمسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزمن، جعلا الولاة في البلاد النائية يتجاوزون سلطاتهم ويستقلون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية والتي لم تكن تصل إلا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية: حركة الأدراسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

وانتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م عندما أقدم **هولاكو خان** على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه. انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا، أما في الواقع فإن سلاطين **المماليك** المصريين كانوا هم الحكّام الفعليين للدولة. وكان محيي الخلافة العباسية في القاهرة هو السلطان **الظاهر بيبرس،** الذي رغب بأن يكون الحاكم المُسلم الذي يُعيد الحياة إلى هذه الخِلافة على أن يكون مقرّها القاهرة، لِيجعل منها سندًا لِلسلطنة المملوكيّة التي كانت بِحاجةٍ ماسّة إلى دعمٍ روحيٍّ يجعلها مهيبة الجانب، بِالرُغم من الانتصارات التي حققتها ضدّ المغول، ولِيُحيط عرشه بِسياجٍ من الحماية الروحيّة يقيه خطر الطامعين في مُلك مصر والشّام، ويُبعد عنه كيد مُنافسيه من أُمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوُصُول إلى الحُكم عن طريق تدبير المُؤامرات، وكي يظهر بِمظهر حامي الخِلافة الإسلاميّة. لذلك استدعى إلى

القاهرة أمير عباسي هو **أبو القاسم أحمد** وبايعه وعلماء الديار المصرية بالخلافة، فقلد الخليفة بيبرس البلاد الإسلاميّة وما ينضاف إليها، وما سيفتحهُ من بلادٍ في دار الحرب، وألبسهُ خُلعة السلطنة. ومُنذ ذلك الوقت عُرف كل سلطان مملوكي بـ«قسيم أمير المؤمنين». استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة 1519م، وعندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان، **سليم الأول**، فأصبح **العثمانيون** خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من **القاهرة** إلى **القسطنطينية**.

أولاً: العصر العباسي الأول: شباب الدولة وصعودها:

أُصيبت الدولة الأموية بالضعف إثر وفاة عاشر خلفائها **هشام بن عبد الملك** سنة 743م-125هـ وتعاقب من بعده أربع خلفاء، وتميزت فتراتهم بانقسام داخلي حاد واستشراء الحروب الداخلية، فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتردي؛ مما ساهم في تقوية الجماعات والأحزاب الدينية والحركات السياسية المعارضة لحكمهم والتي كانت منتشرة بشكل أساسي في العراق وإيران، البعيدة عن حاضرة الخلافة في دمشق. وأبرز تلك الأحزاب التي عارضت بني أمية الحزب القائل بأحقية سلالة علي بن أبي طالب بالخلافة والحزب القائل بأحقية **سلالة عباس بن عبد المطلب** عم النبي ﷺ بالخلافة.

وكان الحزب الأول قد أطلق عدة ثورات خلال الحكم الأموي، أدت إلى مقتل العديد من مواليه وقادته، فقتل **الحسين بن علي** عام 680م، وقتل **زيد بن علي** عام 740م بعد أن ثار في الكوفة. أما الحزب العباسي فقد تطور تطورًا تدريجيًا والتزم الهدوء طوال عهود القوة الأموية واستغل ضعف الاقتصاد لتفجير ثورته، كما استغل العباسيون التمييز العنصري والطبقي الذي كان يمارسه الأمويون بين العرب وغير العرب في الوظائف والضرائب والجيش، فكونوا بذلك قاعدة شعبية عريضة لدى غير العرب خصوصًا في أوساط فلاحي الريف وعمال المدن الفقراء.

ويمكن إرجاع نضوج الدعوة العباسية إلى **محمد بن علي بن عبد الله بن عباس** وابنه **إبراهيم** الذي سجنه آخر الأمويين **مروان بن محمد** في مدينة **حران** إلى أن توفي عام 746م، فتولى أخاه **أبو العباس** شؤون الحركة العباسية بناءً على دعوة **أبو مسلم الخراساني** الذي قام بإعلان قيام الدولة العباسية في **خراسان** وحارب **نصر بن سيار** الوالي الأموي فيها وانتصر عليه، ثم احتل مدينة **مرو** ومنها انتقل أبو العباس إلى **الكوفة** سنة 742م بشكل سري، وظل مختفيًا حتى سنة 750م-132هـ حين بايعه أهل الكوفة بالخلافة، ثم التقى إثر ذلك الجيش الأموي بقيادة **مروان بن محمد** وجيش العباسيين بقيادة **أبي العباس** قرب **نهر الزاب** شمال العراق بين الموصل وأربيل، وكانت الغلبة للعباسيين، الذي أتموا فتح العراق وانتقلوا منها إلى بلاد الشام فمصر حيث طاردوا فلول الجيش الأموي وقتلوا الخليفة مروان بن محمد في **معركة بوصير**. وبفتحهم مصر دانت لهم سائر الأمصار التي كانت تابعة للأمويين وتأسست الدولة العباسية، ثالث مراحل تاريخ الخلافة، بعد الراشدية والأموية،

وبويع **أبو العباس** بالخلافة ولقب **بالسفّاح** لكثرة سفكه الدماء، خصوصًا لدى دخوله دمشق حاضرة الأمويين، إذ نهب بيوت الأسرة الأموية والمقربين منها وأحرق قصورهم ثم نبش قبور خلفائهم، ولم ينج من الأسرة الأموية سوى **عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (صقر قريش)** الذي انتقل إلى المغرب ثم دخل الأندلس فاستقلّ بها مؤسسًا حكمًا أمويًا فيها. أما **أبو العباس السفاح** فقد **نقل عاصمة الدولة من حران** التي كان مروان بن محمد قد نقل إليها عاصمة الدولة الأموية، إلى **الكوفة** رغم أنه لم يلبث بها إلا قليلاً حتى انتقل للعيش في **الأنبار**، وإثر وفاته عام 754م ودفنه في الأنبار أخذت البيعة لأخيه **أبي جعفر المنصور** والذي كان السفاح قد عينه وليًا للعهد.

وكانت حكم **المنصور** توطيدًا لدعائم الدولة الجديدة، فقضى على الثورات المتلاحقة التي هددتها، وقتل **أبو مسلم الخراساني** مع كونه سبب حصول العباسيين على الخلافة خوفًا من امتداد نفوذه، وقضى على **ثورة المدينة المنورة** التي بايع أهلها **محمد النفس الزكية** بالخلافة، وقضى على ثورات شبيهة في البصرة وواسط والأهواز، كما قام بخلع ابن أخيه **عيسى بن موسى** من ولاية العهد بعد أن أستغله لسنوات في توطيد حكمه والقضاء على مخالفيه، وكان **أبو جعفر المنصور** أعظم رجل من العباسيين شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا، شحن الثغور والأطراق وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه تاركًا لابنه **المهدي** ثروة جعلته ينفق في سعة، ومن الأعمال العمرانية الهامة التي ارتبطت به **تشييده مدينة بغداد على نهر دجلة ونقله عاصمة الخلافة إليها**، وظل مقيمًا بها إلى أن توفي سنة 775م– 158هـ، في قصر الخلد الذي أشاده مقابل نهر دجلة. أما على الصعيد الديني فقد توفي خلال عهده **الإمام أبو حنيفة النعمان** مؤسس **المذهب الحنفي**، وقد تلى **المنصور** في الخلافة ابنه **محمد المهدي** والذي اهتم **بالخدمات الداخلية فنظم البريد والطرقات وأصلح الزراعة ونقل عن رفاه الشعب وعدالة القضاء الذي كان يرأسه بنفسه**، كما نقل عن المهدي ورعه وميله للالتزام بالشريعة، **والعناية بالفقراء وأصحاب الأمراض والمساجين في جميع أنحاء الدولة**، ممهدًا بذلك بدء العصر الذهبي لسلالة آل العباس.

ثانياً: العصر الذهبي (785-847م):

توفي المهدي عام 785م وأخذت البيعة لابنه **موسى الهادي**، غير أن حكمه لم يطل إذ توفي مسموماً عام 786م مفسحًا المجال أمام أخيه **هارون** الذي خلع عليه والده لقب «**الرشيد**» في أعقاب إحدى الغزوات التي انتصر فيها على البيزنطيين، لاستلام السلطة. اهتم **هارون الرشيد** بالإصلاحات الداخلية فبنى **المساجد الكبيرة والقصور الفخمة**، وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. واعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد **مدينة الواقفة** قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة.

كما راسل الرشيد **شارلمان**، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وينسب المؤرخون صداقة قامت بين الرجلين وتبادل الهدايا حتى قدّم الخليفة مفتاح القدس لشارلمان، كذلك فقد اهتم هارون الرشيد بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة خصوصًا في القوقاز وآسيا الوسطى والأناضول، وقد سجّل عهده عام 782م (كان حينها ولياً للعهد) آخر محاولة عربية لفتح القسطنطينية، التي استمرت عصيّة على الفتح إلى أن استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتحها عام 1453م.

وخلال بداية خلافته، اعتمد الرشيد على **البرامكة** وعهد إلى **يحيى البرمكي** بالوزارات، مانحًا إياه صلاحيات مطلقة، واستمر الوضع على ما هو عليه حتى سنة 805م حين تخوّف الرشيد من امتداد نفوذهم وزيادة أموالهم وميل الناس إليهم، فصادر أموالهم وقتل قادتهم وسجن القسم الأكبر منهم.

وتوفي هارون الرشيد عام 809م في خراسان وأخذت البيعة لابنه **الأمين** وفقًا لوصية والده التي نصت أيضًا أن يخلف **المأمون** أخاه **الأمين**، إلا أن الخليفة الجديد سريعًا ما خلع أخاه من ولاية العهد وعين ابنه **موسى الناطق بالحق** وليًا للعهد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما أخذ العلم بأن أخاه قد خلعه عن ولاية العهد أخذ البيعة من أهالي خراسان

وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربع سنوات، إلى أن استطاع **المأمون** محاصرة بغداد والتغلب على **الأمين** وقتله سنة 813م، ظافرًا بالخلافة.

تفرّد عهد المأمون بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة، وطب، ورياضيات، وفلك، واهتمام خاص بعلوم اليونان، وقد أسس الخليفة سنة 830م **جامعة بيت الحكمة في بغداد** والتي كانت من كبريات جامعات عصرها، واخترع في عهده **الاسطرلاب** وعدد من الآلات التقنية الأخرى، وحاول العلماء قياس محيط الأرض ما يدلّ على الاعتراف بكرويتها من ناحية وتطور العلوم من ناحية ثانية؛ وقد تكون عمليات الترجمة التي رعاها هو وحاشيته وولاته، أبرز سمات عهده، إذ نقلت خلالها العلوم والآداب السريانية والفارسية واليونانية إلى العربية، اكتسبت من خلاله اللغة العربية مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة. وكذلك فقد ساهمت عمليات الترجمة في إرساء منسوب ثقافي عالٍ في الدولة، وقد أثر الانفتاح الثقافي على المعتقدات الدينية، فقال **المأمون بخلق القرآن وأجبر الناس على الحذو في هذه الصيغة**، كما أعلن **المعتزلة عقيدة الدولة الرسمية**، ثم عهد بولاية العهد قسطًا من الزمن **لعلي الرضا الشيعي** وأخذ الشعار الأخضر بدلاً من الشعار الأسود، ثم عاد إلى شعار بني العباس الأسود وعيّن أخاه وليًا للعهد. وزار المأمون مصر ودمشق والجزيرة السورية وتوفي ودفن بطرسوس شمال بلاد الشام سنة 833م-218هـ وأخذت البيعة لأخيه **محمد المعتصم بالله** الذي **بنى مدينة سامراء وفتح عمورية** قرب أنقرة مسقط رأس العائلة الإمبراطورية البيزنطية، واستمرت عمليات الترجمة والنهضة العلمية في عهده كما افتتحها سلفه المأمون، ولعلّ قضاءه على **ثورة بابك الخرمي** التي أسست دولة شاسعة في **أذربيجان** وجوارها منذ عهد المأمون أبرز أعماله؛ إذ إن بابك الخرمي قد مزج بين الإسلام والمجوسية وأسس دينًا هجينًا وعمد إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية ما ساهم في بقائه عصيًا على الدولة العباسية عشرين عامًا، إلى أن استطاع **القائد التركي أفشين** القضاء عليه، ومن الثورات الأخرى **ثورة الزط (الغجر)** جنوب العراق وإجلاء المعتصم إياهم إلى الأناضول.

ولقد كانت والدة **المعتصم** تركية، لذلك فقد أحاط نفسه بالحرس التركي كما فعل أخوه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم المزيد من قبائلهم عامًا فعامًا ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة **لنقل عاصمته إلى سامراء**، وإثر وفاته سنة 842م بويع ابنه **الواثق بالله** واستمر

في سياسة والده القائمة على استيراد القبائل التركية ومنحهم الوظاف العالية في الدولة وجعلهم قوام الجيش فعليًا، وكان الواثق قد **خلع على القائد التركي أشناس لقب «السلطان»**؛ مما مهد لضعف الدولة وزوال سيطرة الخلفاء عليها، وإثر وفاته عام 847م بويع أخوه **أبو الفضل جعفر المتوكل على الله** بالخلافة، والذي يحدد أغلب المؤرخين تاريخ خلافته بدءًا لانحطاط الدولة العباسية.

ثالثاً: العصر العباسي الثاني: عصر الحرس التركي:

1. طلائع الانهيار (847 – 862م):

لم يستطع العباسيون الحفاظ على وحدة الدولة كما فعل أسلافهم الأمويين، فاستقلّ **عبد الرحمن الداخل بالأندلس** منذ قيام الدولة، وفي خلافة الهادي استطاع **إدريس بن عبد الله بن الحسن** الفرار من مذبحة لحقت بأسرته وأنصارها في المدينة المنورة إثر مطالبة والده بالخلافة، واتجه إلى **المغرب** حيث أسس **الدولة الإدريسية** المستقلة وعاصمتها **فاس**، وفي عهد المأمون تولى **إبراهيم بن الأغلب ولاية أفريقية**، وبقي حكم هذه الولاية محصورًا في ذريته حتى ظهور **الدولة الفاطمية**، ولم يحفظ **بنو الأغلب** للخلفاء العباسيين سوى الخطبة وسك اسم الخليفة على النقد، وبذلك فإن الدولة العباسية منذ عهود قوتها لم تحفظ وحدة أراضيها الإدارية، وهو الأمر الذي سيكرس رسميًا وفي كل جهات الدولة خلال عصور التراجع والانحطاط.

وأبرز أوجه عصور الانحطاط، سوى استقلال الولاة والسلاطين في شؤون ولايتهم بل وتأسيسهم دول مستقلة تمامًا في بعضها، كان تدخل الجيش في تعيين الخلفاء. وتوفي **أول السلاطين الأتراك أشناس** عام 844م وخلفه **وصيف التركي**، وعندما توفي **الواثق** سنة 847م ما كانت مبايعة **المتوكل على الله** لتتم لولا رغبة **السلطان وصيف**، في وقت كانت الأسرة العباسية والمقربين منها، تميل لمبايعة **محمد بن الواثق** بالخلافة.

وحاول المتوكل على الله الثورة على **واقعه**، فقتل عددًا من قواد الجيش **كابن الزيات وإيناخ**، **ونقل عاصمة الدولة إلى دمشق** عام 858م إلا أنه اضطر العودة إلى **سامراء** بعد شهرين فقط **بضغط الأتراك**، وقام أيضًا **بتحويل المذهب الرسمي من المذهب المعتزلي إلى المذهب الشافعي**؛ مما مثّل نقلة كبيرة لدى الدولة العباسية التي طرأت عليها عدة مراحل

من التطورات الدينية، إذ بدأت مع تقارب مع الشيعة وسرعان ما انقلبت عليهم، واعتمدت **الاعتزال** كعقيدة الدولة منذ عهد المأمون. وكان المتوكل على الله قد أمر عام850م بهدم ضريح **الحسين بن علي** في **كربلاء** وضريح **علي بن أبي طالب** في **النجف**، ومنع الناس من زيارتهم، كما أمر بهدم جميع الكنائس في العراق ومناطق أخرى وكذلك الكُنس اليهودية مع وضع شارات معينة على لباس المسيحيين واليهود ومنعهم من ركوب الخيل، وعلى الرغم من دعواته المتلاحقة للعمل بالشريعة الإسلامية إلا أن ما أقدم عليه يتنافى مع قواعدها، حيث كفل نظام أهل الذمة الإسلامي حقوقًا وكرامة أوسع لليهود والمسيحيين.

وأخيرًا اتفق بعض الجند الأتراك مع ابنه **المنتصر بالله** على قتله في مجلس شرابه سنة 861م-247هـ غير أن خلافة **المنتصر بالله** لم تطل إذ سرعان ما قضى عليه الأتراك بالسم سنة862م، وبويع **أبو العباس أحمد المستعين بالله** ابن **المعتصم بالله** بالخلافة، لأن رجال السلطان لم يرد أن يبايع أحد أولاد **المتوكل** خليفة.

2. **عهد الفتن والحروب الداخلية** (862 – 1055م):

شهدت خلافة **المستعين بالله** قيام **الدولة الطاهرية في خراسان**، كما **استقلت طبرستان** تحت حكم **الحسن بن زيد** الملقب بـ«**الداعي إلى الحق**»، وحصرت وظيفة السلطان بعائلة **بُغا التركي**؛ مما مهد لظهور الفتن بين الأتراك أنفسهم، فحاصر المتمردون قصر الخليفة في **سامراء** فهرب إلى **بغداد**، عندها بايع الجند الثوّار **المعتز بالله** خليفة، فأرسل جيشًا بخمسين ألف مقاتل إلى **بغداد**، التي قام أهلها بخلع المستعين ومبايعة المعتز، حقنًا للدماء، بل أن المستعين نفسه بايع المعتز، إلا أن الخليفة الجديد قتل سلفه.

وفي خلافة **المعتز بالله** قامت **الدولة الطولونية في مصر**، والتي لم تترك للخليفة سوى الخطبة والسكة، واستولى **يعقوب الصفار** على **بلاد فارس**، ورغم مسالمة **المعتز** للأتراك وتعيين من شاؤوا في مناصب الدولة العليا، إلا أنهم قد خلعوه عام 870م؛ لتردي الوضع الاقتصادي ونضوب خزينة الدولة، وبايعوا **المهتدي بالله بن الواثق** بالخلافة، وقد مات المعتز في سجنه من العطش والجوع.

وقد حاول الخليفة **المهتدي بالله** الجديد كسر شوكة الأتراك، فقتل قائدهم **بايكال** بعد أشهر من توليه الخلافة، فقتله الأتراك ولم يمض على خلافته عام واحد بعد؛ وبويع **المعتمد على الله بن المتوكل على الله** خليفة، وفي عهده **ثار الزنوج** في البصرة وواسط وعاثوا فسادًا

في بغداد نفسها؛ احتجاجًا على سوء الأوضاع الاقتصادية والمعاملة الاجتماعية الدونية، كما أكمل **الطولونيون** استقلالهم **بمصر** مانعين السيادة الاسمية للخليفة المتمثلة بذكر اسمه في الخطبة، وقد استطاع الطولونيون السيطرة على أغلب **بلاد الشام** فلم يبق للعباسيين سوى العراق، ويعود لخلافة **المعتمد وفاة الإمامين بخاري ومسلم** الذين اشتهرا بجمع الأحاديث النبوية، **وظهور الإسماعيلية.**

وقد توفي **المعتمد على الله** عام 892م، وبويع **المعتضد بالله** خليفة، وكانت خلافته وخلافة ابنه **المكتفي بالله** تحسناً في الأوضاع الاقتصادية والسياسية على السواء، كما **استعاد العباسيون مصر وهزموا الإسماعيلية في عدة مواقع،** وظهرت **الدولة السامانية** التي **استعادت طبرستان وسيطرت على بلاد فارس وخراسان مع حفظ السلطة الاسمية للخليفة، كما أعيدت عاصمة الدولة إلى بغداد.**

وإثر وفاة **المكتفي** سنة 908م، بويع **المقتدر بالله** خليفة، إلا أنه خلع مرتين: الأولى لدى بداية عهده وبويع **عبد الله بن المعتز** إلا أنه قتل في اليوم التالي خلال الفتن بين أنصاره وأنصار المقتدي، فكانت خلافته يومًا واحدًا ولم يعتبره جميع المؤرخين خليفة، والثانية عام 929م حيث خلعه الجند ورجال الدولة بسبب سيطرة النساء والخدم على الدولة إلا أنه عاد بعد ثلاثة أيام، واستمر في الخلافة حتى قتل عام 932م خلال معركة بينه وبين **مؤنس التركي** أحد قواد الجيش، وأصبح أخاه **القاهر بالله** خليفة، إلا أن **مؤنس** نفسه خلعه بعد عامين وسمل عيناه وسجنه، وفي خلافته ظهرت **الدولة البويهية في بلاد فارس وخراسان،** كما **استقلت تونس والجزائر وليبيا نهائيًا مع ظهور الدولة الفاطمية** التي قضت على حكم **الدولة الأغلبية، وبنو رستم وبنو مدرار،** والذين وإن استقلوا فعليًا عن الدولة العباسية إلا أنهم حفظوا سيادتها الاسمية.

وفي خلافة **الراضي بالله،** ظهرت **الدولة الإخشيدية في مصر** وسيطرت على أجزاء واسعة من بلاد الشام وأصبح نفوذ **أمير الأمراء** من القوة بحيث أنه عندما مات الراضي بالله عام 940م لم تتم مبايعة الخليفة مباشرة خلافًا للعرف القائم منذ عهد أبو بكر، بل انتظر أسبوعًا لحين عودة **بجكم أمير الأمراء** من واسط ومبايعته **المتقي لله.**

السنوات اللاحقة أصبحت صراعًا على منصب أمير الأمراء، فتوالى بعد **بجكم، ابن البريدي** الذي خلعه الشعب في بغداد؛ لظلمه، ثم **كورتكين فابن رائق،** الذي هرب والخليفة إلى الموصل احتماءً لدى **الحمدانيين** من بطش **أبي عبد الله البريدي** العائد إلى بغداد؛ ولم يلبث **ناصر الدولة بن حمدان** أن **قتل ابن رائق وتولى إمارة الأمراء بنفسه وأعاد الخليفة إلى بغداد،** تلاه **تورون** الذي سجن الخليفة وسمل عينيه وبايع **المستكفي بالله** عام 944م، إلا أنه خلع عام 946م، وقد توالى في خلافته القصيرة ثلاثة في منصب أمير الأمراء، هم **تورون وابن شيرزاد ومعز الدولة بن بويه** مؤسسًا **الدولة البويهية،** وقد خلع معز الدولة الخليفة وعيّن **المطيع لله** خليفة؛ وقد شهدت خلافته امتداد نفوذ **الفاطميين** من **تونس** إلى **مصر وبلاد الشام،** بحيث أصبح العالم الإسلامي مقسمًا على ثلاثة خلفاء في آن واحد، في **قرطبة والقاهرة وبغداد،** أضعفهم سلطة خليفة بغداد.

لم تكن خلافة المطيع لله الذي بويع عام 946م مختلفة عما سبقه من عهود، إذ استمرت الحروب بين **البويهين والحمدانيين والجند الأتراك،** وأغار البيزنطيون على حدود الدولة واستعادوا أجزاءً من الأناضول وكيليكيا كانوا قد فقدوها سابقًا، وثار الأتراك بقيادة **سبكتكين** سنة974م على الدولة البويهية وخلعوا الخليفة وبايعوا ابنه **الطائع لله،** وكانت خلافته تفتقر إلى الاستقرار السياسي مع تتالي الحروب والفتن بين **بني البويه** من ناحية و**الأتراك** من ناحية ثانية حتى خلعه عام 991م، وبويع إثره **القادر بالله** خليفة وقد مكث بالحكم أربع عقود، شهدت قيام **الدولة الغزنوية** وانهيار **الخلافة الأموية في الأندلس،** واستمرار الحروب بين البويهيين والأتراك، ثم سادت فترة من الهدوء بعد أن قبض **بهاء الدولة البويهي** على الحكم، وكذلك في عهد خليفته **سلطان الدولة** وأخاه **شرف الدولة** والذي بوفاته، ضعفت الدولة البويهية وعظم أمر الأتراك، ووصلت ذورتها في أواخر خلافة **القادر،** حين قام **أرسلان بن عبد الله البساسيري** بالخطبة للخيفة الفاطمي في بغداد، فاستنجد الخليفة العباسي **بطغرل بك** قائد **السلاجقة،** فدخل بغداد سنة1055م، وثبت الخليفة العباسي، وابتدأ **عصر آل سلجوق** في بغداد.

لقد شهدت تلك المرحلة أيضًا خصوصًا خلال القرن العاشر الميلادي هجرة قبائل كردية من جوار بحر قزوين للاستقرار في العراق وشمال بلاد الشام؛ وازدهار هجرة القبائل

أدى إلى تعاسة الوضع الاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن تكاثر الحروب الداخلية والخارجية. إحدى أمثلة ذلك **الدولة العقيلية والدولة المروانية** اللتين ورثتا **الدولة الحمدانية** بعد انهيارها عام979م، وغلب الطابع العربي على الأولى بينما الطابع الكردي على الثانية، وقد اقتتلا طويلاً للسيطرة على الجزيرة السورية، كما قادت الدولة العقيلية حروبًا عدة ضد الدولة البويهية في بغداد. أما الحروب الخارجية، فتتمثل بغارات الإمبراطورية البيزنطية على حلب وأنطاكية واحتلالهما قسطًا من الزمن، بنتيجة تشقق الوضع الداخلي.

رابعاً: العصر العباسي الثالث: عصر آل سلجوق:

1. السلطنة السلجوقية في أوجها (1055 – 1092م):

إن **السلاجقة** هم جمهرة من القبائل التركية الرُحل المحاربة، كانت تستقر في الصين وانتقلت منها إلى **بُخارى** حيث اعتنقت الإسلام في عهد مؤسسها **سلجوق**، ثم استطاعت تحت زعامة **طغرل بك** السيطرة التدريجية على أملاك **الدولة الغزنوية** ثم الدخول إلى **بغداد** بناءً على طلب الخليفة، الذي عين **طغرل بك سلطانًا** وخطب باسمه سنة 1055م–447هـ، ولقبه «**بملك المشرق والمغرب**» وزوجه ابنته.

وإثر وفاته عام 1063م، خلفه **ألب أرسلان** الذي امتد حكمه حتى **القدس**، واستطاع عقب انتصاره في **معركة ملاذكرد** عام 1071م، وتأسيس دولة سلجوقية في **الأناضول** هي الأولى من نوعها؛ غير أنه قتل في إحدى معاركه عام 1072م، وتلاه ابنه **جلال الدولة ملكشاه**، الذي شهدت سلطنته وفاة الخليفة **القائم بأمر الله** بعد خلافة استمرت خمسة وأربعين عامًا تعكس الاستقرار وتحسن الأوضاع المعيشية، وبويع **المقتدي بأمر الله** بالخلافة. وقد اهتم **ملكشاه** بالعلوم والفنون وشيّد في **بغداد** مرصدًا فلكيًا ومسجدًا كبيرًا دعي «**جامع السلطان**»، وقد برز في عهده أيضًا **عمر الخيام** وثار **القرامطة** في **البصرة** عدة مرات، وبوفاته عام 1092م أخذت الدولة السلجوقية بفقدان قوتها، إذ تفرقت إلى عدة دول مستقلة في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها، بل تحولت الساحة إلى دسائس وتحالفات بين الملوك السلاجقة ضد بعضهم البعض بهدف توسيع إمارتهم.

فقد أثرت الحروب الداخلية المستمرة على الاستقرار الاجتماعي في البلاد، بل على الوضع الاقتصادي أيضًا بسبب كلفتها الباهظة، مما سهّل تحقيق انتصار **الحملة الصليبية الأولى عام 1098م**، وكان **المستظهر بالله** حينها يشغل منصب الخليفة منذ عام 1094م.

2. حروب السلاجقة وغروب دولهم (1092 – 1136م):

استطاعت **الحملة الصليبية الأولى** تأسيس أربعة ممالك لاتينية في المشرق، هي: **إمارة الرها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس**، التي كانت تحت سلطة **الدولة الفاطمية** مجددًا منذ عام 1096م. لم يستطع السلاجقة ردع الصليبيين عن ساحل بلاد الشام، بيد أنهم صدّوا تقدمهم نحو أنقرة وقلب الأناضول كما أوقفوا تقدمهم تجاه حلب والعراق عمومًا. أما العراق وخلافته فكانا منشغلان بالحروب الداخلية والثورات التي يقودها القرامطة فلم يتم إعناء مقاومة الصليبيين أو ردعهم أية أهمية تذكر، وقد نقل أنه في أعقاب سقوط القدس عام 1099م زار وفد من أهالي المدينة الناجين الخليفة **المستظهر بالله** فاعتذر منهم مبديًا عواطفه، ثم عاد وأرسل عام 1111م جيشًا صغير الحجم بقيادة **مودود** بعد مضايقة الصليبيين لحلب.

وفي أواخر عهد **المستظهر بالله** استقرت الأوضاع للسلطان **محمد السلجوقي** غير أن وفاته عام 1118م فجّرت الوضع مجددًا بين وريثه **محمود السلجوقي** وأخاه **داود** وبعض أعمامه؛ وإثر وفاة الخليفة المستظهر بالله عام 1118م أصبح **المسترشد بالله** خليفة، وفي خلافته ظهر **عماد الدين زنكي والي الموصل** والذي وسع أملاكه ضامًا **حلب وحمص**، وحرر إمارة اُلرها من الصليبيين عام 1144م، وتلاه ابنه **نور الدين زنكي** الذي ضم **دمشق ومصر**. خلال نمو **الدولة الزنكية** كانت حروب السلاجقة الداخلية لا تزال مستمرة فانتصر **مسعود السلجوقي** على ابن أخيه **محمود**، وقتل الخليفة **المسترشد** عام 1135م أثناء محاربة مسعود مدافعًا عن محمود، وأصبح **الراشد بالله** خليفة من بعده، غير أن **السلطان مسعود السلجوقي** سرعان ما خلعه، فهرب الخليفة إلى **أصفهان** حيث قتل عام 1136م وأصبح **المقتفي لأمر الله** خليفة من بعده.

خامساً: الخلفاء يستعيدون السيطرة على بغداد (1136 – 1242م):

استطاع **المقتفي لأمر الله** أن يستقل بحكم بغداد وجوارها عن السلاجقة، كما دعم **الأسرة الزنكية** التي بلغت شأنًا عاليًا في محاربة **الصليبيين** واستطاعت استعادة **الرُها** منهم؛ وعندما توفي عام 1170م بويع ابنه **المستنجد بالله** بالخلافة، فاستمر بسياسة والده الرامية إلى الحفاظ على استقلال بغداد وجوارها، وأرسى إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة، وكان في خلافته أن خطب للعباسيين في مصر على يد **الدولة الزنكية** بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين **العاضد لدين الله**، وبذلك توحدت الخلافة الإسلامية مجددًا؛ كما شهدت خلافته قيام **السلطنة الأيوبية** بقيادة **صلاح الدين الأيوبي** الذي سيطر على **بلاد الشام والحجاز واليمن ومصر وليبيا**، واستطاع صلاح الدين في عهد الخليفة **المستضيء بأمر الله** استعادة **القدس** وعدد آخر من المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الصليبيين عام 1187م في أعقاب **معركة حطين**، وتصدى **للحملة الصليبية الثالثة**، وتلى **المستضيء** ابنه **الناصر لدين الله**، والذي استطاع كما فعل والده وجده، الحفاظ على الجزء الأكبر من العراق مستقلاً تحت إدارته الفعلية لا إدارة الوزراء أو الجيش، وقد دعا عدد من المؤرخين فترة هؤلاء الخلفاء الذين استقلو بالعراق اسم «**فترة استعادة هيبة الخلافة**»، وقد توفي الناصر لدين الله، والذي اشتهر بالحكمة والحنكة، بعد خلافة طويلة دامت خمسةً وأربعين عامًا سنة 1225م.

وكان وضع **العراق** خلال عهد **الناصر لدين الله**، كان أفضل بكثير عن سائر أمصار الدولة العباسية؛ فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام1193م ودفنه في دمشق، تنازع خلفائه وتحاربوا وشكلوا أحلافًا ضد بعضهم البعض، واستوردوا قبائل تركية وشركسية دعيت لاحقًا باسم **المماليك**؛ أما أحوال أقصى المشرق الإسلامي، كبخارى وكابُل وجوارهما، فكانت سيئة هي الأخرى، بسبب تعرضهما للغزو والتخريب من قبل **المغول** بقيادة **جنكيز خان.**

وتلى **الناصر** ابنه **الظاهر بأمر الله**، لكنه توفي بعد عام واحد فقط، وصارت البيعة لابنه **المستنصر بالله** عام 1226م وقد أسس **الجامعة المستنصرية**، كما أسس دورًا لضيافة الفقراء وإعتاق الرقيق، وفي خلافته سيطر المغول على بلاد فارس محاذين بذلك العراق.

سادساً: خلافة المستعصم بالله ونهاية الدولة (1242 – 1258م):

توفي **المستنصر** سنة 1242م، وتلاه ابنه **المستعصم بالله** آخر العباسيين في بغداد؛ والذي شهدت خلافته نهاية الخلافة العباسية؛ وفشل **الحملة الصليبية السابعة والثامنة** وهما آخر الحملات الصليبية؛ مما عجل في نهاية تلك الحقبة، كما شهدت خلافته نهاية **السلطنة الأيوبية** عام 1250م بعد وفاة **الملك الصالح أيوب** واستلام **شجرة الدر** السلطنة مكانه ثمانين يومًا ليقوم جند زوجها بخلعها والسيطرة على الحكم بانقلاب سلمي. وانتخب إثره **عز الدين أيبك** سلطانًا.

أما الحدث الثالث، فتمثل **بسقوط بغداد** حاضرة الخلافة على يد **المغول** بقيادة **هولاكو خان التتري**، حيث سار هولاكو على رأس جيش ضخم بأمر من **إمبراطور المغول منكو خان** الذي أمر أن يخرج معه كل ذكر قادر على حمل السلاح في الإمبراطورية، ثم انضم للجيش قبائل مختلفة.

وطالب **هولاكو** الخليفة **المستعصم بالله** بالاستسلام، ولكن الخليفة رفض محذرًا المغول من العقاب الألهي الذي سيحلّ بهم في حال هاجموا الخلافة؛ ويشير الكثير من المؤرخين بأن أحد أسباب نجاح الهجوم المغولي هو حالة الجيش العباسي الضعيفة وتسريح عدد كبير من جنده لتقليص النفقات خلال تولي **ابن العلقمي** شؤون الوزارة، فضلاً عن ضعف استحكامات المدينة وعدم تقوية أسوارها؛ كما أساء الخليفة كثيرًا لهولاكو بتهديده إياه، إضافة إلى وثوقه المبالغ فيه لوزيره ابن العلقمي؛ مما ساهم على تدمير المدينة والخلافة، مع أن مونكو خان أمر أخاه هولاكو بالمحافظة على الخلافة إن وافق الخليفة الخضوع لسلطة المغول.

وقبل التوجه إلى بغداد، دمر هولاكو **قبائل اللور** ومن ثم حصّل استسلام **الإسماعيليين** والمعروفين أيضًا باسم **الحشاشين** بعد أن حاصر حاضرتهم **قلعة ألموت** في شمال إيران على شواطئ بحر قزوين، ورغم ذلك فقد قتل هولاكو الكثير منهم باستثناء **نصير الدين الطوسي** وأتباعه والذين لحقوا بجيش هولاكو المتوجه لمحاصرة بغداد منذ عام 1256م. وقد قسم هولاكو جيشه إلى قسمين، وضرب حصارًا حول بغداد؛ وقد دمر المغول السدود وقنوات الري ما ساهم في تدمير الزراعة وإفاضة المياه داخل المدينة، ثم إن قصف المقالع والمناجيق

سهلت سقوط استحكامات العباسيين الواحدة تلو الأخرى حتى أحاط المغول بالمدينة من كل جانب؛ حاول المستعصم أن يفاوض المحاصرين لكن هولاكو رفض، واقتحم بغداد يوم 10 فبراير 1258م–4 صفر 656هــ، مرتكبين مذابحًا بحق أبنائها، وبحسب بعض المصادر بلغ عدد القتلى من الجند والمدنيين مليوني شخص بل حتى من حاول من الأهالي الفرار عمد المعول إلى قتله، ويذكر أن هولاكو أمر بنقل مقر المخيم بسبب روائح الموت المنبعثة؛ كما بدؤوا عمليات سلب ونهب ثم إحراق، فتلفت المكتبات وما تحويها وقيل أن مياه نهر دجلة تحولت إلى اللون الأسود لكثرة ما رمي فيها من أوراق محترقة، وكذلك حال المساجد والقصور والجامعات. أما الخليفة فقد أمر هولاكو بحبسه ثم منع عنه الطعام والشراب حتى مات في 20 فبراير 1258م، لتزول بذلك الخلافة العباسية في بغداد.

سابعاً: نظام الحكم:

1. الخليفة:

كان نظام الحكم في الدولة العباسية يستمد شرعيته من الإسلام ويتمثل ذلك بشخص الخليفة الذي هو وفق المعتقدات الدينية الإسلامية خليفة النبي ﷺ مباشرة ويحكم من خلال الشريعة التي أرساها. ينصّ النظام الإسلامي على أن يختار الخليفة من قبل وجهاء الدولة والمجتمع بطريقة تشبه الانتخاب وذلك مدى الحياة إذا التزم بالحق والعدل ولم يخن الأمانة الموكلة إليه كخليفة، غير أن هذه الطريقة لم تطبق أبدًا منذ العهد الأموي، حيث أخذ الخلفاء بتعيين ولي للعهد، بل إن بعضهم عمدوا إلى تسمية أكثر من ولي للعهد في وقت واحد ما ساهم في نشوب الصراع المسلّح بين ولاة العهد، كما حصل بين **الأمين والمأمون**.

إن الخلفاء العباسيون قد جمعوا بين الزعامة الدينية والسياسية خلال عهودهم الذهبية، ثم عادوا في عصور الانحطاط ليشكلوا رمز الدولة، ورغم كون أغلب خلفاء آل العباس سواء في بغداد أو القاهرة لم يتمتعوا بالسلطة، إلا أن عددًا منهم حاول القبض على زمامها كما فعل **المتوكل على الله** أو كتب بعضهم طوعًا أو كرهًا تنازلاً للسلطان عن صلاحيات الملك كما فعل **المستنصر بالله الثاني**، ما يدل أن النظرية الثانية كانت الأكثر انتشارًا في العصر العباسي.

أما الخليفة عندما كان ممسكًا بقبضة الحكم، فقد كان مطلق الصلاحية باستثناء الحدود والضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية، وإن كان هناك تفاوت واضح في نسب الالتزام بهذه الحدود، حسب كل خليفة.

2. **السلاطين والولاة**:

كان أول لقب حازه الرجل الثاني في الدولة العباسية هو "**وزير**"، كانت مهمة الوزير خلال عهد القوة العباسية **مساعدة الخليفة في إدارة شؤون البلاد والإشراف على تنفيذ ما يقرره الخليفة فقط**. وبنتيجة تولي قادة الجيش الأتراك الوزارة مال ولاء الجيش من شخص الخليفة إلى شخص قائدهم الوزير، وبالتالي مال ميزان قوة التأثير من الخليفة إلى وزيره الذي أصبح لقبه **السلطان**، وبات في بعض الأحيان يحصر مهام السلطنة بذريته فقط؛ لم يكتف السلاطين بذلك بل احتكروا السلطة فعليًا وقاموا لا الخلفاء، بتسيير شؤون البلاد والدولة، بل إن كثيرًا من الخلفاء قضوا قتلاً أو اغتيالاً على أيدي سلاطينهم، كما حصل مع **المتوكل على الله والمسترشد بالله والمعتز بالله والمقتدر بالله** وغيرهم.

ولم يكن منصب **السلطان** واحدًا فقط خلال عهود ضعف الدولة، بل إن ولاة الولايات العباسية، قد تحولوا إلى سلاطين على ولاياتهم يحكمون فيها ويورثون حكمها لذريتهم دون أن يتركوا للخليفة أو سلطة بغداد بشكل عام، غير الخطبة في صلاة الجمعة وسك اسم الخليفة على النقد؛ وهكذا لم يكن هناك سلطان واحد بل مجموعة سلاطين مستقلين بشؤونهم الداخلية والخارجية تحت سيادة الخليفة الاسمية، بما يشبه الكونفدرالية في الوقت الحاضر، مع الإشارة إلى تحارب هؤلاء السلاطين وهذه الدول بين بعضها البعض في كثير من الأحيان، بل وتوسعها على حساب بعضها البعض حتى تستولي على بغداد نفسها كما حصل مع الدولة البويهية والدولة السلجوقية.

3. **الجيش**:

كان الجيش العباسي جيشًا دائمًا مستقرًا، يقيم أغلب جنده في بغداد إلى جانب الخليفة مع وجود جيوش منفصلة في الولايات، ومن ثم للدول التي نشأت في كنف الدولة العباسية. كان الجيش خلال عهد القوة يأتمر بأمر الخليفة ثم بات خلال عهود الضعف يتحرك بأمر الولاة والسلاطين. لم يكن هناك عسكرية إجبارية في الدولة العباسية، غير أن كل ذكر قادر على حمل السلاح يجب عليه الانضمام للجيش عند إعلان الجهاد بما يشبه النفير العام في

حالات الحرب؛ والجيش العباسي هو بالمقام الأول جيش عقائدي يقوم على المفاهيم والشرائع الإسلامية والتي أبرزها نشر الإسلام وحماية الخلافة.

وكان ينفق على الجيش من خزينة الدولة مباشرة، ولما زاد عدد الجند إلى درجة أثرت على الأسعار والاستقرار المعيشي في بغداد اضطر الخليفة نقل عاصمة الدولة إلى سامراء مسكنًا كتائب جيشه فيها. وفي عهود الضعف اللاحقة لعب الجيش الدور البارز في إدارة دفة الحكم وشكل قادة الجيش جزءًا أساسيًا من الطبقة الحاكمة، بل إن مهمة الجهاد والدفاع عن حدود الدولة تركت لجيوش سلاطين الولايات أغلب الأحيان، في حين اهتمّ جيش الخلافة في بغداد بالحروب الداخلية وتعيين الخلفاء والسلاطين وعزلهم. على أن جيش بغداد قد تبع دومًا لإمرة السلطان مع وجود فصيل مستقل يدعى «**حرس الخلافة**» ويلقب قائده بـــ«**مؤتمن الخلافة**» يتبع القصر مباشرة. وعمومًا فإن جيوش الولايات كانت أكبر وأقوى من جيش بغداد وحققت إنجازات أعمق كجيشي الدولة الزنكية والدولة الأيوبية.

أما **أسلحة الجيش** فقد كانت بالنسبة للجندي تقليدية ممثلة بالسيوف والدروع والهروات، وتمتع الجيش بأسلحة أخرى متطورة بمقاييس عصرها **كالمنجنيق والمدق والضبر**، غير أنه في عصور انحطاط المماليك كان الجيش من ناحية الأسلحة متخلفًا ولم يدخله البارود والسلاح الناري مطلقًا؛ مما سهل سيطرة العثمانيين على البلاد بين عامي 1516و1517م.

فكرة **الإنكشارية** التي ازدهرت لاحقًا خلال عهد **الدولة العثمانية** وظلت جيشها الرسمي حتى عهد **السلطان محمود الثاني**، إنما تأسست في كنف الدولة العباسية، ومنذ فترة مبكرة خلال خلافة **المأمون**؛ بيد أن أضخم تطبيق لها كان خلال أواخر أيام **الدولة الأيوبية**. تقوم **فكرة الإنكشارية على شراء عبيد صغار في السن أو أسرهم خلال الحروب ومنحهم في معسكرات خاصة منذ نعومة أظفارهم تربية عسكرية وتدريبًا على حمل السلاح، وتلقينهم العقيدة الإسلامية وحماية الخليفة أو السلطان**، وقد دُعي هؤلاء في العصر الأيوبي **بالمماليك**، واستطاعوا الانقلاب على **الأيوبيين** أنفسهم وتأسيس سلطنتهم الخاصة؛ أما من ناحية المعارك فعوّل السلاطين عليهم في تحقيق النصر، سواءً في الدولة العباسية حين قضوا على إمارة طرابلس وإمارة أنطاكية التابعتين للصليبيين وصدّوا هجمات المغول وقد اشتهر عن المماليك القوّة في الحرب، أو في الدولة العثمانية حين فتح السلاطين أغلب أمصارها

بواسطتهم، غير أن طلباتهم المتكررة دفعت الدولة للتخلص منهم خلال سلطنة محمود الثاني في القرن التاسع عشر الميلادي.

ثامناً: الدين:

1. الإسلام:

يعتبر **الدين الإسلامي** أحد المقومات الرئيسية التي قامت عليها الدولة العباسية، وقد شهد هذا الدين في كنفها تطورًا كبيرًا كان له الأثر السلبي في بعض الأحيان وأثر إيجابي في أحيان أخرى. فإن انتشار الإسلام بين الشعوب غير المسلمة وفهم هذه الأخيرة للإسلام بطريقتها الخاصة المتأثرة بفلسفاتها ومعتقداتها القديمة، فضلاً عن الاجتهادات الخاصة لبعض الفقهاء، أدى إلى نشوء طوائف ومذاهب عديدة داخل المؤسسة الإسلامية نفسها، بعضها اندثر والبعض الآخر لا يزال حتى اليوم. ومن الطوائف الإسلامية التي نشأت خلال العهد العباسي **المعتزلة، والمرجئة، والإباضية** وغيرهم، كما نشأت عن الطائفة الشيعية عدة طوائف نتيجة اختلافات فقهية أو اختلاف حول وراثة منصب الإمام الشيعي، فنشأت بذلك الطائفة **الإسماعيلية والنصيرية والدرزية**. أيضًا فإن بدايات **الصوفية** نشأت في العصر العباسي وترعرعت فيه مدارسها وتقنياتها المختلفة وصيغت أدبياتها. ولم تكن العلاقة جيدة بين مختلف الطوائف، إذ قامت العديد من الفتن والاقتتالات الطائفية بين مختلف الطوائف وبشكل متواتر طوال تاريخ الدولة ما أثر على وحدتها وولاء مواطنيها.

ومن أبرز تأثيرات العصر العباسي أيضًا، ظهور وتطور المذاهب والمدارس الفقهية التي حصرت بأربع مدارس كبرى هي: **الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنبلية**، وكانت هذه المدارس شكلاً من أشكال التنوّع في تفسير العقيدة. وغالبًا ما كان الخلفاء يحيطون أنفسهم بقضاة من المذاهب الأربعة كذلك الحال في الجامعات الكبرى المعنية بالشريعة كالجامعة المستنصرية. وتميّز العهد العباسي أيضًا بالاهتمام بجمع الحديث وغربلته بقصد التحقق من مدى دقته وصلته بالنبي ﷺ، وإن أشهر جامعي الحديث قد برزوا خلال العصر العباسي **كالبخاري ومسلم والترمذي وأحمد** وغيرهم، مما لا يزال فقهاء الإسلام يعتمدون عليهم إلى اليوم، ما يدلّ على التأثير العميق للعصر العباسي في العلوم الشرعية والفقهية. ونشأت عدة مدراس تختصّ بعلوم الحديث أشهر هذه المدارس مدرسة المدينة المنورة ومدرسة أهل الرأي

في العراق، وظهر **علم «قراءات القرآن»** في العصر العباسي، منعًا لاختلاف القراءات بحكم تعدد اللهجات، واختير في سبيل ذلك سبعة قرّاء اشتهروا بعلمهم وفضلهم. بل إن العباسيين حتى في الأزمنة التي كفوا فيها عن رعاية العلوم والفنون لم يكفوا قط عن رعاية المدارس الفقهية وتمويلها، وانطلاقًا من هنا فإن الغزو المغولي الذي دمر المدن الكبرى وأتلف محتويات المساجد والمكتبات في بغداد وحلب ودمشق.

وعلى مستوى الطائفة الشيعية، فإن العصر العباسي يعتبر حاسمًا في تكوين معالم هذه الطائفة كما تبدو اليوم. إذ إن الدعوة العباسية وإن قامت على تقارب مع الشيعة إلا أنها سرعان ما انقلبت عليهم، ورغم أن العباسيين قد حفظوا الإمامة الشيعية قائمة كما تم الاتفاق بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان إلا أنّ أغلب الأئمة الشيعة إما اغتيلوا أو سمموا من قبل الخلفاء، ورغم أن الإمام السادس **جعفر الصادق** قد حرم التدخل في شؤون الدولة على الشيعة إلا أن العلاقة قد ظلت متوترة. كما الإمام الثاني عشر **محمد المهدي** اختفى خلال خلافة **المعتمد على الله** بظروف غامضة، ويعتقد الشيعة حتى اليوم أن الإمام هو في حالة غيبة بسبب استشراء الظلم والفساد في المجتمع وأنه سيعود قبل موعد يوم القيامة ليقيم الحكم الإسلامي العادل. في الحقيقة إن عقيدة غيبة الإمام التي ظهرت في العصر العباسي ستشكل إحدى الركائز الأساسية للطائفة الشيعية ومعتقداتها.

وكانت الجدالات الدينية الإسلامية الفلسفية إحدى سمات العصر العباسي خصوصًا في عهود القوة، ومع كون الإسلام هو دين الدولة، غير أنه لا يمكن تحديد مذهب من مذاهبه أو طوائفه دينًا رسميًا. فخلال خمسة قرون من عمر الخلافة في بغداد، كان دين الدولة يتأثر بطائفةالخليفة، **فالمأمون والمعتصم والواثق** أعلنوا الاعتزال عقيدة الدولة، وقام **المتوكل** بتعيين **الشافعية** مذهبًا رسميًا، أما **المستعصم بالله** فكان يميل نحو الشيعة وكذلك الخلفاء الذين تعاقبوا خلال **الدولة البويهية**، على عكس الخلفاء الذين تعاقبوا خلال **الدولة السلجوقية** ومالوا نحو **السنة**.

2. الأديان الأخرى:

خلال عصر القوة والازدهار العباسي كانت العلاقة بين الدولة ومواطنيها غير المسلمين تصنف على أنها في أحسن الأوضاع خصوصًا خلال خلافتي **المنصور والرشيد**، فقد احتفل الخلفاء بالأعياد المسيحية كعيد الميلاد وأحد الشعانين حتى في قصر الخليفة، فيضع

الخليفة وحاشيته أكللة من زيتون ويرتدون الملابس الفاخرة، وقد بنيت في بغداد كاتدرائيتان مع تشييد المدينة. ولعلّ أبرز الدلائل والشواهد عن التعايش الديني والعيش المشترك **أشعار أبي زيد الطائي والأخطل التغلبي** كذلك ما رواه **ابن فضل العمري** بكتابه «**مسالك الأبصار**» وما جاء في كتاب «**مسالك الممالك**» من وصف للحياة بين المسلمين والمسيحيين في البلاد التي زارها، وقد نقل في كتابه ذاته أنه الرها العباسية وجوارها كان هناك ثلاثمائة دير. كذلك فإن كتابات المؤرخين السريان كالتلمحري وميخائيل الكبير وغيرهما تدلّ عل ذلك، ومراسلات **طيموثاوس الأول** بطريرك كنيسة المشرق الذي جمعته صداقة مع **أبي جعفر المنصور** حتى لقبه «**أبي النصارى**»، ويذكر أيضًا عددًا من الخلفاء والأمراء والولاة كانوا يقيمون خلال تنقلاتهم في الأديرة وقد سجلت أديرة الرصافة ودير زكا ودير القائم قرب البوكمال زيارات لخلفاء عباسيين. كما أنّ العباسيين لم يجبروا القبائل المسيحية العربية كتغلب، ونمر، وطيء، وبني شيبان، وقبيلة إياد على الإسلام، وإنما الأسلمة جاءت في القرون اللاحقة التي شهدت اضطهاد الأقليات خصوصًا القرن العاشر.

وكان للمسيحيين خاصةً **السريان** من **يعاقبة، ونساطرة** دور مهم في الترجمة والعلوم والطب، كما ترجم المسيحيون من اليونانية والسريانية والفارسية، واستفادوا من المدارس التي ازدهرت فيها العلوم قبل قيام الدولة العربية خصوصاً مدارس مدن "الرها، ونصيبين، وجندي سابور، وإنطاكية، والإسكندرية" المسيحية والتي خرجت هناك فلاسفة وأطبّاء وعلماء ومشرّعون ومؤرّخون وفلكيّون وحوت مستشفى، مختبر، دار ترجمة، مكتبة ومرصد.

أما **اليهود** فعوملوا كالمسيحيين، ارتقى بعضهم مناصب مرموقة في الدولة، وأصبح **حاخام بغداد** رأسًا للطائفة اليهودية في العالم بسبب التسامح والرعاية، وبنى **الخليفة المعتضد** لليهود مدرسة تلمودية في بغداد. وفي عهد **الخليفة المستنجد** عام 1170م قدر عدد اليهود في بغداد وحدها بأربعين ألفًا، اشتهروا خلالها بالنشاطات الاقتصادية من تجارة وصيرفة على وجه الخصوص.

كذلك حال **المندائيون** الذين اعتبروا في الفقه من أهل الكتاب، وانتشروا في الأحواز وجنوب العراق وكانت مدينتي واسط وميسان عواصم لهم، وقد نقل وجود أربعمائة مشكينا في ميسان أوائل العصر العباسي، واشتهر منهم عدد من القضاة ورجال العلم والأدب.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن حران وجوارها كانت مركزًا وثنيًا كبيرًا تعبد فيها الكواكب والأفلاك، وقد تسامح الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون مع وثنية أهل حران إلى عهد **المأمون**. إذ إن **المأمون** مرّ **حران** عام 830م فاغتاظ من الوثنية وطلب من أهلها التحول إلى الإسلام أو إحدى الديانات التي يعترف الإسلام بها، فدخل الحرانيون **بالصابئة** غير أنهم ظلوا وثنيين ومن هنا يمكن التمييز بين طائفتي صابئة، **الصابئة المندائيون** في جنوب العراق **والصابئة الحرانيون الوثنيون**، ويمكن القول أن الحرانيين لم يقوموا سوى بتغيير شكلي. وظلت **حران** على هذه الحال إلى أن دمرها **تيمورلنك** في القرن الرابع عشر الميلادي ويذكر أبو الفداء أنها قد تحولت إلى كومة خراب وانقرض دين معتنقيها بعد غزوه هذا. وعلى الرغم من هذا، فيجب الإشارة إلى أن أتباع الأديان غير الإسلامية حتى خلال هذه المرحلة، لم تكن مساواتهم بسائر الرعايا من المسلمين كاملة، فيما يخصّ الزواج أو الميراث أو إنشاء دور العبادة في بعض المراحل.

والقسم الأكبر من هذا التعايش تبخر خلال عصور الانحطاط، فهدمت الكنائس ومنع أبناء هذه الأديان من ركوب الخيل ومزاولة بعض الأنشطة التجارية والاقتصادية أو الإقامة في دور مرتفعة، كما أنهم قد عوملوا كرعايا من الدرجة الثانية وأخذ السلاطين والولاة يستبدون بهم وكان البدو يقتحمون الكنائس والأديرة لسلبها على ما يذكر المؤرخ ابن بطريق والمسعودي وغيرهما. كانت إحدى نتائج ذلك، هجرة المسيحيين الذين رفضوا اعتناق الإسلام من المدن نحو الجبال، مثل **الموارنة** الذين نزحوا من وادي العاصي باتجاه جبال لبنان، يذكر أنه عندما دخل **هولاكو** بغداد أمر بعدم التعرض للمسيحيين؛ لكون زوجته مسيحية ومن أتباع كنيسة المشرق الآشورية، وأمر ببناء كاتدرائية في بغداد.

تاسعاً: الثقافة:

1. الشعر:

يعتبر الشعر في العصر العباسي ثالث حلقات الشعر العربي القديم وأكملها. الحلقة الأولى كانت الشعر الجاهلي والثانية كانت صدر الإسلام والعهد الأموي، لتكون الحلقة الثالثة العصر العباسي، حيث بلغ الشعر مبلغًا عاليًا بدعم الخلفاء والأمراء وتحسن أحوال المعيشة. وتخرّج في هذا العصر أبلغ شعراء العربية وأفصحهم ومنهم لا تزال أشعاره تتداول حتى

اليوم. ولم يكن تطور الشعر في العصر العباسي تطورًا في مادته أيضًا بل في علومه أيضًا، إذ قد جمع **الخليل بن أحمد الفراهيدي** أوزان الشعر في خمسة عشر بحرًا ثم أضاف إليها **الأخفش** بحرًا واحدًا فظهر بذلك **علم العروض** بجهود العباسيين. وإن أبرز ما يميز الشعر العباسي تنوّع المواضيع التي طرحها، والتي شملت جميع أطياف المجتمع ومواضيعه، بل إن هذه المواضيع يمكن أن تشكل مرجعًا في دراسة الأحوال الاجتماعية والسياسية خلال مراحل الدولة العباسية المختلفة؛ فمن مدح الخلفاء خلال عهود القوة والذين قاموا بتقديم الدعم المالي للشعراء، إلى التذمر من ضنك العيش وفقر الحال واستشراء الفساد خلال عهود الضعف، كان الشعر دومًا أبرز الميادين التي تعكس حياة المجتمع، نظرًا لكونه العماد الرئيس للثقافة في العصر العباسي.

ومن أبرز التيارات الشعرية، كان **تيار الغزل الماجن**، ومن شعراء هذا التيار **أبو نواس** في قصائده المعروفة **بالخمريات، وبشار بن برد** الذي ولد أواخر العهد الأموي في مدينة البصرة جنوب العراق، ونقل أنه كان مخالطًا للعلماء والشعراء واشتهر بالتردد على الحانات ما ظهر في أدبه شعرًا ماجنًا حتى قتل بتهمة الزندقة، وفي مقابل **الشعر الماجن**، برز **الشعر الديني** بشكل قوي في العصر العباسي، وقد انقسم الشعر الديني في ذاته إلى تيارات مختلفة؛ منها من **امتدح النبي ﷺ وأركان الإسلام ورموزه**، وقد استمرّ هذا التيار سائدًا حتى عهد الخلافة العباسية في القاهرة أما النوع الثاني من الشعر الديني، فهو التيار الذي غلب عليه **الزهد والتأمل الفلسفي في الحياة والله**، ولعلّ **أبو العتاهية** المولود في الأنبار سنة750م أبرز شعراء هذا التيار، بل إن البعض من الباحثين يعتبره مؤسسًا لتيار **الزهد الشعري** كما يعتبرونه قد ارتقى بالشعر الزاهد ليبلغ الفلسفة والحكمة؛ وعندما توفي عام 825م كان قد ترك دووادين عدة في الشعر الزاهد، رغم أنه لم يلتزم في جميع قصائده بقواعد الشعر كالعروض.

وقد بلغ **الشعر الزاهد** لدى بعض الشعراء **كأبو العتاهية** نفسه مبلغًا أنكر من خلاله جدوى الدين واكتفى بالتسليم بالله؛ أما النوع الثالث من الشعر الديني، فهو **التيار الصوفي**، وقد تعدد رواده ليس فقط في الدولة العباسية وإنما في الأندلس أيضًا. من الشعراء الصوفيين **ابن الفارض** المولود في مصر عام 1180م، **وابن سينا** الطبيب والفيلسوف والشاعر المولود في بلاد فارس عام 980م، **وأبو حامد الغزالي** المولود عام 1059م والذي عاصر الاقتتال

الطائفي بين **المعتزلة والأشاعرة**، ومن الشعراء من أسس نمطًا خاصًا من **الشعر الصوفي** يدعى **الشطح**، كان من رواده **أبو يزيد البسطامي**.

وبعيدًا عن الشعر الديني، فقد استمر الشعراء العباسيين بالافتخار بأنفسهم والاعتداد بما صنعوا أو الافتخار بقبائلهم. وكان الشاعر **المتنبي** أحد أبرز شعراء العصر العباسي مفتخرًا بموقعه في المجتمع الذي أخذ الفساد فيه بالانتشار، كما قام **صفي الدين الحلي** بالسير على عادة العرب القدماء بالافتخار بقبائلهم وقوتهم في ساحات الوغى، وإلى جانب قصائد **المدح**، فقد كان **للهجاء** نصيبًا في الشعر العباسي، وأغلب الشعراء قد كتبوا في هذا النمط الشعري ومنهم **دعبل الخزاعي** من مواليد البصرة عام 769م في هجاءه **والي الرحبة مالك بن طوق**. وإلى جانب **المدح والهجاء** كان **للرثاء** دور في الشعر العباسي، وأبرز من نظم قصائد الهجاء **الشريف الرضي وأبو تمام**. ولم يغب **الشعر الوصفي** الذي درج عليه العرب القدماء عن ساحة الشعر العباسي، بل إن أغلب الشعراء استهلّوا قصائدهم بوصف الطبيعة أو غيرها من المواضيع قبل الولوج في صلب الموضوع الخاص بقصيدتهم، ولعلّ **صفي الدين الحلي وأبي تمام** من أبرز شعراء الوصف في ذلك العصر. ومن التيارات الشعرية الأخرى التي انتشرت كان **شعر الغزل** الذي احتلّ النصيب البارز إذ تتعدد القصائد التي تصف الحبيب وتتغزل بشيمه وأوصافه، والتيار الاجتماعي وأبرز شعرائه **ابن فارس وأبو العلاء المعري**، فضلاً عن محاولة تاريخ الأحداث وحل المساجلات الدينية من خلال الشعر.

وإن كان الشعر العباسي هو بالدرجة الأولى شعر عربي، غير أنه قد برز العديد من الشعراء الذين شادوا بلغات أخرى خصوصًا الفارسية والتركية ولاقوا دعم الأمراء والسلاطين في مناطقهم. من أمثال هؤلاء **جلال الدين الرومي** المولود عام 1207م والذي كتب بالفارسية وأسس **الطريقة المولوية** وفي ديوانه المثنوي خمس وعشرون ألف بيت شعر؛ وهناك **منصور أبو القاسم الفردوسي** المولود عام 940م مؤلف **ملحمة الشاهنامه**، ومن الشعراء الذين كتبوا بالتركية **يونس الإمري**.

2. **الأدب:**

لقد كان الأدب أحد المجالات الثقافية البارزة في العصر العباسي، وقد تطورت العلوم الأدبية بشكل كبير فظهر فن السجع وفن المقامات، وهي قصص خيالية لبطل أوحد عادة ما تكون ذات مغازي أو تهدف للمطالبة بإصلاحات معينة؛ وكان أول من صاغها **بديع الزمان**

الهمذاني، وقد غلب عليها **التكلف الأدبي**، وأحد أشكالها المقطع الآتي في وصف ظلم أحد القضاء للهمذاني: "**وأقسم لو أنّ اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيّات السود، لكانت سلامته أحسن من سلامته إذا وقع في غيابات هذا القاضي وأقاربه**". كما انتشر فن الروايات والقصص ذات العبر ككتاب **كليلة ودمنة لابن المقفع** والذي مرر من خلاله نقدًا لاذعًا لولاة الأمر على ألسنة حوار جرى في مملكة الحيوان، رغم أن النصّ الأصلي قادم من الأدب الفارسي غير أنّ ابن المقفع قد زاد عليه ومن خلال ترجمته لعب دورًا بارزًا في المجتمع العباسي ومنه تحول إلى أدب عالمي. ولابن المقفع كتابات أخرى أدبية تعكس الحالة الثقافية السائدة كمؤلفه «**الأدب الصغير**». في حين نحا **الجاحظ** في مؤلفه **البخلاء** إلى سرد قصص قصيرة وفكاهية حول نوادر البخلاء، وقد نال كتابه نجاحًا عارمًا في أوساط المجتمع العباسي.

وخصائص الأدب العباسي، تتميز بفصاحة اللغة المستعملة من ناحية، وتنوع الأساليب الأدبية، فخلال المراحل الأولى من عهد الدولة كان الأدب يستعمل جملاً قصيرة وذات معاني واضحة مبتعدًا عن التكلّف الأدبي أو فنون الخطابة من زخرفة لفظية أو ترادف وتضاد وسجع وسواه، ومع ازدهار الدولة وظهور العدد الوفير من الأدباء والشعراء والقصاصة، أخذ تجميل النصوص والعناية بمفرادتها يصبح أمرًا شائعًا بل تحوّل في واقع الأمر، إلى منافسة بين الأدباء وسجالات في بعض الأحيان، **كالسجال** الذي نشأ أواخر القرن العاشر الميلادي بين **بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي**، وأحيانًا كانت السجالات تتخذ مواضيع معينة كالنقاش حول أفضلية الديك أو الطاووس أو منافع الكلب ومساوئه، أو إبداء الرأي في السجالات الدينية القائمة والصراعات بين المذاهب والمدارس المختلفة.

وإلى جانب الأدب المكتوب، انتشر **الأدب المحكي** ومنه قصص **ألف ليلة وليلة** التي يندرج تحت إطارها جميع القصص الخيالية التي دونت بالعربية، ومنها: **السندباد البحري وعلي بابا، وعلاء الدين والمصباح السحري** وغيرها من القصص التي كانت تروى في جلسات السمَر بشكل شفهي وتتناقل على ألسنة الحكواتية حتى تمّ تدوينها في القرن العاشر الميلادي لمحاولة ضبط النص. ورغم أنتشارها في أوساط العامة غير أن نصوصها كانت مزخرفة بمجملات العبارات ومطعمة بالأشعار المحلية، ويمكن أن يدرج تحت هذا التصنيف الأدبي أيضًا قصص **الزير سالم وعنترة بن شداد**، وهي على الرغم من كونها قصص تاريخية حقيقية إلا أنه قد تم توسيعها وزخرفتها لتناسب الذوق العام. وعندما ترجمت إلى

اللغات الأوروبية عام 1704م قصص **ألف ليلة وليلة** للمرة الأولى لاقت نجاحًا منقطع النظير وقد شرحها وعلّق عليها أكثر من كاتب واستمرت دور النشر في أوروبا بإعادة طباعتها حتى 1838م، إلى جانب هذا النوع من الأدب انتشر في العصر العباسي **أدب الرحلات**، وأقبل الناس على هذا النوع الأدبي لما تضمنه من معلومات عن أقطار الدولة البعيدة أو حتى تلك تقع في الصين أو الهند، لمعرفة طرق حياتهم ومن كتاب أدب الرحلات **الإدريسي** الذي كتب عن جنوب شرق آسيا في القرن الثاني عشر الميلادي. ولم يكن أدب الرحلات دومًا أدبًا علميًا دقيقًا فأدخلت عليه الأساطير والمبالغات التي استسيغت في المجتمع كأسطورة بلاد **الواق واق** والتي ذكر عنها **ابن خرداذبة** في القرن التاسع الميلادي أنها كثيرة الذهب حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب.

3. **اللغة**:

شهد العصر العباسي تطورًا هامًا في بنية **اللغة العربية**. إن أغلب الباحثين يعيدون نشأة **النحو العربي** إلى **أبو الأسود الدؤلي** والذي كان أيضًا **أول من وضع النقاط على الحروف في الهجائية العربية**، غير أن التطور الهام للغة إنما تمّ خلال المراحل اللاحقة **للدؤلي**، خصوصًا في العصر العباسي، حيث اشتهر فيه أبرز النحاة **كعيسى بن العمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وسيبويه** الملقب "**إمام العربية**"، **ويونس بن حبيب، والكسائي مؤسس مدرسة الكوفة في النحو، والأصمعي والزمخشري** وسواهم. وخلال هذا العصر، أعيد ترتيب الهجائية بالشكل المتعارف عليه اليوم، بعد أن كانت مرتبة وفق الترتيب التقليدي للغات السامية. كما ظهر **التشكيل** بالشكل المتعارف عليه اليوم، وذلك على يد **الخليل بن أحمد الفراهيدي**. سوى ذلك، فإن اختلاط العرب بالشعوب غير العربية والتفاعل الحضاري بين هذه الشعوب، أدى إلى دخول العديد من المصطلحات غير العربية إلى هذه اللغة ومنها كلمة بيمارستان الفارسية الأصل والتي تعني المستشفى، وكلمة "عمق" العربية المنحوتة من فعل "عمقو" في السريانية. بل إن ازدهار العلوم وتطور الآداب دفع إلى ظهور مصطلحات جديدة **كالجوهر والحد والجبر والعنصر والترياق** وسوها ما دفع **البحتري** للقول: «**أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس في كلامنا**». وهو ما دفع أيضًا إلى **ظهور المعاجم والقواميس** الخاصة باللغة العربية، مستندة إلى القرآن والشعر الجاهلي بشكل رئيسي، وكان **الخليل بن أحمد أول من جمع قاموسًا سماه «العين»**، على أن القواميس اللاحقة قد

نالت شهرة أكبر ولا تزال مستعملة حتى اليوم، **كلسان العرب** لمؤلفه **ابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي**.

وقد أدى هذا الاختلاط أيضًا وبشكل تدريجي، إلى نشوء اللهجات المحلية في العربية خصوصًا خلال عهد الدولة المتأخر؛ ويعود سبب نشوء اللهجات واختلافها إلى اللغات التي كانت سائدة قبلاً، فتأثرت اللهجات الشامية والعراقية بالسريانية، واللهجة المصرية بالقبطية أما لهجات المغرب العربي فقد تأثرت بالبريرية.

عاشراً: العمارة:

اهتم العباسيون خلال عهود قوتهم بالناحية العمرانية عناية واضحة، فأنشؤوا عددًا من المدن الجديدة برمتها، ولعلّ أشهرها عاصمة الدولة **بغداد** ومن المدن الأخرى التي شيدها العباسيون **سامراء والمتوكلية والرحبة** في الجزيرة السورية وغيرها. كما قام العباسيون بإنشاء شبكة واسعة من الطرق والجسور خصوصًا في العراق حاضرة الخلافة، وشيدوا المدارس والجامعات والمستشفيات والحمامات العامة في المدن الكبرى وقد ذكر المؤرخ ابن جبير أن في مدينة دمشق وحدها أكثر من مائة حمام، إضافة إلى التكايا التي تستضيف الفقراء والفنادق المخصصة باستقبال الغرباء عن المدينة؛ كما قام العباسيون بتزويد الطرق العامة سواءً في المدن أو خارجها بصنابير المياه بحيث يستطيع عابر السبيل أن يرتوي من الطريق مباشرة.

وقد تأثر فن العمارة العباسية بالعمارة العراقية القديمة خصوصًا **الأشورية** وكذلك العمارة **الفارسية**، ولعل تصميم بغداد بشكل دائري له أربع أبواب هو أحد أبرز أوجه التأثر بالعمارة الآشورية إذ إن المدن التي بناها المسلمون سابقًا إما مربعة **كالقاهرة** أو مستطيلة **كالفسطاط**، ومن العراق انتقل هذا النمط المعماري عن طريق الولاة والسلاطين إلى مصر وبلاد الشام. في حين يشكل استعمال الآجر والطين لبناء القصور بدلاً من الحجارة أبرز تأثرات العمارة العباسية بالعمارة الفارسية خصوصًا خلال العهد الساساني.

وتمازجت مع العمارة فنون الزخرفة التي وصفها عدد من النقاد بأنها لغة الفن الإسلامي؛ وقد كانت زخرفة المساجد والقصور والقباب الميدان الأساسي لها، بأشكال هندسية أو نباتية عُرفت باسم **(الأرابيسك)** أو **الزخرفة العربية**، وقد انتشر هذا المصطلح في العالم

العربي حديثًا للإشارة إلى الزخرفة العباسية، على أن جذر الكلمة لغويًا يأتي بمعنى «**التوريق**». كما انتشر في العصر العباسي بنوع خاص **الفن التجريدي** رغم أن نشأته كتيار فني تعود للعصور الحديثة، إلا أنّ العباسيين وخلال زخرفاتهم عملوا إلى عزل عنصر الزخرفة كالورقة أو الزهرة عن محيطها، أي عمد الفنان العباسي بتجرديها عن محيطها الطبيعي الذي يعطي إحساسًا بالذبول والفناء مانحًا إياها شعورًا بالداوم والبقاء. وإلى جانب الزخرفة النباتية، درجت زخرفة الأحرف العربية وازدهرت حتى أصبحت علمًا قائمًا ممثلاً بعلوم الخط العربي، رغم أن نشأته تعود لما قبل الإسلام. ومن أشهر أنواع الخطوط الخط الكوفي وخط الرقعة. وكذلك وعلى الرغم من عدم استساغة علماء الدين المسلمين لتصوير الإنسان أو الحيوان، إلا أن الخلفاء العباسيين قد اعتنوا بالأمر كما تدل جدران القصور المكتشفة في شرق الأردن وسامراء. ويصنف النقاد الزخرفة العباسية بكونها زخرفة «كارهة للفراغ»، إذ يقوم الفنانون برسم الزخارف من الحجم الكبير والمتوسط والصغير بحيث تملأ جميع الفراغات بزخارف ولو كانت متناهية في الصغر. كما اشتهر العباسيون **الفسيفساء** القادمة من **الحضارة البيزنطية**.

حادي عشر: الموسيقى والغناء:

إن الموسيقى العربية في العصر العباسي بلغت ذروة مجدها من ناحيتي الأداء الغنائي وانتشار العلوم والبحوث والدراسات الموسيقية. واستمرت بغداد حتى منتصف القرن التاسع الميلادي مركزاً حيوياً تنبعث منه إشعاعات النهضة الموسيقية العربية. وقد اقترن تطور الموسيقى بحالة الرخاء الاقتصادي في الدولة خلال عهود قوتها من ناحية، وبدعم الخلفاء غير المنقطع لها منذ مؤسس الدولة **أبو العباس السفاح** الذي أحب غناء **سلمك الفارسي**، مرورًا **بالخليفة المأمون** الذي كان يروقه بنوع خاص الغناء الإغريقي اليوناني وهو من أمر بترجمة الأصول النظرية للموسيقى إلى العربية فشكل بذلك أساس العلوم الموسيقية النظرية؛ **وموسى الهادي** الذي كان ابنه **عبد الله** مغنيًا ويجيد العزف على العود، **وهارون الرشيد** الذي أنفق ثروة في منح الجوائز للمغنين والملحنين، وكان **الخليفة الواثق بالله** أعلم الخلفاء بهذا الفن، وأنه كان مغنيًا بارعًا وعازفًا ماهرًا على العود. وقد لقي الفن من التشجيع والكرم في بلاطه ما يجعل المرء يظن أنه تحول إلى معهد للموسيقى، بدلا من كونه مجلسًا لأمير المؤمنين.

وقد تمازجت الموسيقى العربية واختلطت، بأنواع الموسيقى السريانية والفارسية وشكلت معها مزيجًا متماسكًا حتى القرن العاشر الميلادي، حين دخلت وبنتيجة وفود قبائل السلاجقة والأكراد الآلات النفخية، وأخذت تحلّ مكان الآلات الموسيقية الوترية التي كانت العماد الرئيسي للموسيقى العربية، ما دفع عدد من المؤرخين لإبداء استيائهم من هذا التغير. وقد دوّن لنا المؤرخون عددًا من أبرز الفنانين والملحنين الذين تألقوا خلال العصر العباسي في مجالس خلفاء العصر العباسي الأول، وهم: **حكم الوادي، وإبراهيم الموصلي، وابن جامع، ويحيى المكي، زلزل، ويزيد حوراء، وفليح بن أبي العوراء، وعبد الله بن دحمان، والزبير بن دحمان، وإسحاق الموصلي، وبرهوم، ومحمد الرف، وزرياب وقمر البغدادية**، إلى جانب آخرين.

ونتيجة هذا الاهتمام بالموسيقى ومجالس الطرب، نشأت العلوم الموسيقية فقام **الكندي** في كتابه «**رسالة في خبر تأليف الألحان**» باستعمال الحروف والعلامات في تدوين الألحان منشئًا بذلك **(النوطات)**، و«**كتاب الموسيقى الكبير**» للعالم والفيلسوف **الفارابي**، و«**كتاب الأغاني**» للأديب **أبي الفرج الأصفهاني** وقد أهداه **لسيف الدولة الحمداني**، وكتاب «**الأدوار**» **لصفي الدين الحلي**. وكذلك تطرق **ابن سينا** الطبيب المعروف في كتابه «**الشفاء**» لدور الموسيقى في العلاج وأنواع الموسيقى الملائمة لها.

وقد اقترنت مجالس الطرب عادةً بخلاعة جنسية تقوم بها إماء الخليفة أو السلطان، وكذلك بشرب الخمور، وكلا الأمرين مما لا تبيحهما الشريعة الإسلامية؛ هذا ما دفع عددًا من الفقهاء وعلماء الدين إلى تحريم الموسيقى والغناء، وكان أشدهم بذلك **أنس بن مالك** حتى اعتبر أن الإنسان لو ترنّم لنفسه في خلوته فذلك خطيئة، أما **أبو حامد الغزالي** كان الوحيد ممن أشار صراحة إلى عدم تحريم الشريعة الإسلامية للغناء.

ثاني عشر: العلوم:

1. العلوم العامة:

لم يكن لدى العرب في شبه الجزيرة العربية علومًا متنوعة، ولم يركز الأمويون اهتماماتهم على مجالات متنوعة في العلوم، لذلك فإن تأسيس العلم العربي فعليًا يعود للعصر العباسي، معتمدًا في البداية على ترجمة أعمال الفلاسفة والعلماء اليونان كأرسطو وأفلاطون،

وذلك بدعم من الطبقة الحاكمة. وفي المرحلة الثانية أصبح العلماء العباسيون يضيفون ويبتكرون في العلوم النظرية والتقنية على حد سواء. خلال تلك المرحلة، كان الجهل والأمية متفشيان في أوروبا بشكل مريع، ولولا جهود الخلفاء وحاشيتهم لكان العلم الإغريقي القديم قد اندثر تمامًا. فقد أنتج العباسوين علماءً في الفلك وعلوم الطبيعة والفيزياء والطب والرياضيات.

ومن أبرز المنجزات العلمية في العصر العباسي، **رسم أول خارطة للعالم بأسره على يد الإدريسي** المولود في سنة 1100م وقد ظلّ كتابه «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**»، كتاب الجغرافيا الأول في الشرق والغرب، ومن العلماء العباسيين البارزين أيضًا، **ابن الهيثم** المولود عام 965م والذي ألف مائتي كتاب في الطب والفلسفة والرياضيات والفيزياء، ولعلّ كتبه حول الأشعة وانكسارها وانعكاسها أبرز ميادين كتابته، وقد حاز مؤلفه «**المناظر**» الذي درس به الأشعة شهرة عالمية. ويعود له أيضًا عدد من الابتكارات كصقل العدسات المحدبة والمقعرة، وأيضًا **عبد الله البتاني** الذي ولد في الرقة وعاش بها عام 850م، واشتهر بعلم الرياضيات حيث أكمل تنسيق الزوايات خصوصًا **الجيب وجيب التمام والظل**، وناقش نظريات **بطليموس** حول الكواكب وزاد عليها في كتابه «**تعديل الكواكب**» وكتابه «**زيج البتاني**»، وهناك أيضًا **ابن سينا** المولود في بخارى عام 981م وله مؤلفات في مواضيع شتى أجلّها «**القانون في الطب**» وهو موسوعة تحتوي خلاصة ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال، وقد ظل متداولاً ومتدارسًا في مختلف أصقاع العالم حتى القرن السادس عشر الميلادي. وفي مجال الصيدلة برز **ابن البيطار** الذي ولد في الأندلس عام 1197م وطاف أوروبا واستقر في دمشق إلى أن توفي عام 1248م، وساهمت رحلاته في معرفته **أنواع النباتات وتركيب عقاقير طبية منها**. وقد ألف **ابن البيطار** عددًا من الكتب أبرزها «**الجامع في المفردات الطبية**»، ويعتبر من رواد طريقة الاستنباط العلمية، إلى جانب **جابر بن حيان** العالم الكيميائي الذي نال دعم هارون الرشيد وأسس وتلامذته منهج التجربة في العلوم.

وهناك أيضًا **الكندي** وهو من أبرز الفلاسفة، **والرازي** الذي كان له مؤلفات طبية أبرزها «**الحاوي**» ومؤلفات فلكية ناقش خلالها كروية الأرض وعدم تمركزها في قلب العالم؛ كما اشتهر علم التاريخ وفق الروايات المتناقلة ومن المؤرخين **ابن كثير والمقريزي**، وانبثق منه علم **أنساب العرب** وتدوين سير أعلامهم ومن الكتب الهامة في هذا الصدد كتاب «**وفيات**

الأعيان» لابن خالكان. ومن العلوم التي نشأت أيضًا في كنف العباسيين، **علم الجبر**، وكذلك فقد ابتكر **الخوارزمي أول لوغاريتم في العالم**. ولم يقتصر الأمر على المسلمين، إذ برز العديد من العلماء غير المسلمين **كثيوفيل بن توما** الذي شغل **منصب كبير علماء الفلك لدى الخليفة، وقيس الماروني** المؤرخ الذي وضع **مؤلفًا أرخ به تاريخ البشرية منذ خلق آدم وحتى خلافة المعتضد، وجرجس بن بختيشوع** المولود عام 771م، **وجبريل بن بختيشوع** تلميذه المولود سنة809م وهم أبناء أسرة مسيحية من الأطباء والعلماء و**حنين بن إسحاق وابن اخته حبيش بن الأعسم، وعبد المسيح الكندي من القرن التاسع الميلادي ويوحنا بن ماسويه** والذي كان وأبيه قبله، مدير مشفى دمشق خلال خلافة هارون الرشيد، وغيرهم. وفي الواقع، فإنه من الصعب حصر جميع علماء العباسيين ومؤلفاتهم لكثرتها وتنوعها.

2. **الترجمة**:

اهتمّ العباسيون بترجمة الكتب والمخطوطات القديمة إلى العربية، فشكل ذلك بداية الثورة الفكرية والحضارية في العصر العباسي. كان العرب يجهلون اللغة اليونانية التي دونت بها أغلب المؤلفات العلمية القديمة أمثال: أرسطو وأفلاطون وغيرهما، ومع اهتمام الخلفاء خصوصًا **أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد** وابنه **المأمون** بالعلوم، عهدوا بعملية الترجمة إلى **السريان** وبشكل أقل **الفرس**. وقد كانت الترجمات تتم على مرحلتين، من اليونانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية. كذلك فقد نقل العرب، الأدب السرياني بكامله إلى لغتهم وقد اعترف المؤلّفون العرب القدماء، **كابن أبي أصيبعة، والقفطي، وابن النديم والبيهقي، وابن جلجل** وغيرهم، بقصّة غزو العرب للأدب السريانيّ والمؤلّفات التي ترجمت عن السريانيّة إلى العربيّة في أرجاء الدولة العباسيّة والأندلس.

وقد ازدهرت الترجمة على أيدي السريان في الفترة الواقعة بن عاميّ 750–900م. فقد عكفوا على ترجمة أمّهات الكتب السريانيّة واليونانيّة والفارسيّة إلى العربيّة، وكان على رأس أولئك المترجمين في **بيت الحكمة "حنين بن إسحاق"** الطبيب النسطوريّ، فقد ترجم إلى اللغة السريانيّة مائة رسالة من **رسائل جالينوس**، وإلى العربيّة تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وترجم أيضاً كتب المقولات **الطبيعيّة والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتاب الجمهوريّة، وكتاب القوانين والسياسة لأفلاطون**، فكان **المأمون** يعطيه ذهباً زنة ما ينقله من الكتب. وقام ابنه اسحق في أعمال الترجمة أيضاً فنقل إلى العربيّة من كتب **أرسطو الميتافيزيقيا، والنفس**

وفي توالد الحيوانات وفسادها، كما نقل إليها **شروح الإسكندر الأفروديسي** وهو كتاب كان له أثر كبير في الفلسفة الإسلاميّة. وكان **قسطا بن لوقا** يشرف على الترجمة من اللغات اليونانيّة والسريانيّة إلى العربيّة. وقد أقام **المأمون يوحنا بن البطريق** الترجمان أميناً على ترجمة الكتب الفلسفيّة من اليونانيّة والسريانيّة إلى العربيّة، وتولّى كتب أرسطو وأبقراط. ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمّون بالترجمة والنقل إلى العربيّة بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء، وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها.

ثالث عشر: الاقتصاد:

كان النظام الاقتصادي في الدولة العباسية، يقوم على الزراعة. وقد كانت الأراضي الخصبة مقسمة إلى أربع قطاعات: **أراضي الدولة التي تعود أرباحها مباشرة للخليفة أو السلطان أو كبار قادة الجيش، وأراضي الأوقاف التي كانت تشكل ممولاً أساسيًا للمساجد والمدارس الفقهية، وأراضي الإقطاعيات الخاصة حيث تكون مملوكة لمتنفذي المدن ووجهائها، مع وجود نوع رابع قليل الانتشار تمثّل في الملكية الخاصة للأفراد.**

وكان الفلاحون يعملون لدى ملاك الأراضي ويستقرون في قرى صغيرة تبنى بالقرب منها، ويقتاتون من حصتهم من غلال الأرض؛ وإذا ما احتاجوا شيءًا كانوا يشترونه من الباعة المتجولين أو أسواق المدن القريبة، فالحياة القروية كانت مستقرة ومزدهرة وكان يعيقها انعدام الأمن خصوصًا خلال عهود ضعف الدولة، إذ تعرضت الإقطاعيات للغزو والتخريب سواءً من دول مجاورة أو من قطاع الطرق. وقد حاولت الدولة خلال عهد القوة السيطرة على الوضع من خلال توجيهات **موسى الهادي وهارون الرشيد**؛ وخلال فترات انعدام الأمن أخذ سكان القرى بالنزوح نحو المدن ما أثر على الاستقرار الاقتصادي.

أما **الصناعة**، فكانت بجزء منها تعتمد على الزراعة، كصناعة السكر المستخرج من قصب السكر خصوصًا في مصر والأحواز، أو صناعة المواد الغذائية من مشتقات الحليب وتسويقها في المدن، أما الصناعات غير المعتمدة على الزراعة، فكان هناك الصناعات الحربية كالسيوف أو نسج الحرير والصوف والكتان وأنواع الأقمشة الأخرى وازدهرت بنوع خاص حياكة السجاد في إيران وبلاد الشام وصناعة الزجاج وزخرفته وإنتاجه بأشكال فنية،

وصناعة الورق التي انتقلت من الصين إلى بغداد عن طريق سمرقند على يد **يحيى البرمكي** وفي خلافة هارون الرشيد، والفخاريات والنحاسيات المختلفة، فضلاً عن صناعة السفن.

ويمكن التمييز بين نوعين من المدن، **المدن الكبرى** كحلب والقاهرة **والمدن الأصغر** حجمًا وأقل أهمية كطرابلس؛ أما **كبرى المدن** فكانت **بغداد** وقد وصل عدد سكانها في القرن التاسع الميلادي إلى مليون نسمة، لتكون **أكبر مدينة في العالم**. وكان في المدن الصغرى السوق مختلطًا لجميع أنواع السلع، أما في المدن الكبرى فكان هناك عدة أسواق: كسوق الوراقين وسوق النجارين وسوق الخضار وسواها، ويشرف على كل سوق مجموعة من العمال يشرفون على نظافة السوق، والتأكد من عدم غش التجار بالموازين ويشرفون على الآداب العامة، مع تخصيص أماكن لبيع الخمور وغيرها من منكرات الشريعة الإسلامية. كما نظم عمال الصناعة أنفسهم فيما دعي «**الطوائف الصناعية**» وهي أشبه بالنقابات في عصرنا الحالي، ومهامها الحفاظ على حقوق العاملين في المهنة، وتشرف على تعليم الراغبين بامتهانها أصول المهنة، ومع تراجع وضع الدولة الاقتصادي ازداد الفقر والفاقة ولم تستطع التكايا المخصصة لرعاية الفقراء من أداء واجباتها كما كانت في السابق، وتشير الأدبيات العباسية بعد القرن التاسع الميلادي إلى انتشار الفساد والرشوة حتى في سلك القضاء، من أسباب الانهيار الاقتصادي تكلفة الحروب المتواصلة سواءً بين السلاجقة أنفسهم أو مع الصليبيين، وسوى ذلك فقد ضرب القحط والجفاف العراق وبلاد الشام فترة طويلة وزلزلت المنطقة عدة مرات بهزات أرضية، ومحصلة القول فإن ضعف الدولة العباسية كان في أحد شقوقه اقتصاديًا.

وكانت مساحة الدولة المترامية الأطراف، وتمركزها في قلب العالم القديم، جعل من أراضيها معبرًا تجاريًا وممرًا لقوافل البضائع بين الشرق الأقصى وأوروبا، ولعلّ طريق الحرير الذي يعود لفترة قبل الميلاد أشهرها وقد اشتهر بتجارة التوابل والعطور، والطريق الجنوبي نحو أفريقيا حيث كان التجار يسوقون بضائعهم مقابل الحصول على الذهب التي اشتهرت به تلك الأصقاع خصوصًا مملكة غانا وقبائل السودان الوثنية، كما نشطت خلال هذا الطريق تجارة الرقيق، وقد ارتبطت الدولة العباسية بعلاقات جيدة مع الممالك المتعاقبة في أثيوبيا حاليًا وأشهرها مملكة النوبة، والتي سمحت للعباسيين التنقيب عن الذهب والزمرد في أراضيها، كما كان هناك طريق تجاري بحري يربط البصرة جنوب العراق بالساحل

الإيراني ومنه نحو الهند والصين وكانت الرحلة به تستغرق ستة أشهر. كانت الدولة تفرض أتاوات على القوافل، ما أمّن لها قطعًا نقديًا ثابتًا للخزينة، غير أنه في زمن الخلافة العباسية في القاهرة، اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، وتحولت مع الاكتشاف الجديد طرق التجارة صوب نصف الكرة الجنوبي، ما عنى آنذاك فقدان الدولة موقعها كمتحكم بالطرق التجارية، ما أدى إلى زيادة الوضع الاقتصادي خلال العهد المملوكي تدهورًا. وعمومًا فإن العهد المملوكي لم يتميز قط بازدهار اقتصادي، ويضرب المؤرخون مثالاً على ذلك بأن سكان مصر وبلاد الشام قد انخفض إلى الثلث عما كان الوضع عليه قبل استلام المماليك للسلطة. ويعود ذلك بشكل رئيسي للفساد المالي واحتكار الثروة والصراعات بين المماليك أنفسهم، علمًا أن المماليك قد تمتعوا باستقرار سياسي بعد هزيمة المغول عام 1260م وجلاء الصليبيين عام 1291م.

كانت **العملة الرسمية** هي **الدينار**، وهو مطبوع من معدني الذهب والفضة، وكان ولاة الأمر يعمدون إلى خلطه بالقليل من النحاس أو البرونز بهدف طباعة كميات أكبر من النقد؛ ونظام الضرائب ممأسس وفق الشريعة الإسلامية من خراج وعشور وزكاة، وفي بعض الأحيان كان السلاطين أو الخلفاء يفرضون ضرائب استثنائية لم تنص عليها الشريعة، ما تسبب باعتراض الفقهاء ومنها المكوس؛ وعمومًا فإن الضرائب الإسلامية كانت في الغالب تجبى سنويًا أما المكوس فتجبى شهريًا. أما إنفاق أموال الدولة فكان وفق رؤية السلاطين أو الخلفاء، فعلى الرغم من أن الشريعة قد نظمت طرق الجباية غير أنها لم تنظم طرق الإنفاق، ما ساهم بارتباط طرق الإنفاق بشخصية الحاكم وحاشيته؛ إذا كان مصلحًا ملتزمًا أنفق المال في خدمة الدولة وتحسين مرافقها أو أهمل الأمر كليًا أو جزئيًا، وقد نقل عن نفقات قصور الخلافة بأنها كانت تشكل ثلث واردات الدولة في بعض العهود.

إحدى مصادر الدخل كانت **الغزوات**، فقد اعتاد العباسيون في عهود القوة تسيير غزوة كل صيف نحو التخوم والثغور، ودُعيت تلك الغزوات **بالصوائف**؛ والهدف **منها لم يكن توسيع رقعة الدولة بقدر ما كان كسب غنائم وكميات نقد جديدة سواءً عن طرق الصلح بفرض الجزية أو عن طريق الاستيلاء على مقدرات الأماكن المقصودة ونهبها.**

رابع عشر: المجتمع:

كان المجتمع العباسي يتكون من **أربع طبقات اجتماعية** على رأسها **طبقة الحكام** والتي تشمل **الخلفاء والأمراء والسلاطين والولاة والوزراء وقادة الجيش**، وقد تميزت هذه الطبقة **بالثراء والبذخ وتذوق الفنون**. أما **الطبقة الثانية** هي **طبقة علماء الدين والفقهاء**، الذين كانوا **يشكلون أساس النظام القضائي والفقهي والتعليمي** بشكل كبير خلال عهود ضعف الدولة. أما **الطبقة الثالثة** فهي **طبقة التجار**، وهم بدورهم **يقسمون إلى تجار كبار**، وغالبًا ما **كانت تجارتهم تقوم على الرقيق أو المجوهرات وغيرهما**، ولهؤلاء **علاقة وثيقة مع طبقة الحكام**؛ **والتجار الصغار** ويندرج في إطارهم **الحرفيين والصناع وأرباب المهن**، والذين **كانوا العصب الرئيس لحياة المدن**. إلى جانب **الطبقة الرابعة** والتي تشمل **الفلاحين الأقنان والعبيد**، ويضيف بعض الباحثين طبقة أخرى ممثلة **بجند الجيش**، إذ كانت مهمة **الجندية أشبه بمهمة دائمة آنذاك**.

وكانت **العائلة** تعتبر الركيزة الأساس للمجتمع العباسي. يرأس الأسرة كبيرها، ومن حوله زوجاته وأولاده وفي بعض الأحيان أحفاده، إذ إن الأولاد غالبًا ما يتزوجون في منازل آبائهم، ويعملون في مهن آبائهم ما أدى إلى تخصص العائلات بمهنٍ معينة. أما المرأة في العصر العباسي، يمكن تمييز دورها في حقبتين، الحقبة الأولى نرى آثارًا عديدة لها في الحياة العامة فاشتهرت عدد من المغنيات والشاعرات والأديبات بل والسياسيات **كخيزران وزبيدة** زوجتا **هارون الرشيد** واللتين كان لهما دورًا أساسيًا في «جعل عصر الرشيد أزهى عصور العهد العباسي»، ويرى عدد من الباحثين أن انتشار الخلاعة في قصور الخلفاء وأثرياء المجتمع، قد أثر سلبًا على وضع المرأة الاجتماعي خلال تلك الفترة. وفي المرحلة الثانية انكفأت المرأة من جديد نحو المنزل، وأما على صعيد القصر، فقد برزت عدة نساء أيضًا كزوجة **المقتدي** «**شمس النهار**»، وكذلك زوجة **طغرل بك** والتي «كانت سديدة الرأي فوّضها زوجها أمره في كثير من الأمور فكانت على أحسن تدبير».

وكان الالتزام بالشريعة ومنكراتها، متفاوتًا بدوره، فالمجتمع العباسي أساسًا، مجتمع متدين غير أن الحانات ومجالس السمر العامة ومناطق بيع المشروبات الكحولية كان موجودًا خصوصًا في المدن الكبرى، حيث هناك اختلاط بين مسلمين وغير مسلمين، ممن تبيح شرائعهم الخمر وغيره.

المصادر والمراجع

1- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم): **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م.

2- ابن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر آباد، الهند، 1357هـ.

3- ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، القاهرة1350هـ.

4- ابن النديم: **الفهرست**، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1384هـ.

5- ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة**، بيروت، دار الكتب العلمية 1413هـ – 1992م.

6- ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة.

7- ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت1979م.

8- ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ = 1987م.

9- ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت 1408هـ = 1988م.

10-أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1961م.

11-أدم منز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد أبو ريدة، القاهرة، 1948م.

12-بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة ن. فارس وم.البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1965م.

13-البيروني: **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، لينبرج 1932م.

14-حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1973م.

15-الخطيب البغدادي (أحمد بن علي): **تاريخ بغداد**، القاهرة، 1349هـ = 1931م.

16-خليل السامرائي وآخرون: **تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي**، الموصل، 1988م.

17-زامبادور: **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، ترجمة زكي حسن وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد، القاهرة 1951 و 1952م.

18-السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1389هـ = 1969م.

19-شاكر مصطفي: **دولة بني العباس**، الكويت، 1393هـ = 1973م.

20-الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، 1966م.

21-عبد النعيم حسنين: **دولة السلاجقة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975م.

22-فاروق عمر: **الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة**، دار الخليج، 1403هـ = 1983م.

23-فؤاد الصياد: **الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين**، الدوحة1987م.

24-القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي1987م.

25-محمد الخضري: **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)**، القاهرة، 1970م.

26-محمد مسفر الزهراني: **نظام الوزارة في الدولة العباسية،** مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ = 1986م.

27-المسعودى: **مروج الذهب ومعادن الجوهر،** دار الأندلس، بيروت، 1385هـ = 1965م.

28-مسكوية: **تجارب الأمم وتعاقب الهمم،** نشره آم دروز، مطبعة التمدن، القاهرة، 1914م.

29-ياقوت الحموي: **معجم الأدباء،** دار المأمون، القاهرة، 1355هـ = 1936م.

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية

(385-567هـ)

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية (358-567هـ)

تمهيد:

شهدت الخلافة العباسية استقلال عدد من الدول عنها استقلالا تاما، بينما أخذ بعضها يتجه نحو استقلال جزئى تصبح البلاد فيه تابعة للخلافة اسمًا (فقط) بحيث تستمد منها مكانتها الروحية وقدرها العظيم فى نفوس المسلمين.

ويقف المؤرخون والمحللون أمام قيام بعض الدول وانهيار أخرى وقفات تأملية يبحثون عن الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه وانهيار تلك، وعلى كلّ، فقد كان قيام الدويلات نتيجة لضعف الخلافة، وسببًا لمزيد من الانحلال، وخطوة على طريق النهاية، لقد قامت أولى هذه الدويلات فى أقصى الغرب؛ لبعده عن عاصمة الدولة، ومركز السلطان فيها، فقامت دولة الأمويين فى الأندلس، وبقيامها فى سنة 137هـ/756م ضعف نفوذ العباسيين على الغرب، وسرعان ما نشأت الدويلات فى شمال إفريقية.

وحين تطرق الضعف إلى جسد الخلافة العباسية جميعًا، نشأت الدويلات فى بقية أجزاء الدولة، وقد تسببت هذه الدول فى ضعف الدولة العباسية وانحلالها؛ ذلك لأنَّ علاقة هذه الدويلات بالدولة العباسية كانت مختلفة اختلافًا كبيرًا، فقد انفصل بعضها عن الدولة انفصالا تامّا، ونافسها بعضها على تولى الخلافة نفسها.

كما ظل قسم آخر على علاقة اسمية بالدولة، فيكفى الخليفة أن يذكر اسمه على المنابر، ويصك اسمه على العملة، وفى حقيقة الأمر أنها دولة مستقلة تمامًا لا تخضع له فى شىء. وهناك دويلات ظلت على صلة متغيرة بالدولة، تقوى حينًا، وتضعف حينًا آخر تبعًا لتغير الأحوال.

تمهيد:

الدَّوْلَةُ الفَاطِمِيَّةُ أو **الدَّوْلَةُ العُبَيْدِيَّةُ** هي إحدى دُولِ الإسلاميَّة، والوحيدة التي اتخذت من **المذهب الشيعي(الإسماعيلي)** مذهبًا رسميًّا لها. وقامت هذه الدولة بعد أن نشط الدُعاة الإسماعيليّون في إذكاء الجذوة الحُسينيَّة ودعوة الناس إلى القتال باسم **الإمام المهديّ المُنتظر**، الذين تنبؤوا جميعًا بظُهوره في القريب العاجل، خلال العهد العبَّاسي فأصابوا بذلك نجاحًا في الأقاليم البعيدة عن مركز الحُكم خُصوصًا، بسبب مُطاردة العبَّاسيين لهم واضطهادهم في المشرق العربي، فانتقلوا إلى المغرب حيثُ تمكنوا من استقطاب الجماهير وسط قبيلة **كتامة** البربريَّة خصوصًا، وأعلنوا قيام الخِلافةِ بعد حين. شملت الدولة الفاطميَّة مناطق وأقاليم واسعة من بلاد المغرب إلى مصر، ثُمَّ توسَّع الفاطميّون أكثر فضمّوا إلى مُمتلكاتهم جزيرة صقلية، والشّام، والحجاز، فأضحت دولتهم أكبر دولةٍ استقلّت عن الدولة العبَّاسيَّة، والمُنافس الرئيسيّ لها على زعامة الأراضي المُقدَّسة وزعامة المُسلمين.

واختلفت المصادر التاريخيَّة حول تحديد نسب الفاطميين، فمُعظم المصادر الشيعيَّة تؤكِّد صحَّة ما قال به مؤسس هذه السُلالة، **الإمام عُبيد الله المهدي بالله**، وهو أنَّ الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى **مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق**، ومن سُلالة الرسول ﷺ عبر ابنته **فاطمة الزهراء** ورابع الخُلفاء الرَّاشدين **الإمام عليّ بن أبي طالب**، بالمُقابل، أنكرت مصادر أُخرى هذا النسب وأرجعت أصل **عُبيد الله المهدي** إلى الفُرس أو اليهود، ولقد أسس الفاطميّون مدينة **المهدية** في ولاية **إفريقية** سنة 300هـ–913م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ–948م نقلوا مركز الحُكم إلى مدينة **المنصوريَّة**، ولمّا تمَّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ–969م أسسوا مدينة **القاهرة** شمال الفسطاط، وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى انهيارها.

أظهر عددٌ من الحكام الفاطميّون تعصُّبهم للمذهب الإسماعيلي، فعانى أتباع المذاهب والديانات الأُخرى خِلال عهدهم، وقد اشتهر الفاطميّون أيضًا بقدرتهم على الاستفادة من كافّة المُكونات البشريَّة لدولتهم المُنتمية لتكتُلاتٍ عُنصريَّة مُتنوِّعة، فاستعانوا بالبربر، والتُرك، والأحباش، والأرمن في تسيير شؤون الدولة، إلى جانب المُكوِّن العُنصري الرئيسي، أي العرب.

لقد كان الجامع الأزهر ودار الحكمة مركزين كبيرين لنشر العلم وتعليم أُصول اللُغة والدين. وأبرز عُلماء هذا العصر كان **الحسن ابن الهيثم** كبير عُلماء **الطبيعيَّات**، والأخصَّائي **بعلم البصريَّات**، وقد جاوزت مؤلّفاته المائة في الرِّياضيَّات وعلم الفلك والطب، وأخذت الدولة الفاطميَّة تتراجع بسُرعةٍ كبيرة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، فاستبدَّ الوُزراء بالسُلطة وأصبح اختيار الخُلفاء بأيديهم. وكان هؤلاء الخُلفاء غالبًا من الأطفال أو الفتيان، واختلف عددٌ كبيرٌ من الوزراء مع قادة الجيش ووُلاة الأمصار ورجال القصر، فعاشوا في جوٍ من الفتن والدسائس، تاركين الناس يموتون من المجاعة والأوبئة المُتفشية، وخلال ذلك الوقت كانت الخِلافة العبَّاسيَّة قد أصبحت في حماية السلاجقة، الذين أخذوا على عاتقهم استرجاع الأراضي التي خسرها العبَّاسيّون لصالح الفاطميين، ففتحوا شمال الشّام وسواحلها وسيطروا عليها لفترةٍ من الزمن قبل أن يستردَّها الفاطميّون، لكنّها لم تلبث بأيديهم طويلًا، إذ كانت **الحملة الصليبيَّة الأولى** قد بلغت المشرق، وفتح المُلوك والأُمراء الإفرنج المُدن والقلاع الشاميَّة الواحدة تلو الأُخرى، وبلغ أحد هؤلاء المُلوك، وهو **عمّوري الأوّل** أبواب القاهرة وهددها بالسُقوط. واستمرَّت الدولة الفاطميَّة تُنازع حتّى 1171م، عندما استقلّ **صلاح الدين الأيوبي** بمصر بعد وفاة آخر الخُلفاء الفاطميين، وهو **العاضد**، وأزال سُلطتهم الإسميَّة.

أولاً: أصل الشيعة الفاطمية:

قامت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلى الشيعى القائل بالنص والتعيين، ويقصرون خلافة **الرسول** ﷺ الروحية والزمنية على ذرية **الإمام** "**على**" ﷺ مستندين فى ذلك إلى حديث "**غدير خم**" الشهير، وقد لجأت الإسماعيلية بعد وفاة إمامهم "**إسماعيل بن جعفر**" إلى الاختفاء والعمل السرى، فقد افترق أشياع "**جعفر الصادق**" بعد وفاته إلى فرقتين، ولت الأولى ابنه "**موسى الكاظم**" إمامًا، وولت الثانية ابنه "**إسماعيل**" إمامًا، فعُرِفَت الفرقة الأولى **بالإمامية أو الاثنا عشرية**؛ لأنها **سلسلت الإمامة حتى الإمام الثانى عشر** "**محمد**" **المُلقب بالمهدى المنتظر ابن الحسن العسكرى ابن على الهادى ابن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم**، وعُرفت الفرقة الثانية **بالإمامية الإسماعيلية؛ لأنهم أبقوا الإمامة فى ذرية** "**إسماعيل بن جعفر**"، **ثم من بعده ابنه** "**محمد**"، **فابنه** "**جعفر الصادق**"، **فابنه** "**محمد الحبيب**"، **فابنه** "**عبيدالله المهدى**" **مؤسس الدولة الفاطمية.**

لقد كانت شمال أفريقيا أرضًا صالحةً لنصرة المذهب الإسماعيلي، ذلك أن التشيُّع العَلَويّ تركّز مُنذ نشأته في المشرق، وظهر في بيئة الكوفة مُتعددة الأجناس والقوميّات، وانتشر بين الموالي، ثُمَّ انتقل غربًا بعد المُلاحقات التي تعرّض لها الشيعة من قبل العبّاسيين، وكانوا جميعًا من فرع الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وتمركزوا في شمال أفريقيا حيثُ ضعُفت السيطرة العبّاسيّة لبُعد المسافة عن مركز اتخاذ القرار في بغداد، ولصُعوبة المُواصلات، ونشروا التعاليم المُشتركة للمذهب الشيعيّ ومآثر العَلَويين ممّا أدّى إلى انتشار هذا المذهب بين البربر الذين أدّوا دور الموالي من الفُرس في المشرق، على الرّغم من وجود فوارق كُبرى بين الفئتين في طبيعة دعمها للعَلويين بعامّة، وفي مؤسساتهما ومُنظماتهما، وفي أهدافهما وعقائدهما. ورُبّما كان العطف على آل بيت الرسول ﷺ، والاعتقادُ بفضائلهم، كبيرًا في المغرب من أيِّ مكانٍ آخر، وقد أتاح **للأدارسة** السّيطرة على المغرب الأقصى بدون مشقّة وتأسيس دولتهم المُستقلّة. كما اشتمل المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، باستثناء الأراضي التابعة لإمام تاهرت، على إماراتٍ شيعيّةٍ بلغ عددها تسعُ إماراتٍ؛ ممّا هيّأ الأرضيّة الخصبة لزرع وتنمية الدعوة الشيعيّة. لكنّ المذهب الإسماعيلي دخل إلى إفريقية بصورةٍ أكثر تنظيمًا وسريّةً قبل نحو مائةٍ وخمسةٍ وثلاثين سنة من قُدوم أبي عبدِ الله الدّاعي، وذلك في أواسط القرن الثاني الهجري، وتركّز في **قبيلة كتامة** في المغرب

الأوسط، التي عُرفت بأنّها أكثرُ القبائل عددًا وأصعبها مُراسًا، إذ كانت تسكُن جبال الأوراس الوعرة في شمال إفريقية، وهي البلادُ المُمتدَّة من طرابلس الغرب إلى طنجة.

ومرّت الدعوة الإسماعيليّة في بداية انطلاقتها، بمرحلتين: **مرحلة الإعداد العقائدي النظري**، وتولاها اثنان هُما **أبو سُفيان الحسن بن القاسم وعبدُ الله بن عليّ بن أحمد**، المشهور **بالحلواني، ومرحلة الدور العمليّ**، وقامت على أكتاف الدّاعي **أبي عبد الله المُحتسب** المشهور **بالشيعي الصنعاني**. أما ما يتعلّق **بالمرحلة الأولى**، فقد بعثت القيادة في المشرق **أبا سُفيان والحلواني** إلى شمال أفريقيا سنة 145هـ-762م، وأمرتهما بأن يُبسطا ظاهر علم الأئمّة وينشُرا فضلهم، وأن يتجاوزا إفريقية إلى حُدود بلاد البربر، وأن لا يعملا في منطقةٍ واحدة، واستقرّ **أبو سُفيان** في «**تالة**» وتقع إلى الشمال من مدينة تونس المُعاصرة، وتشغلُ مركزًا تجاريًّا هامًّا، فابتنى فيها مسجدًا، واشتهر بالفضل والعِبادة والذِكر؛ ممّا لفت إليه الأنظار، فهرع إليه سُكّانُ المناطق المُجاورة يسمعون فضائل أهل البيت منه، ويأخذونها عنه. ودعا إلى **الإمام عليّ بن موسى الرضا** من آل البيت، وبشّر بقرب ظُهوره **ونعتهُ بالمهدي المُنتظر**، وبفضل موقع المدينة التجاري، استقطب أبو سُفيان التُجّار وأدخلهم في دعوته التي انتقلت بعد ذلك إلى **مدينة نفطة**، وكثُر فيها التشيُّع حتّى غدت تُعرفُ باسم «**الكوفة الصُغرى**»، ثُمّ انتشر المذهب الشيعي في الأربس شمالاً، وتوغّل **الحلواني** في بلاد البربر، واستقرّ في **الناظور** على مشارف أرض قبيلة كتامة البربريّة، أقوى قبائل تلك الناحية. وسلك نهج زميله أبا سُفيان، فاشتهر ذكره، وأقبل النّاسُ عليه، وتشيّع كثيرٌ منهم على يديه وبخاصّةٍ من قبائل كتامة ونفزة وسماتة، ثم توفي أبو سُفيان قبل وصول **الدّاعي أبي عبد الله الشيعي**، أمّا الحلواني فعاش دهرًا طولاً ومات في الناظور تاركًا ابنة وعددًا من المعارف.

لقد أرسلت القيادة الإسماعيليّة في **سلميّة** الداعي **أبو عبد الله** إلى اليمن ليتدرّب على يد **الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان**، أبرزُ دُعاة تلك البلاد، فاستقبله وقرّبه منه، وكان قد تعرّف عليه في الكوفة. ولم تمضِ أكثر من سنة، حتّى انضمّ أبو عبد الله إلى قافلة الحُجّاج اليمنيين وخرج معهم إلى مكّة سنة279هـ-893م. ثم أرسل إلى المغرب لمُتابعة العمل بعد وفاة **أبي سُفيان والحلواني**، والاستيلاء على الحُكم بمُساعدة **قبيلة كتامة**.

ووصل أبو عبد الله إلى مكّة، واجتمع بحُجّاج كتامة في مِنى، وبعد انتهاء موسم الحج، غادر مع الكتاميين مُتظاهرًا بالتوجه إلى مصر، وخلال الرحلة استقى منهم بعض المعلومات المُتعلِّقة بوضعهم السياسي والاجتماعي، ثم سار إلى المغرب، وأخذ يعمل على دعوة الناس إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي، فأحرز نجاحًا كبيرًا، فاتسع نطاق الدعوة وتكاثر عدد المُنضوين إليها.

ثانياً: قيام الدولة الفاطمية:

لقد نجح الدّاعي **أبو عبد الله** بالقضاء على دولة الأغالبة في إفريقية سنة 296هـ - 908م، بعد حربٍ شديدة دامت خمس سنوات، ثم إقامة بوضع نظامٍ جديدٍ وإضفاء الصبغة الشيعيَّة على مؤسسات الدولة الجديدة، وتركيز السُلطة في يده. فأمَّن الناس على حياتهم وأرزاقهم ومُمتلكاتهم، وأقرّ عدَّة إجراءات لتهدئة وتأمين كُل خائفٍ كان يتولّى منصبًا في الدولة الأغلبيَّة، فاطمأنّ إليه الكثير من الرجال ودخلوا في خدمته، وأضاف عدَّة علامات عقائديَّة شيعيَّة على نمط الحياة اليوميَّة، فأمر بأن تتضمَّن خِطبة الجُمعة الصَّلاة على الرسول مُحمَّد وعلى آله وعلى أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب وولداه الحسن والحُسين، وزوجته فاطمة الزهراء، وأن يُزاد في الآذان عِبارة "حيَّ على خيرِ العمل"، وأنفذ أبو عبد الله الدّاعي الرُسل إلى سلميَّة، يُخبرُ الإمام المستور (**عُبيد الله المهدي**) بما فُتح من المُدن والأقاليم، ويدعوه للحُضور إلى إفريقية. وقد نجح الشيعة الإسماعيليّون في إقامة دولتهم في شمالي أفريقيا بأقسامها الثلاثة: طرابلس الغرب وإفريقية والزّاب.

ثالثاً: التوسّع والفُتوحات:

وبعد أن استقرّت أمور الفاطميين في إفريقية، أرادوا توسيع دولتهم لتضم المغرب الأقصى(مُرّاكش)، وقد تمكنوا من بسط سيطرتهم على معظم أنحائه بعد نزاعٍ مع حكّامه **الأدارسة**، إذ تمكن القائد الفاطمي "**موسى بن أبي العافية**" من هزيمتهم سنة 312هـ. وقد تمرّد **بن أبي عافية** على الفاطميّين بعد فتح المغرب، وحوّل ولاءه إلى **عبدُ الرحمٰن الناصر لدين الله** أمير الأندلس الأمويّ، لكن **عُبيد الله المهدي** أرسل ابنه «**أبا القاسم**» سنة 315هـ فتمكّن هذا الأخير من استعادة سيطرة الفاطميّين على المغرب، كما اضطرُ الفاطميون لاحقاً

لخوض حروبٍ كثيرة مع **الخوارج** بالمغرب، فقد ثار عليهم خارجيٌّ يدعى «**أبا يزيد**» انتشرت ثورته انتشارًا كبيرًا، وتوفيَّ خلال أيام هذه الثورة عبيد الله، فورث عنه حكم دولة الفاطميين ابنه **أبو القاسم مُحمَّد القائم بأمر الله**، واستمرَّ بمحاربة الخوارج، لكنه توفي سنة 334هـ دون تمكّنِه من هزيمتهم. فخلفه ابنه **المنصور بنصر الله**، الذي تمكّن أخيرًا من القضاء على **ثورة أبي يزيد** سنة 336هـ، وأسَّس مدينة «**المنصوريّة**» بإفريقية ليجعلها عاصمة الفاطميين. وتوفي الخليفة المنصور سنة341هـ، فخلفه ابنه **المعز لدين الله**، رابع الخلفاء الفاطميّين وأحد أهم حُكّام الدولة الفاطمية.

وكانت تحكم مصر في زمن ظهور الفاطميين **الدولة الإخشيدية**، ومنذ بداياتهم حاولوا عدَّة مرة الاستيلاء على مصر، فأرسلوا إليها عدة حملاتٍ عسكريَّة بين عامي302-332هـ، وقد تمكّنت بعض هذه الحملات من السيطرة على أجزاءٍ كبيرة من البلاد، بل إنَّ بعضها نجحت بالاستيلاء على الإسكندرية، إلا أنَّ الفاطميين كانوا يضطرُّون للانسحاب في كلِّ مرَّة أمام جيوش **محمد بن طغج الإخشيدي**، رغم ذلك، كان هناك دعاةٌ منتشرون في مصر طوال العهد الإخشيديّ، يدعون الناس لاتباع الدولة الفاطميَّة.

إلا أنَّ الدولة الإخشيدية قد شهدت مع موت أحد آخر حكامها **أبي المسك كافور الإخشيدي** سنة 357هـ انحدارًا كبيرًا وانهيارًا اقتصاديًا شديدًا، فانتشر الغلاء والمجاعات والأمراض، وكثر الموت بين الناس، وأدّت تلك الأحوال المتردية إلا سخط أهل مصر على الإخشيديين، ووصلت أنباء هذه الحال إلى **معز الدين الفاطميّ**، فبادرَ على الفور باستغلال الفرصة بإرسال جيشٍ فاطمي على رأسه **جوهر الصقلي** لضمِّ مصر إلى دولته، ولم يبدي المصريُّون أيَّ مقاومة تذكر للفتح الفاطمي نتيجة هذه الأوضاع، وقد استبشروا بقدوم حكامٍ جددٍ لهم عوضًا عن الإخشيديين، خصوصًا بعد خطبة قالها جوهر الصقلي باسم معزّ الدين الفاطمي عندما دخل مصر، فقد قدَّم في هذه الخطبة وعوداً عديدة بينها تجديد سكّة النقود لتجنُّب الغش فيها، وتخفيف الضرائب الشديدة التي فرضها الإخشيديون، وحماية المصريّين من خطر دولة **القرامطة** بالمشرق، ومنح أهل السنّة الحرية بممارسة مذهبهم على طريقتهم.

وقد أمر **جوهر الصقليٌّ** فور ضمِّ مصر ببناء مدينةٍ جديدةٍ ليستقرَّ فيها جنوده، وذلك تجنُّباً لأيّ مشاكل أو توترات قد تنجم عن اختلاط العساكر بأهل البلاد. وقد قسَّم المدينة الجديدة إلى أقسامٍ ليفصل كل مجموعةٍ عرقيَّة عن الأخرى، فكان هناك حيٌّ خاص بالبربر،

وواحد للصقالبة، وآخر للروم..إلخ. وبعد أن استقرَّت الأمور في مصر، قرَّر معز الدين نقل عاصمة دولته من **المهديَّة** بإفريقية إلى هذه المدينة الجديدة، وهكذا تأسَّست مدينة "**القاهرة المعزية**" سنة 358هـ، وقد ودخل معز الدّين الفاطمي مصر سنة 362هـ-972م، لتصبح مقرَّ حكم الفاطميين حتى نهاية دولتهم.

وبعد أن استقرَّت الأمور في مصر للفاطميّين، انتقل صراعهم إلى **دولة القرامطة** في الشّرق. فقد غزا القرامطة بدعمٍ بويهيٍّ مصر عدَّة مرات، وكادوا يصلون إلى القاهرة، لكنَّ **جوهر الصقلي** نجح بصدّ هجماتهم، وخلال السنوات الآتية أخذ الفاطميُّون بالتوسُّع تدريجيًّا على حساب القرامطة وباقي الدول الأخرى في المنطقة، فتمكّنوا من انتزاع بلاد الشام في سنة 363هـ-973م من **الحُسين بن أحمد القرمطي** حاكم القرامطة، وضمُّوها حتى مدينة حلب شمالاً بعد القضاء على **دولة الحمدانيّين**، واستولوا على **الحجاز** بعد هزيمة أشرافها، فباتت رقعة الدولة الفاطميَّة ممتدّة من المغرب إلى مشارف العراق.

رابعاً: العصر الذهبي للدولة الفاطمية:

بلغت الدولة الفاطميَّة قوتها في عهد الخليفة الخامس، **أبو منصور نزار العزيز بالله**، وإليه يُعزى تمكين السيطرة الفاطميَّة على مصر والشّام، ونشر السلام والرَّخاء في مُختلف أرجاء الدولة، التي بلغت في عهده أقصى اتساعها، وكان العزيز مسؤولاً عن إرساء الدولة الفاطميَّة وتشكيل هويَّتها، وقد بدأ عهده سنة 365هـ-975م، شهد عهده إنجازاتٍ إدارية وتنظيميَّة متنوعة. فقد رُتِّبت الدواوين بدقّة لتسهيل الإجراءات الإدارية. وأحاط بنفسه بمظاهر الترف وأغدق الأموال على قصوره وممتلكاته. واستحدث **منصب الوزراء**، فعمل على اختيار رجالٍ كفؤين لشغل هذا المنصب، إلا أنّه اختارهم من **الطائفتين اليهوديَّة والنصرانيَّة**، لكي لا يكون لهم نفوذٌ كبير يسمح لهم بالانقلاب عليه (وقد كان أوّلهم وأحد أشهرهم **يعقوب بن كلس)** وكذلك عدّل تركيبة الجيش العرقية، فقد كان الجيش الفاطمي بأكمله تقريباً مؤلّفا من البربر، فخشي أن يتكاتفوا معًا عليه إذا ما اضطّربت الأمور، لذا شكّل جيشًا جديدًا خاصًا به من الجنود التُرك والأكراد والسُّودان، وكلّف هذا الجيش بإدارة معظم ولايات دولته عوضًا عن الجيش البربري. وقد وقعت نتيجةً لذلك فتنةٌ في الجيش بين المغاربة والأعراق الأخرى، واعتمد مذهب الدولة الرسميَّ **المذهب الإسماعيليّ**، فعمل على نشره في دولته بكلِّ ما

استطاع، وسمح بسبِّ صحابة رسول الله ﷺ، شهد عصره بعض الإنجازات العسكريَّة أيضًا، فقد قاد جوهر الصقلي عدَّة حملاتٍ على الشام والعراق، تمكّن خلالها من ضمّ مدن شيراز وحمص وحماة، ونجح ببلوغ الموصل وإجبار جوامعها على الدعاء للخليفة الفاطمي لفترةٍ قصيرة. وتوفّي العزيز نتيجة مرض في القولون سنة 386هـ الموافقة لسنة 996م.

وخلف العزيز ابنه **الحاكم بأمر الله**، فاتّبع أباه في بداية عهده، ونجح بتثبيت أركان الدولة وتهيئة أمورها، وحسَّن علاقته مع أهل السُنّة، فجالس علماءهم وبنا لهم دور علم. وقد كان متديّنًا كثيرًا لحدّ المُغالاة، حتى أنه **حظر زراعة العنب خشية استعماله بصناعة الخمر، ومنع النسوة من المشي في الشوارع، واضطّهد المسيحيّين واليهود**. إلا أنَّ شخصيته تقلّبت فيما بعد، **فغيّر منهجه مع أهل السُنّة، ولم يعد شديد التديُّن**، بل إنّه **أصيب بالغرور حتى شبّه نفسه بالإله وسمح لأتباعه بوصفه بأوصافٍ إلهية**، ممَّا أساء لسمعته وسمعة الإسماعيليَّة في مصر والعالم الإسلامي، وأثار سخط النّاس عليه، فثاروا عليه وكرهوه، وانتشرت الفوضى بمصر، فوقعت اشتباكاتٌ بين السكان وجيش الحاكم بأمر الله، ودبّت الفوضى، وأخيراً **قرّر الحاكم الخروج من القاهرة**، سنة411هـ-1021م، واختفى اختفاءً غير مفسَّرٍ بعد خروجه منها بفترةٍ قصيرة. وهناك العديد من الروايات والنظريات حول سبب اختفائه، لكن الأرجح أنّه اغتيل. منذ نهاية عهد الحاكم، أخذت قوّة الفاطميين السياسيَّة بالانحدار شيئا فشيئًا، وكان معظم الحكام الذين تبعوه صغارًا لم يبلغوا سنّ الرُّشد بعد، لذا فقد افتقروا إلى السُّلطة، وأصبحت الدولة فعليًّا في أيدي الوزراء الفاطميّين أو أقارب حكامها صغار السِّن.

وخلف الحاكم بقيادة الدولة الفاطميَّة ابنه **الظاهر لإعزاز دين الله**، إلا أنّه كان حدثًا لم يبلغ سنّ الرشد، فأصبحت عمّة له تُدعَى «**ست الملك**» الحاكمة الفعليّة للدولة، وتمكّنت من إدارة شؤون الدولة بصورةٍ جيّدة، إلا أنّها توفّيت في منتصف عصره سنة 415هـ. وقد سار عهده بهدوءٍ في البداية، إلى أن بدأت الثورات ضدّه، فخرج **صالح بن مرداس** في الشام وانتزع منه **حلب**، ثمّ جاء حاكم **الرملة حسان بن المفرج البدوي** فانتزع معظم أنحاء الشام، وقد دام حكم الظاهر لخمسة عشرة سنة، ثم توفّي صغيرًا.

وتولّى ابنه **معد المستنصر بالله** الخلافة وهو لا يزال في السّابعة من العمر، وقد دام حكمه نحو 60 سنة، ليكون **أطول الخلفاء الفاطميّين عهداً على الإطلاق**، وفي بداية عهده،

كانت أمُّه وبعض وزرائه هم الحكام الفعليّين للدولة، وكان النصف الأول من خلافة المستنصر مزدهرًا ازدهارًا عظيمًا، فوصلت فيه الدولة الفاطميَّة أوج قوّتها واتّساعها، وامتدّت حدودها من المغرب إلى العراق، بل وقد تمكّن سنة 450هـ-1058م رجلٌ من حلفاء الفاطميّين يدعى **(أبا الحارث البساسيري)** من الاستيلاء على **بغداد** والقبض على الخليفة العباسي، فأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر، وكانت تلك **أوّل وآخر مرّة في التاريخ تقام بها الخطبة ببغداد للفاطميين**، إلا أنّ الأمور بدأت بالاضطّراب فيما بعد، فأصيبت مصر بمجاعةٍ هائلة استمرّت سبع سنوات من سنة 457 إلى 464هـ (1065 إلى 1071م)، وهي تُعرَف باسم **«الشدّة العظمى»** و**«الشدّة المستنصريّة»**. وبدأت العديد من أقاليم الدولة بالتمرُّد على الفاطميّين، فانقطعت الخطبة عن المستنصر في مكة والمدينة سنة 462هـ-1070م ليُخطَب عوضاً عنه للخليفة العباسي مجدّدًا، وكانت الحال نفسها في المغرب، فقطع **أمير بني زيري المعز بن باديس** علاقته بالفاطميّين وحوّل ولاءه إلى الخلافة العباسيّة، أمّا بغداد التي كانت قد انضمّت للفاطميين حديثًا، فقد قتل حاكمها **البساسيري** على يد سُلطان **السلاجقة طغرل بك** القادم من الشرق، لتنتهي سلطة الفاطميّين عليها حتى نهايتهم. ولم يتوقّف السلاجقة عند هذا الحدّ، بل تابعوا التقدُّم غربًا ليصطدموا بالدّولة الفاطمية مرة أخرى في بلاد الشام، ونجح سلطانهم **جلال الدولة ملك شاه** بانتزاع معظم بلاد الشام من الفاطميين - بما فيها القدس وفلسطين سنة 463هـ(1070م). وتسبَّب عجز المستنصر عن السيطرة على هذه الأحداث بانهيار هيبته تمامًا في الدولة، وعلاوةً على هذه الخسارات الكبيرة، فقد وقعت الفتنة سنة 466 هـ بالجيش بين المغاربة أولاً، والتُرك ثانيًا، والسُّودان ثالثًا، ووقعت معاركة كبيرةٌ بينهم وكثر القتل.

وقد بدأت الدّولة تخرج تمامًا عن السّيطرة، وأخذ التُرك يصبحون الحكّام الفعليّين للدولة عوضًا عن الخليفة نفسه، فقرّر المستنصر الاستعانة بحاكم **عكا الأرمنيّ بدر الدين الجمالي**، وهو أشبه بدكتاتورٍ يُعرَف بشدّته وقدراته الإدارية والتنظيميّة العالية. استدعى المستنصر بدر الجمالي ليتسلّم منصب وزراة الدولة الفاطمية وقيادة جيشها، فوافق هذا الأخير، وجاء إلى مصر، وكان وزيرًا قويًّا ومهيبًا، فأعاد للدّولة قوّتها واستقرارها وثبَّت أركانها من جديد. ووصلت الدولة في عهده أوج قوّتها وازدهارها، فشيّدت القصور وازدهر العلم

والحضارة، وعادت الأموال الكثيرة إلى مصر، فارتفع الخراج من مليوني دينارٍ في سنوات المجاعة إلى أكثر من ثلاثة ملايين، من جهةٍ أخرى، فشل بدر الجمالي في بعض النواحي العسكريّة، إذ لم يستطع حماية بلاد الشام من تقدُّم السلاجقة التُرك شرقًا والصليبيّين الأوروپيّين شمالاً، فخسر الفاطميُّون كُل الشّام ما عدا مدينة عسقلان، ولم يكن مجيء بدر الجماليّ جيّدًا تمامًا للمستنصر، فقد بدأ ينازعه على السُّلطة، وتنامى نفوذه بدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا، حتى أصبح أقرب إلى الحاكم الفعلي للدولة الفاطميّة، واستمرّت الحال هكذا حتى وفاة المستنصر سنة 487هـ–1094م، فبدأ بذلك «**العصر الفاطمي الثاني**»، الذي كان الوزراء فيه هم الحكّام الفعليّين للدولة.

خامساً: انحسار الدولة الفاطمية، وانهيارها:

حسب النظام المتبَّع في الدولة الفاطمية، كان أكبر أبناء الخليفة هو الذي يُعيَّن وليًّا للعهد، ولذا كان من المفترض أن تؤول الخلافة بعد وفاة المستنصر إلى ابنه **الأكبر نزار المصطفى لدين الله**، إلا أنّ المستنصر كان – بعد ضغوطاتٍ وجهودٍ حثيثة من وزيره **الملك الأفضل شاهنشاه** – قد قرّر عوضًا عن ذلك نقل ولاية العهد إلى ابنه الأصغر **أحمد المستعلي بالله**، وأدّى هذا الخلاف إلى وقوع شقاقٍ في **المذهب الإسماعيليّ** لا زال موجودًا حتى الآن، حيث انقسم الإسماعيليُّون بين مؤيّدي **خلافة نزار** بناءً على أحقيّته **(النزارية)**، ومؤيدي **خلافة المستعلي** بناءً على توصية والده**(المستعلية)**، وكان **الملك الأفضل** قد **رفض خلافة نزار بسبب خلافٍ وقع بينهما**، وكانت هذه واحدةً من ملامح نفوذ الوزراء الشّديد بالدولة الفاطمية وسيطرتهم عليها، التي استمرّت منذ وفاة المستنصر وحتى نهاية الدّولة، وحصل في حين وقوع هذه الأحداث أن **الحسن بن الصباح** جاء إلى مصر لتحصيل علوم المذهب الإسماعيلي، فشهد الخلاف الذي وقع بين **الإسماعيليّة والنزاريّة**، ودعا بأحقيّة **نزار بالخلافة**، فغضب عليه الملك الأفضل وسجنه. وقد تمكّن **حسن الصباح** من الفرار لاحقًا، فرحل إلى بلده أصبهان ليدعو **بإمامة نزار** وأسّس هناك **جماعة الحشّاشين**.

وحدث في عهد **المستعلي** أن وصلت **الحملة الصليبية الأولى** إلى المشرق، وغزا الصليبيُّون سواحل بلاد الشام وأسّسوا فيها **إمارتي الرها وأنطاكية**، عندما وصل الصليبيون

إلى الشام كان يحكمها السلاجقة، وعندما رأى **الملك الأفضل** أنّهم هزموا أمام الزّحف الصليبي، طمعَ بأن يعيد هذه الأراضي إلى سلطان الدولة الفاطمية مجدّدًا، فحشد جيشًا وحاصر **القدس** وأخذها من السلاجقة، وبسط سيطرته على كامل فلسطين حتى منطقةٍ قريبة من بيروت، لا أنّ الجيوش الصليبية سرعان ما وصلت، وكان قوامها نحو 40,000 رجل، فضربت الحصار على القدس لمدّة شهر، ثم تمكّنت من دخول المدينة، بعد أن اتفق الصليبيون مع حاكم المدينة الفاطمي **افتخار الدولة** بتسليمها لهم، وبعد أن سلمها وقعت مذبحةٌ عظيمةٌ راح ضحيّتها عشرات الآلاف، وسقطت القدس بذلك في شهر يوليو سنة 1099م (492هـ)، وقد فقد الفاطميُّون إثر هذه المعركة آخر أملاكهم في بلاد الشام، وأصبحت دولتهم تقتصر تقريبًا على مصر وحدها.

ولم تدم خلافة المستعلي طويلاً، فقد توفي، فخلفه ابنه البكر **الآمر بأحكام الله** ذي الخمس سنوات، بناءً على رغبة وزير الدولة الملك الأفضل، وكان الآمر خليفةً قويًّا، فما إن بلغ سنّ الرشد حتى بدأ بفرض ثقله في الدّولة، وقد أحسّ بنفوذ وزيره الشّديد في دولته، فدبّر لاغتيال الملك الأفضل، وعيّن مكانه **المأمون البطائحي**، إلا أنّه رغم ذلك لم يحسن السّيرة، فساءت أوضاع الدولة في عهده. وقد قتل اغتيالاً سنة 524 هـ (1130م).

وقبل مقتله عهد **الآمر** بالخلافة من بعده لابنه **الطيب أبو القاسم** والذي لم يكن قد ولد حتى، بل كان لا يزال رضيعًا في رحم أمّه، ولم يكن للآمر ابنٌ آخر يتولّى الخلافة، فعُيّن أخوه **الحافظ لدين الله** نائبًا للخليفة ليتولّى شؤون الحكم حتى بلوغ الطيّب سنّ الرشد. وأخطأ الحافظ باختيار **أحمد بن الملك الأفضل** وزيرًا له، فما إن تولّى هذا الوزارة حتى قبض على الحافظ وزجّ به في السجن، واستبدّ الوزير بالدولة ولم يعد للخليفة المسجون كلمةٌ فيها. لكنّ هذه الحال لم تَطُل، فسُرعَان ما اغتال **الإسماعيليُّون أحمد بن الأفضل**، وحرّروا **الحافظ لدين الله** من سجنه، فعاد لتولّي شؤون الخلافة سنة526هـ، ولكنّ الحافظ ظلّ بعد ذلك يعاني من نفوذ الوزراء الشديد في دولته، فكان وزراءه هم الذين يحكمون الدّولة طوال عصره، ثم نصّب **الحافظ** فيما بعدُ ابنه **الحسن** وزيرًا، فأفسد في الدولة وقتّل العديد من الأمراء، ثمّ تمرّد على والده وخاض معه حربًا، لكن الحافظ فاز بالنّهاية، وظلّ خليفةً حتى وفاته سنة 544 هـ (1149م).

وفي سنة 558هـ- خلال عهد الخليفة الثاني عشر **الظافر بدين الله** حدث أن طُرِدَ وزير للدّولة الفاطميّة يُدعَى **شاور بن مُجير السعدي** من مصر، فلجأ هذا الوزير إلى **نور الدين زنكي حاكم دمشق**، وطلب منه عوناً عسكريًّا يمكنِّه من استعادة السيطرة على مصر، شريطة أن يعطيه ثلث خراجها. ووافق نور الدين، فأرسل حملةً بقيادة **أسد الدين شيركوه** تمكّنت من السيطرة على الدولة الفاطمية سنة 559هـ. إلا أنّ شاور نقض اتفاقه مع نور الدين، ولم يدفع له شيئًا من خراج مصر، فأرسلت حملةٌ جديدةٌ بقيادة شيركوه تمكّنت من استعادة مصر سنة562هـ، وكان ممّن شاركوا في هذه الحملة **صلاح الدين الأيوبي**، ولأنّ **نجم صلاح الدين** برز أثناء هذه الحملات وحروبٍ أخرى في الشام، فقد ضغط **الزنكيون** لتعيينه وزيرًا بالدولة الفاطميّة، وكان لهم ما أرادوه، فأصبح **صلاح الدين** وزيرًا للخليفة الفاطمي الرّابع عشر والأخير **العاضد لدين الله**.

وبِتولّي صلاحُ الدين منصب الوِزارة في مصر، كانت الدولة الفاطمية تواجه مرحلةً خطيرةً في تاريخها. فقد لا زالت يُساندها الجيش الفاطميّ وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزالُ جاثمًا على مقربة من أبواب مصر الشرقيّة، فكان عليه أن يُثبّت أقدامه في الحُكم، ليتفرّغ لِمُجابهة ما قد ينشأ من تطوراتٍ سياسيّةٍ. ولم يلبث أن أظهر مقدرةً كبيرةً في إدارة شؤون الدولة، وهو عازمٌ على الاستئثار بكافّة الاختصاصات حتّى التي تخصُ منصب الخِلافة، ونفّذ عدّة تدابير كفلت له الهيمنة التامّة، فاستمال قُلوب سُكّان مصر بما بذل لهم من الأموال والإصلاحات، فأحبوه، وأخضع مماليك عمّه أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكلٍ تامٍ على الجُند، بعد أن أحسن إليهم، وقوّى مركزه بما كان يمُدُّه به نورُ الدين محمود من المُساعدات العسكريّة، وقد وصل أخوهُ **شمسُ الدين توران شاه بن أيّوب** مع إحدى هذه المُساعدات، وقد أدّت التدابير التي نفّذها صلاحُ الدين إلى تقوية قبضته على مُقتدرات الدولة، وزادت من تراجع نُفوذ **الخليفة العاضد لدين الله**، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء **كبير الطواشيّة، مؤتمن الخِلافة**، وقائدُ الجُند السودان، وقد أدرك أنّ نهج صلاح الدين في الحُكم سوف يقضي، في حال استمراره، على الدولة الفاطميّة إن عاجلاً أو آجلاً، فحاول الاتصال **بعمّوري الأوّل**، ملك **بيت المقدس**، لتحريضه على مُهاجمة مصر، آملًا، في حال الاستجابة، أن يخرج صلاحُ الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثب

على منصب الوِزارة. غير أنَّ صلاح الدين علم بِخيوط المؤامرة، فقبض على مؤتمن الخِلافة وترقّب الفُرصة للتخلُّص منه، غير أنَّ أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجَّعت الصليبيين على القيام بمُحاولةٍ أُخرى لمُهاجمة البلاد.

وقد أدرك **عمّوري الأوّل** خُطورة الوضع بعد أن تمكّن **نور الدين الزنكي** من توحيد الشّام ومصر تحت سُلطانه، وشعر الصليبيّون أنّهم وقعوا فعلاً بين فكيّ الكمّاشة، فحاول الملك عمّوري الاستعانة بالغرب الأوروبي، فراسل مُلوك وأباطرة أوروبا يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ تُنقذُ الموقف الصليبيّ المُتدهور في المشرق، لكن النزاع بين البابوية والإمبرطورية الرومانية المقدسة، حالت دون تحقيق السفارة الصليبيّة أهدافها، فاضطر **عمّوري الأوّل** إلى الالتفات نحو الإمبراطورية البزنطية، طالبًا مُساعدة قيصر الروم الإمبراطور **عمانوئيل الأوّل كومنينوس،** وكان الإمبراطور أشد حماسًا من الصليبيين لغزو مصر، ولم يكن أقل انزعاجًا لاتحاد الشّام ومصر تحت راية الزنكيين؛ مما أدّى إلى انقلابٍ خطيرٍ في توازن القوى بالمشرق، فعرض على عمّوري الأوّل تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية، فوافق الملك على هذا الاقتراح، وتمَّ إعداد أسطولٌ عظيم مُدجج بالرجال والسلاح، وأبحر من القُسطنطينيّة مُتجهًا إلى دُمياط. وكان صلاحُ الدين قد تلقّى تحذيرًا مُبكرًا بالغ الكفاية عن الحملة، فاستعد لمُواجهتها، وبقي في القاهرة خشية قيام مؤامرةٍ فاطميّة ضدّه، وحتّى يكفل الأمن لنفسه، أمر بإلقاء القبض على مؤتمن الخِلافة وإعدامه، ثُمَّ عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، وأحلّ مكانهم رجالاً من أتباعه، وقد عزَّ على الجُند السودانيين استبعادهم وضياع نُفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخِلافة، فثاروا على صلاح الدين، لكنّه تمكّن من قمعهم وكسر شوكتهم، فاضطرّوا إلى طلب الأمان منه فأجابهم إلى ذلك، وتراوح موقف العاضد لدين الله الذي شهد هذه الأحداث بين الإحجام عن مُساعدة صلاحُ الدين وتأييد خطوته، وفقًا لتطوّر الأحداث. ذلك أنّهُ ظنَّ في بادئ الأمر أنَّ الجُند السودانيين سوف ينتصرون، ويُنقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر من في القصر أن يقذفوا العساكر الشاميّة بالنشّاب والحجارة. ولمّا هدّد توران شاه، أخو صلاح الدين بإشعال النار بالقصر، لم يسعه إلا أن يُغيّر موقفه.

وفي سنة 565هـ – 1169م، وصل الصليبيّون والبيزنطيّون إلى دُمياط، وما أن علم صلاحُ الدين بوصول القوّات المُتحالفة إلى المدينة، حتّى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن،

كما أرسل عددًا من السُفن الحربيّة، كما أرسل رسالة إلى نورُ الدين محمود الزنكي في دمشق يُخبره بما حدث، ويلتمس منه المُساعدة، فسيَّر إليه نورُ الدين العساكر تباعًا، كما قام بالإغارة على مواقع الصليبيين في الشّام لتخفيف الضغط عن دُمياط، ورغم الاستعدادات الكثيرة والتحضيرات الكثيفة، فشلت الحملة المُشتركة في تحقيق أي هدفٍ من أهدافها؛ فاضطرَّ الملك الصليبي وقيصر الروم أن يطلبا الصُلح، وانسحبا عائدين إلى بلديهما، وبعد هذا النصر، أرسل نورُ الدين الزنكي إلى صلاحُ الدين يطلب منه أن يقطع الخِطبة للفاطميين فورًا ويُرجعها للخليفة العبّاسي، فاعتذر له بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم إلى العَلَويين، إذ أنَّ المؤثرات الشيعيَّة في مصر كانت قويَّةً في ظل الحُكم الفاطميّ الذي استمرَّ قرنين من الزمن، ولكنَّ نورُ الدين أصرَّ على تابعه أن يفعل ذلك في سبيل تحقيق الوحدة الإسلاميَّة والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصاديَّة والبشريَّة في الجهاد ضدَّ الصليبيين، وأرسل إليه إنذارًا نهائيًّا سنة 566هـ–1171م يأمُرُهُ بإسقاط الخِطبة للخليفة الفاطميّ **العاضد**، وإقامتها للخليفة العبّاسي **المُستضيء بأمر الله**، وألزمهُ إلزامًا لا فُسحة له في مُخالفته، ورأى صلاحُ الدين أن يستجيب لطلب سيّده في دمشق، فقام بقطع الخِطبة بمصر للخليفة الفاطمي وأقامها للخليفة العبّاسي، وأعاد السّواد شعارُ العبّاسيين، وقد تمَّ هذا التحوّل بهُدوء تام، وبذلك عادت مصر إلى كنف الدولة العبّاسيّة، وأُعيدت الوحدة المذهبيّة، وكان **العاضد لدين الله** أثناء ذلك مريضًا يحتضر، فلم يشأ صلاحُ الدين إزعاجه ومُضاعفه همّه، وقد توفي الخليفة العاضد لدين الله، فكانت تلك نهاية الدولة الفاطميّة فعليًّا بعد أن دامت 262 سنة.

سادساً: نظام الحُكم:

1. الخِلافة والإمامة:

كانت الخلافةُ الفاطميّة خلافةً مذهبيّةً شيعيّةً شعارها **الإمامة الدينيّة**، وكان لهذه الصفة المذهبيّة أثرها في صوغ كثير من النظم والرسوم التي اختصت بها. وكان نظامُ الحُكم في ظل الخلافة الفاطميّة، نظامًا مُطلقًا يستأثرُ فيه الخليفة بجميع السُلطات الرُوحيّة والزمنيّة، وقد سارت الخِلافة الفاطميّة على هذا النحو منذ قيامها بالمغرب، ثمَّ بعد ذلك مُنذ قيامها بمصر، فكان **الخليفة الفاطميّ**، هو الدولة، وهو صاحب السُلطات المُطلق، مثل الخُلفاء الأُمويين والعبّاسيين قبله، لكنّهُ تميَّز عنهم **بالهالة الدينيّة المُعظّمة** التي فاقت تلك الهالة التي أحاطها

العبّاسيون بالخليفة، فالأخيرة ظهرت لظروفٍ سياسيَّة، بينما قداسة الخليفة عند الفاطميين أصلٌ من أُصول الإيمان، فالخليفةُ الفاطميُّ هو في الوقت نفسه **إمام المذهب الإسماعيلي**، وهو معصومٌ عن الخطأ وِفق المُعتقد الشيعي، وهو قائمُ الزمان، وقيامه يرجع إلى مشيئة الله.

واتخذ الفاطميّون ألقابًا تعكسُ مكانتهم وأحقيِّتهم في حُكم المُسلمين كلقب «**إمام**» و«**صاحب الزمان**» و«**السُلطان الشريف**»، بالإضافة إلى لقب (**أمير المؤمنين**)، كما أنّهم حرصوا على إضافة نعوتهم الخاصة إلى لفظ الجلالة كما فعل العبَّاسيّون قبلهم، فكان الخليفة الفاطميّ يتلقب بألقاب مثل: «**المُعز لدين الله**»، و«**العزيز بالله**»... وما إلى ذلك.

وسار الخُلفاء الفاطميّون على نظام الحُكم الوراثي بتفويضٍ من الله، كما كان حالُ الخُلفاء العبَّاسيين.

2. الولاية:

وبعد سُقوط دولة الأغالبة، عمِل **الخليفة عُبيد الله المهدي** على تنظيم دولته الجديدة بما يؤهلها لمهامٍ أكبر من مُجرَّد السيطرة على المغرب، أي للتوسُّع شرقًا مستقبلاً. فأعدَّ لها تنظيماتٍ على المُستوى المُتقدِّم كدولةٍ ناشئةٍ مُتطوِّرة، فأعاد تقسيم البلاد الخاضعة له بشكلٍ يُناسبُ الظُروف الواقعة، وعيِّن الحُكّام لأقاليمها، وقسَّم الفاطميّون الدولة إلى عدَّة ولايات أعمال هي: ولاية **عسقلان، وهي أجلُّ الولايات، وولاية قوص، وولاية الشرقيّة، وولاية الغربيّة، وولاية الإسكندريّة، وولاية إفريقية، وولاية صقلية، وولاية الحرمين، وولاية اليمن**.

وكانت أعمال الحرمين واليمن أيضًا تابعة للخِلافة الفاطميّة من الوجهة المذهبيّة، يُدعى فيها للخليفة الفاطميّ، ولكنّها كانت مُستقلّة بشؤونها.

3. الوزارة:

وكانت الوزارة في العهد الفاطميّ الأوّل وزارة تنفيذ لأنَّ السُلطات كُلّها كانت بيد الخليفة. ولم يكن الوُزراء إلا مُعاونين للخليفة يُنفذون سياسته وأوامره. أمّا في العهد الفاطميّ المُتأخر، فقد زاد نُفوذُ الوُزراء وأصبحت لهم كلمةٌ في تسيير الأمور واتخاذ القرارات، ولعلّ أهم ما يُميِّز منصب الوزارة في العصر الفاطميّ هو أن الكثير من وزراء الفاطميين كانوا من النصارى واليهود، مثل: **عيسى بن نسطورس، ويعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسن**، وخِلال النصف الثاني من العصر الفاطميّ تغلّب الوُزراء وسيطروا على شؤون الدولة كُلّها،

وسلبوا الخُلفاء كُلّ سُلطانٍ ونُفوذٍ، حتّى أطلق البعض على هذا العصر اسم "**عصر الوزراء العظام**" وبلغ من نُفوذ الوزراء في ذلك العصر أن غلب سُلطانهم على سُلطان الخُلفاء بشكلٍ عام، وزاد نُفوذ الوُزراء حتّى أنّهم كانوا يُعينون بعض الخُلفاء ويعزلونهم، بل ويتآمرون عليهم، كما اتخذوا ألقابًا كلقب «**الملك**» وألقاباً أُخرى تفيد مزيدًا من التفضيل مثل «**الأكمل**» و«**الأفضل**» و«**الأشرف**»، وأصبحت الوزارة أهم وظائف الدولة وأكبرها، حيثُ تضاءلت إلى جانبها وظيفة الخليفة. وأوّل هؤلاء الوُزراء كان بدرُ الدين الجمالي، الذي جمع بين إمارة الجيش والوزارة، وكان الآمر الناهي في الدولة ما عدا في الشؤون الدينيّة.

4. القضاء:

لقد أدى تأسيس **الدولة الفاطميّة** إلى ظهور خلافةٍ جديدة في العالم الإسلامي، تتبع **المذهب الشيعيّ** عوضًا عن **المذهب السنّي** الذي كانت تتبعه **الدولة العباسية**، وبالتالي فقد ظهر منصب **قاضي قضاةٍ** جديدٍ بين المسلمين يوازي **قاضي بغداد**، إلا أنّه يتبع **المذهب الإسماعيلي** ويستند إليه في أحكامه عوضًا عن **المذهب الحنفي**، وكان يستقرُّ قاضي القضاة عادةً في **الجامع الأزهر** الذي بناه الفاطميُّون بعد فتحهم لمصر مباشرة، كان **أول قاضي قضاةٍ فاطمي هو النعمان بن محمّد** الذي عيّنه **الخليفة المعز لدين الله**، وقد كان **أول من يؤسِّس نظامًا قضائيًّا بالدولة الفاطمية**.

كما كان يوجد منصبٌ يلي **قاضي القضاة** مباشرة في أهميّته وقوته، هو **داعي الدُّعاة**، اندثر المذهب الإسماعيليُّ في مصر مع زوال الدولة الفاطمية، وزال معه منصب قاضي القضاة بمصر وسائر المؤسّسة القضائية الفاطمية.

سابعاً: النظام العسكري:

كان **الدّاعي أبو عبد الله الشيعي أوّل من نظّم الإسماعيليّة تنظيمًا عسكريًّا دقيقًا ضمن قيادةٍ مُوحَّدةٍ**، كما أقام مراكز تدريبٍ عسكريّةٍ بعد التنظيم الذي أحدثهُ في فرز قياداتٍ تدريبيّةٍ وتسليحٍ قويٍّ، مُستمدًّا ذلك من أموال الزكاة وتلك المفروضة على المُنتمين للدعوة، وهكذا بدت القوّة العسكريّة المُعدّة ذات فاعليّة أرعبت الحُكّام المُجاورين.

وشكلت **قبيلة كتامة** العنصر الأساسي في الجيش الفاطمي في مرحلة قيام الدولة، ثم انضمت إليه عناصر من عرب إفريقية، وهي العناصر التي دخل بها **جوهر الصقلي** مصر بالإضافة إلى بعض الروم والصقالبة، وفي عهد **العزيز بالله،** أدخل الترك والديلم في جيشه، وأكثر من الاعتماد عليهم، وزاد عليهم **الحاكم بأمر الله** طائفة من العبيد وبالأخص السود، ثم وتضاعف عددهم في عهد **المستنصر بالله.** ومع تولّي **بدر الدين الجمالي الوزارة،** أدخل **الأرمن** في خدمة الجيش الفاطمي، وقد انقسم الجيش الفاطمي إلى ثلاث طبقات، هي: **الأمراء** وهم قادة الألوف والمئات والعشرات، **فخواص الخليفة وحرسه الخاص،** ثم **الجنود.**

أما **الأسطول،** فبدأ الفاطميون الاهتمام به منذ بداية دولتهم، فأسسوا دار للصناعة في المهدية للسيطرة على غرب حوض المتوسط. وبعد أن انتقلوا إلى مصر، ابتنوا دارين أخريين في القاهرة، وثالثة في دمياط ورابعة في الإسكندرية، كانوا يصنعون فيهم المراكب الحربية من مختلف الأحجام تولت تلك السفن حماية الثغور الفاطمية في البحرين المتوسط والأحمر، وكانت تتمركز في قواعد رئيسية في الإسكندرية ودمياط، وكان يتولى إدارة الجيش والأسطول ديوان عُرف **بديوان الجيش** يتولى **حصر الجند من حيث الأحياء والأموات والمرض، بالإضافة إلى تنظيم الرواتب وتوزيعها.**

ثامناً: المُجتمع والثقافة:

1. الحياة الاجتماعيَّة:

قسّم **المقريزي** المجتمع الفاطمي **اجتماعيًا:** إلى **طبقة الأغنياء** وتضم **رجال الدولة وكبار التجار، وطبقة متوسطة** وتضم **متوسطي الحال من التجار وأصحاب المحال والمزارعين، وطبقة الفقراء** وتشمل **الفقهاء وطلاب العلم والأجراء والحرفيين وذوي الحاجات من المساكين،** أما **عرقيًا** فقد كان المجتمع المصري قبل وصول الفاطميين يتكون من **الأقباط واليهود وأهل السُنّة،** ثم دخل **البربر والروم والصقالبة** مع دخول **المُعز لدين الله** إلى مصر، ثم **التُرك والديلم** في عهد **العزيز بالله، فالسود والأرمن** في عهد **المُستنصر بالله.**

وقد شهد العصر الفاطمي عددًا من مظاهر العظمة والأبهة في أوساط الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة كأماكن الاستجمام التي كانوا ينتقلون إليها **وقت الفيضان**

ومواكب الاحتفالات التي كان لها مواعيد محددة من كل عام، وقد استحدث الفاطميون عددًا من الأعياد **كرأس السنة الهجرية ومولد النبي، والاحتفال بقافلة الحج**، إضافة إلى **المناسبات الشيعية كعاشوراء، ومولد الحُسين، ومولد السيدة فاطمة، ومولد الإمام علي، ومولد الحسن ومولد الإمام الحاضر، وعيد غدير خم**، كما كانوا يحتفلون **بالاحتفالات المصريّة كرأس السنة القبطية**، وأعيادٌ أُخرى **كعيد النيروز**، وسنّ الفاطميّون عدّة سُنن أصبحت جُزءًا لا يتجزّأ من الثقافة الإسلاميّة عمومًا والمصريّة خصوصًا، وما زال المُسلمون المصريّون تحديدًا وغيرهم من المُسلمين في الدُول والأقاليم المُجاورة يُحيون هذه السُنن، ولعلّ أبرزها هو **فانوس رمضان**، فقد أعطى الفاطميّون هذا الشهر اهتمامًا خاصًّا، فإلى جانب المغزى الديني الكبير، حصل أن وقعت خلاله عدّة أحداث بارزة في التاريخ الفاطمي، كفتح مصر قُبيل حلوله بأيّام، ووضع حجر الأساس **للجامع الأزهر**، ووُصول الخليفة المُعز لدين الله للفسطاط حيثُ تجمّع الناس وهم يحملون **الفوانيس** لكي يُنيروا له الطريق. ونقل العامّة عن الخاصّة وأهل الحُكم الاهتمام برمضان، ولمّا كان السهر يحلو خلال ذلك الشهر، كان لابد من الفوانيس.

وكانت الفوانيس أيضاً تُنير المساجد في الليالي، وتُغلّف بالزُجاج المُلوّن لتُعطي تأثيرًا بهيجًا للناظر، وكان الاهتمام بتزين المساجد يصل أقصى درجاته خلال شهر رمضان. كما كانت الفوانيس والقناديل تُضيئ الشوارع الرئيسيّة المسقوفة، وإلى جانبها البيوت المؤلّفة من عدّة طبقات. وكان يُفرض على أصحاب الحوانيت أسعار مُحددة للبيع، فإذا غشّ أحد الباعة عوقب على الشكل الآتي: يُطاف به على جمل أو على حمارٍ أو بغلٍ في الأسواق ويُجبر على أن يُنادي هو بذنبه، وعُرفت هذه العُقوبة لاحقًا باسم "**الجُرصة**"، وكان الأمنُ سائدًا في أكثر الأحيان، إلى حدِّ أنّ الحوانيت كانت تُترك مفتوحة ليلاً.

2. الحياة الفكريّة والعلميّة:

شهدت الحياة الفكرية في العصر الفاطمي تنوعًا في الإسهامات، فقد برز من أدباء وكُتّاب ذاك العصر **الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي** الذي اختصر كتاب "**إصلاح المنطق**" **لإبن السكيت**، وأسماه «**المنخّل**»، وكتاب «**أدب الخواص**» الذي احتوى على قديم الشعر وأخبار القدماء وأنسابهم وبعض المواضيع في علوم اللغة، **وأبي سعد محمد بن أحمد العميدي** الذي ألّف عدد من الكتب في البلاغة والعروض والقوافي، **وابن الصيرفي** الذي

صنّف بعض الكتب مثل «**منائح القرائح**» الذي كتبه مدحًا في الخلفاء الفاطميين و«**الإشارة إلى من نال الوزارة**» الذي ذكر فيه من تولى الوزارة في مصر إلى عصره، **والرُقيّق القيرواني** الذي صنّف كتابًا في تاريخ إفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن الخامس الهجري، وقد أرخ للدولة الفاطمية الكثيرون **كالمسبحي** الذي كان له تاريخ يدون به الأحداث والمشاهدات اليومية، إضافة إلى وصف لمصر وأبنيتها وعجائبها وأطعمتها ونيلها وأشعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس القضاة والحكام والأدباء. إضافة إلى غيره من المؤرخين **كابن زولاق وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي**، أما اللغويين، فبرز منهم **علي بن أحمد المهلبي وابن بابشاذ وأبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني وابن القطاع الصقلي وأبي بكر الإدفوي**.

وقد لعب **الشعر** أيضًا دورًا هامًا في الحياة الفكرية عند الفاطميين، حيث كان الشعر أحد أدوات دعوتهم السياسية، فخصصوا لهم ديوانًا يتولى أمورهم، واستخدموهم في مدح مذهبهم الديني وعقائدهم وأصولهم وحقهم السياسي في الخلافة، كما اتخذهم الخلفاء والوزراء أداه للمباهاة بالسلطان. وقد تنوعت موضوعات الشعر عند الفاطميين بين مديح للخلفاء والقادة، والتركيز على الأمور **السياسية كإبراز أفضلية الفاطميين على العباسيين وأحقيتهم بالخلافة، والدينية كالحديث عن وصاية علي وفضل يوم الغدير**، ومن أشهر شعرائهم **الرسّيون** وهم من الأشراف العلويين وينتسبون إلى **الشريف الرسيّ** الذي دخل مصر في عهد كافور الإخشيدي، **وابن وكيع التنيسي والشريف العقيلي وابن أبي الجوع، وابن مكنسة**، وقد شجعت عطايا الفاطميين للشعراء الكثيرين على الوفود على بلاطهم طمعًا في عطاياهم كابن هانيء الأندلسي وابن الرقعمق الأنطاكي والرقيق القيرواني وعبد المحسن الصوري وصريع الدلاء البغدادي، ولم يقتصر قرض الشعر على الطامعين في الهبات، بل برز من الفاطميين ووزرائهم من يحسن قرض الشعر **كتميم بن المعز، والوزير طلائع بن رزيك**.

وفي إطار سعي الفاطميين لنشر المذهب الإسماعيلي، أنشأ **الحاكم بأمر الله (دار الحكمة)** سنة395هـ، وأجلس فيه الفقهاء والقرّاء والمنجمين وعلماء اللغة والنحو والأطباء، وخصص للدار قائمين عليها وخدم وفرّاشين، كما نُقلت لها الكتب من خزائن القصور. وظلت الدار مفتوحة للعوام حتى أغلقها **الأفضل شاهنشاه** سنة516هـ، خوفًا من فتنة دينية، إلى أن أمر **الخليفة الآمر بأحكام الله** وزيره **المأمون البطائحي** بإعادة فتحها بعد وفاة **الأفضل**، كما

استهوى الحكام الفاطميين جمع الكتب، فكانت لهم خزانة كتب في القصر الشرقي الكبير احتلت أربعين غرفة منه، واحتوت على مليون وستمائة ألف مجلد منها 2,400 نسخة مزخرفة وملونة من القرآن، وآلاف الكتب في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والتنجيم والروحانيات والكيمياء، ورغم ذلك، لم تسلم محتويات المكتبة من السلب والنهب، فتعرضت لنهب جنود الدولة نفسها في فترات الفوضى وضعف هيبة الخلفاء، فيحملون منها ما أمكنهم ويبيعونه في السوق، بل واستخدموا جلودها أحيانًا لصنع خفافًا لأحذيتهم.

ولعب **الأزهر** والمساجد في العصر الفاطمي دورًا هامًا في الحركة العلمية الدينية، حيث اتخذها الفاطميون قواعد لنشر المذهب الشيعي الإسماعيلي، فأجلسوا فيه دعاة مذهبهم لشرح قواعد الفقه الإسماعيلي للحاضرين. لم يقتصر دور الأزهر الفاطمي على نشر المذهب الإسماعيلي، بل ضم حلقات علمية للمذاهب الأخرى، ولم يقتصر نشر العلوم على المساجد فقط، بل وكانت قصور بعض الوزراء **كيعقوب بن كلس** الذي كان محبًا للعلم، فكان يجمع العلماء يكتبون القرآن والحديث والأدب والطب، ويُشكّلون المصاحف ويُنقّطونها. بل وألّف **ابن كلس** بنفسه كتبًا في القراءات والأديان وآداب الرسول والطب.

وفي مجال **العلوم**، فبرز عددًا من الأسماء **كابن رضوان** الذي برز اسمه في الطب والفلك، **وابن يونس** الذي برع في الرياضيات والفلك، ووضع **زيجًا فلكيًا** أسماه **الزيج الحاكمي**، **وابن الهيثم** رائد **علم البصريات**، **وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى**، **وماسويه المارديني**، **وابن بطلان** وهم من الأطباء البارزين.

3. الحياة الاقتصاديّة:

كان الإمام **عُبيد الله المهدي أوّل من نظّم ماليّة الدولة تنظيمًا دقيقًا**، فقد وضع جميع الأموال المجموعة في الأمصار تحت تصرُّفه جاعلًا لها **بيت مالٍ مُوحَّدٍ**، كما نظّم الجباية والضرائب والمُكوس، وأقام ديوانًا للماليّة يُشرفُ على تسيير أُمورها، فانتعشت الدولة وبدأ فيها الرفاه.

وقد اعتنى الفاطميّون بالزراعة لأنّها مورد مصر والشّام الأوّل. ومن أهم ما أنتجتهُ ضِفّتا النيل الخصبتان: القمح، والذُرة، والقُطن، وقصب السُكّر، واشتهرت سواحلُ الشّام

بالحمضيّات على أنواعها، كما اشتهرت سُفوحُ جبالها بالتُفّاح، وكثُرت في سُهولها الداخليَة أنواع العنب، كما عُرفت ألبانُ الشّام وعسلها بالجودة، وأهمُّ الصناعات الفاطميَّة كانت صناعة البناء، وصناعة الحفر على العاج والخشب، وصناعة التماثيل من البرونز والنُحاس، والمنسوجات صناعةٌ فاطميَّةٌ مشهورة، وقد كثُرت فيها صُور الحيوانات كالغزلان والأرانب والسِّباع، كما كانت تُزخرف بالخط العربي، ويُلاحظ أنَّ الفاطميين في هذا المجال خالفوا دُول الخِلافة السَّابقة عليهم، فقد استباحوا تصوير الكائنات والأشخاص على مُنتجاتهم وحرفيَّاتهم على عكس أهل السُنَّة، الذين كثيرًا ما تجنّبوا ذلك خوفًا ممَّا جاءت به الأحاديث النبويَّة من مُعاقبة المصورين يوم القيامة، ولكن نظرًا لاختلاف تأويل بعض الأحاديث بين أهل السُنَّة والشيعة، ومُعارضة الفاطميين لعددٍ من التعاليم الفقهيَّة السُنيَّة، فقد زاولوا مهنة التصوير، وتأثّرت مصنوعاتهم تأثُرًا كبيرًا بالمصنوعات الفارسيَّة الساسانيَّة القديمة.

ومن أبرز الصناعات الفاطميَّة التي شاعت في الشّام أيضًا: صناعة الثياب المُقصَّبة وصناعة الطنافس. وتفوّقت مدينة صور بصناعة الخرز والزُجاج واستخراج السُكّر، كما اشتهرت طرابلس بصناعة الورق للكتابة. وكانت مرافئ السَّاحل اللُبناني سوقًا رائجة لكُل المُنتجات الزراعيَّة والصناعيَّة، ومن الصناعات الرائجة الأُخرى خلال العهد الفاطمي: صناعة الخزف وتجليد الكُتب والرسم على الأطباق المعدنيَّة.

وقد أُصيب الازدهار الاقتصادي الفاطمي بنكسةٍ عظيمة زمن **المُستنصر بالله**، فأُصيبت البلاد بقحطٍ مُروعٍ أتى على الأخضر واليابس فعمَّت المسغبة البلاد وتضوَّر الناسُ جوعًا وأطلق عليها اسم **(الشدَّة العُظمى)** لفظاعته وهوله، أو **(الشدة المستنصرية)**، وقد اضطرَّ المستنصر إلى بيع حلية قبور آبائه حتّى، واستمرَّ الوضع هكذا حتّى انتهى القحط وتساقطت الأمطار وعاد النيلُ للجريان.

4. الحياة الدينيَّة:

كان الدينُ الرسمي للدولة الفاطمية **الإسلام**، ومذهبُها هو **المذهب الشيعي الإسماعيلي**، وهو مذهبُ الخُلفاء وكِبار رجالات الدولة، واعتنقهُ قسمٌ من الشعب المُوالي للسُلطة، كالكتاميين البربر وبعضٌ من الصقالبة والروم وغيرهم من الأجانب الذين دخلوا مصر جنودًا في الجيش الفاطمي. وكانت مذاهب أهلُ السُنّة والجماعة هي الأكثر انتشارًا على المُستوى الشعبي، وكان

الدُعاة الفاطميّون نوعين: **الدُعاة الشعبيّون** ولهم أعمال تتعلّق بالإعداد الشعبي لإثارة النّاس ضدّ الحُكم، **والدُعاة الدينيّون** المُختصون بنشر فكرة الدعوة الإسماعيليّة في صُفوف الشعب. وقد نشط الدُعاة نشاطًا عظيمًا في بداية عهد الدولة وخِلال عصرها الذهبي، وقد أمدّ الخُلفاء الفاطميّون هذه الدعوات بكُلِّ ما تحتاجه من تمويلٍ ماديٍّ ومعنويٍّ خلال عصر الدولة الذهبي، واشتهر **المُعز لدين الله** بعنايته الشديدة لجهاز الدعوة ، وكان الخُلفاء يخلعون على الدُعاة النعم والأموال تقديرًا لخدمتهم المذهب الإسماعيلي وإخلاصهم للإمام، فها هو ذا أحد أشهر الدُعاة والمُلقّب بفيلسوف الدعوة **أحمد حميدُ الدين الكرماني** يتحدثُ عن النعم الكثيرة التى أولاه إيّاها **الحاكم بأمر الله**، ودرجاتُ الدُعاة عند الإسماعيليّة سبع، هي: «**الباب**»، وهي أعلى درجاتُ الدُعاة، ولمّا يصل إليها إلا أفرادٌ قلائلٌ، **وأُحيط من يشغل هذه الدرجة بسريّةٍ تامّةٍ حتى في عصر الظهور**. و«**الحُجّة**» أو «**داعي الدُعاة**» ويكونُ بجانب الإمام وله الإشراف على كُلِّ شيءٍ يتصلُ بالدعوة، و«**داعي البلاغ**» وله رتبة الاحتجاج، و«**الدّاعي المُطلق**» وله رُتبة تعريف التأويل بالباطن، و«**الدّاعي المحدود**» ولهُ التعريف بالعبادات الظاهرة، و«**الدّاعي المأذون**» وله أخذ العهد والميثاق، و«**الدّاعي المُكالب**» أو «**المُكاسر**»، وهو الذي يستميل الناس إلى المذهب الإسماعيلي.

أمّا بالنسبة للمُسلمين من غير الشيعة، ولِغير المُسلمين، فلا يُمكن الحديث عن ملامح عامّة لأوضاعهم، وذلك لتبايُن أُسلوب التعاطي معهم من خليفةٍ إلى آخر، فبعضُ الخُلفاء كان مُتسامحًا لأبعد الحُدود مع أهل السُنّة ومع النصارى واليهود، فأطلق لهم الحُريّة الدينيّة والمذهبيّة، واستوزر منهم ورفع شأنهم، وبعضهم الآخر اضطهدهم اضطهادًا شديدًا.

وكان أهل السُنّة يُشكلون غالبيّة الشعب الفاطميّ، وكانت أوضاعهم مُتقلّبة كأوضاع أهل الكِتاب، وفق سياسة الخليفة الفاطمي، وما تُمليه عليه طبيعة الأُمور. فمن مظاهر تسامُح الخُلفاء الفاطميين تعيين بعض عُلماء أهل السُنّة في مناصب الوزارة والقضاء، فعلى سبيل المِثال، أنشأ **الحاكم بأمر الله** مدرسةً لتعليم الفقه المالكيّ، وأهداها دار كُتبٍ، وعيّن **أبا بكرٍ الأنطاكيّ** ناظرًا لها، وخلع عليه وعلى مُدرِّسيها وأجلسهم في مجلسه، أما من مظاهر التعصّب ضدّ أهلُ السُنّة شُيوع سبّ الصحابة وكتابة ذلك على جُدران المساجد والحوانيت والمقابر والدور، وتلوينها بالأصباغ والذهب، ومنع صلاتيّ التراويح والضُحى في جميع مساجد مصر زمن الحاكم بأمر الله، تحت طائلة ضرب وتشهير من يؤديها، وكان الوُلاة والأُمراء يُطبقون

سياسة الخليفة في ولاياتهم القاضية بالتساهل أو التشدد مع أهل السُنّة، وقد ظهرت خِلال العصر الفاطمي عدّة طوائف وجماعات دينيّة انشقت عن الإسماعيليّة، ومن هذه **الطائفة الدُرزيّة**، حيث أرسل **الحاكم بأمر الله** إلى الشّام داعيةً اسمه "**مُحمّد بن إسماعيل الدَرَزي**"؛ لينشر الدعوة بين أبنائها، فنزل **الدَرَزي** في **وادي التيم** – البقاع، حيثُ كثُر أتباعه، في **وادي التيم**، ومنه انتشروا في صفد وجبل لُبنان وحوران والكرمل، وكان من أبرز الدُعاة **حمزة بن عليّ الزوزني**، الذي يعود الفضل إليه في **توطيد الدعوة وصيانتها ووضع أُسس المذهب وفلسفته**.

تاسعاً: العمارة والآثار:

ترك الفاطميُّون آثارًا معماريّة كبيرة في المناطق التي حكموها، خصوصًا في عاصمتيهم بمصر وتونس. ظهرت العديد من الأنماط والأفكار المعماريّة للمرّة الأولى أثناء العصر الفاطمي، منها على سبيل المثال بناء واجهات المساجد بالحجر المنحوت والمزخرف عوضًا عن الطوب، كما هي الحال في **مسجد الحاكم بأمر الله**، وقد كانت تُبنَى القباب صغيرةً وبسيطة، وأصبحت تُشيّد بشكلٍ مضلّع في الفترة المتأخرة من العصر الفاطمي، وأسّس الفاطميون **مدينة القاهرة** على ضفاف نهر النيل سنة 358 هـ(969م)، وقد أمر **جوهر الصقلي** بعد تأسيس المدينة ببناء **أربعة أبوابٍ** للقاهرة، هي: **باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة، وباب القوس**، وكذلك أمر بالشُروع ببناء **الجامع الأزهر** عام 359هـ.

وتجمعُ العمارة الفاطميّة، بين عناصر شرقيّة وغربيّة، من أوائل عُصور الخِلافة الإسلاميّة وحتّى العصر العبّاسي، ومن أبرز المؤثرات في العمارة الفاطميّة: العمارة العبّاسيّة في سامرّاء، والعمارة القِبطيّة في مصر، والعِمارة الروميّة في الشّام وبيزنطة، وكانت أغلبُ المباني الفاطميّة تُشيّدُ بواسطة الطوب في بادئ الأمر، ثُمّ تحوّل المُهندسون إلى استعمال الحجر النافر، وعني الفاطميّون بإنشاء وتشييد المشاهد والمزارات المُقدّسة لآل البيت، فزيّنوا عاصمتهم القاهرة بعددٍ منها، استُعمل بعضُها لدفن الخُلفاء أنفسهم، وما زال عددٌ من هذه المزارات قائمٌ في مصر حتّى الزمن الحالي فيما زال بعضُها الآخر.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم علي طرخان: **مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة**، القاهرة1960م.
2. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولي1987م.
3. ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2 1982م.
4. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة،القاهرة 1963م.
5. حكيم أمين عبد السيد: **قيام دولة المماليك الثانية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة1966م.
6. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت1979م.
7. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت1398هـــ = 1978م.
8. سعيد عبد الفتاح عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية،القاهرة، ط1 الأولي1965م.
9. السيد الباز العريني: **مصر في عصر الأيوبيين**، القاهرة1960م.
10. أبو شامة: **الروضتين في أخبار الدولتين**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة1962م.
11. الطبري: **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
12. ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
13. القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.
14. ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة1987م.
15. الكندي: **الولاة والقضاء**، نشر رفن جست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت1908م.
16. محمد جمال الدين سرور: **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق**، دار الفكر العربي، القاهرة1957م.
17. محمد عبد الله عنان: **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـــ = 1959م.
18. محمد كرد علي: **خطط الشام**، دمشق،1925م.
19. المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفي زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1956م.
20. النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، تواريخ مختلفة.
21. ابن واصل الحموي: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق محمد جمال الدين الشيال، القاهرة 1953م.
22. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت1979م.

الفصل الخامس

الدولة الأيوبية

(567-648هـ)

الفصل الخامس

الدولة الأيوبية (567-648هـ)

الدولة الأيوبية هي دولة إسلامية نشأت في مصر، وامتدت لتشمل، الشام، والحجاز، واليمن، والنوبة، وبعض أجزاء المغرب العربي، ويعد **صلاح الدين الأيوبي** مؤسس الدولة الأيوبية، كان ذلك بعد أن عُيّن وزيرًا للخليفة **الفاطمي العاضد لدين الله**، ونائبًا عن السلطان **نور الدين محمود** في مصر، فعمل على أن تكون كل السلطات تحت يده، وأصبح هو المتصرف في الأمور، وأعاد مصر الى تبعية الدولة العباسية، فمنع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي، وأغلق مراكز الشيعة الفاطمية، ونشر المذهب السني.

وبعد وفاة **نور الدين زنكي** توجه **صلاح الدين** إلى بلاد الشام، فدخل دمشق، ثم ضم حمص ثم حلب، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام. كانت دولة الأيوبيين قد امتدت إلى بلاد الحجاز، حيث استرد صلاح الدين بيت المقدس في 27رجب583هـ، 2 تشرين أول – أكتوبر 1187م، بعد ثلاثة أشهر من انتصاره في **معركة حطين**، عقب ذلك أصبح في يده كل موانئ الشام، ما عدا مينائي **إمارة طرابلس وأنطاكية**، وانتهت **الحرب الصليبية الثالثة** بسقوط **عكا** بيد الصليبيين، وتوقيع **صلح الرملة** بين **صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد**.

وقد توفي صلاح الدين عام 589هـ بعد أن قسم دولته بين أولاده وأخيه **العادل**، ولكنهم تناحروا فيما بينهم، وظل بعضهم يقاتل بعضًا في ظروف كانت الدولة تحتاج فيها إلى تجميع القوى ضد الصليبيين. بعد وفاة العادل تفرقت المملكة بين أبنائه الثلاثة **الكامل محمد** على حكم مصر، **والمعظم عيسى** على دمشق وما حولها، **والأشرف موسى** على باقي الشام، لم يكد يتوفى العادل أبو بكر حتى انهال الصليبيون على الشام ومصر وخصوصًا مصر في ثلاث حملات صليبية متتابعة أرغمت **الكامل محمد** على أن يتنازل طواعية عن **بيت المقدس** للملك **فريدريك الثاني** سنة 625هـ–1229م. وقد اختلف **الأشرف موسى** مع **المعظم عيسى** على حدود النفوذ في الشام والجزيرة ووقعت بينهما الكثير من المشاكل والاضطرابات كرست الفتنة وعمقت أسباب الخلاف ومهدت لمزيد من التخبط وفتحت طريق سقوط الدولة.

وُلِّي بعد وفاة الكامل محمد أخوه **الصالح أيوب** سنة637هـ، والذي **استرد بيت المقدس ودمشق وعسقلان** بعد تحالفه مع **القوات الخوارزمية** الهاربة من الغزو المغولي.

وفي آخر حياة **الصالح أيوب** هجمت **الحملة الصليبية السابعة** على **مدينة دمياط** يقودها **لويس التاسع ملك فرنسا** سنة647هـ، فرابط الصالح أيوب **بالمنصورة**، وهناك أصيب بمرض شديد تفاقم عليه حتى مات، فأخفت زوجته **أم خليل الملقبة (شجر الدر)** خبر موته وأرسلت لولده **الأمير توران شاه** وكان بالشام، فقاد الجيوش المصرية وحقق انتصارًا كبيرًا على الصليبيين، وأسر ملكهم لويس التاسع. لما حقق توران شاه انتصاره على الصليبيين استدار إلى زوجة أبيه وباقي قادة الجيش وكانوا جميعًا من **المماليك البحرية**، وخطط للتخلص منهم وعزلهم، جعلت هذه الأمور شجرة الدر تتآمر مع المماليك على قتل توران شاه، فهاجموه سنة 648هـ-1250م وقتلوه، وبذلك انتهت الدولة الأيوبية.

أولاً: أصل الأيوبيين:

اختلف المؤرخون عن النسب الأيوبي واختلفوا حول هذا النسب، ولكنهم اتفقوا على أن جد الأيوبيين هو الملك **الأفضل نجم الدين أيوب بن شادي**، فمنهم من قال بأنهم **أكراد**، ومنهم من قال أنهم **عرب**، ويرجع أصل الأيوبيين إلى "**نجم الدين أيوب**" الكردى الأصل، وأبوهُ يُدعَى "**شادى**" من قبيلة "**الهذبانية**" إحدى القبائل التى استقرت ببلدة "**روبن**" بأطراف "**أرمينية**". فقد اتصل "شادى" والد "نجم الدين أيوب" برجل اسمه "**مجاهد الدين بهروز**" كان مربيًا لأبناء السلطان السلجوقى "**مسعود بن ملكشاه**"، ثم أصبح حاكمًا لبغداد تحت سلطة السلاجقة سنة (502هـ)، وكانت له مكانة سامية لدى السلطان السلجوقى، فأقطعه السلطان "**قلعة تكريت**"، فأسند "**بهروز**" حراستها إلى "**نجم الدين أيوب بن شادى**"؛ الذى ظل فى حكمها وحراستها عدة سنوات اكتسب خلالها الخبرة بشئون الإدارة، وتمتع فيها بحب الأهالى.

وعندما أتيحت الظروف **لنجم الدين أيوب** قام بخدمة **عماد الدين زنكي** أمير الموصل وحلب، وذلك عندما انهزم زنكي في الحرب التي خاضها ضد الخليفة العباسي **المسترشد بالله** سنة 526هـ-1132م، وفر مع جيوشه إلى مدينة تكريت ملتجئين إلى نجم الدين أيوب، فأكرمهم وآواهم. وحدث أن تنكر مجاهد الدين بهروز لنجم الدين أيوب، وقد تعددت أسباب هذا التنكر، وكانت النتيجة أن أرسل إليه بهروز يأمره بتسليم القلعة إلى عامل آخر، والخروج مع أهله من تكريت. غادر نجم الدين قلعة تكريت ومعه أخوه **أسد الدين شيركوه** متوجهًا نحو الموصل، فأحسن عماد الدين زنكي وفادتهما، وبالغ في اكرامهما وأقطعهما اقطاعات جليلة سنة532هـ-1138م، وقابل نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه مكرمة عماد الدين، بانخراطهما في جيشه، وأخلصا له وأحرزا انتصارات عديدة، ما حدا بعماد الدين بتعيين بنجم الدين أيوب حاكمًا على بعلبك بعد استيلائه عليها سنة 532هـ-1139م.

وبعد مقتل عماد الدين زنكي انقسم ملكه بين ولديه **سيف الدين غازي** في الموصل، **ونور الدين محمود** في حلب، فاستغل ذلك صاحب دمشق **مجيد الدين أبق بن جمال الدين بن تاج الملوك،** فحاول استرجاع بعلبك، فسلمه نجم الدين أيوب مقابل تعهده بإعطائه إقطاعًا جليلاً، ثم نزل دمشق وتسلم ما أقطعه إياه، ثم أصبح لنجم الدين مركز مرموق في دمشق حتى أصبح قائدًا لقواتها، واستمر يشغل هذا المنصب حتى استولى نور الدين على دمشق عام 549هـ-1154م. أما **أسد الدين شيركوه** فقد بقي في خدمة **نور الدين محمود** بحلب، حتى

أصبح قائدًا لقوات حلب، ثم قام نور الدين بتسيير جيش بقيادة شيركوه للاستيلاء على دمشق عام 547هـ-1154م، فوقف **نجم الدين أيوب** على رأس جيش حاكم دمشق **مجيد الدين آبق.** قام نور الدين محمود بالطلب من شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين وحثه على المساعدة، فطلب نجم الدين الحصول على المزيد من الإقطاعات في دمشق، فوعد نور الدين بتنفيذ ما طلب، واستمرت المفاوضة ستة أيام انتهت بتسليم دمشق، فعين نجم الدين حاكمًا على دمشق.

وفي الوقت ذاته كانت مصر قبل قدوم صلاح الدين مقرًا للدولة الفاطمية، ولم يكن للخليفة الفاطمي في ذلك الوقت سوى الدعاء له على المنابر، وكانت الأمور كلها بيد الوزراء، وكانت هذه الفترة من أسوأ الفترات السياسية في تاريخ مصر الإسلامي، فقد أصبح الخليفة الفاطمي يشارك في مؤامرات و دسائس ضد وزرائه للتخلص منهم وذلك لضعفه وعدم قدرته على عزلهم بنفسه، فوُجد أن كل طرف كان يتآمر ضد كل الأطراف، ولا يبالي أي طرف من أن يتقوى بالصليبيين ضد منافسه، مما أدى إلي تحريك أطماع الصليبيين في الإستيلاء على مصر، واستغل الملك **الصليبي بلدوين الثالث** حالة مصر الضعيفة، وكشر عن أنيابه مهددًا بغزو الديار المصرية، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده **الوزير ابن رزيك** باسم الخليفة **الفاطمي العاضد** بجزية سنوية مقدارها مئة وستين ألف دينار، لما مات **بلدوين الثالث** تولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه **أماليك الأول** بدون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من الجزية، وكان تولي **أماليك** حكم بيت المقدس بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر، حيث أدرك أن سيطرة نور الدين محمود على عدة مدن في شمال بلاد الشام، قد حالت دون توسع الصليبيين فأصبح الطريق مفتوحًا أمامهم لمصر.

وفي هذه الفترة تحركت رغبات نور الدين محمود في ضم مصر إلى الشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين، وكان نور الدين قد نجح في توحيد معظم مدن الشام تحت إمرته، وتلقيه العهد من الخليفة العباسي عام549هـ بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر، كان **الوزير طلائع بن زريك** قد قُتل فحل محله في الوزارة **شارو** الذي كان حاكمًا للصعيد، فظهر في تلك الفترة **ضرغام أبو الأشبال** أمير فرقة من **الجند المغاربة** تخدم في مصر كمنافس فعلي للوزير **شاور** على كرسي **الوزارة** زمن الخليفة **العاضد،** وقد تحالف الطرفين من نور الدين محمود أو الصليبيين لتقوية موقفه في الوزارة، إلى أن تمكن أسد الدين شيركوه قائد جند نور الدين من السيطرة على الوضع في مصر وإنهاء أمر الوزراء، وأصبح شيركوه الحاكم الحقيقي لمصر،

ولكنه لم يعزل الخليفة الفاطمي، فقد كان الخليفة الفاطمي مريضًا مرضًا لا يرجي شفاؤه، فآثر شيركوه أن يتركه يموت بسلام، وبعد تعيينه بشهرين وزيرًا على مصر توفي أسد الدين شيركوه، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي على وزارة مصر سنة 564هـ-1169م، وفي سنة1171م أرسل نور الدين محمود إلى صلاح الدين يأمره أن يقوم بتحويل البلاد إلي المذهب السني والدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلًا من الخليفة الفاطمي، ولكن صلاح الدين استمهله حتى يُتوفى الخليفة العاضد المشرف على الموت، ولكن نور الدين رفض التأجيل وخشي أن يكون صلاح الدين يماطل فهدده أنه سوف يسير إليه بحملة، وأرسل إمامًا سنيًا من الموصل إلي مصر، فاعتلى المنبر في مسجد القاهرة ودعا للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي. وقد توفي الخليفة العاضد سنة567هـ-1171م، وهو آخر الخلفاء الفاطميين وانتهت بموته الخلافة الفاطمية في مصر.

ثانياً: صلاح الدين الأيوبي:

ما إن تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم في مصر واجهه العديد من العقبات، حيث لم تكن الأوضاع مهيأة أمام "صلاح الدين" لإقامة دولة إسلامية يكون هو مؤسسها وسلطانها، خاصة أن العالم الإسلامى كان مفككًا وضعيفًا ويحيط به الأعداء من كل جانب، بالإضافة إلى كونه نائبًا عن "نور الدين محمود" فى "مصر" التى يطمع الصليبيون وبقايا الفاطميين فى امتلاكها والسيطرة عليها، فعمل على مواجهة هذه العقبات والقضاء عليها واحدة بعد الأخرى.

1. العقبات التي واجهت صلاح الدين الأيوبي قبل تكوين الدولة الأيوبية:

أ. إلغاء المذهب الشيعى فى مصر:

كان "صلاح الدين" وزيرًا سنيا فى دولة شيعية، وتولَّى أكبر المناصب بعد الخليفة، وأصبحت له الكلمة العليا فى إدارة شئون البلاد، وقد حذف اسم الخليفة الفاطمى "العاضد" من الخطبة، وجعلها للخليفة العباسى ولسيده "نورالدين" من بعده، فزاد حاسدو "صلاح الدين"، وأدرك أن تعدد المذاهب هو السبب الرئيسى فى ضعف المسلمين، فعمل على إلغاء المذهب الشيعى فى "مصر"، وتم له ما أراد، وهوى نجم الدولة الفاطمية، وسقطت، وتولى "صلاح الدين" رئاسة الدولة بعد صراع مرير مع بقايا الفاطميين وأنصارهم، وأصبح المذهب السنى هو مذهب البلاد.

ب. الفتن الداخلية:

لقد قامت حركات مناهضة لما يقوم به "صلاح الدين"، وكان من أشدها وأخطرها: الحركة التى قادها الشاعر "**عمارة اليمن**"، الذى طالما مدح الفاطميين وأيامهم، واعتبر الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمى، فعمل على إعادة الحكم للفاطميين، ودعا عددًا كبيرًا من الجند، وانضم إليه المناصرون وبقايا الفاطميين، وأصبحت حركته خطرًا يهدد دولة الأيوبيين الوليدة، إلا أن "صلاح الدين" تمكن من إفشالها، وقبض على قادتها، وما كادت الأوضاع تهدأ حتى قامت فتنة أخرى فى "أسوان" تدعو إلى عودة البيت الفاطمى، فأرسل "صلاح الدين" أخاه "العادل" الذى تمكن من دخول "أسوان" والقضاء على هذه الفتنة فى سنة (570هـ).

ت. تطور العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين محمود:

ولم تكن الفتن الداخلية هى العقبة الوحيدة التى واجهت "صلاح الدين" فى بداية حكمه لمصر فحسب، ولكنه كان أحد قواد "نور الدين محمود"، وحكم "مصر" نيابة عنه، وذكر اسمه فى الخطبة بعد الخليفة العباسى، وضرب السكة باسمه.

وقد كانت تبعية "صلاح الدين" لنور الدين تبعية اسمية، ولم يتدخل "نور الدين" فى شئونه، وكان هو الحاكم الفعلى لمصر، وله جيشه وحاشيته، ويتمتع بحب رعيته، ولكن "نور الدين" كان يعتمد على مساعداته لصد أعدائه من السلاجقة والصليبيين، إلا أن الفتن الداخلية التى قامت فى وجه "صلاح الدين" لم تمكنه من مساعدة "نور الدين" فى حربه، وظل على ذلك حتى وفاة "نورالدين" سنة (569هـ)، فتولى من بعده ابنه الملك "إسماعيل بن نور الدين" وكان لايزال طفلا صغيرًا، فضعفت الدولة فى عهده.

ث. وحدة المسلمين:

كان لنجاح "صلاح الدين" فى التغلب على الفتن الداخلية التى واجهته منذ أن أصبح وزيرًا بمصر، وارتداد الحملة الصليبية إلى "دمياط" سنة (564هـ) أكبر الأثر فى ذيوع اسمه فى أرجاء العالم الإسلامى، ونظر إليه الناس نظرة إجلال، واعتبروه أحد القادة العظماء؛ لوقوفه فى وجه الصليبيين، ونجاحه فى فتح "اليمن"،ونجاحه فى القضاء على حركة "عمارة اليمن".

وقد أثرت وفاة "نور الدين محمود" على دولته فى بلاد الشام، وقام تنازع شديد بين الأمراء على مَن يعتلى العرش، وانتهى الأمر بتولية "إسماعيل بن نور الدين" عرش أبيه وهو

مايزال فى الحادية عشرة منْ عمره، فوقع فريسة للصراع بين الأمراء، وضاعت بذلك هيبة الدولة النورية وقوتها، وبدت عليها مظاهر التفكك والضعف لدرجة أن أحد الأمراء لم يقو على مواجهة الفرنجة وقتالهم، فعمل على مهادنتهم واسترضائهم بالمال؛ ليأمن شرهم ويتجنب مواجهتهم.

وكان "صلاح الدين" متابعًا للأحداث التى تجرى فى العالم الإسلامى من حوله، فقرر التدخل فى شئون "الشام" وضمه إلى "مصر" كى يحول دون وقوعه غنيمة فى أيدى الصليبيين، وليحمى "مصر" والإمارات الإسلامية من أى خطر يهددها، وجعل هدفه توحيد صفوف المسلمين وقوتهم فى جبهة واحدة؛ ليتمكنوا من صد الصليبيين وحصرهم بين شِقَّى الرحى فى الجزيرة والشام من جهة، وفى "مصر" من جهة أخرى، وانتظر "صلاح الدين" الفرصة لتحقيق ذلك حتى واتته الفرصة حين استنجد به بعض أمراء "دمشق"، فسار إلى الشام وتمكن دون قتال من السيطرة والاستيلاء على "دمشق" سنة (570هـ)، ثم على "حمص" و "حماة"، وحال الملك "الصالح إسماعيل" دون دخوله إلى "حلب"، فقرر "صلاح الدين" حصارها، فاستنجد أهالى "حلب" بأعداء الدولة، واضطر "صلاح الدين" إلى فك الحصار عن "حلب"، واستولى على "بعلبك" ليحمى جيشه من الخلف، ثم عاد ثانية لحصار "حلب"، وأعلن استقلاله، وحذف اسم "الصالح إسماعيل" من الخطبة، واتصل بالخليفة العباسى، فمنحه لقب سلطان.

2. السلطان صلاح الدين وتوحيد باقى الولايات الإسلامية:

بعد حصول "صلاح الدين" على لقب السلطان استقل عن أسرة "نور الدين"، وأصبح حاكم "مصر" الرسمى، وقوى مركزه باستيلائه على "منبج" و "إعزاز"، وشدد حصاره على "حلب"، وعزلها عن جيرانها حتى طلب "الصالح إسماعيل" الصلح، فوافق "صلاح الدين"؛ لأن هدفه كان وحدة المسلمين وحماية بلادهم.

وقد تُوفِّى صاحب "الموصل" سنة (578هـ)، ومن بعده تُوفى "الصالح إسماعيل"، فعاد الانقسام ثانية من أجل الوصول إلى كرسى الحكم، فزحف "صلاح الدين" إلى الشام فى سنة (578هـ)، وانضمت إليه بعض المدن دون قتال، واستولى على "حلب"، وبذا أصبح شمال الشام كله تحت سيطرته، ولم يعد أمامه سوى مدينة "الموصل" التى سعى حاكمها إلى التصالح مع "صلاح الدين"، وتعهد بإرسال المساعدات الحربية إذا طُلب منه ذلك، فخضعت

بذلك جميع الإمارات الإسلامية الشامية تحت سلطان "صلاح الدين"، وتمكن من توحيد كلمة المسلمين تمهيدًا للنضال ضد الصليبيين.

3. **موقف صلاح الدين من الصليبيين**:

وقد ظل "صلاح الدين" يعمل على توحيد العالم الإسلامى مدة عشر سنوات فى الفترة من سنة (572هـ) إلى سنة (582هـ)، حتى تحقق له ما أراد، واستعد لمواجهة الصليبيين المتربصين بالعالم الإسلامى، ثم تصدَّى لهم، فسجل التاريخ أبرز صور البطولة، وأسمى درجات الفداء والجهاد ضد هؤلاء المغتصبين، وكان من أبرز هذه المعارك ما يأتى:

أ. **واقعة حِطِّين** [583هـ-1187م]:

وتعد "حِطِّين" من أشهر الحروب التى خاضها "صلاح الدين" ضد الصليبيين، بعد سلسلة من الحروب التى خاضها مثل: **موقعة "مرج العيون"** سنة (574هـ) التى انتصر فيها عليهم، ثم **موقعة "مخاضة الأحزان"** سنة (575هـ)، ثم حدثت الهدنة بين الطرفين، ولكن الصليبيين لم يكفُّوا عن محاولة السيطرة على "مصر" وبلاد الشام، وظل "صلاح الدين" وفيا بعهده؛ لما عرف عنه من الشجاعة والمروءة والمحافظة على العهد، إلى أن نقض "**أرناط**" حاكم "**حصن الكرك**" الهدنة معه فى سنة (583هـ)، وهاجم إحدى قوافل الحج، فكانت هذه الجريمة هى الشرارة التى أشعلت نار الحرب بين الفريقين، فقد غضب "صلاح الدين" من هذا العمل الوحشى، خاصة وأن القافلة كانت فى طريقها إلى حج بيت الله الحرام، فهدد "صلاح الدين" "أرناط" وأنذره بالقتل إذا تمكن منه، وأعد عدته لقتال الصليبيين، ووافته الإمدادات من المدن الشامية والمصرية، وسار إلى "طبرية" وحاصرها، فلما علم الصليبيون باستعداداته الحربية اجتمعوا ببلدة تُدعى "صفورية"، وتناقشوا فى خطة الحرب الواجب اتباعها إزاء "صلاح الدين"، واستقر رأيهم على هجوم المسلمين، وتقدموا واحتلوا تلا على مقربة من "حِطِّين" فى الوقت الذى تمكن فيه "صلاح الدين" من السيطرة على مدينة "طبرية" باستثناء قلعتها التى استعصت عليه، فتركها ومضى لملاقاة الصليبيين.

وفى سنة (583هـ=1187م) دارت الموقعة الحاسمة في **حطين** بين جيش المسلمين بقيادة "صلاح الدين" وبين الصليبيين، ونال الصليبيون هزيمة ساحقة، وفر مَنْ بقى منهم هربًا، وكان هذا الانتصار فاتحة خير على المسلمين، وبداية لسلسلة من الانتصارات على الصليبيين، واستسلمت "قلعة طبرية" وسلمت لصلاح الدين عقب هذا الانتصار، واتجه "صلاح الدين"

صوب الساحل وحاصر "عكا" حتى استسلمت بعهد وأمان، ثم تتابع -بعد ذلك- استسلام باقى المدن الساحلية التى تقع جنوب "عكا" وهى: "نابلس" و "الرملة" و "قيسارية" و "أرسوف" و "يافا" و "بيروت"، وكذا المدن الواقعة شمال "عكا" مثل: "الإسكندرونة"، وكلها حصلت على العهد بالأمان من "صلاح الدين" الذى لم يبق أمامه سوى أن يمضى فى طريقه إلى "فلسطين"، فاستسلمت "عسقلان" له أثناء مروره بها، وحانت المواجهة الحاسمة لتحرير "بيت المقدس".

ب. الفتح المبارك:

وبعد معركة حطين وصل صلاح الدين إلى مدينة "**بيت المقدس**"، وحاصرها حتى اضطر مَنْ بداخلها إلى الاستسلام وطلب الصلح، فأجابهم "صلاح الدين" إلى طلبهم وأمهلهم مدة أربعين يومًا للجلاء عن المدينة ومعهم أمتعتهم، ولم يتعرض "صلاح الدين" لأحد بسوء، وسمح لبطريق المدينة بالخروج مثل باقى الأهالى الذين حملوا معهم ثرواتهم وكنوزهم وتحفهم، وكان دخوله مدينة بيت المقدس والمسجد الأقصى يصادف ذكرى **الإسراء والمعراج**، وبدأ على الفور فى إصلاحها، ورمَّم "المسجد الأقصى"، وأقام فيه فترة بعد أن حرره من المغتصبين المستعمرين، ليعلو صوت الحق والعدل من جديد، ويصبح "صلاح الدين" ثانى القادة الفاتحين -الذين دخلوا هذه المدينة- بعد "عمر بن الخطاب" ﷺ الذى فتحها الفتح الأول.

ت. صلح الرملة:

لقد أوشكت الأمور على الاستقرار بعد الانتصارات العظيمة التى حققها "صلاح الدين الأيوبى"، ولكن أوربا أرادت أن تحول دون تحقيق ذلك، وأرسلت حملة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عددًا وعدة وعتادًا؛ ضمت ملوك أوربا بعد أن دعا البابا إلى حرب المسلمين، وأعلن قدسية هذه الحرب، فتشكلت حملة من "ألمانيا" وأخرى من "فرنسا" وثالثة من "إنجلترا"، وخرجت جميعها فى طريقها إلى العالم الإسلامى لتخريبه، فوقف "صلاح الدين" صامدًا أمام هذه الحملات الكبيرة التى أتت من البر والبحر، واستطاعت السيطرة على المناطق الساحلية، ومع ذلك عمد "صلاح الدين" إلى تقوية جيشه وتنظيم جبهته الداخلية على الرغم من مرضه، فطلب الصليبيون الصلح الذى عُرف بصلح الرملة، وبدأت المفاوضات بين "**الملك العادل**" نائبًا عن "صلاح الدين"، و "**ريتشارد**" قائد حملة الصليبيين، واتفق الطرفان على "صلح الرملة" الذى كان من أهم شروطه:

- يحكم الصليبيون الساحل من "صور" إلى "يافا"، ويكون جنوبى ذلك الساحل لصلاح الدين، على أن يقع "بيت المقدس" فى حدوده وتحت سيطرته.
- يُسمَح للمسيحيين بالحج إلى "بيت المقدس" فى أمن وأمان.

وهكذا اتفق الطرفان على بنود هذا الصلح التاريخى، ليكون بداية مرحلة جديدة لهذه البلاد، التى فقدت قائدها "صلاح الدين" عقب هذا الصلح، ليأخذ الصراع مع الصليبيين وضعًا آخر.

4. وفاة صلاح الدين الأيوبى:

توفي صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ = 1193م)، وله من العمر خمسة وخمسون عامًا، بعد أن أسر الناس بجليل أعماله، وقهر الصليبيين بشجاعته، وخلَّص العالم الإسلامى بقوة إيمانه من كوارث داخلية وخارجية كادت تودى به وتوقعه فى أيدى الأعداء.

ثالثاً: خلفاء صلاح الدين:

وقد تعرضت الدولة الأيوبية إلي التقسيم بعد وفاة صلاح الدين نتيجة التنافس بين أفراد أسرته، فكانت مصر من نصيب ابن صلاح الدين **العزيز**، ودمشق من نصيب ابنه الثاني **الأفضل**، وحلب من نصيب ابنه **الظاهر غازي**، والكرك والشوبك من نصيب أخوه **العادل**، تنافس كل من العزيز والأفضل ابني صلاح الدين علي السيطرة علي **بيت المقدس**، وقد انتهى هذا التنافس بالاتفاق على ترتيب جديد لحكم الأسرة الأيوبية يقضي بأن: يحتفظ **الأفضل** بدمشق وطبرية، ويتخلى عن بيت المقدس وماجاورها **للعزيز**، ويتخلى الأفضل عن جبلة والاذقية لأخيه **الظاهر غازي**، ويعترف العزيز بسيادة **الأفضل**.

وفي فترة النزاع الأيوبي على السلطة استولى الصليبيين مدينة جبيل، وقلعتها سنة 590هـ-1194م، وخرج الملك الأفضل لاستردادها لكنه لم يستطع. وولّى العزيز الوزارة في مصر لعمه العادل الذي بدأ يثبت أقدامه في الحكم حتي أصبح صاحب السلطة الحقيقية، وقام العادل والعزيز بالاستيلاء على دمشق وتجريد الأفضل من إمارته، بعد وفاة العزيز سنة 595هـ تولي ابنه **الملك المنصور** حكم مصر، وكان **الأفضل** وصيًا علي ابن أخيه المنصور الذي كان لايزال صغيرًا، ونازعه في الأمر عمه العادل، واتفقا على أن يحكم العادل مصر ويحكم الأفضل، وبمجرد حصول العادل علي الوصاية قرر خلع السلطان الصغير وتولى حكم

مصر منفرداً سنة 596هـ-1200م، ثم قام بعد ذلك ببسط نفوذه علي الشام، وبذلك عادت دولة صلاح الدين تحت حكم سلطان واحد.

1. **السلطان العادل سيف الدين** [596 ـ 615**هـ** = 1200 ـ 1218**م**]:

لم تنقطع إغارات الصليبيين علي المدن التي تخضع تحت سيطرة المسلمين، فكان العادل يرسل بالمدد لأمراء المدن الإسلامية في الشام ليصدوا هجمات الصليبيين، وكان كثيراً ما يخرج بنفسه لقتال الصليبيين ويردهم إلي المهادنة، ومنها حملة **هنري السادس امبراطور ألمانيا،** التي وصلت حملته عكا سنة594هـ-1197م، ودارت بين **الصليبيين والأيوبيين معركة عند تل العجول قرب غزة انتهت بهزيمة الصليبيين،** كما انتهت الحملة بموت هنري السادس. وقد أعرب **البابا أنوسنت الثالث** عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، في سنة 600هـ-1203م، وقد قامت **الحملة الصليبية الرابعة** التي اتجهت **للقسطنطينية،** ثم بدأت محاولة الحملة الصليبية السيطرة على بلاد الشام حيث أرسلت قوات قليلة من القسطنطينية، ثم استقر أعضاء الحملة في بيزنطة.

وقد وصلت حملة صليبية جديدة عام614هـ-1217م عُرفت باسم **الحملة الصليبية الخامسة** إلى عكا، بقيادة **الملك المجري أندريه الثاني،** و**ليوبولد السادس دوق النمسا،** و**هيو ملك قبرص،** وكان هدفها شن هجومًا مباغتًا ضد دمشق في جيش ضخم، وعندما علم **العادل** بتحركهم خرج من مصر إلى فلسطين، لما علم الصليبيون بقدومه غيروا خطتهم واتجهوا نحوه، ونتيجة لتفوق الصليبيين تجنب العادل الاشتباك معهم، فواصلوا هجومهم على المدن الإسلامية وحاصروا بانياس ووصلوا إلى حوران، ثم عادوا إلى عكا، وظل الوضع هادئًا حتى عام615هـ-1218م عندما قرر الصليبيون بمهاجمة دمياط، بقيادة **الملك يوحنا دي بريان،** وعندما علم الملك العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصّفر، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل، وطلب من ابنيه **المعظم عيسى والأشرف موسى** أن يغيرا على معاقل الصليبيين في بلاد الشام؛ ليشغلهم ذلك عن دمياط، وحاول الصليبيون اقتحام برج السلسلة، حتى تمكنوا من دخوله والاستيلاء عليه، وفي تلك الأثناء توفى **الملك العادل** سنة 615هـ-1218م أثناء وجوده في الشام ودفن في أحد

المساجد بدمشق، وترك أبناءه الثلاثة يحكمون الدولة الأيوبية في مصر والشام، **الكامل في مصر والمعظم عيسي في دمشق والأشرف موسي في حلب.**

2. الكامل ناصر الدين [615 ـ 635هـ = 1218 ـ 1237م]:

لقد تولي **الكامل** بعد أبيه العادل في ظروف حرجة حيث استولي الصليبيون علي دمياط، فراح يستجد بالمسلمين من حوله، ولكن حكام المسلمين كانوا في هول من هجمات المغول التي بدأت تدق أبواب بغداد، فجهز الكامل قوة برية تدعهما عشرات السفن وهاجم المعسكر الصليبي إلا أنه اصطم بخنادق دمياط، ثم نصب جسرًا عظيمًا ليمنع العدو من سلوك النيل، لكنهم استطاعوا من قطعه، وسلكوا النيل ولم يفلحوا في الوصول إلى القاهرة؛ لسوء الأحوال الجوية توقف القتال مدة من الزمن، ولما علم عسكر الشام بموت الملك العادل، ما كان من العسكر إلا أن اتفقوا مع القائد **عماد الدين أحمد بن المشطوب**، وعزموا على خلع الملك الكامل وأن يملكوا الديار المصرية أخاه **الفائز إبراهيم**، ولما أحس الكامل بذلك خرج من معسكره في العادلية توجه إلى الشام، فساد الفزع أرجاء المعسكر وترك الجنود خيامهم وأسلحتهم، ولما علم الصليبيين بذلك خرجوا إلى دمياط وملكوها واستولوا عليها، ووصل **الملك المعظم عيسى** من الشام لنجدة أخيه وأنهى **تمرد ابن المشطوب.** دعا الملك الكامل الجهاد في البلاد الإسلامية فوصله المدد من أخويه المعظم والأشرف، وأخذ يستعد لشن هجوم على الصليبيين لكنه تراجع بسبب عاصفة شديدة سنة616هـ-1219م، ومع استمرار تدفق الإمدادات والمؤن من الغرب الأوروبي وقبرص على الصليبيين، وتواتر الأخبار من الشرق الإسلامي عن تقدم الجيوش المغولية بقيادة **جنكيز خان** باتجاه **الدولة الخوارزمية،** فقد اقترح الكامل على الصليبيين شروط بالغة السخاء، شملت: أن يتنازل عن أراضي بيت المقدس باستثناء الكرك والشوبك، مقابل أن يخرج الصليبيون من دمياط، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين مدتها ثلاثين سنة. ولم يتردد **الإمبراطور فريدريك** في أن يقبل هذا العرض، لكن البابا في روما رفض العرض ووبخ الإمبراطور فريدريك علي قبوله للعرض، فعرض السلطان الكامل عرضًا آخر وهو أن يتنازل عن سائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، ودفع مبلغ خمسة عشر ألف مقابل الكرك والشوبك، ودفع تكاليف إعادة تحصين بيت المقدس وباقي القلاع التي خربها المسلمون في بلاد الشام، تشكيل مجلس لتحديد تكاليف البناء،

إعادة صليب الصلبوت، وتستمر الهدنة مدة ثلاثين سنة، وضمانًا لحسن تنفيذ العرض تعهد الكامل بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصلبيبيون مدة سنتين يتم خلالها إعادة تحقيق ما تقدم. ولكن البابا رفض هذا كله وهدد فريدريك أن ينزع منه مملكته في أوروبا إذا عقد صلحًا مع المسلمين، فلم يبق للسلطان الكامل إلا ان يقاتل ليحرر دمياط من الصليبيين.

فواصلت الحملة حصار دمياط، وقد سقطت المدينة بعد حصار دام تسعة أشهر سنة 616هـ-1219م، واستعد الصليبيون لزحف نحو القاهرة، وكان الموقف ينبيء بانتصار الصليبيين فهم أكثر سلاحًا وعدة، لكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة الأرض المصرية وما تمتلئ به من قنوات الماء. فاختار الكامل مكانًا أكثر ملائمة للقتال لوقف الزحف الصليبي باتجاه القاهرة، وقد وصلت القوات الصليبية سنة618هـ-1221م إلى فارسكور، ثم قام المصريون بفتح سدود المياه من كل جانب فتدفقت المياه وأغرقت القوات الصليبية، ولم يستطيعوا التقدم خطوة واحدة، فشقوا طريقهم وسط الوحل مرتدين إلي الشاطئ، واستقر رأي القادة الصليبيين على عرض الصلح على المسلمين، ومال الكامل للقبول بالعرض، وفيه أن تسلم دمياط للكامل وأن يسترد الصليبيون رهائنهم ومنهم ملك عكا، وبذلك فشلت **الحملة الصليبية الخامسة.**

ولم تكد تمضي سنوات معدودة حتى شبّ صراع بين **السلطان الكامل** وأخيه **المعظم عيسى** صاحب دمشق، واستعان كل منهما بمن يحقق له الظفر، فاستعان **المعظم عيسى بالسلطان جلال الدين الخوارزمي سلطان الدولة الخوارزمية**، واستنجد **السلطان الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني**، وتعهد له بمنحه بيت المقدس، وجميع فتوحات صلاح الدين بساحل الشام، وقد بادر **الملك المعظم** بتجهيز العساكر لحماية القدس من مطامع الإمبراطور، لكن الموت عجل بالمعظم وخلفه ابنه **الناصر داود،** وانهار التحالف بين **خوارزم شاه والمعظم،** وفي سنة625هـ-1228م بدأ **الإمبراطور فردريك الثاني الحملة الصليبية السادسة** على رأس جيش صغير، فوصلت الحملة لعكا، واحتلت صيدا، وبعد مفاوضات طويلة بين **فريدريك والكامل** توصل الطرفان **لاتفاق يافا** عام 1229م، نصت على: **تُسلم القدس للإمبراطور فريدريك على أن تظل أسوار المدينة وتحصيناتها خرابًا وألا تجدد الأسوار، يأخذ الفرنج بيت لحم والناصرة، ألا يكون للفرنج موطئ قدم خارج مدينة القدس، وأن تظل قرى بيت المقدس في أيدي المسلمين، قرى بيت المقدس والضاحية يديرها والي مسلم، وتكون البيرة مقرًا له، يظل الحرم القدسي بما فيه من المعالم، كالصخرة والمسجد الأقصى، في**

أيدي المسلمين، ويظل شعار الإسلام فيه ظاهرًا، ألا يسمح للفرنج بدخول القدس إلا بغرض الزيارة، يكون المتولون على الأماكن المقدسة من المسلمين، تكون القرى الواقعة على الطريق بين القدس وكل من عكا ويافا تحت إدارة الفرنجة لحماية أرواح الحجاج وضمان سلامتهم، يتعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى لو كان من الفرنج وعدم تقديم أية مساعدة لحكام أنطاكية وطرابلس وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام.

وبموجب اتفاق يافا دخل **فريدريك القدس** واستلمها من **القاضي شمس الدين** سنة636-1229هـ، ودخل **كنيسة القيام**، وتوج نفسه ملكًا علي القدس. بذلك عادت القدس للصليبيين، وقد أنشأ **السلطان الكامل** مدينة جديدة هي **مدينة المنصورة** في الموقع الذي انتصر فيه علي الحملة الصليبية الخامسة.

بعد وفاة ابيه السلطان الكامل ولي **العادل الثاني** حكم مصر؛ مما أدي إلي أن يسعي أخوه الأكبر سنًا **الصالح نجم الدين أيوب؛** لاستعادة حقه في تولي السلطنة، وواتته الفرصة نتيجة سياسة أخيه التي أثارت مشاعر الأمراء عليه فقبضوا عليه واستدعوا الصالح نجم الدين أيوب الذي أصبح سلطانًا علي مصر سنة637هـ-1240م، وقد واجه السلطان الصالح ثورات بعض طوائف الجند، فبدأ في تكوين جيش جديد يخلص له ويطيعه فاشتري آلاف **المماليك والأتراك** الذين هجروا أوطانهم في آسيا الصغرى بسبب غارات المغول واتخذ الصالح أيوب منهم جيشًا نظاميًا، من أبرز آثار الملك الصالح في مصر **قلعة الروضة** التي أقام فيها مع مماليكه، وقد تزوج من جارية أرمنية هي **شجر الدر** والتي كان الخليفة العباسي قد أهداها له.

ووجد **السلطان الصالح أيوب** نفسه مهددًا بحلف صليبي مع أمراء دمشق **الصالح إسماعيل**، والكرك **الناصر داود**، وحمص **المنصور إبراهيم**، عمد الصالح أيوب إلى استدعاء **الخوارزمية** وتحريضهم على مهاجمة دمشق، فما كان من **الصالح إسماعيل** إلا أن استعان بالصليبيين مقابل تعهده لهم بأن **تكون سيطرتهم على بيت المقدس تامة مطلقة**، وقد عبرت **القوات الخوارزمية** حتى وصلوا إلى **مدينة القدس** سنة642هـ-1244م، واقتحموا المدينة وجرى قتال شديد، فاستنجد على أثره الصليبيون بأمير أنطاكية وطرابلس وملك قبرص بحامية

عكا وبحلفائهم من المسلمين في دمشق والأردن، فلم ينجدهم أحد سوى ما قام به **الناصر داود** في توسطه بخروج من يرغب من الصليبيين من القدس إلى الساحل، وبعد أن استولى الخوارزمية على بيت المقدس ساروا إلى الملك الصالح يخبرونه بقدومهم فأمرهم بالإقامة في غزة، وسير إليهم عسكرًا من مصر بقيادة **ركن الدين بيبرس،** فسار إلى غزة وانضم للخوارزمية، وهناك التقى الجيش المصري المتحالف مع الخوارزمية مع جيش حمص ودمشق المتحالف من الصليبيين، واستطاع بيبرس إلحاق الهزيمة بالتحالف الشامي الصليبي، وبعد **معركة غزة** سارع بيبرس للاستيلاء على غزة والساحل، والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار، ثم حاصر دمشق وفيها **الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه** صاحب حمص، وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت دمشق سنة643هـ–1245م، ولكن الخوارزمية انقلبوا على الصالح نجم الدين، بعد أن أقطعهم بلاد الساحل وكانوا يطمعون بدمشق، وأعلنوا الثورة على الصالح، وسارع **الناصر داود والصالح إسماعيل** بالانضمام إليهم، واستطاع **نجم الدين** الحاق الهزيمة بالخوارزميين بالقرب من حمص، وانتهى خطرهم بشكل نهائي.

وقد قامت حملة صليبية جديدة تستهدف مصر، وهي **الحملة الصليبية السابعة،** وكان علي رأسها **ملك فرنسا لويس التاسع،** الذي كان معروفًا بتدينه وتعصبه، استغرق الأوروبيون ثلاث سنوات وهم يعدون للحملة، وقام لويس بتجهيز أسطول كبير لنقل الجنود والعتاد عبر البحر بعد أن قرر استبعاد الطريق البري، واستأجر عدد من السفن حتى وصل قبرص، وخلال هذه الأثناء تسربت أخبار الحملة على مصر، وعلم **السلطان الصالح أيوب** بأن الصليبيين يحتشدون في قبرص، وقدر أنهم سينزلون دمياط كما فعل أسلافهم، فحشد جيشه تجاه المدينة وقرر أن يحارب حربًا لا هوادة فيها. وقد دخل الصلبييون مدينة دمياط سنة 647هـ–1249م دون قتال، ثم انتظر بعد انتهاء شهر يونيو شهر فيضان النيل حتي لا يقع فيما وقعت فيه الحملة الخامسة، وعندما انتهي موسم الفيضان بدأ لويس زحفه إلي القاهرة، وفي تلك الأثناء مات السلطان الصالح في المنصورة سنة 647هـ–1249م.

رابعاً: مرحلة السقوط:

وقد استمرت الحملة الصليبية بعد وفاة الصالح أيوب، واستطاعت **شجر الدر** أن تخبيء نبأ وفاة السلطان، ودارت بين الأيوبيين والصليبيين **معركة المنصورة** بقيادة **لويس التاسع** ملك فرنسا من جهة، **وفارس الدين أقطاي الجمدار وركن الدين بيبرس البندقداري** من

جهة أخرى، وأسفرت المعركة عن هزيمة الصليبيين هزيمة كبرى. قامت **شجر الدر** باستدعاء **توران شاه ابن الصالح أيوب** ليكون السلطان الجديد بعد موت أبيه، وجاء توران مسرعًا، واستلم قيادة البلاد والجيوش فور وصوله وأظهر مقدرة حربية، وبمساعدة **المماليك** وضع خطة عسكرية محكمة لإجبار الصليبيين على التسليم حيث أمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم أعاد تركيبها وإنزالها خلف خطوط الصليبيين؛ مما أدى لوضع الصليبيين في كماشة أدت لهزيمتهم وأسر ملكهم **لويس التاسع**، ورغم من هذا الانتصار العسكري الكبير على الصليبيين إلا إن **توران شاه** كان يمثل تجسيدًا حقيقيًا لانهيار الأيوبيين الصغار، وبدلاً من أن يستغل الظروف الراهنة في توحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تمامًا، اتجه نحو أمراء المماليك وزوجة أبيه **شجر الدر**، وأخذ في التخطيط للقضاء عليهم، فأصدر عدة قرارات صادر بمقتضاها إقطاعات الأمراء وحدد عدة أسماء ووضعها على قائمة التصفية، ووصلت أخبار هذه القائمة للأمراء فقرروا التخلص منه سنة 648هـ-1250م فهجموا عليه في خيمته السلطانية، وضربوه بالسيوف فهرب منهم لكشك خشبي فأحرقوه عليه فهرب منه ورمى نفسه بالنيل فضربوه بالسهام والنبال فقتل جريحًا غريقًا حريقًا، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر وقامت **دولة المماليك**.

خامساً: أنظمة الدولة:

1. النظام السياسي:

كان **السلطان الأيوبى** يطلب من الخليفة العباسي بصفته الرئيس الأعلى لبلاد المسلمين تفويضًا يجعل حكمه في مصر حكمًا شرعيًا، رغم أن سلطان الأيوبيين على البلاد التي تحت أيديهم كان سلطانًا مطلقًا، ولم تكن للخلافة العباسية عليه أية نفوذ، ولكن سلاطين الدولة الأيوبية حرصوا على الحصول على هذا التفويض دومًا، وكان **الناصر صلاح الدين أول مَنْ اتشح بخلعة الخليفة العباسي من سلاطين مصر الأيوبيين. يُعدُّ صلاح الدين أول مَنْ اتخذ لقب السلطنة من حكام مصر**، وقد حصل على لقب **سلطان**، ولقب **محي دولة أمير المؤمنين** لأعماله الجليلة التي قام بها في نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الإسماعيلي الشيعي، ونجاحه في مناهضة الصليبيين وصدهم عن بلاد المسلمين. واتخذ صلاح الدين من لقب **السلطان الملك الناصر** لقبًا للتعامل، رغم حصوله على ألقاب عديدة تحمل في طياتها

معانى العظمة والأبهة والجاه، مثل: **السيد العالم العادل المظفر المنصور، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك،** إسكندر **الزمان، صاحب القبلتين، خادم الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين،** كانت هذه الألقاب تبين عظمة ما بلغه سلاطين الدولة الأيوبية، خاصة أن لكل لقب من هذه الألقاب موقفًا عظيمًا وحادثًا جللا خاضه السلطان فمُنح اللقب على إثره. دُوِّنت الألقاب في الرسائل التي تُبودلت بين السلاطين وملوك أوروبا، وفي الكتابات التاريخية، وعلى السكة والعمائر، والتحف الفنية، وفهارس دار الآثار العربية.

وكان السلطان يقيم مع أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في **قلعة الجبل**، وهو **رئيس الدولة الأعلى** الذي له الحق في الهيمنة على شئون الأمراء الخاصة والعامة، وفي تدرجهم الوظيفي، وفي توزيع الإقطاعات والجنود عليهم وتحديد أنصبتهم، وكان على السلطان تعيين موظفى الدولة وعزلهم، وتأديبهم والنظر في المظالم وقيادة الجيوش في الحروب.

وكان **للدولة الأيوبية مجلس شورى** تُقَرُّ من خلاله مشروعات الدولة الحيوية كإعلان حرب أو إبرام صلح أو إصلاح لهيكل من هياكل الدولة، وكان هذا المجلس يُسمَّى: **مجلس السلطنة**، وكان أعضاؤه من كبار موظفى الدولة للاستئناس بآرائهم ومشورتهم قبل الإقدام على تنفيذ المشروعات والخطط، ويتولى **أمير المجلس** الذي يشبه منصبه **منصب كبير الأمناء** الآن الأمور الخاصة بمجلس السلطنة، وله حق التصرف في شئون البرتوكول، كما كان يتمتع بالجلوس في حضرة السلطان بحكم هذه الوظيفة.

ونيابة السلطنة وظيفة استحدثها السلاطين الأيوبيون لأول مرة في التاريخ الإسلامي، واستمرت قائمة بعد ذلك حتى نهاية عصر المماليك، فأصبح **النائب كأنه سلطان ثاني، ويشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة، وتوزيع الإقطاعات، وتعيين الموظفين، وتوقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين، والخروج على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية، يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان، وكان يُلقّب بكامل المملكة الشريفة الإسلامية، لأن من اختصاصاته تصريف أمور الدولة عامة سواء أكان السلطان بالقاهرة أم كان متغيبًا عنها.**

كما اتخذ سلاطين الدولة الأيوبية في مصر **وزراء** لم يحددوا سلطتهم، ولم يجعلوها مقصورة على التنفيذ، بل جعلوها سلطة مطلقة، فأصبحت الوزارة أعلى الوظائف وأرفعها،

وأصبح صاحبها باب الملك المقصود، ولسانه الناطق، ويده المعطاءة، وبلغ من استئثار بعض خلفاء صلاح الدين بالسلطنة أن استغنوا أحيانًا عن وظيفة الوزير، بالإضافة لوظيفة الوزير وجدت وظائف سامية في الدولة الأيوبية منها: **وظيفة الحاجب:** ومهمته **إدخال الناس على السلطان،** ووظيفة **الاستادار: ويفوض إليه النظر في إدارة البيوت السلطانية،** ووظيفة **الداودار:** ويقوم **بإبلاغ الرسائل إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية،** ووظيفة **الناظر الخاص:** وهو **المكلف بالشؤون المالية للسلطان.**

أما الجهاز الإداري فقد اعتمد على مجموعة من **الدواوين** على رأس كل منها موظف كبير يسمى **ناظرًا أو رئيس،** ومن أهم الدواوين الأيوبية: **ديوان الجيش، ديوان الأسطول، ديوان المالية، ديوان الانشاء، ديوان الأحباس.** ويتبع **ديوان الانشاء إدارة البريد** التي احتل أصحابها مركزًا مرموقًا في هذا العصر. كان لكل ديوان عدد من الموظفين يتبعون الرئيس وينفذون أوامره، بالإضافة لعدد آخر من الوظائف الإدارية، مثل: **والي القاهرة، والي الفسطاط.**

2. النظام القضائي:

وقد افتتح **الناصر صلاح الدين** سنة564هـ، مدرستين لتدريس الفقه، وجعل إحداهما لتدريس **الفقه الشافعي،** وجعل الأخرى **للفقه المالكي،** وفصل جميع القضاة الشيعة، وعين بدلاً منهم قضاة من **الشافعية،** فاقتصر **القضاء** على **مذهب الإمام الشافعي،** وكان من يتولى **منصب القضاء في القاهرة** وسائر أعمال الديار المصرية في عهد الأيوبيين قاضٍ واحد هو بمثابة **قاضي القضاة،** وله حق إنابة نواب عنه في بعض الأقاليم. وكان للقاضي في عهد الأيوبيين أعوان يساعدونه على العدل في الحكم وإعادة الحقوق إلى أصحابها، فكان منهم **الجلواز** الذي **يستعين به القاضي على تنظيم قاعة الجلسة، وحفظ النظام، وترتيب الخصوم وفق ترتيب حضورهم، ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم، ومراعاة الآداب في مجلس القضاء،** ومنهم **الأعوان ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة، والقيام بين يدي القاضي عند نظره في الخصومات إجلالاً لمركزه،** ومنهم **الأمناء** ومهمتهم **حفظ أموال اليتامى والغائبين،** ومنهم **العدول** ومهمتهم **مراعاة دقة عبارات السجلات والعقود ومطابقتها للشرع، وتزكية الشهود.**

3. النظام الاقتصادي:

كانت الدولة الأيوبية إحدى الدول القوية ذات الاقتصاد القوي، فقد امتلكت ما تركه الفاطميون عقب سقوط دولتهم، ونظمت الخراج والجزية، بالإضافة إلى غنائم حروبها وفدية الأسرى، واستخدمت هذه الموارد لصالح البلاد الإسلامية كافة، وأنفقت على تسليح الجيش وإعداده جزءًا كبيرًا منها، وبنت القلاع والحصون، وقامت بالإصلاحات الداخلية في البلاد.

وقد غَيَّر **الناصر صلاح الدين** النظام الاقتصادي الذي كان سائدًا قبله، وقلل من النظام الإقطاعي، فقضى بذلك على استقلال أمراء الإقطاعات، وقوّى الحكومة المركزية، فكان لهذا أثره الكبير في ازدهار حالة البلاد الاقتصادية. أولى الأيوبيون **الزراعة** عنايتهم، فهي عماد حياة البلاد، فطهّروا الترع، وأقاموا الجسور، ونظموا وسائل الري، لدرجة أن **السلطان الكامل** كان يراقب المهندسين بنفسه أثناء إقامتهم السدود والخزانات، وغير ذلك من أعمال الرى الخاصة، فنشطت الزراعة دون أن تؤثر الحروب عليها، فقد كانت حروب الأيوبيين تتوقف في سوريا شتاءً، وهو موسم الزراعة في مصر.

وقد نشطت **التجارة** كما ازدهرت الزراعة في العصر الأيوبى، وأصبحت مصر آنذاك همزة الوصل بين تجارة الشرق والغرب، وعقد **السلطان العادل** معاهدة تجارية مع **البندقية** سنة605هـ–1208م، وحصل البنادقة بمقتضاها على تسهيلات تجارية في الموانى المصرية، خاصة الإسكندرية، في مقابل أن يمنعوا الصليبيين من التقدم نحو مصر، فلما ولي **السلطان الكامل** حكم البلاد أقر ما اتفق عليه السلطان العادل مع أهل البندقية، وسمح لهم بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية، سُمِّيت **سوق الأيك**، ومنح الامتيازات نفسها لأهل **بيزا** الذين أرسلوا قنصلا لهم إلى الإسكندرية، فأدت هذه الخطوات إلى ازدهار التجارة وانتعاش الاقتصاد، وزيادة دخل الدولة.

واقتصرت **الصناعة** في العصر الأيوبي على إنتاج البلاد من المواد الخام، والتي كانت في أغلبها زراعية، أما عدا ذلك من المواد المستوردة فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدية والحريرية التي كانت تعتمد على الحرير الشامي الخام. يعد **النسيج** من أهم صناعات مصر في ذلك العصر، حتى أن أنواعًا معينة أحرزت شهرة عالمية مثل **قماش الفستان**، واحتلت المنسوجات الكتانية مكانة مرموقة بسبب وفرة الكتان، وازدهار المنسوجات الحريرية الموشاة بالذهب، كما اشتهرت صناعة الأقمشة الصوفية، كما ازدهرت في القاهرة صناعة

الحفر على الخشب، ومن الصناعات التي راجت في العصر الأيوبي صناعة الورق، وصناعة الزجاج، وصناعة المعادن والفسيفساء.

لقد مرت مصر بانتكاسة اقتصادية في **عهد العادل** نتيجة انخفاض مياه نهر النيل الذي ترتب عليه قلة الزراعة، فحدثت **المجاعة واشتد القحط**، وبذل العادل جهودًا كبيرة لمواجهة هذه الأزمة، فكان يخرج بنفسه أثناء الليل ويوزع الأموال على الفقراء والمساكين والغرباء، ولكن الموقف ازداد سوءًا وتفاقم خطره حين وقع زلزال مروِّع وقت المجاعة هدم كثيرًا من المبانى، وأزهق أرواحًا لا تُحصَى في مصر والشام، ولكن الأوضاع سرعان ماعادت إلى طبيعتها بعد زيادة مياه النيل سنة601هـ–1204م، فزادت الغلال وخفت المجاعة، وانتهى أمر النكبة بعد أن تكاتف الجميع للقضاء عليها وإعادة الاقتصاد إلى سابق عهده.

ولم يطرأ تغيير كبير على **النظام المالي** الذي كان سائدًا في مصر منذ العصر العباسي، فبقيت إيرادات الدولة الرئيسية تنقسم إلى قسمين، **الخراجي:** وهو **مايدفعه المزارع من ضريبة سنوية مفروضة على الأرض التي يقوم بفلاحتها والتي تزرع حبوبًا ونخلًا وعنبًا وفاكهة،** وقد أدخل **صلاح الدين** ما يسمى **بالبدل** في جميع الخراج، **أي أن يؤدي الخراج عينًا فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الحمص بدلًا من القمح، والهلالي: وهو ما يؤخذ من الضرائب على الكلأ وما يصطاد من السمك وكان يعرف الهلالي بالمرافق والمعاون.**

وقد توسعت الضرائب المستندة من **الخراجي والهلالي** لتشمل أنواعًا عديدة منها: **الأحكار:** وهي **عبارة عن الأجرة المتحصلة من مساحة الأراضي، وضريبة الغروس:** وهي **الأماكن التي تقع بالاقطاعات ولا تصل إليها المياه واراد بعض الأفراد استئجارها لقاء مبلغ معلوم، والضريبة على الجهات التي توافر فيها أشجار السنط، فيدفع أهالي تلك المناطق مبلغًا من المال مقابل انتفاعهم بأخشابها، والمعادن:** فقد **تقرر مصادرتها ولا تباع إلا في المتاجر السلطانية بالإسكندرية.** ومن الموارد المالية ضرائب أخرى **كالجوالي:** وهي **ضريبة مفروضة على أهل الذمة، وأموال المواريث، متحصلات ديوان الأوقاف،** والضريبة **المفروضة على التجار الأجانب القادمين إلى مصر، وضريبة المكوس المفروضة على الحجاج،** ولكن صلاح الدين رفعها أما سخط الناس.

4. النظام العسكري:

أ. الجيش:

لقد أسهمت **الحملة الشامية النورية** في نشوء **الجيش الأيوبي** سواءً في عهد **وزارة شيركوه وصلاح الدين**، وقد تطورت وتوسعت قدرات الجيش إلى حد كبير بعد القضاء على الدولة الفاطمية، وبعد سيطرة صلاح الدين على بلاد الشام كسب تأييد بقايا الجيش النوري في دمشق، واستطاع أن يخلق منه جيشاً شاميًا تابعًا له يلازمه في تحركاته، وبهذا صارت لصلاح الدين قوتان: **قوة مصرية احتياطية** لجيش الشام يستخدمها لدى الحاجة الشديدة إليا وللدفاع عن مصر ضد عدوان خارجي محتمل، وهذه القوة هي امتداد للجيش النوري القادم من الشام تحت قيادة شيركوه، والذي كان قوامه ثمانية آلاف فارس وآلاف أخرى من المشاة، ثم انضمت إليها جماعات حتى تضاعف حجمها، ثم **قوة أخرى شامية** تحت تصرفه المباشر، وهي التي ترافقه في تحركاته العسكرية، وكان مركزها دمشق، وضمت هذه القوة بالدرجة الأولى قوات جيش نورالدين محمود.

وقد شكل **صلاح الدين** جيشه من **المماليك الأسدية** القدماء، وسائره من **الأحرار الأكراد** الذين دخلوا مصر في حملة شيركوه الثالثة، فضلاً عن **المماليك الأتراك** الذين اشتراهم لنفسه وسماهم **الصلاحية** نسبة إلى اسمه وعهد بقيادتهم إلى **الأمير أبي الهجاء**، وصار **الصلاحية والأسدية الحرس الخاص لصلاح الدين.**

وتنقسم تشكيلات الجيش الأيوبي إلى **ثلاث فئات، الفئة الأولى: تتألف من الترك والأكراد والتركمان، وكانوا يحصلون على رواتبهم كاملة،** والفئة الثانية: **تتألف من الكنانية والعساقة الذين هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان في يد الصليبيين، وانضم إليهم من ماثلهم من الأجناد القادمين من خارج مصر، وهؤلاء يحصلون على نصف الراتب، والفئة الثالثة: تتألف من الجند الذين يخدمون في الإسطول البحري، ولا يحصلون إلا على ربع الراتب.** ويُضاف إلى هذه الفئات الثلاث **فرقة من المتطوعين التركمان، والأكراد، والعرب،** وكانوا بمثابة **جند غير نظاميين، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور.**

وقد أنشأ **صلاح الدين ديوانًا للجيش،** وجعله مسؤولاً عن الشؤون الخاصة بالجيش، فكان هذا الديوان بمثابة **وزارة الدفاع** في وقتنا الحاضر. واتخذ صلاح الدين عدة خطوات اصلاحية لتدعيم جيشه، منها لجأ إلى تعميم نظام الاقطاع الحربي، أي أنه صار لكل من كبار

الأمراء والقادة إقطاع مقابل ما يقدمونه من العساكر، وقد سمي الديوان الذي يشرف على شؤون الجيش **بديوان الاقطاع**، وهذا يدل على مدى اعتماد التنظيم العسكري الأيوبي على النظام الاقطاعي، ولم يكن هذا الاقطاع وراثيًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، إلا أنه كان يحدث أن يورث الأمير اقطاعيته لابنه الأكبر الراشد، وإذا كان ابنه قاصرًا رتب له السلطان معه رجلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر، ويكون هذا الرجل بمثابة أتابكًا له، ولم يشمل الإقطاع كافة الأمراء بل كان يشمل الذين عرفوا بشجاعتهم ونكايتهم بالعدو، وتخلص صلاح الدين بشكل كبير ممن تبقى من جند الفاطميين الذيم دخلوا جيشه، فبعث بهم إلى أقصى بلاد الصعيد. أعاد صلاح الدين تنظيم جيشه عدة مرات، حيث أن الجيش الأيوبي لم يبق على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبي، فبعد انتهاء مرحلة الجهاد ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة، سرح صلاح الدين أكثر من نصف العساكر المصرية، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام **السلطان الكامل** عندما وقعت الحملة الصليبية الخامسة، لم يستخد صلاح الدين كل الجيش في حملاته على الشام، لأنه كان مقتنعًا بخطر الصليبيين الداهم لمصر، فاضطر إلى الاستغناء عن نصف الجيش وابقائه داخل البلاد، كانت المرة الوحيدة التي أرسل فيها قسم كبير من جيشه في مصر إلى الشام أثناء حملته على الرملة وما أصابه من هزيمة قاسية.

ب. البحرية:

وعند قيام الدولة الأيوبية كان الأسطول المصري في حالة من الضعف والعجز نتيجة ما تعرض له من الهدم والضرب في أواخر العصر الفاطمي جراء هجمات الأساطيل الصليبية المتكررة على سوحل بلاد الشام، وقد أدرك **صلاح الدين** هذا الانهيار منذ بداية حملته الأولى على مصر وحصار الصليبيين للإسكندرية وما ترتب عليه من تقهقر قواته داخل المدينة. فلقد اهتم **صلاح الدين** بالأسطول البحري فأنشأ له ديوانًا خاصًا للإنفاق عليه باسم **ديوان الأسطول،** وخصص للديوان موارد هامة منها متحصلات إقليم الفيوم، وإيراد **ديوان الزكاة،** وتولى ديوان الأسطول الإنفاق على المشتغلين بالأسطول وعلى النفقة على دور الصناعات حيث كانت تصنع السفن في مصر، كما كان في الإسكندرية **ديوان سُمي بالمتجر السلطاني،** عمله شراء البضائع المستوردة التي تحتاجها الدولة لأغراض عسكرية، ولا سيما في بناء السفن.

كما عمل صلاح الدين على تحسين أحوال رجال الأسطول، فرفع أجورهم لتشجيع الناس على الخدمة بالأسطول، ثم لجأ إلى جمع الموارد الازمة ببناء السفن، فاحتكر غابات

أشجار السنط، واعتبرها كأنها معادن ليس لأحد فيها ملك واختصاص فهي لبيت المال، ولم يكتفي صلاح الدين بالخشب المحلي في مصر، بل استعان بأخشاب الصنوبر التي استوردها من جبال الشام، فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من بعض المناطق القريبة من بيروت، كما عقد معاهدات تجارية مع حكومات إيطاليا (البندقية، وبيزا، وجنوى) حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع، وبفضل هذه الامكانات أصبح الأسطول الأيوبي قوة كبيرة مزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها 150 رجلاً وتصلح في حالات الهجوم والدفاع، وعشرون طرادة وهي سفن الحركة.

وقسم **صلاح الدين الأسطول** لقسمين، **الأول:** يتألف من **ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطيء مصر والدفاع عنها**، و**الثاني: يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام.**

كما أرفق الأيوبيون اهتمامهم بالأسطول بتقوية أجهزة الدفاع والحراسات الساحلية **كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر المعتمدة على طول سواحل مصر والشام**

أما **السفن** التي استعملت في عصر الدولة الأيوبية فهي: **الطريدة:** وكانت خاصة بحمل الخيل، وقد امتازت بكبر حجمها بحيث تستطيع أن تحمل أربعين فرسًا، وهي تختلف عن الطرادة التي كانت صغيرة الحجم سريعة الجريان، **الشيني:** وهي من السفن الكبيرة التي استعملت لحمل المقاتلين، بلغت سعتها حوالي مئة وأربعين مجدافًا، **البسطة:** وهي ضرب من المراكب الحربية الكبيرة، تتسع لزهاء 700 جندي، وقد لعبت هذه السفن دورًا كبيرًا في الحروب مع الصليبيين، **الحراقة:** استعمل هذا النوع من السفن في النقل، وهي سفينة متوسطة تتسع لحوالي مئة جندي، **المسطح:** نوع كبير من المراكب ذات طابقين مسقوفين يقاتل الجنود على ظهرها والجدافون يجدفون من تحتها، **الحمالة:** وهي من السفن الخاصة بحمل المؤونة، **البركوس:** وهي من السفن الصغيرة، ومهمتها الأساسية نقل المياه، **الشلندي:** مركب حربي مهمته نقل المقاتلة والأسلحة.

بعد أن أتم صلاح الدين استعداداته الحربية، بدأ الأسطول بعملياته البحرية، فتوغل المسلمون في البحر حتى وصلوا إلى أطراف بيزنطة، وإلى قبرص، وكريت والسواحل الجنوبية لآسيا الوسطى، كما قام بعمليات ناجحة ضد الصليبيين بساحل الشام، وقد ازدادت فعالية الأسطول البحري بعد **معركة حطين**، فساعد في الاستيلاء على بعض الموانيء الهامة

في بلاد الشام مثل عكا التي رابطت عندها قوة بحرية اسلامية مؤلفة من عشر سفن لمراقبة المسالك المؤدية لفلسطين، وبعد وفاة صلاح الدين كان موقف خلفائه مناقضًا لنهجه في إدارة الأسطول، فضعف وأُهمل، وأصبحت مصر عاجزة عن مقاومة حملات الصليبيين المتكررة.

سادساً: المظاهر الاجتماعية والثقافية:

1. الحياة الدينية:

عمدت الدولة الأيوبية إلى القضاء على المذهب الشيعي، ومحو أثره وتدعيم ونشر المذهب السني في كافة أنحاء البلاد، وكانت السياسة التعليمية التي لجأ إليها الفاطميين؛ لنشر الدعوة لمذهبهم في مصر وما رافقه من تعذيب وتفكيك.

وقد أخذ **صلاح الدين** منذ أن ولي مصر للخليفة **الفاطمي العاضد** بالعمل على نشر المذهب السني، فأنشأ عددًا من المدارس السنية، وقد تجلت ظاهرة التصوف والإكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم **الخوانق،** كما اهتم صلاح الدين بجذب العلماء وكذلك جذب الصوفية فأنشأ **أول خانقاه للصوفية في مصر** وجعلها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ووقف عليهم أوقافًا جليلة، وولى عليهم شيخًا يدبر أمورهم عرف **بشيخ الشيوخ**.

وكانت لسياسة صلاح الدين وخلفائه مع المتصوفين الأثر الكبير في تشجيع كثرة الزوايا والربط اللتين اجتذبتا حولهما الأتباع والمريدين، في المقابل كان لكثرة الإقبال على التصوف في العصر الأيوبي بعد ازدياد عدد الوافدين على مصر من زعماء المتصوفة ومشايخهم وبخاصة من المغرب العربي الذين أشاعوا حياة الزهد والتقشف، قد ترك أثرًا خطيرًا في المجتمع المصري نتيجة زيادة العاطلين عن العمل، والذي انعكس سلبًا على الحياة الاقتصادية في الدولة الأيوبية.

وكانت سياسة صلاح الدين واضحة بالتسامح مع النصارى الشرقيين، ويعود ذلك إلى أن النصارى سهلوا له مهمة فتح بيت المقدس، وذلك بإلحاحهم على الصليبيين بأن يسلموا المدينة، لمّا كان عددهم يفوق عدد الصليبيين تمكنوا من تحقيق رغبتهم. ورافق صلاح الدين في حملته لبيت المقدس عدد كبير من الأقباط، ودخلوا معه القدس كَكُتاب وكعمال مهرة. وبعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين منحهم ديرًا ملاصقًا للقبر المقدس بالقدس وهو المعروف

باسم **دير السلطان**، مكافئة لمواقفهم النبيلة معه ضد الصليبيين، كما أعاد الأقباط إلى وظائفهم العليا في الدولة، واسترد آخرون أموالهم وممتلكاتهم التي سلبت منهم أيام سقوط الدولة الفاطمية، واختار صلاح الدين قبطيًا هو **صفي الدولة بن أبي المعالي** الملقب **بابن شرقي** ككاتب خاص له. كانت أحوال الأقباط في أيام الدولة الايوبية رغم ما تخللها من صعوبات أفضل من غيرها من الدول، حيث شارك المسيحيون العرب في إدارة الدولة الايوبية، ومن أبرزهم: **أبو سعيد بن أبي اليمن بن النحال وزير العدل، والأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل صاحب ديوان الملك الصالح، والطبيب علم الدين أبو النصر جرجس، وأبو الفرج بن ميخائيل رئيس ديوان الملك العادل، وابن المصوف أمين أموال الحكومة في ايام صلاح الدين** وغيرهم.

وأثناء **الحملة الصليبية الثالثة** ظل اليهود مقيمين في عسقلان وذلك لأنها لم تتعرض للإبادة مثل نظيرتها من المدن، أما القدس فلم يُسمح لليهود خلال هذه الفترة التي أعقبت تأسيس مملكة بيت المقدس إلا بأربع عائلات فقط للسُكنى في المدينة المقدسة.

وقد أظهر **الملك بلدوين الأول** تقاربًا مع اليهود كرعايا، فسمح لهم بدخول المدينة المقدسة، أما بالنسبة لباقي مدن الشام فقد تناقص عدد اليهود بشكل عام خوفًا من المذابح والقتل. وعُومل اليهود معاملة حسنة ومارسوا أثناء الحكم الصليبي لبلاد المسلمين مهنة الصباغة وصناعة الزجاج وامتلك اليهود سفنًا بخارية والتزم اليهود بدفع الضريبة للحكم الصليبي، وقد استفاد اليهود من الأوضاع السائدة في القرن الثاني عشر الميلادي، وأصبحت العلاقات بين الجالية اليهودية والنظام الصليبي إيجابية؛ مما سهل عمليات الهجرة اليهودية وتسهيل عمليات الحج، بقيت القدس المدينة الوحيدة المحرمة على اليهود حتى عام 1178م، وعندما دخل صلاح الدين المدينة وسمح لهم بدخولها، واصل خلفاء صلاح الدين نفس السياسة مع اليهود إلى أن سياسة التسامح لم تمنع صلاح الدين من تحويل المعابد اليهودية إلى مساجد على أساس أنها كانت في الأصل مساجد فقام الصليبيون بتدميرها. وبقى اليهود في القدس حتى جاء عام 1244م حين تم تحرير المدينة المقدسة على يد **الخوارزمين والصالح نجم الدين أيوب**، حيث تم إعفاؤهم من الضرائب.

وكان لليهود دور في مواجهة الحروب الصليبية، حيث تشير الروايات إلى أن السيوف الصليبية لم تفرق بين المسلمين والمسيحيين واليهود العرب في مجزرة بيت المقدس، فقد كانت

النظرة الصليبية الدينية تجاه الفريقين على أساس تكفر المسلميين واليهود باعتبارهم أعداء المسيح.

كما أقر الأيوبيون للدروز بمكانتهم كأمراء حرب على جبل لبنان لمقاومتهم عن المشرق الإسلامي أمام غزو الفرنجة، حيث كان للمقاتلين العرب الدروز وجود ملموس في معركة حطين، فأراد صلاح الدين أن يكافئهم على ذلك مكافأة رمزية، فأوكل لهم خدمة وإدارة شؤون مقام النبي شعيب المجاور لسهل حطين الذي جرت عليه المعركة. ولم تقتصر مشاركة الدروز في معركة حطين فقط بل شاركوا في العديد من المواجهات الرئيسية والثانوية ضد الصليبيين، وعندما تقدم صلاح الدين لتحرير المدن التي يحتلها الصليبيون على الساحل.

2. **الحياة العلمية والفكرية**:

ورغم أن السلاطين الأيوبيين كان همهم الجهاد والكفاح ضد الصليبيين، إلا أنهم اهتموا بالعلم والعلماء، فالملك **المعظم عيسى** صاحب دمشق من شدة رغبته في الأدب وأهله اشترط لكل من يحفظ كتاب **المفصل للزمخشري** مئة دينار وخلعة، والمؤرخ **أبو الفداء** هو **إسماعيل بن علي عماد الدين** صاحب حماة. وإلى جانب الملوك والأمراء برزت طبقة من الوزراء والكتاب الذين ساهموا مساهمة فاعلة في الحياة العلمية في ذلك العصر، ومنهم: **القاضي الفاضل أبو علي محي الدين اللخمي** وزير **صلاح الدين** وصاحب الطريقة الفاضلة في الإنشاء، وكتب عددًا ضخمًا من الرسائل، **وعماد الدين الأصفهاني** الكاتب والمؤرخ الذي عينه صلاح الدين نائبًا عن القاضي الفاضل، واشتهر بمؤلفاته الأدبية **خريدة القصر وخريدة العصر والفتح القسي في الفتح القدس والبرق الشامي**، والأمير **أسامة بن منقذ** أحد أمراء بني منقذ أصحاب حصن شيرز، الذي ألف **كتاب الاعتبار** المتضمن لدراسة مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة، **وابن شداد** صاحب كتاب **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، والأديب **ضياء الدين بن الأثير** وزير **الملك الأفضل بن صلاح الدين**، والمؤرخ **ابن الأثير** صاحب كتاب الكامل في التاريخ، والمؤرخ الدمشقي **أبو شامة** صاحب كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، وما وقع من الحروب الصليبية، والقاضي **ابن خلكان** صاحب كتاب **وفيات الأعيان**، والمؤرخ **جمال الدين بن واصل الحموي** صاحب كتاب **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، وغيرهم.

وقد شهد العصر الأيوبي ازدهارًا في **علم اللغة**، ومن أبرز من برعوا في هذا العلم **محمد بن بري، وأبو الفتح البلطي، وابن عبد المعطي الزواوي، وابن الحاجب**، أما **الشعر** فقد طغى عليه طابع الجهاد والكفاح، وأصبحت أغلب القصائد الشعرية في جميع أنحاء الشرق العربي تشيد بالانتصارات وأعمال البطولة، ومن أشهر شعراء العصر الأيوبي الشاعر المصري **ابن سيناء** صاحب كتاب **دار الطرز، وابن شمس الخلافة.**

وقد أظهر سلاطين بني أيوب عناية كبيرة في اقتناء الكتب شملت المنطق، والفلسفة، والهندسة، والفلك، والموسيقى، والطب، بالإضافة إلى الكتب الدينية، فالملك **المؤيد مسعود بن صلاح الدين** صاحب اليمن كان مغرمًا باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبته على آلاف الكتب، والمكتبة التي عني بها **السلطان الكامل** بالقلعة كانت في الأصل تؤلف مكتبة **القاضي الفاضل،** ثم عني بها ابنه **الأشرف أحمد** حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة سنة 626هـ-1229م، لتصبح نواة مكتبة كبيرة ضمت ثمانية وستين ألف مجلد.

لقد زادت عدد **المدارس** زمن الأيوبيين، حتى أصبح بالقاهرة حوالي ثلاثة عشر مدرسة، والواقع أن الأيوبيين لم يبتكروا نظام المدارس، وإنما يعود الفضل في ذلك للسلاجقة الذين استحدثوا هذا النظام لنشر المذهب السني ومكافحة الفكر الشيعي، وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد، وكان **نظام الملك** وزير السلطان السلجوقي **ملكشاه أول من أسس مدرسة في بغداد.**

إن صلاح الدين قصد من إنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعي، وعن كثرة مدارس القاهرة، ومن أهم المدارس التي أنشئت زمن الأيوبيين، هي: **المدرسة الناصرية** أو الشريفية أنشأها **صلاح الدين الايوبي** سنة 566هـ-1170م، ووقفها على **المذهب الشافعي،** وكانت أول مدرسة أنشئت بديار مصر تحت اشراف الدولة، وأول من درس بها الفقيه **ابن زين التجار، والمدرسة القمحية:** أنشأها صلاح الدين ووقفها على **المذهب المالكي،** ووقف عليها ضيعة بالفيوم كانت تدر قمحًا كثيرًا يوزع على طلابها وعلى العالمين بها، ولذلك سميت بالمدرسة القميحة. **والمدرسة القطبية:** أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بالقاهرة، ومدرسة ابن الارسوقي: أنشأها التاجر العسقلاني ابن الأرسوقي بالقسطاط. **والمدرسة السيوفية:** أنشأها صلاح الدين سنة 572هـ-1176م، ووقفها على **المذهب الحنفي، والمدرسة الصلاحية أو مدرسة الخيوشاني، ومدرسة المشهد،** و**المدرسة الفاضلية:** أنشأها القاضي الفاضل عبد

الرحيم بن على البيساني بالقاهرة ووقفها على مذهبي الشافعية والمالكية، وجعل لها مكتبة ضخمة قوامها حوالي مائة ألف مجلد. **والمدرسة العادلية:** أنشأها **الملك العادل**، ووقفها على **المذهب المالكي. والمدرسة الأزكشية، والمدرسة الغزنوية، والمدرسة القطبية، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الفائزية، والمدرسة الصاحبية، والمدرسة الكاملية:** وكانت تعرف **بدار الحديث**، أنشأها **الملك الكامل، والمدرسة الفخرية، والمدرسة الصالحية:** أنشأها **الملك الصالح نجم الدين أيوب** سنة640هـ-1243م، ووقفها **على المذاهب الأربعة**، وهو **أول من عمل بديار مصر دروسًا أربعة في مكان واحد،** وبلغت جملة المدارس المعروفة بمصر القديمة والقاهرة في العصر الأيوبي أربعًا وعشرين مدرسة، ومن المظاهر الهامة ما لوحظ بمصر من قلة المدارس الحنبلية وكثرة المدارس التي يجري بها تدريس المذاهب الثلاثة عكس ما كان جاريًا في دمشق.

وكانت المدارس في العصر الأيوبي أشبه ماتكون بجامعات، فبعد أن كانت تدرس فيها العلوم الدينية، أصبحت مع الأيام تدرس العلوم اللغوية التي اشتملت على النحو واللغة والبيان والأدب، بالإضافة للفلسفة والعلوم الطبيعية. لم يكن يعين بالمدرسة أول الأمر إلا مدرس واحد يختار من مشايخ علماء عصره، ثم صار يعين أكثر من مدرس في المدارس الكبيرة، ففي **المدرسة المالكية** بالقاهرة والتي كانت تعرف بالقمحية، عين صلاح الدين أربعة **مدرسين** وجعل كلاً منهم يقوم بالتدريس لعشرين طالبًا. ويساعد المدرس عادة **معيد،** وهو أقل مرتبة من المدرس، وأعظم درجة من عامة الطلبة، وظيفته إعادة الدرس الذي ألقاه عليه المدرس، وقلّ أن خلت مدرسة من معيد في جميع مدارس العصر الأيوبي، أما طريقة التدريس فاعتمدت عادة على الإلقاء والتلقين، وباللإضافة للمدارس ذات التعليم العالي، كما وجدت في العصر الأيوبي **كتاتيب** لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم.

3. الحياة الاجتماعية:

لم تعرف الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي حياة البذخ والترف على غرار ما كان في العصر الفاطمي. وتميز صلاح الدين بالبعد عن التلهي والشغف بالحياة، ومما يُروى عن صلاح الدين أنه عندما ولى ابنه الظاهر حلب، عمل وتلهى وشُغف بالمُلك وأحبه، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه حسن الخدمة، فعزله عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل، كما طلب منه **الملك العادل** أن يكتب له اقطاع حلب كتابًا

ككتاب البيع والشراء، فامتنع صلاح الدين وقال له: "**أظننت أن البلاد تُباع، أو ما علِمت أن البلاد لأهلها المُرابطين بها، ونحن خزنة المسلمين ومراعاة للدين وحراس لأموالهم**".

وقد اهتم الأيوبيون في إحياء الأعياد الدينية، مثل **عيد الفطر وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبي ﷺ، وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه،** ولكن من غير اسراف، وبدون تهتك ومع مراعاة للجانب الاقتصادي. ولكن أسرف بعض خلفاء صلاح الدين أحياناً في مد الأسمطة وإحياء بعض الحفلات، ومن ذلك ما اشتهر به **العزيز** من إقامة الأسمطة الكبرى لأعيان دولته بين حين وآخر، كما أن **السلطان الكامل** أقام سمطًا بمناسبة ختان ابنه **العادل الصغير** وانفق في سبيل ذلك أموالاً باهضة، كما أقام **السلطان العادل الصغير** سمطًا في الميدان الأسود تحت القلعة، ذبح فيه ألف رأس من الغنم، فضلاً عن البقر والجاموس والإبل، في المقابل قام **صلاح الدين** في بدايات حكمه لمصر **بإلغاء الاحتفال بيوم عاشوراء.**

ومثّل العصر الأيوبي اهتمامًا بالغًا بالعمران والبناء، فقد أنشأ صلاح الدين في سلطنته الكثير من الكليات والمستشفيات والمدارس المجانية، ولا يكاد يفتح مدينة حتى يؤسس فيها المعاهد والمرافق، ويبني الجسور والترع.

وقد فرض الجهاد وسائل معينة للتسلية في المجتمع الأيوبي وخاصةً المجتمع الشامي مثل الخروج للصيد، إذ كان الأيوبيون يهتمون بصيد الحيوانات وفق ترتيب كأنه ترتيب الحرب، ومارسوا رياضة الرمي بالبندق التي انتقلت إليهم من العراق، كما مارسوا لعبة الكرة والصولجان التي مارسها السلطان صلاح الدين بشغف، على الرغم من أن الفقهاء لم ينظروا إليها بارتياح، كما حظيت رياضة الفروسية باهتمام الملوك والسلاطين.

سابعاً: العمارة والآثار:

لقد ازدهر في العصر الأيوبي عنصران من عناصر العمارة الإسلامية، **الأول: المدارس** التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي، **الثاني:** ت**طور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع** بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين، فقد أمر **صلاح الدين** سنة 1167م ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط)، وبتشييد قلعة الجبل وجعل الأشراف على هذا البناء للأمير **بهاء الدين قراقوش**، وجلبت مواد البناء

من بعض أهرام الجيزة وساعد في العمل ألوف من أسرى الفرنج، وقد أضيف إلى القلعة بعد صلاح الدين أجزاء كثيرة كما حدث فيها تعديل غير بعض معالمها الأولى.

ومن العمائر التي ترجع إلى العصر الأيوبي **قبة الأمام الشافعي** التي أنشأها سنة 1211م **الملك الكامل محمد**، كذلك **المدرسة الصالحية** التي أنشأها **الملك الصالح نجم الدين أيوب** سنة 1242م ولم يبق منها الآن إلا جزء صغير، كذلك **إيوان الثعالبة**، وتعتبر **قبة شجرة الدر** كذلك من الآثار الأيوبية.

وتركزت حركة العمارة **بفلسطين** في العهد الأيوبي بالقدس، والخليل، وعليه فإن العمارة الأيوبية قليلة جدًا في المناطق والمدن الساحلية من فلسطين، واقتصر عملهم في تلك المناطق الداخلية والساحلية على تحويل العمائر القائمة إلى مساجد أوبيمارستان وغيرها.

ولكن هذا لم يمنع أحيانًا من إقامة **رباطات عسكرية** في المناطق الساحلية مثل رباطات: **غزة وميماس وعسقلان وأسدود ويافا**، ففي هذا العصر تركز الاهتمام على الإنفاق على القضايا العسكرية التي تخدم المعركة.

وبُنيت عمائر هذا العصر وفق مخطط مربع غير منتظم تتوسطها فسحة سماوية طولانية تحيط بها الغرف من ثلاثة أو أربعة جهات، وجعلت في طابقين وأقيم درج في إحدى زوايا هذه الفسحة السماوية، كانت الأساسات والجدران غالبا من الحجر، وتتصل بعضها ببعض بواسطة ملاط مؤلف من الكلس، والرمل، وكانت الجدران تورق وتطلى بطلاء أبيض. كانت البيوت الأيوبية خالية من الزخارف، ويمكن القول إن العمارة في هذا العصر تشترك مع عمارة سائر بلاد الشام في أنها تحمل الطابع الإسلامي وهي متعددة الأغراض فلم تقتصر على بناء المساجد التي تُرى شواهدها في القدس والرملة والخليل، بل تعدتها إلى كثير من المباني كالمدارس والبيمارستانات وغيرها، ومن أهم شواهد هذه العمارة: **جامع النبي يونس** في بلدة **حلحول** الذي بناه **الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي**، وتجديد **جامع الخليل الحرم الإبراهيمي الشريف**، وتجديد عمارة **الجامع الأبيض**، وقيام صلاح الدين الأيوبي ببناء **جامع نابلس الكبير**.

وقد شهدت الشام في العهد الأيوبي حركة عمرانية نشطة، تجلّت في توسيع المدن وتجديد أسوارها، وتشييد العديد من الحصون والقلاع، وتزويد الطرق العامة بالخانات

كمحطات للقوافل، وامتلأت المدن بالمباني العامة كالمساجد والمدارس والخانقاهات والبيمارستانات والحمامات والقيساريات والخانات والترب الفخمة المزودة بالقباب.

كان يغلب على المباني الأيوبية طابع البساطة والتقشف من حيث الزخرفة بسبب حالة الحرب، ولكنها تميزت بالمتانة والقوة وإتقان التصميم والاعتماد على مادة الحجر، وإتقان نحته واستخدامه بمقاييس كبيرة، كذلك حدث تطور ملحوظ على العمارة العسكرية، حيث فاقت الأبراج والأسوار بحجمها وارتفاعها ومتانتها كل ما هو معروف من قبل ومن بعد، نجد ذلك في قلعتي حلب ودمشق بشكل خاص، وامتزجت بالعناصر المحلية التراثية، فأصبحت فناءاتُها المزودة ببركة مستطيلة أو مضلعة، محاطةً بالأواوين في عدد من الجهات.

ورغم طابع التقشف، فقد ارتقت فنون النقش على الخشب والجص، وتخلّف عنها نماذجُ رائعة، وكاللوحات الجصية التي تشاهد في العديد من مباني دمشق الأيوبية، وفي قمة الإنجاز الزخرفي محراب مدرسة الفردوس في حلب المصنوع من الرخام الملون المتشابك الأشكال، الذي يعتبر من أندر محاريب العالم الإسلامي.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم علي طرخان: **مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة**، القاهرة1960م.
2. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولي1987م.
3. ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2 1982م.
4. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة،القاهرة 1963م.
5. حكيم أمين عبد السيد: **قيام دولة المماليك الثانية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة1966م.
6. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت1979م.
7. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت1398هـ = 1978م.
8. سعيد عبد الفتاح عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية،القاهرة، ط1،1965م.
9. السيد الباز العريني: **مصر في عصر الأيوبيين**، القاهرة1960م.
10. أبو شامة: **الروضتين في أخبار الدولتين**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة1962م.
11. الطبري: **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
12. ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
13. القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.
14. ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة1987م.
15. الكندي: **الولاة والقضاء**، نشر رفن جست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت1908م.
16. محمد جمال الدين سرور: **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق**، دار الفكر العربي، القاهرة1957م.
17. محمد عبد الله عنان: **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ = 1959م.
18. محمد كرد علي: **خطط الشام**، دمشق،1925م.
19. المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: زيادة، وعاشور، القاهرة 1956م.
20. النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، تواريخ مختلفة.
21. ابن واصل الحموي: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق الشيال، القاهرة 1953م.
22. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت1979م.

الفصل السادس

دولة المماليك

(648-923هـ)

الفصل السادس

دولة المماليك (648-923هـ)

الدَّولَةُ المَملُوكيَّةُ أو السّلطَنَةُ المَملُوكِيّةُ هي إحدى الدُول الإسلاميَّة التي قامت في مصر أواخر العصر العباسي الثالث، وامتدَّت حُدُودها لاحقًا لِتشمل الشام، والحجاز، ودام مُلكُها مُنذُ سُقُوط **الدولة الأيوبية سنة 1250م**، حتّى بلغت سيطرة **الدولة العثمانية** على الشام ومصر بقيادة **السلطان سليم الأول**، وهزيمة المماليك في **معركة الريدانية** سنة 923هـ–1517م.

ويُقسم المُؤرخون الدولة المملوكيَّة إلى فرعين أو دولتين هُما: دولة المماليك البحرية، ودولة المماليك البرجية، وحكمت دولة المماليك البحرية من سنة 648هـ–1250م حتى سنة 784هـ–1382م، وكان أكثرهُم من الأتراك، والمغول، أما حكم المماليك البُرجيَّة فاستمر من سنة784هـ–1382م حتى سنة 923هـ–1517م، وكانوا من الشركس.

والمماليك أُصُولهم رقيقٌ مُحاربين، استقدمهم الخلفاء العباسيين الأوائل من تركستان، والقوقاز وغيرها وجعلوهم حُرَّاسًا لهم وقادةً لِجُيُوش المُسلمين، وقد ازداد نُفُوذ المماليك بِمُرور الزمن حتّى أصبحوا يُهيمنون على الخِلافة وعلى مركز صناعة القرار، مُستفيدين من ضعف الخُلفاء وتراجُع نُفوذهم. وحذا السلاطين والأُمراء المُسلمين حُذو الخِلافة في بغداد، فكان لِكُلٍ منهم جماعةً من المماليك الأشدَّاء والكفوئين عسكريًّا، ومن هؤلاء السلاطين الأيُّوبيين الذين حكموا مصر والشّام تحت الرَّاية العبَّاسيّة.

ولمَّا مات آخر سلاطين بني أيُّوب، وهو **الملك الصالح نجم الدين أيوب** سنة 647هـ–1249م، كتمت زوجته **شجر الدر** نبأ موته إلى أن حضر ابنه **توران شاه** من الجزيرة الفراتية إلى القاهرة، وحاول **توران شاه** أن يُقدِّم مماليكه الذين اصطحبهم معه من الجزيرة، فعيّنهم في مناصب الدولة، فما كان من المماليك القُدماء في مصر إلا أن ائتمروا به وقتلوه، ثُمّ نصّبوا شجر الدُّر سُلطانة عليهم سنة 1250م، وهي **أوّل امرأة وُلّيت شُؤون المُسلمين.**

وقد ظهر المماليك بِمظهر مُنقذي العالم الإسلامي من الضياع والزوال بعد **سقوط بغداد** عاصمة **الدولة العبّاسيّة والخِلافة الإسلاميّة** في يد **المغول** بِقيادة **هولاكو خان**، ومقتل آخر خُلفاء بني العبّاس **المستعصم بالله**.

فقد سار **المغول** لِغزو الشَام وهدّدوا **مصر** بِمصيرٍ مُشابه لِمصير بغداد كي لا تقوم لِلإسلام قائمة بعد ذلك، فأرسل سُلطانُ المماليك **سيف الدين قطز** جيشًا عرمرميًّا إلى فلسطين؛ لِصدِّ التقدُّم المغولي وحماية قلب الديار الإسلاميّة، فهزم المُسلمون المغول في **معركة عين جالوت** بشمال فلسطين سنة1260م، وردُّوهم على أعقابهم.

وقد ورث **المماليك** عن **الأيُّوبيين** تصميمهم على مُحاربة **الصليبيين** وإجلائهم عن المشرق، لِذلك ما كادوا يفرغون من مُحاربة المغول حتّى انصرفوا إلى مُحاربة الصليبيين، فقد تابع **الملك الظاهر بيبرس** مسيرة الجهاد ضدّ **الصليبيين**، فهاجمهم بعد انتصاره على المغول، فصارت مُدنهم وقلاعهم تسقط واحدة بعد الأُخرى في يد المُسلمين، فقد استعاد بيبرس الكرك، وقيسارية، وصفد، ويافا، وجبيل، ثم استعاد **إمارة أنطاكية** عام1268م، وزالت إمارتها الصليبية، ثم جاء السُلطان **سيف الدين قلاوون** يُكمل عمل سلفه بيبرس، فاسترجع **قلعة المرقب** سنة 1281م، وطرابلس، ثم توفي السلطان قلاوون سنة1290م، وهو يُهيِّء حملة لاسترجاع **عكا**، فقام بهذه المُهمّة بعده ابنه **الملك الأشرف صلاح الدين خليل**، الذي حرر مدينة عكا سنة1291م؛ مما أثار القلق والذُعر الشديدين في نُفُوسهم، فجلوا عن المُدن الأُخرى الباقية في أيديهم، وركبوا البحر عائدين إلى بلادهم، لِتنتهي بِذلك الحُرُوب الصليبيّة بعد أن استمرّت مائة وأربعًا وتسعين سنة. أعاد المماليك **إحياء الخِلافة العبّاسيّة** في مصر بعد سُقُوط بغداد، لكنها كانت خِلافة صوريّة هدف السلاطين المماليك إلى جعلها سندًا لِسلطنتهم ودعمًا روحيًّا لها يجعلها مهيبة الجانب.

يُعدُّ عهد المماليك بداية دور الانحطاط في تاريخ الحضارة الإسلامية، حيث بدأت الحضارة الإسلاميّة في تلك الفترة تتراجع شيئًا فشيئًا، وقد اشتهر بعضُ سلاطين المماليك بِتشجيع العلم وتكريم العُلماء وبِإنفاق المال بِسخاء على تأسيس المدارس وإنشاء المكتبات.

كما ساءت الحالة الاقتصاديّة في الدولة المملوكيّة خِلال أواخر العهد البُرجي بِسبب حالة القلق وعدم الاستقرار الناجمة عن الفتن الداخليّة والانقلابات، وعن الحُرُوب الكثيرة التي شنّها المماليك ضدّ المغول والصليبيين وغيرهم، وبسبب توقُّف حركة التجارة مع أوروبا؛

بِسبب مشاعر الخوف والكراهيَّة وعدم الثقة التي خلَّفتها الحُروب الصليبيَّة بين الأوربيين والمُسلمين، وكذلك بِسبب انتشار المجاعة والأوبئة وخُصُوصًا وباء **الطاعون** الذي فتك في سنة 1348-1349م بِأكثر من مليون شخص، وأخيرًا بِسبب روح الطمع والأنانيَّة التي سيطرت على عددٍ كبيرٍ من سلاطين المماليك وجعلتهم يُوجهون سياسة الدولة الاقتصاديَّة وفقًا لِمصالحهم الشخصيَّة. فكان ذلك من العوامل المُساعدة التي ساهمت بِتسريع سُقُوط الدولة في يد العُثمانيين، وتطلُّع الشعب في الشّام ومصر إلى هؤلاء كمُنقذين.

أولاً: أصل المماليك:

المملوك، جمعه مماليك، هو العبد الذي سُبي ولم يُملك أبواه، والعبدُ القن هو الذي مُلك هو وأبواه، والمملوك عبد يُباع ويُشترى، ولم تلبث التسمية أن اتخذت مدلولاً اصطلاحيًّا خاصًّا في التاريخ الإسلامي، إذ اقتصرت، مُنذُ عهد الخليفة العبّاسي **المأمون** (198-218هـ)، ثم **المعتصم بالله** (218-227هـ) على فئة من الرقيق الأبيض، كان الخُلفاء وكبار القادة والوُلاة في الدولة العباسية، يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرقٍ عسكريَّةٍ خاصَّة، بِهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نُفوذهم.

وقد أضحى المملوك، مع مُرُور الوقت، **الأداة العسكريَّة الوحيدة** في بعض الدُول الإسلاميَّة. وكان مصدرهم، آنذاك، بلاد ما وراء النهر، واشتهرت مُدن عدة منها سمرقند، وفرغانة...إلخ، بأنها المصادر الرئيسيَّة لِتصدير الرقيق الأبيض ذوي الأُصُول التُركيَّة، وتمّ ذلك بإحدى الطُرق الثلاث: الشراء أو الأسر في الحُرُوب أو الهدايا التي كان يُؤديها وُلاة أقاليم بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة.

وكان **الخليفة المُعتصم بالله هو أوّل خليفة اعتمد، بشكلٍ أساسيٍّ، على العُنصر التُركي**، نظرًا لِمقدرتهم القتاليَّة المُميزة، حتّى أضحى الحرس التُركي يمثِّلُ دعامةً من دعائم الخِلافة أيَّام حُكمه، فاقتناهم مُنذُ أن كان أميرًا. فكان يُرسلُ سنويًّا من يشتري له منهم، حتّى اجتمع لهُ في أيَّام **المأمون** زهاء ثلاثة آلاف، ثُمَّ تولّى الخِلافة في ظل ظُروفٍ من الصراع العنيف بين العرب من ناحية، والفرس من ناحيةٍ أُخرى بِالإضافة إلى اختلالٍ في التوازنات بين العناصر التي تكوّنت منها دولة الخِلافة العبّاسيَّة.

فلم يثق المُعتصم بِالفُرس نظرًا لِسُوء العلاقة بينهم وبين بني العبّاس مُنذُ انتقال **المأمون** من مرو إلى بغداد، واستحالة التوفيق بين مصالح الطرفين، ولم يثق بِالعرب أيضًا نظرًا لِكثرة تقلُّبهم واضطرابهم وقيامهم ضدّ الخُلفاء، بِالإضافة إلى أنّ هؤلاء فقدوا كثيرًا من مُقوِّمات قُوَّتهم العسكريَّة والسياسيَّة في ذلك الوقت.

وكان **الخليفة المُعتصم** يُوكِّل أمر سلامته الشخصيَّة إلى فرقة من **العُنصُر التُركي**، فاستكثر من شراء التُرك بِهدف الحد من النُفُوذين العربي والفارسي، حتّى بلغت عدَّتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل ثمانية عشر ألفًا، وخصَّهم بِالنُفُوذ، وقلّدهم قيادة الجُيُوش، ومكّنهم في الأرض، وجعل لهم مركزًا مُتفوقًا في مجال السياسة.

وسُرعان ما نمت قُوَّتهم، فأخذوا يتدخّلون في شؤون الخِلافة، حتّى أمست دولة الخِلافة العبّاسيّة في أيديهم، يفعلون ما يُريدون، يعزلون خليفة ويُولّون آخر، حتّى أنّ بعض الخُلفاء قُتلوا نتيجة مُؤامراتهم. وقد أضحى العُنصر التُركي رُكنًا هامًّا في المُجتمع الإسلامي مُنذُ العصر العبّاسي الثاني (232-334هـ)، فقامت الدُويلات المُستقلّة ذات الأُصُول التُركيّة والفارسيّة في كنف دولة الخِلافة العبّاسيّة بعد أن دبّ فيها الضُعف، وغدا التُرك وسيلة الخُلفاء لِلقضاء على هذه الحركات الاستقلاليّة، خاصّةً عُمّال ووُلاة الأطراف الذين استقلّوا بِولاياتهم.

ثانياً: المماليك في مصر:

ويرجعُ استخدام **المماليك** في جيش ولاية مصر إلى **العهد الطولوني**، عندما عيّن الخليفة العبّاسي **المعتمد على الله**، **أحمد بن طولون** التُركيّ الأصل، واليًا على الديار المصريّة سنة263هـ-877م، فطمع بن طولون بالاستقلال بها بعد أن أضحت جميع أعمالها الإداريّة والقضائيّة والعسكريّة والماليّة بيده.

وحتّى يُحقق **أحمد بن طولون** رغبته بِالاستقلال في حُكم مصر؛ رأى أن يدعم سُلطته بِجيشٍ مملوكيٍّ من التُرك من بني جنسه بِالإضافة إلى العُنصر الديلمي، وقد بلغ تعداد هذا الجيش ما يزيد عن أربعةٍ وعشرين ألف غُلامٍ تُركيٍّ. ومُنذُ ذلك الوقت، أضحى جُندُ مصر ووُلاتها من المماليك التُرك، ولمّا توسّعت حُدود **الدولة الطولونيّة** لِتشمل الشام، أضحى حالُ جُند الشّام كحال جُند مصر.

وقد نهجت **الدولة الإخشيدية**، التي خلفت الدولة الطولونيّة في حُكم مصر، نهج هذه الدولة الأخيرة في الاعتماد على المماليك. وقد بلغ تعداد مماليك **محمد بن طغج الإخشيد**، مُؤسس الدولة الإخشيديّة، نحو ثمانية آلاف مملوكٍ من التُرك والديلم، وقيل أنّهُ كان ينام بِحراسة ألف مملوك. ولمّا استولى الفاطميون على مصر سنة358هـ-969م، اعتمد خُلفائهم الأوائل، مُنذُ **المعز لدين الله** على عدّة عناصر تُركيّة، وزنجية، وبربرية، وصقلبية، كما استخدم **العزيز** التُرك في الوظائف العامّة والقياديّة في الدولة، وفضّلهم على غيرهم من العرقيّات الأُخرى، فولّى مملوكه «**منجوتكين**» التُركي قيادة الجيش، كما ولاه الشّام، وكان نُفُوذُ المماليك التُرك يتزايد أو يتناقص وفق توجُّه كُل خليفةٍ فاطميٍّ على حدى، ففي عهد **الحاكم بأمر الله** تراجع نُفوذهم لِحساب **الزُنج**، ثُمّ نشطوا مرّة أُخرى في عهد **الظاهر لإعزاز**

دين الله الذي جعل قيادة الجُيُوش في يد المملوك التُركيّ الأصل منصور **أنوشتكين**. وقد ولاه الظاهر دمشق سنة419هـ-1028م، كما اهتمّ الفاطميُّون بِتربية صغار مماليكهم وفق نظامٍ خاص، وهم أوّل من وضع نظامًا منهجيًّا في تربية المماليك في مصر.

وبعد سقوط الدولة الفاطميّة في مصر سنة567هـ-1171م، وقيام الدولة الأيوبية على أنقاضها، فُتحت صفحة جديدة بين المشرق الإسلامي والمماليك معًا، فقد كان الأيُوبيين، أكراد أصلاً، وقد تربُّوا ونمت سُلالتهم في أحضان الدولة السلجوقية التُركيّة ومماليكها، فنقلوا عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التُركيّة المشرقيّة، وكان الأيُّوبيين يُربُّون مماليكهم على أساس **النظام الإسلامي المملوكي- الساماني** الذي وضعهُ الوزير السُلجُوقي **نظام المُلك** وفصله في كتابه «**سياسة نامه**»، ثُمّ يتم إدخالهم في خدمة القُصُور السُلطانيّة والدوائر الحُكُوميّة، ولمّا توجّه القائد **أسد الدين شيركوه**، إلى مصر لِنُصرة آخر الخُلفاء الفاطميين **العاضد لدين الله**، ولِلحيلولة دون احتلال البلاد من قِبل الصليبيين، كان غالبيّة جيشه يتألّف من المماليك **الترك القفجاق** الذين سُمُّوا بـ«**المماليك الأسديّة**» نسبةً له، أي **أسدُ الدين**، وبعد وفاة **أسد الدين**، وقفت **المماليك الأسديّة** إلى جانب ابن أخيه **صلاح الدين الأيوبي** وناصروه حتّى تولّى الوزارة في مصر، الذي أنشأ بدوره لِنفسه جيشًا خاصًا عماده ال**مماليك الأسديّة والأحرار الأكراد**، بِالإضافة إلى **المماليك التُرك** الذين اشتراهم لِنفسه وسمّاهم «**الصلاحيّة**» أو «**الناصريّة**»، كما كان لأخيه **الملك العادل** طائفةٌ من المماليك سمّاهم «**العادليّة**».

وقد اشتركت فئات المماليك **الأسديّة والصلاحيّة والعادليّة** في مُختلف المعارك التي خاضها صلاحُ الدين ضدّ الأُمراء المُسلمين بِهدف تحقيق الوحدة الإسلاميّة وضدّ الصليبيين بِهدف طردهم من ديار الإسلام. والواقع أنّ المماليك بلغوا في هذه المرحلة مبلغًا من القُوّة؛ ممّا دفع صلاح الدين إلى استشارتهم والنُزُول عند إرادتهم في كثيرٍ من الأحيان.

وقد ازداد عددهم في مصر والشّام بعد وفاة صلاح الدين سنة589هـ-1193م بِشكلٍ مُلفت، وبرزوا على أثر اشتداد التنافس والصراع بين ورثته من أبنائه وإخوته وأبناء إخوته الذين اقتسموا فيما بينهم الإرث الأيّوبي، ومع تنامي قُوّة المماليك نتيجة كثرة اعتماد الأُمراء الأيُّوبيين عليهم، أخذوا يتدخّلون في خلع هؤلاء الأُمراء والسلاطين وفي تنصيبهم.

ثالثاً: انتقال الحُكم من الأيوبيين إلى المماليك:

بعد وفاة الملك الكامل سنة635هـ-1238م عارض مماليكه ما جرى من تنصيب ابنه الأصغر **سيف الدين أبو بكر**، فتحالفوا مع **المماليك الأشرفيّة** بِزعامة **عز الدين أيبك**، وتآمروا على خلع أبي بكر سنة637هـ-1240م، وهزموا من ناصرهُ من الكُرد، وبعد ذلك فرض **المماليك الكامليّة** (مماليك الملك الكامل ناصر الدين) -وكانوا الأقوى على الساحة السياسيّة- رغبتهم على الأشرفيّة بِتنصيب **نجم الدين أيوب**، فاستُدعي من **حصن كيفا** في الجزيرة الفُراتيّة لِتولِّي السُلطة في مصر التي دخلها سنة638هـ-1240م، وجلس على العرش وتلقّب **بالملك الصّالح**، وكانت قضيّة تنصيب الملك الصّالح سابقةً في تاريخ مصر والإسلام، إذ قام المماليك لأول مرّة بِدورٍ سياسيٍّ ضاغطٍ، فأضحوا الأداة لِلسلاطين الأيُّوبيين لِلاحتفاظ بِسُلطانهم وتفوّقهم؛ ممّا أدّى إلى تضخّم نُفُوذهم السياسي، وازدادوا شُعُوراً بِأهميّتهم.

وقد أدرك **الصّالح أيُّوب** أهميّة المماليك لِلاستمرار في الحُكم؛ مما دفعهُ إلى الإكثار من شرائهم إلى درجةٍ لم يبلغْها غيره من الأمراء الأيوبيين حتّى أضحى مُعظم جيشه منهم، واعتنى بِتربيتهم تربيةً خاصّةً ثُمّ جعلهم بطانته وحرسه الخاص.

وقد استغل **المماليك الصالحيّة** سطوتهم في مُضايقة الناس والعبث بِمُمتلكاتهم وأرزاقهم، حتّى ضجّ الشعب من عبثهم واعتداءاتهم، فرأى **الصّالح أيُّوب** أن يُبعدهم عن العاصمة، واختار **جزيرة الروضة في النيل** لِتكون مقراً له، فانتقل إليها مع حاشيته ومماليكه الذين بنى لهم قلعة خاصّة أسكنهم بها، فعُرفُوا مُنذُ ذلك الحين بِـ"**المماليك البحريّة الصالحية**".

وقد تعرّضت مصر أواخرَ أيّامِ **الصّالح أيُّوب** لغزوٍ صليبيٍّ كبير بِقيادة **لويس التاسع ملك فرنسا** قائد **الحملة الصليبية السابعة**، ففي سنة647هـ-1249م، نزل الصليبيُّون برّ **مدينة دمياط**، واحتلُّوها بِسُهولة بعد انسحاب حاميتها وهروب أهلها منها. وتُوفي في تلك الفترة الحرجة **الصّالح أيُّوب** بعدما اشتدّ عليه المرض، فأخفت زوجته **شجر الدر** موته خشية تضعضع الأوضاع، وأرسلت تدعو ابنه الوحيد **توران شاه** من **حصن كيفا** لِلقُدوم إلى مصر على عجلٍ لِيتولّى الحُكم، وقد علم الصليبيُّون بوفاة الصّالح أيُّوب رُغم كُل الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدُّر لإخفاء الأمر، فاتخذوها فُرصةً لِتوجيه ضربةٍ قاضيةٍ لِلمُسلمين قبلما يفيقوا من هول الصدمة، فزحفوا من دُمياط نحو المنصورة.

وقد أمسك **المماليك** بزمام الأُمُور بقيادة **فارس الدين أقطاي الجمدار** الذي أصبح القائد العام لِلجيش **(أتابك العسكر)**، ووضع أحد أبرز قادتهم **بيبرس البندقداري** خطّة عسكريّةً مُحكمةً كفلت النصر على الصليبيين، وفي تلك الأثناء وصل **توران شاه** إلى مصر وتسلّم مقاليد الأُمُور، وأعدَّ خطّةً أُخرى ضمنت النصر النهائي على الصليبيين في قرية **فارسكو**، فهُزم هؤلاء هزيمةً كُبرى وفَنيَ جيشهم على يد المماليك، ووقع **لويس التاسع** نفسهُ في الأسر، وقتل أخاه في المعركة. وقد انتهت الحملة الصليبيّة على مصر بِفضل جُهُود المماليك.

وقد اشتهر السُلطان الجديد **توران شاه** بِأنّهُ شخصيّة عابثة، واتّصف بِسُوء الخلق والتصرُّف والجهل بِشُؤون الحُكم والسياسة، فبعد انتصاره على الصليبيين ازداد غُروره وتناسى ما أبلاه مماليك أبيه من صد الصليبيين، فلم يُقدِّر ثمن هذا النصر، كما لم يُقدِّر جُهودهم في الحفاظ على نظام الحُكم كي يُؤمِّنوا العرش له. ويبدو أن **توران شاه** فقد ثقته بهم بعد انتصاره على الصليبيين عندما شعر بِأنَّ لهُ من القُوَّة ما يكفي لِأن يملأ الوظائف الحُكُوميّة بِمماليكه الذين اصطحبهم معه من الجزيرة الفُراتيّة، ولمّا احتجَّ عليه **المماليك البحرية** ردَّ عليهم بِالتهديد والوعيد، ثُمَّ أعرض عنهم، وأبعدهم عن المناصب الكُبرى، وجرّدهم من مظاهر السُلطة وأخيراً أمر باعتقالهم.

كما تنكّر توران شاه **لشجر الدر** التي حفظت لهُ مُلكه، فاتهمها بِأنها أخفت ثروة أبيه، وطالبها بِهذا المال، وهدّدها، حتّى داخلها منه خوفٌ شديد ما حملها على بث شكواها إلى **المماليك البحريّة** الذين يُخلصون لها باعتبارها زوجة أُستاذهم.

كان **توران شاه**، بِالإضافة إلى ضعف شخصيّته وسُلوكه السيِّء، تأثّر بِآراء مماليكه الذين قدموا معه من حصن كيفا، وأثاروا ضغينته على **المماليكِ البحريّةِ وشجرِ الدُّر**، وحثُّوه على التخلُّص منهم حتّى يتفرّد أستاذهم بِالحكم وينفردوا هم بالحظوة لدى السلطان ومعاونته في إدارة شُؤون الدولة؛ ونتيجةً لِهذه السياسة حنق **المماليك البحريّة** عليه، وتخوّفوا من نواياه، واستقرَّ رأيهم على قتله قبل أن يبطش بهم وساندتهم **شجر الدُّر** التي باتت تخشى على نفسها من غدره.

وتزعّم المُؤمراة مجموعةٌ من قادة الجند من الأُمراء البحريّة منهم **فارس الدين أقطاي الجمدار، و بيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي الألفي، وأيبك التركماني**، ونُفذت المُؤامرة سنة648هـ–1250م، وكان السُلطان آنذاك **بِفارسكور** يحتفل بانتصاره ويتهيّأ

لاستعادة دُمياط، فاقتحم بيبرس خيمته، وتقدَّم نحوه وضربه بِسيفه فقُطعت بعض أصابعه، فهرب إلى كشكٍ خشبيٍّ حتّى يحتمي به، فتعقّبه المماليك وأحرقوه عليه، فهرب منه ورمى نفسه في النيل، فضربوه بِالسِّهام من كُلِّ ناحيةٍ، فحاول أن يلتمس الرحمة لكنَّ المماليك لم يستجيبوا له، وقفز عليه بيبرس وقتله بِسيفه، فمات جريحاً غريقًا حريقاً، وبمقتله سقطت دولة الأيوبيين بمصر، وقامت دولة المماليك.

رابعاً: عصر المماليك البحرية [648 - 784 هـ = 1250 - 1382 م].

لقد أضحى المماليك، بعد مقتل **توران شاه**، أصحاب الحل والعقد في مصر، وكان من الطبيعي أن يطمع كُل أميرٍ منهم في تبُّوء عرش السلطنة الشّاغر، كما وُجد على الساحة السياسيَّة المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيُّون خارج مصر، والرّاجح أنهم استاءوا من إقدام المماليك على قتل أحد مُلوكهم واستئثارهم بِالسُلطة، ومن الطبيعي أن يرى كُلٌّ منهم في نفسه الشرعيَّة لأن يلي السلطنة بعد **توران شاه.**

وقد قرَّر المماليك حل المُشكلة الناجمة عن شغُور العرش، فاختاروا **شجر الدُّر** لِتولِّي السلطنة، ومن أبرز العوامل التي دفعتهم إلى اختيارها كان **رجاحة عقلها واطلاعها على الأُمور الهامَّة في الدولة**، حيثُ كانت **تُشارك زوجها الراحل الصَّالح أيُّوب في إدارة أُمور السلطنة**، وكانت من أصلٍ أرميني أو تُركيّ، اشتراها **الصَّالح أيُّوب**، وحظيت عنده، فأعتقها وتزوجها؛ لِذلك هي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، وقد بُويعت السُلطانة الجديدة سنة648هـ-1250م، وحلفت لها العساكر باعتبارها **سُلطانة**، كما عُهد المماليك إلى **عز الدين أيبك**، وهو أحد الأُمراء الصالحيَّة، **بِأتابكيَّة العسكر**، فكان لها بِمثابة الشريك.

1. **تصفية الموقف مع الصليبيين في مصر:**

بعد أن قبضت شجر الدُّر على زمام الأُمُور في مصر بِقُوَّة، واشتهرت بِحُسن السياسة. فلمَّا استقرَّت في الحُكم أنعمت على الأُمراء بِالوظائف السُنيَّة، وأقطعت المماليك البحريَّة الإقطاعات الكبيرة، وأغدقت الأموال على الجُند، حتّى أرضت الكبير والصغير منهم، وكانت فاتحة أعمال السُلطانة الجديدة، إنهاء المُفاوضات التي بدأت مع الصليبيين على عهد توران شاه، الذين ما زالوا يحتلُّون دُمياط، والإشراف على رحيلهم، فعلى الرُغم من أنَّ الملك الفرنسي كان أسيرًا في يد المُسلمين في المنصورة، لكنَّ دُمياط ظلّت قاعدة بحريَّة في قبضة

الصليبيين؛ ممّا يُشكِّل تهديدًا مُباشرًا لِمصر بِحال تحرّك الصليبيين، وإرسال حملة صليبيّة أُخرى إليها. لِذلك أخذت تسعى لِحلِّ هذه المُعضلة، بعد أن استقرّت الأُمور لها في الداخل.

وقد استؤنفت المُفاوضات بين الجانبين، وفيها فرض المُسلمين شُروطهم على الصليبيين الذين كانوا في وضعٍ حرج لا يسمح لهم بِالمُناورة، فاشترطوا عليهم ما يلي: **إعادة مدينة دُمياط إلى المُسلمين، وإطلاق سراح الأسرى، والتعهُّد بِعدم مُهاجمة السواحل الإسلاميّة مرّة أُخرى، وأن يدفع الملك الفرنسي مبلغ خُمسُمائة ألف دينار مُقابل إخلاء سبيله وسبيل الأسرى الصليبيين وتعويضًا عمّا أحدثهُ الصليبيُّون في دُمياط من النهب والدمار، وأن يدفع الملك الفرنسي نصف المبلغ قبل إطلاق سراحه والنصف الثاني بعد مُغادرته مصر ووُصوله إلى عكا، كما تعهّد المُسلمون، من جانبهم، بِرعاية مرضى الصليبيين في دُمياط والمُحافظة على معدّاتهم إلى أن تحين الفُرصة لِأخذها، وحُدِّدت مُدّة المُعاهدة بِعشر سنوات،** عُرفت باسم **اتفاقية فارسكو**.

وقد أحدثت **اتفاقية فارسكو** خلافات داخليّة بين المماليك بِشأن الإفراج عن الملك الفرنسي أو الاحتفاظ به. إذ بعد أن وضع المُسلمون يدهم على دُمياط، أخذوا يتداولون في مسألة الإبقاء عليه وعلى الأسرى الصليبيين، وقد انقسموا إلى فريقين: **فريق رأى تنفيذ بُنُود الاتفاقيّة المعقودة مع الصليبيين، وعدم نكث العُهُود**، وعلى رأسه **السُلطانة شجر الدُّر والأتابك عز الدين أيبك**، وساندهُما بعض **المماليك الصالحيّة**، **وفريقٌ** رأى **أنّ من مصلحة المُسلمين الاحتفاظ بِالملك الفرنسي وعدم إطلاق سراحه لاطلاعه على عورات المُسلمين ومشاكلهم فيما بينهم، ولِمركزه الديني الكبير في أوروبا**، وكان على رأس هذا الفريق **فارس الدين أقطاي**. وقد انتضرت وجهة نظر الفريق الأوّل انتصرت في النهاية، وهكذا أُخلي سبيل الملك الفرنسي **لويس التاسع** وأُمرائه وعدد كبير من بارونات الصليبيين، وكبار فُرسانهم، بعد دفع نصف الفدية. أمّا بقيّة الأسرى فقد ظلُّوا في الأسر حتّى يُدفع كامل المبلغ المُتفق عليه، وقد أبحر **الملك لويس التاسع** وأتباعه إلى عكّا، وبِذلك انتهت الحملة الصليبية السابعة على مصر، وضُربت البشائر وأُقيمت الأفراح في كافّة أرجاء ديار الإسلام ابتهاجًا بِهذا النصر.

2. الصراع مع الأيوبيين:

وبعد أن نجحت في تصفية الحملة الصليبيّة السابعة،واستعادت دُمياط؛ عملت **شجر الدُّر** على تدعيم مركزها الداخلي، فأخذت تتقرّب من الخاصّة والعامّة، وتعمل على إرضائهم

بِشتّى الوسائل، فخلعت على الأُمراء والعساكر وأرباب الدولة، وأنفقت عليهم الهبات والأموال، وأنعمت عليهم بِالرُّتب والمناصب العالية ومنحتهم الإقطاعات الواسعة، تقديرًا لِما أبدوه من ضُروب الشجاعة في طرد الصليبيين، كما خفّفت الضرائب عن الرعيّة لِتستميل قُلوبهم. غير أنّ كُل ذلك لم يُساهم في تدعيم مركزها الداخلي، إذ لم يتقبّل الناس وُجود امرأة في السلطنة، إذ لم يعتد المُسلمون في تاريخهمأ ن يُسلِّموا زمام أُمورهم لإمرأة.

وقد حاولت **شجر الدُّر** التقرُّب من **الخِلافة العبَّاسيّة** لِتدعيم مركزها وتُضيف الصفة الشرعيّة على حُكمها، فكانت تحرص على التمسُّك بِلقب «**المُستعصميّة**» إشارةً إلى صلتها بِالخليفة العبَّاسي المستعصم بالله؛ لكنّ ذلك لم يُفيدها شيئًا، إذ قامت المُظاهرات في القاهرة، وحدثت اضطرابات عديدة مُناهضة لِحُكمها، بعد أن اتهمها المُعارضون بِالتساهل مع الصليبيين، وحمّلوها مسؤوليّة إطلاق سراح الملك الفرنسي **لويس التاسع** الذي ما أن أُطلق سراحه وعاد إلى عكّا حتّى واصل نشاطه الصليبي ضدّ المُسلمين في الشّام.

وقد مال **عُلماءُ الدين** إلى هذه الحركة المُعارضة، حتّى أن **شيخ الإسلام العز بن عبد السلام**، وهو أكبر عُلماء المُسلمين في ذلك الوقت، كتب كتابًا حول ما قد يُصيب المُسلمين نتيجة توليتهم لإمرأة، وكان الأمراء الأيُّوبيُّون الشوام في مُقدِّمة المُعارضين لِلنظام الجديد، كما رفض **المماليك** في الشام أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة لِلسُلطانة الجديدة، وخضعت مُدن الشّام لِمُلوكٍ من البيت الأيُّوبي، وبِذلك انقسمت الجبهة الإسلاميّة التي وحّدها **صلاح الدين**، فأضحت **مصر** في يد **المماليك والشّام** في يد **الأيُّوبيين**.

وقد خشي **المماليك** على نظامهم الجديد من مُنافسة الأيُّوبيين، واضطربت أوضاعهم؛ فاتجه **المماليك** نحو **بغداد**؛ لإنقاذ حُكمهم المُهدَّد، وإضفاء الصفة الشرعيّة على النظام الجديد، فكتبوا إلى الخليفة العبَّاسي **المُستعصم بالله** يطلبون منه تأييد **سلطنة شجر الدُّر**، لكن خاب أملهم عندما عاب عليهم الخليفة تنصيب امرأة في الحُكم، وقال قولته المشهورة: "**إِن كَانَت الرِّجَالُ قَد عدِمَت عِندَكُم فَأَخبِرُونَا حَتّى نُسيّرَ إِلَيكُمُ رجلاً**"، ولمّا وصل جواب الخليفة إلى القاهرة، وجدت **شجر الدُّر** نفسها في موقفٍ حرج، بعد أن أحاطت بها مظاهر العداء في الدّاخل والخارج، واقتنع المماليك، من جهتهم، بِضرورة تغيير رأس السُلطة، فطلبوا من شجر الدُّر أن تتزوّج **بِالأمير عز الدين أيبك** وتتنازل له عن العرش، فاستجابت لهم وخلعت نفسها من السلطنة.

بِتولّي **أيبك** عرش السلطنة المملوكيّة، تحرّك المُلوك والأُمراء الأيُّوبيُّون، بِزعامة **الناصر يُوسُف** صاحب دمشق وحلب، باتجاه مصر لاستعادتها من أيدي المماليك، والتقى الجيشان المملوكي والأيُّوبي سنة648هـ-1251م قرية **العباسة**، فاشتبكا في معركةٍ انتصر فيها الأيُّوبيين بدايةً، ثُمَّ انقلبت الآية بسبب تخلّي بعض المماليك من جيش **الناصر يُوسُف** عن مواقعها وانضمامها إلى الجيش المملوكي بِدافع **العصبيّة**، فتراجع الأيُّوبيين إلى الشّام في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة.

وبعد هذه الموقعة بِشهر، أرسل **أيبك** جيشًا وسيطر على الشّام واستخلاصها من يد الأيُّوبيين، وتسابق الطرفان، الأيوبيين والمماليك، لإستمالة الصليبيين في مُواجهة الطرف الآخر، لولا أن أرسل الخليفة العبّاسي **المُستعصم** إلى **الناصر أيُّوب** يأمره بِمُصالحة **أيبك** فورًا، وحثّ الأخير على قُبُول أيّة شُروط يطلبها الأوّل وإنهاء هذا الخِلاف، وذلك لمُواجهة الخطر القادم إلى المشرق، وهو **الخطر المغولي**، الذي يستوجب توحيد العالم الإسلامي.

وقد أثار المغول موجة الرُعب أثناء زحفهم من آسيا الوسطى باتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيّتهم، جعلت الطرفان يستجيبان بِسُهُولةٍ لِدعوة الخليفة، فانتهى الصراع الأيُّوبي المملوكي عند هذا الحد.

3. سُقُوط بغداد:

وكان الاستيلاء على العراق من ضمن السياسة المغوليّة العامّة القاضية بِالتوسُّع في غرب آسيا، والسيطرة على ما تبقّى من العالم الإسلامي بعد خوارزم، وفارس، في عهد الخاقان الأعظم **منكو خان**، وقد عهد الخاقان إلى أخيه **هولاكو** القيام بِتنفيذ تلك المُهمّة، واحتلال ديار الإسلام حتّى أقاصي مصر بعد أن منحهُ إقليم فارس والولايات الغربيّة، وحدّد لهُ إطار العلاقة مع الخليفة العبّاسي، بحيثُ إذا قدّم فُرُوض الولاء والطّاعة فلا يتعرّض له، أمّا إذا عصى، فعليه أن يتخلّص منه حتّى لا يُشكِّل وُجوده عقبة في طريق الزحف المغولي، ومن جهته، وضع **هولاكو** خطّة عسكريّة تقضي، القضاء على طائفة **الحشاشين الإسماعيلية**، ثُمَّ غزو المناطق الغربيّة وصولاً إلى مصر، في مرحلةٍ ثانية.

وبعد أن حقّق هدفه الأوّل سار لِتحقيق هدفه الثاني، وبدأ بِغزو العراق، ولمّا رفض الخليفة العبّاسي الخُضُوع لِلمغول، وردّ على رسائل هولاكو ردًا قاسيًا تضمّن تهديدات، سار الأخير بِجُيُوشه الجرّارة نحو عاصمة الخِلافة وحاصرها من كُلِّ جانب، وقد وصل **هولاكو**

بنفسه لِيُشارك في الحصار، وقد ضيّق المغول الحصار على بغداد ودكّوها دكًا بقذائف المجانيق، ثُمّ دخلوها عنوةً في يوم الأربعاء 9 صفر656هـ-14 شباط (فبراير) 1258م، واستباحوها وقتلوا كُلّ نفسٍ صادفتهم ونهبوا وحرقوا كُل ما صادفوه، وكان الخليفة قد خرج منها وسلّم نفسه لِلزعيم المغولي دون قيدٍ أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان، وقد انتهت هذه الأحداث بِقتل **الخليفة المُستعصم** وابنيه **أبي العبّاس أحمد وأبي الفضائل عبدُ الرحمٰن**، وأسر ابنه الأصغر **مُبارك** وأخواته الثلاث **فاطمة وخديجة ومريم**.

وبِسُقُوط بغداد ومقتل الخليفة **المُستعصم** انتهت **دولة الخِلافة العبّاسيّة** التي عمّرت ما يزيد عن خمسة قُرون، وكان لِسُقوط بغداد دوي هائل وعميق في مُختلف أنحاء العالم الإسلامي، وقد اهتزّ الحُكّام المُسلمون في المناطق المُجاورة لِهذا الحدث الجلل. واعتبر المُسلمون في كُلِّ مكان، أنّ سُقوط الخلافة العبّاسيّة صدمةٌ مُريعة، وتحديًا مُخيفًا، كان لهُ أسوأ الأثر في نُفوسهم. فعلى الرُغم من أنّ الخِلافة ظلّت مُنذُ زمنٍ طويلٍ تفقدُ قدرًا كبيرًا من سُلطتها الماديّة، فإنّ مكانتها الأدبيّة والروحيّة لا زالت قويّة، وتوجّس الأيُّوبيين في الشّام والمماليك في مصر خيفةً من الآتي.

4. المغول في الشّام ومعركة عين جالوت:

وكان السُلطان المملوكي **عز الدين أيبك** قد قُتل قبل سنة من سُقُوط بغداد،سنة 655هـ-1257م، على يد بعض غلمانه نتيجة تحريض زوجته **شجر الدُّر** بعد ازدياد الوحشة بينهما وتدخُّلها في شُؤون الحُكم، ولم تلبث **شجر الدُّر** أن قُتلت هي الأخُرى أيضًا على يد جواري امرأة **أيبك** الأولى **أم نُور الدين عليّ**.

وعلى أثر مقتل **أيبك**، بايع المماليك ابنه **نُور الدين عليّ**، وعُمره خمس عشرة سنة، ولقّبوه **بالملك المنصور**، وقد عاشت البلاد في تلك الفترة حالة قلقٍ واضطراب وعدم استقرار بِسبب عدم إلمام **المنصور** بِشُؤون الحُكم ولِتنافس الأُمراء على تبُّوء العرش، بالإضافة إلى وُصُول خبر سُقُوط بغداد واستباحتها ومقتل الخليفة، ومسير المغول نحو الشّام، فشاع الخوف والقلق بين الناس، وأصبح الوضع حرجًا يتطلّب وُجود رجلٍ قويٍّ على رأس السلطنة، وعلا في هذه الأوضاع المُضطربة نجم **الأمير سيف الدين قطز**، نائب السلطنة كأقوى أميرٍ مملوكيّ، فأخذ على عاتقه توحيد صُفُوف المماليك من مُشكلة الحُكم، وأقدم على عزل

المنصور نور الدين علي سنة657هـ–1259م بِمُساعدة الأعيان والأُمراء، وتربّع على عرش السلطنة المملوكيّة لِيتفرّغ لِمُواجهة المغول.

وكان من الطبيعي أن يتلو غزو المغول لِلعراق، مُهاجمة الشّام. وكان **هولاكو** قد أرسل، أثناء حصار بغداد، فرقة عسكريّة استولت على أربيل، ومن ثُمّ أشرف المغول على البلاد الشّاميّة، وقف أمير **أنطاكية** الصليبي **بوهيموند السادس** إلى جانب **المغول** رُغم تردُّد باقي الإمارات الصليبيّة وتخوُّفها من الانضمام لِهؤلاء، وحالف الأرمن في قيليقية المغول وشجّعوهم على القضاء على المُسلمين في الشّام واشتركوا معهم في قتالهم على أمل استخلاص الأراضي المقدسة منهم، وبيت المقدس خصوصاً.

أمّا المُلُوك والأُمراء المُسلمون فكانوا يفتقدون الرّابطة الاتحاديّة، وعمل كُل أميرٍ بِاستقلالٍ عن الآخر، لِذلك، ضرب **الناصر يُوسُف الأيُّوبي** الصُلح مع **المماليك** بِعرض الحائط، وعرض على **هولاكو** التعاون أملاً باسترجاع مصر لِلبيت الأيُّوبي. وكان أن استجاب هولاكو لِتلك الدعوة، وقرّر إرسال قُوّة من عشرين ألف فارس إلى الشّام، ولم يلبث المغول أن زحفوا من العراق على الشّام، فانتقلوا في سُرعةٍ مُذهلةٍ إلى **حلب**، ولم يُوفّق المُسلمون في الدفاع عن **حلب** فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا وفعلوا عادة فعلهم، وهُنا أفاق **النّاصر يُوسُف** لِحقيقة خطر المغول، فأرسل إلى قريبه **المُغيث عُمر** صاحب الكرك **والمظفر قطز** صاحب مصر يطلب منهُما النجدة السريعة، على أنّهُ يبدو أنّ كثيرًا من الأُمراء بالشّام خافوا عاقبة مُقاومة المغول ونادوا بِأنّهُ لا فائدة من تلك المُقاومة، فأخذ **الأمير زينُ الدين الحافظي** يُعظِّم من شأن **هولاكو** وأيّد مبدأ الاستسلام له، ولكنّ **الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري** – كان قد أصبح من أُمراء المماليك البحرية بالشام– لم يُعجبه ذلك القول، فقام وسبّهُ وضربه وقال له: "أَنْتُمُ سَبَبُ هلاك المُسْلِمِيْن"! ولم يرضَ بيبرس ومن معهُ من البحريّة عن مسلك **الناصر يُوسُف** وأُمراء الشّام، فساروا إلى غزّة، وأرسل **بيبرس** إلى **السُلطان قُطُز** يعرض عليه توحيد جُهود المُسلمين ضدّ خطر المغول. وفي الحال استجاب قُطُز للدعوة، فأرسل إلى بيبرس يطلب منهُ القُدوم، واستقبلهُ بِدار الوزارة وأقطعهُ قليوب وأعمالها.

وقد سقطت مُدن الشّام الواحدة تلو الأُخرى في يد المغول، حتّى بلغوا غزّة. وأرسل هولاكو إلى قُطُز خطاب تهديدٍ ووعيد يطلب منهُ التسليم ويقُولُ له: "**يَعلَمُ المَلِكُ المُظَفَرُ قُطُز وَسَائِرَ أُمَرَاءَ دَوْلَتِهِ وَأَهلَ مَملَكَتِهِ بِالدِّيَارِ المِصرِيِّةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الأَعمَالِ، أَنّا نَحنُ جُندَ الله**

فِي أَرضِهِ، خَلَقَنَا مِن سَخطِهِ وَسَلطِهِ عَلَى مَن حَلَّ بِهِ غَضَبِهِ... فَاتّعِظُوا بِغَيْرِكُمُ.. فَنَحْنُ لَا نَرْحَمُ مَن بَكَى وَلَا نَرقُّ لِمَن شَكَى"، ولكنَّ **قُطُز** لم يجبن أمام ذلك التهديد، فقتل رُسُل المغول وعلّق رُؤوسهم على **باب زويلة**، وقرَّر الخُرُوج لِلتصدِّي لِلمغول، وشجَّعهُ على ذلك الأنباء التي أفادت بِرحيل **هولاكو** شرقًا بعد أن علم بِوفاة **الخاقان الأعظم منكو خان**، وتركه القيادة بيد نائبه **كتبغا**، وأنَّ الصليبيين نفضوا يدهم من التحالف مع المغول لِعدم ثقتهم فيهم، فرأى أنَّ الفُرصة أصبحت مُؤاتية لِلوُقوف بوجه هذا الخطر ودحره والانتصار عليه.

وقد أعدَّ المُسلمون العدَّة لِمُواجهة المغول، وخرجوا بِقيادة **قُطُز** نحو فلسطين، فقابلوا جيش المغول يوم 25 رمضان 658هـ-3 أيلول(سبتمبر)1260م في سهل **عين جالوت** حيثُ دارت بين الطرفان معركة حامية الوطيس، أُفني فيها الجيش المغولي عن بُكرة أبيه، وقُتل قائده **كتبغا**. ثُمَّ حرَّر المُسلمون باقي مُدن الشّام من المغول، وأمر **قُطُز** بِإنزال القصاص بِالذين تعاونوا معهم، وكان في مُقدمتهم عددٌ من الأهالي المسيحيين في دمشق وغيرها، والأُمراء الأيُّوبيين، فيما عفى عن قسمٍ آخر منهم، ثُمَّ رتَّب أوضاع المُدن المُستعادة، وأعلن وحدة الشّام ومصر مُجددًا.

5. إحياءِ الخِلافة العبَّاسيَّة:

وبعد زوال الخطر المغولي الذي أجبر المماليك جميعًا على الاتحاد، تجدَّدت النزاعات بين **قُطُز** ومماليكه **المعزيَّة** من جهة وبين **المماليك البحريَّة** بِقيادة **الأمير بيبرس البندقداري** من جهةٍ أُخرى. وكان من نتيجة تلك النزاعات أن وقتل **السلطان المظفر قُطُز** يوم السبت 15 ذي القعدة 658هـ-22 تشرين الأول (أكتوبر) 1260م.

وبعد مقتل **قُطُز**، بايع الأُمراء والجُند **بيبرس** سُلطانًا على مصر والشّام، وحلفوا لهُ جميعًا أن لا يخونوا ولا يثبوا عليه، ويبدو أنَّ بيبرس شعر مُنذُ أن تسلّم الحُكم، أنّهُ بِحاجةٍ إلى دعمٍ أدبيٍّ يُكسب حُكمه صفة شرعيَّة، فرأى بيبرس أن يكون هو هذا الحاكم المُسلم الطموح الذي يُعيد الحياة إلى الخِلافة العباسية على أن يكون مقرّها القاهرة، لِيجعل منها سندًا لِلسلطنة المملوكيَّة التي كانت بِحاجةٍ ماسَّة إلى دعمٍ روحيٍّ يجعلها مهيبة الجانب، بِالرُغم من الانتصارات التي حققتها ضدَّ المغول، ولِيُحيط عرشه بِسياجٍ من الحماية الروحيَّة يقيه خطر الطامعين في مُلك مصر والشّام، ويُبعد عنه كيد مُنافسيه من أُمراء المماليك في مصر الذين

اعتادوا الوُصُول إلى الحُكم عن طريق تدبير المؤامرات، وكي يظهر بِمظهر حامي الخِلافة الإسلاميّة.

وقد وصل إلى القاهرة أميرٌ عبّاسيٌّ آخر هو أبو القاسم أحمد، فارًا من وجه المغول، فاستدعاه **بيبرس** فورًا، واستقبلهُ استقبالاً حافلاً، وبُويع بِالخلافة صباح يوم الإثنين13 رجب659هـ-15 حزيران (يونيو) 1261م، وكتب بيبرس إلى سائر السلاطين والأُمراء والنُوّاب المُسلمين خارج مصر لكي يأخذوا البيعة لِلخليفة الجديد، وأمرهم بِالدُعاء له على المنابر قبله وأن تُنقش السكّة باسميهما، وقام الخليفة العبّاسي بِدوره، فقلّد بيبرس البلاد الإسلاميّة وما ينضاف إليها، وما سيفتحهُ من بلادٍ في دار الحرب، وألبسهُ خُلعة السلطنة. وبِذلك أضحى بيبرس سُلطانًا شرعيًّا، فأمن بذلك مُنافسة الأُمراء له.

6. ضم الحجاز:

كان طبيعيًّا أن يكون **الحجاز** محط أنظار **الظاهر بيبرس،** مُدركًا في الوقت نفسه، أنّ ضمّه سيُقوّي مكانته في العالم الإسلامي، ويُضفي على حُكمه مهابة بين المُسلمين، خاصّةً بعد أن ضُمّت الشّام تحت جناح المماليك. ورأى بيبرس ضرورة ضم بلاد الحجاز لأسباب سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ ودينيّةٍ، فمن **الناحية السياسيّة،** فقد اعتادت مصر، مُنذُ عهد الخلافة الراشدة، أن تُرسل الغِلال والميرة إلى الحجاز كضريبةٍ يجب أن تُؤديها إلى تلك البلاد التي تضم الحرمين الشريفين، بِالإضافة إلى إرسال الكسوة إلى الكعبة التي كانت تُصنع من أجمل وأنفس منسوجات الشرق، وقد اشتهرت بها مصر مُنذُ زمنٍ بعيد. ومن **الناحية الاقتصاديّة،** فإنّ ضم المماليك لِبلاد الحجاز تسمح لهم بِالتحكّم بِتجارة البحر الأحمر (بحر القلزم)، ومن ثُمّ بِالتجارة العالميّة. إذ شاءت الظُرُوف أن يترافق قيام سلطنة المماليك البحريّة، وفي مُنتصف القرن الثالث عشر الميلادي، مع ازدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ما عداها من طُرق التجارة الرئيسيّة الأُخرى بين الشرق والغرب. وذلك أنّ سيطرة المغول على البُلدان الشرقيّة واتخاذ هولاكو بلاد فارس مركزاً لدولته، قد عطّل، بِفعل انعدام الأمن، ومُرور القوافل التجاريّة على طريق التجارة الشماليّة بين الصين والأناضول، وموانئ البحر الأسود (بحر البنطس) والشّام، وكان ذلك في الوقت الذي تراجع فيه مجيء السُفُن القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج العربي؛ بِسبب ازدياد نشاط القراصنة من سُكّان جُزُر البحرين، ومن ثُمّ تحوّلت السُفن التجاريّة إلى ميناء عدن في اليمن. غير أنّ حُكّام اليمن لم يُحافظوا على سلامة

التُجّار النازلين في عدن ولا على بضائعهم ممّا دفع السُفن التجاريّة إلى عدم التوقُف في عدن والاستمرار في الإبحار عبر بحر القلزم (البحر الأحمر). وهكذا ترتّب على اضمحلال طُرق التجارة الشرقيّة في ذلك الوقت انتعاش طريق البحر الأحمر–مصر، الأمر الذي أتاح لِلسلاطين المماليك بِشكلٍ عام، فُرصة ذهبيّة لِلإفادة من القيام بِدور الوسيط بين تُجّار الشرق وتُجّار الغرب. أمّا من **الناحية الدينيّة**، فإنّ ضم الحجاز إلى السلطنة المملوكيّة سيُضفي على حُكم بيبرس هالة من المهابة باعتباره مسؤولاً عن الحرمين الشريفين، كما سيدعم ذلك ركائز دولته، ويضعهُ في مصاف الخُلفاء العبّاسيين، في الوقت الذي كان فيه بِأمس الحاجة إلى هذا الدعم. ومهما يكن من أمر، فقد أخذ بيبرس على عاتقه تنفيذ سياسته الحجازيّة. فقام بِعدّة إصلاحات بالحرم النبوي، وأرسل الكِسوة إلى الكعبة، كما أرسل الصدقات والزيت والشُمُوع والطيب والبُخُور مع كسوة لِقبر الرسول ﷺ، وأخيرًا أدّى فريضة الحج سنة667هـ–1269م، وأمر بِجعل الخِطبة لِلخليفة العبّاسي المُقيم بِالقاهرة، ثُمّ لِلسُلطان المملوكي من بعده، كما ضُربت السكّة باسمه،وهكذا ضُمّت الحجاز إلى الدولة المملوكيّة، واستتبع ذلك ضم بلاد اليمن، وأضحت تلك البلاد بِمُقتضى التقليد الذي منحهُ الخليفة **العبّاسي المُستنصر لِلظاهر بيبرس** داخلة في نطاق الحُكم المملوكي.

7. بداية المُناوشات مع الصليبيين:

بعد إحياء الخِلافة العبّاسيّة، وتوطيد أركان الدولة المملوكيّة، وإنزال الهزيمة القاسية بِالمغول، اعتبر بيبرس أنّ الوقت قد حان لاستعادة بلاد المُسلمين التي احتلّها الصليبيين مُنذُ حوالي القرن من الزمن، ورأى أن يبدأ بِمُعاقبة القوى المسيحيّة التي ساعدت المغول ووقفت بِجانبهم ضدّ المُسلمين، وخصّ منهم **حيطوم** ملك قليقية الأرمينية، **وبوهيموند السادس** أمير **أنطاكية**، فأرسل في سنة659هـ–1261م، جيشًا إلى حلب لِشن غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية. وتجدّدت الغارات في السنة التالية، وهدّد المُسلمون **أنطاكية** نفسها بِالسُقُوط لولا أنجدها جيشٌ مغولي أرمني مُشترك يقوده الملك **حيطوم** بِنفسه، فاضطرّ الجيش الإسلامي إلى فك الحصار، ولكن استمر بيبرس في محاولاته لاستعادة **أنطاكية**، فقد لجأ إلى الدبلوماسية لوقف تهديد مغول فارس الذين يهددون حدود دولته أثناء مهاجمة الإمارات الصليبيّة، ولتحصين موقفه، قام بالتحالف مع **بركة خان بن جوشي خان القبيلة الذهبية**، والإمبراطور

البيزنطي **ميخائيل الثامن بالبولوك**، والسُلطان السُلجوقي عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، مما مكنه من القيام بِمشاريعه الكُبرى ضدّ الصليبيين وهو آمن.

وقد بدأت الحرب بين المُسلمين بِقيادة **بيبرس**، والصليبيين سنة661هـ–1263م، وقد استردّ المُسلمون قيسارية، ويافا، وعتليت، وأرسوف سنة 663هـ–1265م، كما تُوفي **هولاكو** وخلفه **أباقا خان**، ولم يكن باستطاعته التدخُل في شؤون الشّام لانشغاله بِمُحاربة أبناء عُمومته في **القبيلة الذهبيّة** الذين أغاروا على بلاده، وقد أضحى باستطاعة بيبرس أن يستأنف حملاته ضدّ الصليبيين دون أن يخشى تدخلاً مغوليًا. وهكذا استرجع المُسلمين في السنة التالية مُدن وبلدات صفد، وهونين، وتبنين، والرملة، كما لم يغفر **بيبرس** لِمملكة **أرمينية الصُغرى** في **قيليقية** أو لإماراتي **أنطاكية، وطرابلس** تحالُفها مع **المغول** ضدّ المُسلمين، فأرسل حملةً كُبرى ضدّ **أرمينية الصُغرى** أثناء غياب ملكها **حيطوم الأوّل** في زيارةٍ لِمغول فارس، ونجح المُسلمين في إنزال هزيمة كُبرى بِالأرمن قُرب **دربساك**، وانتقموا منهم شرّ انتقام، فدمّروا مُدن **قيليقية** وبِخاصّة أضنة، وطرسوس، والمصيصة، كما أشعلوا النار في العاصمة **سيس**، وقُتل أحد أبناء الملك **حيطوم** في الحرب في حين أُسر الابن الثاني، وبعد ذلك عاد المماليك إلى الشّام مُحمّلين بِالغنائم ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن.

وأخيرًا توّج **بيبرس** جهوده ضدّ الصليبيين باسترجاع **أنطاكية** في شهر أيّار (مايو) سنة1268م. وكانت خسارة الصليبيين بِسُقُوط أنطاكية ضخمة، لأنها كانت كُبرى إماراتهم بِالشّام، وثاني إمارة أسسوها بعد **الرُها**، لِذلك جاء سُقُوطها إيذانًا بانهيار البناء الصليبي بِالشّام، بحيثُ لم يبقَ لِلصليبيين بعد ذلك من المُدن سوى **عكّا وطرابُلس**. ولم تقتصر حركة الجهاد التي قام بها بيبرس ضدّ القوى الصليبيّة في الشرق الأدنى على أرمينية الصُغرى والشّام، وإنما امتدّت إلى **جزيرة قبرص** المحكومة من قِبل **آل لوزنيان الإفرنج**. ولم يستطع **الظاهر بيبرس** أن يغفر لِملك قبرص **هيوج الثالث** تهديده لِسُفن المُسلمين في شرق حوض البحر المتوسط، أو مُساعدته لِلصليبيين ضدّ المُسلمين بِالشّام، فأرسل حملةً بحريّةً سنة668هـ–1270م لِغزو قبرص، ولكنّ هذه الحملة أُصيبت بِالفشل **بِسبب ريحٍ عاصفة هبّت على السُفن الإسلاميّة قرب شاطئ قبرص فتحطّم بعضها، وعاد البعض الآخر دون نتيجة**، كما استمرّ بيبرس بشُنّ الحُروب العنيفة على الصليبيين دون هوادة ولا رحمة، فاسترجع في سنة 669هـ–1271م بلدة صافيتا، وحصن الأكراد، وحصن عكّا، والقرين، وأخذ يستعد لِمُهاجمة

طرابُلس ذاتها، لولا وُصُول **الأمير إدوارد الإنكتاري** إلى الشّام ومعهُ بضع مئاتٍ من المُحاربين؛ مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مُقدِمة لِحملةٍ صليبيّةٍ كبيرة.

كما حرص **بيبرس** على القضاء على نُفُوذ **الباطنية الحشاشية،** التي قامت بِدورٍ خطيرٍ في تاريخ الحُرُوب الصليبيّة، وقاموا باغتيال كثير من زُعماء حركة الجهاد من المُسلمين، وتحالفوا مع الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزًا لِلتبعيّة، وانقلبوا عليهم في بعض الأحيان وفق ما قضته مصلحتهم. لِذلك سعى بيبرس إلى القضاء على نُفُوذ الباطنيّة في الشّام قضاءً تامًّا، فعزل مُقدمهم **نجم الدين الشعراني،** واستولى على حُصونهم حصنًا بعد آخر حتّى استولى عليها جميعًا وأراح البلاد من شرّهم.

8. **غزو الأناضول ومعركة إلبستان:**

لم ينقطع العداء بين المماليك والمغول مُنذُ **موقعة عين جالوت،** إذ ظلّ مغول فارس يتحيّنون الفُرصة لِلثأر، ويُغيرون بين حينٍ وآخر على أطراف الدولة المملوكيّة الشماليّة بِالعراق والشّام، وقد سعى خليفة **هولاكو، آباقا خان** إلى طلب الصُلح من بيبرس، على الرُغم من احتفاظه بِمشاعر العدائيّة والكراهيّة تجاه المُسلمين، وسياسته الوديّة تجاه الصليبيين في الشّام وقيليقية، ولكن رفض **بيبرس** طلب **آباقا** لِلصُلح وأعلن أنّهُ لن يكُفّ عن المغول حتّى يسترد جميع البلاد التي اغتصبوها من المُسلمين، ولمّا يئس **آباقا** من الصُلح أرسل رجاله لِلإغارة على الشّام سنة668هـ-1269م، فهاجموا **الساجور،** ولكنّهم ارتدوا خائبين عندما رأوا الجُيُوش التي أرسلها السُلطان لِمُنازلتهم. ثُمّ عاد المغول مرّة أُخرى لِمُهاجمة **عينتاب، وعُمق الحارم** سنة669هـ-1271م، ولكن إغارتهم كانت محدودة الأثر والأهميّة.

في تلك الفترة، دخل **سلاجقة الروم في الأناضول،** بِحُكم موقع بلادهم الاستراتيجي، في دوّامة الصراع بين المغول والمماليك، وتقلّبت سياستهم وفقًا لِتغيير ميزان القوى، فهُم تارةً مع المغول يستمدون العون منهم، ويُحاربون في صُفوفهم، وتحت رايتهم، وتارةً أُخرى يستنجدون بِالمماليك لِيُحرروهم من سيطرتهم. إلا أنه وُجدت فئة من الأُمراء حملت لواء المُعارضة لِلوُجود المغولي في البلاد، فتعرّضت لِلضغط الشديد؛ ممّا اضطرّها إلى الهجرة إلى الشّام ومصر حيثُ رحّب بهم بيبرس ووعدهم بالسير إلى الأناضول واستخلاصها من يد أُمراء السلاجقة المُؤيدين لِلمغول، وضم البلاد المملوكيّة والسُلجوقيّة في سبيل الاتصال بِمغول القبيلة الذهبيّة لِلوُقوف في وجه مغول فارس.

وفي سنة674هـ-1276م، أعدّ بيبرس حملةً كبيرةً لِغزو الأناضول، وسار على رأس جُيُوشه شمالاً. وفي **موقعة إلبستان** حلّت الهزيمة ساحقةً **بِالمغول** ومن حالفهم من **السلاجقة**، فقُتل عددٌ ضخمٌ من رجالهم، وبعد ذلك دخل بيبرس **قيصرية**، ودُعي له على منابرها، وقدَّم لهُ أُمراء السلاجقة فُرُوض الولاء والطّاعة، ثم عاد إلى الشّام.

9. قيام السُلالة القلاوونيَّة:

توفي **بيبرس** في دمشق سنة676هـ-1277م، وقد أوصى بِولاية العهد إلى ابنه البكر **السعيد بركة،** مُتحديًا بِذلك طبيعة المماليك ونظامهم، وجعل الأُمراء يُقسمون يمين الطاعة لِذلك الأمير ظنًا منه أنّ هذا كفيل بأن يجعل الأُمور تستتب على الوجه الذي يُريده بعد وفاته.

ولكن بعد وفاة بيبرس بِفترةٍ قصيرة، أخذ أُمراء المماليك يُسببون المتاعب لِلسُلطان الجديد في مصر والشّام جميعًا، لِعدم إيمانهم بِمبدأ الوراثة في الحُكم، فضيّقوا عليه الخناق وأزعجوه حتّى اضطرّ إلى التنازل عن السلطنة سنة678هـ-1279م.

وقد عُرضت السلطنة عندئذٍ على أقوى الأُمراء – وهو **الأمير قلاوون الألفي،** ولكنّهُ كان يُدرك أنّ الأُمور لم تنضج بعد نُضجًا كافيًا، فتظاهر بِالزُهد ورفض المنصب قائلاً أنهُ لا يشتهيه وأنّ خلعه **السعيد بركة** كان حرصًا على نظام الدولة وحفظًا لها، والأولى أن لا يخرج الأمر من ذُريَّة بيبرس، وبذلك اختير الابن الثاني **لِبيبرس** – وهو **الأمير بدر الدين سلامش** سُلطانًا سنة678هـ-1279م، في حين أصبح **الأمير قلاوون أتابكًا لِلسُلطان الجديد** – أي وصيًّا عليه. وبِهذه الطريقة حقّق **قلاوون** غرضه لأن السُلطان الجديد كان في السابعة من عُمره، فاستغلّ قلاوون وصايته لِلاستئثار بِالسُلطة والتخلُّص من **المماليك الظاهريّة** (مماليك الظاهر بيبرس).

وعندما اطمأنّ **قلاوون** تمامًا إلى أنّ الأُمور غدت مُهيأة لاعتلائه منصب السلطنة أعلن أنّهُ لا فائدة من بقاء ذلك الصبيّ الصغير على العرش، فعزله قبل أن يمضي عليه في السلطنة ثلاثة أشهر، وحلّ محلُّه.

وبِتولِّي **الأمير قلاوون** العرش المملوكي، قامت **السُلالة القلاوونيّة** التي استطاعت أن تحتفظ بِمنصب السلطنة في ذُريّة هذا الرجُل مُدّة زادت عن قرن.

ومثّل العصر الذي حكمت فيه أُسرة قلاوون عصر الازدهار في الدولة المملوكيّة، إذ ظهرت في ذلك العصر جميع مُميزات تلك الدولة، واكتملت فيه معالمها مثلما ازدهرت

حضارتها، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسي الذي نهض به السُلطان الظاهر بيبرس. ومن أسباب ثبات مُلك هذه السُلالة أنّ قلاوون أرسى هيبة بيته في النُفُوس، وأحاط اسمه واسم أُسرته بِهالةٍ من المجد والعظمة، ورأى المؤخون في بيت قلاوون رمزًا لِلقُوّة والعظمة والاستقرار في الداخل والأمن في الخارج. وكان قلاوون نفسه على قدرٍ من الذكاء وبُعد النظر في شُؤون الحرب والسلم والسياسة والدبلوماسيَّة، ووصفه المُؤرخون الذين عاصروه بِأنّهُ كان إنسانًا حليمًا عفيفًا في سفك الدماء مُقتصدًا في العقاب، كارهًا لِلأذى، وأنّهُ كان رجلاً مهيبًا شُجاعًا.

10. إنشاء طائفة المماليك الشراكسة:

تعرّض **قلاوون،** في أوائل عهده، إلى ثورتين: **الأولى** قام بها **نائب السلطنة** في **دمشق** الأمير **سُنقُر الأشقر** الذي امتنع عن **مُبايعة قلاوون ودعا أهل دمشق إلى الخُروج عن طاعة الأخير،** وأعلن نفسه **سُلطانًا** وتلقّب بِلقب «**الملك الكامل**»، وطلب من نُوّاب الولايات في الشّام الاعتراف به، فلم يقف **السُلطان قلاوون** موقف المُتفرّج من هذه الحركة، فقاتل الأمير سُنقُر حتّى هزمه وأجبره على الاستسلام، فطلب الأمان والعفو، فمُنح ذلك، وعُفي عنه، وعاد إلى القاهرة مُعززًا.

أمّا **الثورة الثانية** التي تعرّض لها **قلاوون** فكانت مُؤامرةٍ حاكها بعض **الأُمراء الظاهريّة،** إذ **اتفقوا مع المغول على اغتياله،** وأسرُّوا لِلصليبيين في عكّا بما دبّروا، ونصحوهم بِعدم عقد أيّة مُعاهدة مع السُلطان لأنّهُ سيُقتل في القريب العاجل. لكنّ هؤلاء رفضوا التعاون معهم وحذّروا قلاوون منهم. ولمّا علم السُلطان بِتفاصيل المُؤامرة استدرج الأُمراء المُتآمرين وكشف لهم علمه بِالأمر، وأمر بِإعدامهم، ثُمّ قبض على الأُمراء الذين كان يشك في إخلاصهم له وسجنهم.

ورُغم إخضاع الثورتين سالِفتا الذِكر، إلا أنّ **السُلطان قلاوون** فقد بِسببهما ثقته **بِالمماليك الظاهريّة،** واتجه إلى تأسيس طائفةٍ مملوكيّةٍ خاصّةٍ به تُساعده في توطيد حُكمه في الدّاخل وتُسانده في سياسته الخارجيّة، ويكون اعتماده عليها دون الطوائف المملوكيّة الأُخرى، فأنشأ سنة681هـ-1282م طائفة **المماليك الشراكسة،** وهو عُنصرٌ جديد من أصل قوقازي، يعيش في بِلاد القوقاز، وتميّز هذا العُنصُر بِميزتين: **انخفاض ثمنه** بِالمُقارنة مع غيره من فئات المماليك التُرك، **ووفرة أعداده في الأسواق،** وظلّ قلاوون يعمل على الإكثار من شراء

هذا العُنصر حتّى أضحى عددهم ثلاثة آلاف وسبعُمائة في أواخر أيّامه، وأنزلهم في **أبراج قلعة القاهرة**، لِذلك عُرفوا **بالمماليك البُرجيّة**.

11. **استرداد سواحل الشّام:**

بعد أن تخلّص **السُلطان قلاوون** من الأخطار الداخليّة التي واجهته، بدأ ينصرف نحو المغول والصليبيين الذين ما فتئوا يُهددون الشّام بين فينةٍ وأُخرى. وكان **آباقا خان** قد أرسل في سنة 679هـ-1280م قُوّةً احتلّت بعض القلاع في شمال الشّام، ثُمّ رحلت إلى حلب فدخلتها وأحرقت جوامعها ومدارسها وقتلت الكثير من أهلها، قبل أن تُسرع بِالعودة إلى قواعدها بِالعراق، وما أن وصلها أنّ قلاوون خرج إلى غزّة في طريقه إليهم لِمُنازلتهم، وقد استغلّ الصليبيُّون فُرصة إغارة المغول على شمال الشّام وحاولوا استرداد **حصن الأكراد** من المُسلمين، لكنّ مُحاولتهم باءت بِالفشل، مما نبّه **قلاوون** إلى الخطر الذي يُحيق به نتيجة تحالف أعدائه المغول والصليبيين، لِذلك أخذ يتّبع سياسةً جديدةً تستهدف التفرقة بين خُصُومه وعدم تمكينهم من الاتحاد ضدّ المُسلمين لِيتمكن من مُنازلة كُلٌ منهم على حدة، فعقد صُلحًا مع القوى الصليبيّة الرئيسيّة في الشّام لِمُدّة عشر سنوات، ثُمّ حوّل أنظاره ناحية المغول لِضربهم ضربةً موجعة، وقد قابل **قلاوون** جيشٍ كبيرٍ من المغول على رأسه **آباقا خان** إضافة إلى جيش آخر بقيادة **ليون الثالث** ملك أرمينية الصُغرى سنة 680هـ-1281م، تمكن من هزيمة التحالف في **موقعة حمص** وولّوا **المغول** الأدبار إلى العراق بعد أن هلك منهم خلقٌ كثير.

وبعد أن انتصر **السُلطان قلاوون** على **المغول**، وجه ضربته الثانية بِالصليبيين رغم أنه عقد معهم صُلحًا لِمُدّة عشر سنوات، حيث لم تنقضِ منها سوى أربع سنواتٍ فقط. ففي سنة 684هـ-1285م، هاجم **الإسبتارية** في **حصن المرقب** - وهو من أخطر الحُصُون الصليبيّة بِالشّام - واستولى عليه فعلاً؛ ممّا سبب خسارة كُبرى لِلصليبيين.

ونتيجة المنازعات والخلافات الداخلية التي ميّزت تاريخ الصليبيين بِالشّام في النصف الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، انتهز **السُلطان قلاوون** الفُرصة وأرسل حملةً استرجعت **اللاذقية** سنة686هـ-1288م، ثم توفي **بوهيموند السّابع** أمير **طرابُلس** دون وريث، فقام في إمارته نزاعٌ داخليّ حول وراثة الحُكم، واستنجد فريقٌ من المُتنازعين **بِالسُلطان قلاوون**؛ فاستغل الفُرصة، فخرج من مصر على رأس جيشه دون أن يُعلن هدفه، سنة688هـ-سنة1289م. وكان جيش المُسلمين كبيرًا - يزيدُ عن أربعين ألف فارس ومائة

ألف راجل - فلم تستطع **طرابُلس** مُقاومة الحصار الذي فرضه عليها السُلطان وسقطت في قبضته بعد أن احتلّها الصليبيُّون طيلة 180سنة.

ولم يلبث المُسلمون أن استرجعوا المراكز التي أخلاها الصليبيُّون قُرب طرابُلس وبذلك لم يبقَ لِلصليبيين من مُلكهم العريض في الشّام سوى عكّا، وصيدا، وصور، وعتليت.

بعد سقوط الكثير من المدن التي سيطر عليها الصليبيين في يد المسلمين، صارت **مدينة عكّا** المركز الجديد **لمملكة بيت المقدس اللاتينيّة**، ولم يكن في نيّة **السُلطان قلاوون** مُهاجمة عكّا عقب استيلائه على طرابُلس مُباشرةً، فقد اتجه إلى دمشق، وجدد الهدنة مع الصليبيين لِمُدَّة عشر سنوات.

وقد شكّل سُقُوط طرابُلس صدمة عنيفة لِسُكّان عكّا؛ مما أثار النقمة في الغرب الأوروبي، وجعل المُدن الصليبيّة في الشّام تحت رحمة السُلطان قلاوون، وكتب **البابا نيقولا الرابع** إلى مُلُوك الغرب يلتمس منهم تقديم المُساعدة، لكنّ أحدًا لم يُجبه نظرًا لانشغال كُل ملك بِمشاكله الداخليّة، ولم يُلبِّ نداء البابا سوى جماعات فقيرة من شمالي إيطاليا الذين تطلّعوا إلى مُغامرةٍ تعود عليهم بِالمنفعة، ولم يكن البابا راضيًا عنهم، غير أنّهُ قبل مُساعدتهم مُضطرًّا، وجعلهم تحت رئاسة أُسقف طرابُلس، وبينما الصليبيُّون بِالشّام يخطبون ودّ السُلطان قلاوون، وصلت تلك الجُمُوع الصليبيّة من إيطاليا وهي تفيضُ حماسةً، وفي الوقت نفسه ينقصها النظام والخبرة وضبط النفس، فاعتدوا على المُسلمين خارج أسوار عكّا؛ مما أنذر بِتجدُّد الحرب بين المُسلمين والصليبيين، وأخذ قلاوون يعد العدّة لِلقيام بِعملٍ حربيٍّ كبيرٍ ضدّ عكّا.

12. استرداد عكّا وإجلاء الصليبيين:

لم يكد **السُلطان قلاوون** يفرغ من استعداداته الحربيّة، ويُغادر القاهرة لِحرب الصليبيين في الشّام واسترجاع **عكّا**، حتّى تُوفي سنة689هـ–1290م، وقد جعل ولاية العهد لابنه **علاءُ الدين عليّ**، لكنّه توفي في حياة أبيه سنة687هـ–1288م، ولم يبقَ سوى ابنه الآخر **صلاح الدين خليل** - الذي كان مكروهًا من الأُمراء لِما عُرف عنهُ من قسوة وعدم تمسُّك بِقواعد الدين- فكان تولّيه العرش صعب بِوُجود تلك المُعارضة، كما قيل أنّ والده لم يكن راضيًا عن تصرُّفاته ولم يثق به، واعتقد أنّهُ غير كُفء لِتولّي السلطنة، ورفض أن يُوقّع التقليد له بِولاية العهد، وتُوفي ولم يعهد لِولده بِالمُلك، إنما لم يكن ذلك مانعًا من أن يؤول إليه، خاصّةً وأنّ الموقف السياسي كان يتطلّب قيام سُلطانٍ جديد على وجه السُرعة لِيقود الحملة

التي كان قلاوون قد أعدّها لِلقضاء على الصليبيين في عكّا، وقد أقسم الأُمراء الأيمان **لِلسُلطان خليل** ولقّبوه **بِالأشرف**، فخلع عليهم ثُمَّ تأهّب لِلخُروج إلى الشّام.

وعندما علم الصليبيُّون في عكّا أنَّ **السُلطان الأشرف** خليل تغلّب على الصعاب التي واجهته، وأنّهُ بصدد الخُرُوج إليهم، حاولوا ثنيه عن عزمه، فأرسلوا إليه سفارة بِرئاسة أحد أعيان عكّا الإفرنج يسألون العفو، ولكنَّ السُلطان لم يقبل منهم ما اعتذروا به، وبذلك لم يعد هُناك مفر من القتال.

وقد خرج **الأشرف خليل** من القاهرة سنة 690هـ - 1291م، وأرسل في الوقت نفسه إلى كُل وُلاة الشّام بِإمداده بِكُل وسائل النقل، لِنقل الذخائر والجُنود، ثُمَّ مُوافاته إلى أسوار عكّا، وهكذا اجتمعت الجُيُوش الإسلاميّة من مصر والشّام أمام آخر المعاقل الصليبيّة الرئيسيّة، وقُدِّر عدد أفراد تلك القُوّات بِستين ألف فارس ومائة وستين ألفًا من المُشاة، فضلاً عن عددٍ ضخمٍ من آلات الحصار والضرب منها اثنين وتسعين منجنيقًا، فبدأ حصار المدينة ورميها بِالمجانيق رميًا متواصلاً. وقد بذل الصليبيُّون جُهدًا مُستميتًا لِلدفاع عن عكّا، فاستغاثوا بأوروبا الغربيّة، لكنَّ استغاثاتهم لم تُؤدِّ إلا إلى نتيجةٍ ضئيلةٍ، فحصلوا على بعض المُساعدات من **إدوارد ملك إنجلترا، وهنري الثاني ملك قبرص**، الذي أتى بِنفسه لِلمُشاركة في الدفاع عن المدينة، كما تناست الطوائف الدينيّة العسكريّة مشاكلها القديمة وتكاتفت لِلدفاع عن عكّا، ولكنَّ كُل تلك الجُهُود ذهبت مع الريح، فاقتحم المُسلمون المدينة في 17 جمادي الأولى690هـ-18 أيار (مايو)1291م، وفرَّ الصليبيين في السُفن الراسية إلى عرض البحر، حيثُ غرقت بعض السُفن بِسبب كثرة من تحمله من الفارِّين، ووقع من بقي منهم في الأسر.

ولم تكد **عكّا** تُصبح في قبضة المُسلمين حتّى أمر السُلطان بِتدميرها وفق خطّةٍ موضوعة، حتّى لا تبقى رأس حربة لِما قد يقوم به الصليبيُّون من اعتداءات على الشّام. وكانت استعادة المُسلمين لِعكّا بِمثابة الضربة الكُبرى الختاميّة التي نزلت بِالصليبيين في الشّام.

ولم يُصبح لِلصليبيين بعد ذلك مقام في تلك البلاد، فاسترجع المُسلمون في سُهولةٍ المراكز القليلة الباقية بأيديهم، وأجلوهم عنها، فركبوا البحر عائدين إلى بلادهم أوروبا، لِتُختتم بِذلك صفحة الحُرُوب الصليبيّة في المشرق الإسلامي بعد أن مضى عليها قرنان من الزمن.

13. سلطنات الناصر مُحمَّد:

قُتل **الأشرف صلاحُ الدين خليل** سنة693هـ-1293م، بعد أن تآمر عليه بعض أُمراء المماليك، ولم يعقب ذُكُورًا، وفي الأعوام الخمسة التي تلت مقتله انحصر التاريخ المملوكي بشكلٍ تامٍ تقريبًا في حوادث القتل والمُؤامرات بِشكلٍ مُتواصل.

إلى أن اتفق المماليك على سلطان جديد وهو **محمد بن قلاوون** أخي **الأشرف خليل،** وكان السُلطانُ الجديد ما يزال طفلاً صغيرًا لم يتجاوز عُمره تسع سنوات، وقضى سنة في الحُكم كان شبه محجوز عليه بِالقلعة، في حين استبدّ بِأُمور الدولة **الأمير علم الدين سنجر الشُجاعي،** ثُمّ **الأمير كتبغا المنصوري** بعد أن تخلّص من الأوّل، وما لبث **كتبغا** أن عزل **مُحمّد بن قلاوون** مُتحججًا بِفساد الحال نتيجة تولّي صبيّ شُؤون الحُكم، وحلّ مكانه سنة 694هـ-1294م، تشائمت الناسُ من كتبغا وحُكمه كونه جاء مصحوبًا بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء، بسبب استقبال حوالي عشرة آلاف مغوليّ وثنيّ - عُرفوا باسم «**العويراتيّة**» أو «**الأويراتيَّة**» - فارّين من **الدولة الإلخانية؛** مما استثار هذا الفعل شُعُور الأهالي وزادت نقمتهم على السُلطان، وقد استغلّ أحد الأُمراء الأقوياء، وهو الأمير **حسام الدين لاجين،** عوامل الكراهيّة التي أخذت تتجمّع ضدّ **كتبغا،** فخلعهُ من السُلطة وتربّع على العرش بدلاً منه، لكنّهُ أساء التصرُّف مع سائر أُمراء المماليك وضيّق عليهم وأقصاهم عن مناصب الدولة وأحلّ غيرهم من مماليكه الخاصَّة، فحنقوا عليه وقتلوه وهو في **القلعة** سنة698هـ-1298م.

سائت أحوال أمراء المماليك ولم يكن هناك شخصيّة كُبرى تستطيع أن تُسيطر على الموقف وتستأثر بِالسلطنة، فاضطرّ الأُمراء وسط ذلك الفراغ إلى التفكير في **مُحمّد بن قلاوون** الذي ظلّ دائمًا يبدو في صُورة صاحب الحق الشرعي في السلطنة مُنذُ أن عزله **كتبغا،** وقد تم توليته منصب السلطنة لِلمرَّة الثانية، فاستُقبل استقبالاً حماسيًّا رائعًا من المماليك وعامَّة الناس على حدٍ سواء، وصعد إلى القلعة حيثُ جُدِّدت لهُ البيعة وأخذ يُباشر سُلطانه، بعد أن تلقّب بِلقب **الملك الناصر.**

وكان أهم ما تعرّضت له دولة المماليك في ذلك الدور هو تجدُّد **هجمات المغول** على الشّام، إذ أوغلت جُيُوش **الإلخان محمود غازان** في الشّام سنة697هـ-1298م، وهزم المماليك عند **مجمع المروج** بين حمص وحماة.

وقد انهار المماليك في الشّام بعد تلك الهزيمة، فدخل **غازان** دمشق وعاث جُنُوده فيها فسادًا، ثم عاد **غازان** إلى بلاده بعد أن عيّن نائبًا عنه في **دمشق**، أما المماليك بقيادة **السُلطان الناصر مُحمّد** خرجوا بجيش كبير قاصدًا الشّام سنة698هـ-1299م، وتمكنوا من دُخُول دمشق وطرد المغول منها، ولم يعبئوا بِطلب **غازان** مُهادنتهم، فخرج من بلاده سنة702هـ-1302م قاصدًا غزو الشّام من جديد. وقد دارت **موقعة مرج الصفر** قُرب دمشق مما أدى إلى وقوع الهزيمة قاسيةً بِالمغول، الأمر الذي جعل الناس يفرحون بِالناصر مُحمّد رُغم صغر سنِه ويستقبلونه استقبالاً حارًا في دمشق والقاهرة، وقد بقيت **سلطنة الناصر مُحمّد الثانية** اسميّة، وقد تحكّم به الأميران **سلار، وبيبرس الجاشنكير** وضيّقا الخناق عليه، فحاول بدوره أن يتخلّص منهما لكنّهما أدركا مُخططه وحاولا القضاء عليه لولا أن وقف الشعب في صفِه وناصره وتعاطف معه تعاطُفًا غريبًا، ولمّا ضاق السُلطان بِحياته، وأدرك أنهُ لا فائدة من التغلُب على **سلار وبيبرس**، تظاهر بِرغبته بالذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج، ولمّا وصل إلى **الكرك**، اعتكف فيها وأعلن تخلّيه عن السلطنة، فانتخب الأُمراء **بيبرس الجاشنكير** بدلاً منه.

وشاءت الظُروف وبعد تولي **بيبرس الجاشنكير** السلطنة انخفض النيل وارتفعت الأسعار؛ ممّا جعل الناس يُفسرون ذلك بِسُوء طالع السُلطان الجديد، فصاروا يطوفون في شوارع القاهرة مُطالبين إرجاع **الناصر مُحمّد**، كما رفض الكثير من أُمراء الشّام الاعتراف بسلطنة بيبرس، وأعلنوا ولائهم لِبيت قلاوون، واستعدادهم نُصرته كي يسترجع مُلكه. وكان **النّاصر مُحمّد** قد بلغ أشُدّه وصُقلت خبراته السياسيّة، فوافق على استرجاع العرش، وسار إلى القاهرة على رأس جيشٍ كبير، بينما وجد بيبرس نفسه وحيدًا بعد أن تخلّى عنه أغلب الأُمراء، ورفض الشعب الالتفاف حوله، فنزل عن العرش وهرب؛ لِيدخل النّاصر مُحمّد القاهرة ويجلس على عرش المُلك لِلمرّة الثالثة.

وقد استمرّ حُكم **الناصر مُحمّد** في تلك المرّة الثالثة إحدى وثلاثين سنة، هي مُدّة طويلة لم يُدانيه فيها سُلطانٌ آخر من سلاطين المماليك. ويُمثّلُ عصره أعظم عُصُور التاريخ المملوكي، وأكثرها ازدهارًا ورُقيًّا واستقرارًا، فامتد نفوذه من برقة غربًا حتّى الشّام والحجاز وجنوب العراق شرقًا، ومن النوبة جنوبًا حتّى الأناضول شمالاً، وخطب ودّهُ سلاطين المغرب ودعوا له، وقد أرسل السُلطان الناصر مُحمّد حملتين إلى **النوبة** في سلطنته الثالثة، وذلك ما

بين عامي 715 و716هـ-1315 و1316م، ففتحها وأقام عليها **أوّل ملكٍ مُسلمٍ من أهلها** هو **عبدُ الله برشنبو**، فأخذت تلك البلاد تفقد صفتها المسيحيّة تدريجيًا مُنذُ ذلك الوقت لِتتخذ طابعًا عربيًّا إسلاميًّا.

وقد تميز عهد الناصر مُحمَّد بأنه عهد رخاءٍ واستقرار، فأقام الناصر كثيرًا من المُنشآت مثل المساجد والقناطر والجُسُور والمُستشفيات والمدارس، حتّى بلغ مصروف العمارة في كُل يومٍ من أيّامه سبعة آلاف درهم فضَّة.

14. تدهور دولة المماليك البحريَّة وسُقُوطها:

لقد تُوفي **الناصر مُحمَّد بن قلاوون** سنة741هـ-1340م، اضطربت أحوال الدولة المملوكية مرة أخرى فخِلال العشرين سنة الأولى التي أعقبت وفاته تولّى منصب السلطنة ثمانيةٌ من أولاده، وأربعة من أحفاده. وبعضُ هؤلاء الأبناء والأحفاد تولّى منصب السلطنة وعُمره عامٌ واحد؛ مما أدى إلى حدوث اضطرابات وعدم استقرار وفوضى، تركت أثرها واضحًا في جميع نواحي الحياة السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. وزاد من أحوال البلاد سوءًا في ذلك الدور انتشار وباءٍ خطيرٍ عُرف باسم **(الوباء الأسود)** سنة749هـ-1349م؛ فمات كثيرٌ من الناس، وتأثَّرت الحياة الاقتصاديَّة أسوأ أثر حتّى كادت تتوقّف تمامًا، وتوقفت الأحوال بِالقاهرة وسائر مصر، كما وقف خلف كُل سُلطان من أبناء الناصر مُحمَّد وأتباعه أميرٌ أو أكثر من كُبراء أُمراء المماليك، بحيثُ طغت شخصيَّة أولئك الأُمراء على السلاطين، واستغلُّوهم لِتحقيق مصالحهم الخاصَّة، فنجم عن ذلك ازدياد المُنازعات فيما بينهم، وتحكُّمهم واستبدادهم بِشُؤون الدولة والعِباد، وكان بعض هؤلاء الأُمراء من **المماليك البرجية الشراكسة**، ومن أبرزهم **سيف الدين برقوق**، الأمر الذي يدُل على ازدياد نُفُوذ تلك الطائفة؛ ممَّا أدَّى إلى تمكُّنهم من انتزاع الحُكم لاحقًا.

ونتيجة سوء الأحوال الداخليَّة لِدولة المماليك اضطربت أحوال البلاد؛ بسبب عدم وُجود رجُلٍ قويٍ مهيب الجانب على رأس الدولة، مما أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها؛ فاستخفّ الأعداء بِدولة المماليك وطمع الطامعون في أراضيها، وتجرَّأ الصليبيُّون على غزو مصر، كما اتخذ مُلُوك قبرص الإفرنج من جزيرتهم قاعدةً كُبرى لِتهديد السُفن والمتاجر الإسلاميَّة في شرق البحر المتوسط، وقيامهم بِغاراتٍ على بعض الموانئ الإسلاميَّة وموانئ دولة المماليك بِوجهٍ خاص، وخلال هذه الفترة السيئة برز اسم أحد **المماليك البُرجيَّة أو**

الشراكسة – وهو الأمير **سيف الدين برقوق** الذي استطاع بِفضل طُمُوحه وقُوّته أن يصل إلى منصب **أتابك العسكر** سنة780هـ–1378م، وبِذلك أصبح برقوق على جانبٍ كبيرٍ من القُوَّة في عهد **السُلطان علاء الدين على**، وبعد وفاته سنة783هـ–1381م، في الثانية عشرة من عُمره. تمكن **برقوق** من تولي عرش السلطنة مُباشرةً، لكنّهُ أدرك أنّ الأُمُور لم يتم نضجها بعد لا سيِّما وأنّ لهُ الكثير من المُعارضين. لِذلك تظاهر برقوق بِالزُهد في السلطنة مُعلنًا أنّ المصلحة تتطلّب إبقاء وظيفة السلطنة في بيت قلاوون. وهكذا استُدعي **الأمير حاجي** حفيد **الناصر مُحمّد** وسنُّه وقتئذٍ إحدى عشرة سنة، وأُعلن سُلطانًا سنة783هـ–1381م.

وخلال عهد السُلطان الطفل الجديد، أخذ برقوق يُمكِّنُ لِنفسه، فاختصّ زُملائه وأنصاره من أُمراء المماليك بِالوظائف الرئيسيّة في الدولة، في الوقت الذي أخذ يعمل على اكتساب محبّة عامّة الناس، فخفّف عنهم الضرائب، ولمّا وجد أنّ الأُمور باتت مُهيئة لإعلان نفسه سُلطانًا، انتحل نفس العُذر الذي سبق أن تحجج به الطامعون في الحُكم من أُمراء المماليك، وهو صغر سن السُلطان القائم، فاجتمع بالأعيان الذين أعلنوا خلع **السُلطان حاجي** وإقامة **برقوق** مكانه. وبِعزل حاجي من السلطنة انتهى بيت قلاوون، كما انتهى حُكم **المماليك البحريّة**، وقامت دولة **المماليك البُرجيّة**.

خامساً: دولة المماليك البرجية [784 - 923 هـ = 1341 - 1517 م]

وتختلف **دولة المماليك البُرجيّة**- أو**الشراكسة (الجراكسة)** - عن **البحريّة**، في عدّة نواحي، أوّلها أنّ سلاطين الدولة البُرجيّة كانوا جميعًا **شراكسة العِرق**، أنّ مبدأ **الحُكم الوراثي** الذي حاول بعض سلاطين المماليك البحريّة تطبيقه في عنادٍ وإصرارٍ والذي نجح بِوُضوحٍ في عصر بيت قلاوون، هذا المبدأ **لا يُوجد له أثر في عصر دولة المماليك الشراكسة**. والواقع أنّ سلاطين دولة المماليك الثانية **كانوا زُعماء أو أُمراء كبار أكثر منهم سلاطين.**

وكان نجاح السُلطان في مُهمّته يتوقّف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأُمراء وضرب طوائف المماليك ببعضها البعض، فإذا استطاع السُلطان الاحتفاظ بِمنصبه حتّى وفاته، فإنّ ابنه كان يخلفه عادةً. ولكن لِعدّة أشهرٍ فقط حتّى ينجلي الموقف بين كبار الأُمراء ويستطيع أحدهم أن ينفرد بِالغنيمة.

والمعروف أنّ دولة المماليك البُرجيّة عمّرت أكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنة، تعاقب على عرش السلطنة خلالها **ثلاث وعُشرون سُلطانًا**، ومن هؤلاء السلاطين **تسعة** حكموا **مائة وثلاث سنوات**، في حين حكم **الأربعة عشر** سُلطانًا الباقون **تسع سنوات** فقط. أمّا هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الشراكسة فهم: **برقوق، وفرج، وشيخ، وبرسباي، وجقمق، وإينال، وخشقدم، وقيتباي، وقنصوه الغوري**، وكثيرٌ من أولئك السلاطين عُرفوا بِحُبهم الأدب ومجالس العلم، كما عُرف بعضُهم بِالتقوى والورع.

ولا شكّ في أنّ البلاد قاست كثيرًا في عهد المماليك الشراكسة من جرّاء المُنازعات المُستمرّة بين طوائف المماليك، وما كان ينجم عن تلك المُنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، ممّا أوجد جوًا من القلق وعدم الاستقرار في القاهرة بِوجهٍ خاص. وزاد من شدّة البلاء أنّ السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم ممّا جعلهم لا يجدون وسيلةً لِلاحتفاظ بِمراكزهم سوى ضرب طوائف بعضها ببعض، وبِذلك يخلوا الجو لِلسُلطان ومماليكه فيُعيثون في الأرض فسادًا. على أنّهُ يُلاحظ أنّ سلاطين الدولة الشركسيّة عملوا دائمًا على حصر تلك المُنازعات داخل دائرة داخليّة بحتة، بحيث لم يُمكنوا قُوّة خارجيّة من التدخُّل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادتها. على أنّ ذلك لم يحل دون تطلُّع عامّة المُسلمين – في أواخر هذا العهد – إلى العُثمانيين كمُنقذين ومُخلّصين.

1. عهد السُلالة البرقوقيّة:

لم يمضِ على قيام **برقوق** في السلطنة عامٌ واحد حتّى حُبكت مُؤامرة لِعزله وإحلال الخليفة العبّاسي **المتوكل على الله** بدله. ولكنّ برقوق اكتشف المُؤامرة بفضل ما بثّهُ من العُيون والجواسيس، فكُشِف أمرُ المتآمرين وكان أغلبهم من **المماليك البحريّة التُرك**، فتخلّص من بعضهم بالنّفي وطرد آخرين من وظائفهم، ثُمَّ عزل **الخليفة المُتوكِّل** وأحلّ محله خليفة آخر هو **الواثق بِالله**.

رغم الإجراءات التي قام بها برقوق لم تنفع في حمايته من المُؤامرات المُتصلة التي دبّرها خُصومه ضدّه، حيث قامت ثورة شمال الشام ضده سنة 791هـ-1389م؛ كان من نتيجتها زحف الثُوّار على القاهرة والقبض على برقوق ونفيه إلى الكرك، ولكنّ حدث نزاع بين قائدا الثورة؛ ممّا أعطى برقوق فُرصة لاسترداد مكانته، فهرب من الكرك وجمع جيشًا بِالشّام، وأنزل هزيمة بِأعدائه عند **سيف الدين برقوق** سنة792هـ-1390م، ثُمَّ دخل القاهرة ظافرًا حيثُ رحّب به الأهالي واستقبلوه استقبالاً حافلاً، والتفّ الناسُ حوله.

وقد قضى برقوق العامين التاليين في إخضاع بقايا الثُوّار في الشّام، ولم يكد يفرغ من ذلك حتّى داهم الدولة المملوكيّة خطر **المغول** مُجددًا، هذه المرّة بزعامة قائد جبّار هو **تيمورلنك** الذي استولى على **بغداد** سنة795هـ-1393م، وبعض المناطق الداخلة ضمن نطاق السلطنة المملوكيّة؛ ممّا جعل **السُلطان برقوق** يحس بِذلك الخطر ويعمل بِسُرعة على تلافيه. وكان أن استطاع برقوق أن يعمل حلفًا سريعًا بين القوى الإسلاميّة التي أحسّت بِخطر تيمورلنك في الشرق الأدنى، مثل: **الإمار الآرتينية، والقبيلة الذهبية، والسلطنة العثمانية**، ولم يلبث تيمورلنك أن أرسل رسالة إلى مصر يطلب فيها من برقوق تسليمه البلاد، وأرفقها بِخطابٍ من التهديد والوعيد، فامتنع برقوق عن الاستجابة لِمطالب تيمور، وردّ عليه بنفس أُسلوبه وطرد رُسله من القاهرة، وأخذ يستعد لِحرب المغول، ولكنّ المنية عاجلته فمات سنة801هـ-1399م قبل الشُروع في الحرب، فترك ذلك لابنه **الناصر فرج**.

وقد خرج **السُلطان فرج** إلى الشّام سنة803هـ-1400م؛ لِمُحاربة **تيمورلنك** الذي خرّب حلب، وزحف على دمشق، فوقعت بين الجيشين بعض مُناوشات بِالقُرب من دمشق كان الغلب فيها للمماليك، فطلب **تيمورلنك** من السُلطان الصُلح فأجابه إليه. وبينما هُم يتفاوضون أثار مماليك السُلطان فتنة في المُعسكر، وتسللوا منهُ راجعين إلى مصر بِغرض عزل السُلطان

وإقامة غيره ، فخشي السُلطان على منصبه وعلى حياته، واضطرّ أن يعود مع بقيّة مماليكه مُسرعًا إلى القاهرة، وترك دمشق يُدافع عنها أهلها، فدخلها **تيمورلنك** وفعل الفظائع بِالنّاس كما فعل بِحلب من قبل، ثم هُزم السُلطان العُثماني **بايزيد بن مراد** أمام جحافل المغول في أنقرة، وعندما سمع **السُلطان فرج** بِأخبار هذه الهزيمة رضخ لِلشُروط التي تقدّم بها تيمورلنك، فأطلق سراح من كان لديه من أسرى، ورضي أن يسك العملة باسم تيمور، لكنّ الأخير لم يلبث أن مات سنة808هـ–1405م دون أن يتحقق حلمه في ضم مصر إلى ممالكه.

نتيجة رُضوحه لِطلبات المغول وتقاعسه عن نجدة دمشق؛ خسر **السُلطان فرج** مكانته في نُفُوس المُعاصرين، فخلعه المماليك سنة808هـ–1405م، وتولى من بعده أخاه، ثُمّ استطاع أن يعود إلى المُلك فخرج في عدّة غزوات إلى الشّام؛ لِتوطيد سُلطته، وإخضاع الثائرين من الأُمراء، لكنّ سُوء خُلُقه وقلّة تديُّنه وتنكيله بِمماليك أبيه واستغلاله منصبه جعلت الخليفة والعُلماء يُفتون بِضرورة قتله، فاغتيل بِدمشق سنة 815هـ–1412م.

2. ما بعد السُلالة البرقوقيّة:

بعد مقتل **الناصر فرج بن برقوق**، عُهد بِالسلطنة إلى الخليفة العبّاسي المستعين بالله، ريثما تنجلي الأُمور وينتخب المماليك أحد أُمرائهم سُلطانًا. وبعد مضيّ خمسة شُهور فاز الأمير شيخ المحمودي في حلبة المُنافسة بينه وبين أميرٍ آخر يُدعى «**نوروز**»، فتولّى منصب السلطنة بعد أن تلقّب بِلقب **المؤيّد**، وقد ساءت حالة الناس في عهد **المُؤيّد شيخ** نتيجة عدم قُدرته السيطرة على مماليكه؛ ممّا سبّب أضرارًا جسيمةً لِلأهالي الآمنين. وقد خلف المُؤيّد شخ ابنه **أحمد** سنة825هـ–1421م تحت وصاية **الأمير طُطُر**، ولم يلبث بعد أشهر أن تولّى **طُطُر** نفسه السلطنة لِفترةٍ قصيرة، فخلفه ابنه **محمد** الذي لبث في الحُكم عدّة أشهُر تحت وصاية الأمير **برسباي** سنة825هـ–1422م، الذي انتزع السلطنة لِنفسه وتلقّب **بِالسُلطان الأشرف**، وقد قاسى الناس كثيرًا خِلال **سلطنة برسباي** التي امتدّت حوالي ستة عشر عامًا بعد أن أُثقل كاهلهم بِالضرائب الباهظة، وشاعت أنواع الاحتكار في التجارة، إلا أنّهُ لِشدّة بأس هذا السُلطان لم تحدُث في البلاد فتن في عهده. وقد فتح قبرص مرة أخرى، حيث أرسل حملةً دارت بينها وبين الفرنجة معركةً طاحنة قُتل فيها خلقٌ من الصليبيين، ورُفعت راية الإسلام بِقبرص، وعادت الحملة إلى مصر مُحمّلة بِالغنائم والأسرى، ثُمّ أرسل حملةً أُخرى، وكانت الحملة القاضية، واستطاعت جيُوش برسباي أن تُلحق هزيمة ساحقة بالصليبيين، ودخل

المسلمون مدينة **الأفقسية (نيقوسيا)** فصلوا الجمعة في كنيستها، وأصبحت قبرص جُملةً من بلاد المُسلمين.

وقد بالغ برسباي في فرض الضرائب على سُفن الأجانب، مما أغضب الدول الأوروبية؛ فقامت باستدعاء جميع تُجّارها من مصر، فخاف على تجارة البلاد من الكساد فنظر في مطالبهم، وفي سنة841هـ-1438م مات **برسباي** ووُلِّي من بعده ابنه الفتى، الذي لم يستطع أن يحتفظ بِالعرش أمام نُفُوذ أقوى الأُمراء عندئذٍ وهو **جقمق**، الذي تولّى السلطنة وعُرف بتديُّنه وورعه، فحرَّم المعاصي وشُرب الخُمُور، كما تحسَّنت العلاقات بين دولة **المغول التيمورية والدولة المملوكيَّة**، وتبادل الطرفان السُفراء، كما غزا المُسلمون جزيرة **رودس** دون أن يتمكنوا من فتحها. وبعد وفاة جقمق تولّى عدَّة سلاطين لم يكن لهم ذكرٌ مُهم في التاريخ، حتى وُلِّي **الأشرف قيتباي** سنة872هـ-1468م حتى سنة902هـ-1468م، وهو أطول سلاطين هذه الدولة حُكمًا، وكان شُجاعًا قويًّا يُحبه قادة الجيش، كما كان مُحبًا لِلعمارة، ولم يُضارع عصره في المباني المملوكيَّة جمالاً سوى عصر الناصر محمد بن قلاوون.

3. تردِّي العلاقة مع العُثمانيين وبُروز الخطر الصفوي:

لقد امتازت العلاقات **العُثمانيَّة المملوكيَّة** بِالود والتقارب الشديدين، مُنذُ أن قامت **الدولة العُثمانيَّة** وأخذت على عاتقها فتح **بلاد البلقان** ونشر الإسلام في رُبُوعها، وخطب السلاطين العُثمانيين ودَّ السلاطين المماليك باعتبارهم زُعماء العالم الإسلامي والقائمين على حماية الخِلافة الإسلاميَّة، واعترفوا لهم بِالأولويَّة السياسيَّة والدينيَّة، وقد نظر المماليك لتحرُّكات العُثمانيين الجهاديَّة كجُزءٍ من المسألة الإسلاميَّة العامَّة. ولمّا فتح العثمانيون **القسطنطينية** سنة857هـ-1453م، اعتبر المماليك ذلك نصرًا عظيمًا لِعامَّة المُسلمين، واحتُفل في القاهرة بِهذا الحدث احتفالاً رائعًا، فزُينت الأسواق والحارات، وأوقدت الشُمُوع في الشوارع والمآذن، ودُقّت البشائر السُلطانيَّة في قلعة الجبل عدَّة أيَّام، وعمَّ السُكّان الفرح.

وقد شكّل **فتحُ القُسطنطينيَّة** الحد النهائي لِلعلاقات الوديَّة بين المماليك والعُثمانيين، فعند ذلك طُويت صفحة العلاقات الجيّدة بين الدولتين وفُتحت صفحة جديدة سادها العداء بِفعل تصادم المصالح، لا سيِّما بعد أن أوقف العُثمانيُّون فُتُوحاتهم في شبه جزيرة البلقان، وتحوّلوا إلى آسيا الصُغرى لاستكمال ضمِّها إلى مُمتلكاتهم في سبيل تسهيل تمويل حملاتهم الذاهبة إلى

إيران لِمُحاربة **الصفويين** الذين كانوا قد فرضوا **التشيُّع** على الإيرانيين وأخذوا يُحاولون التمدد نحو الأناضول والعراق لِنشر مذهبهم.

ونتيجةً لِضم العُثمانيين لِلجزيرة الفُراتيَّة، فُتح الباب أمامهم لِلتمدُّد باتجاه الأراضي العربيِّة لِتأمين خُطُوط استراتيجيَّة جديدة في الشّام والعراق تصل إلى المحيط الهندي، ويرتبط ذلك بضم بعض الأراضي المملوكيَّة؛ مما أدى إلى وقوع بضعة مناوشات بين العُثمانيين والمماليك بين سنتيّ 888 و896هـ -1483 و1491م نتيجة الخِلافات الحُدوديَّة، وانتهت بِعقد اتفاقيَّة سلام بين الدولتين بِوساطة **السلطان الحفصي زكرياء بن يحيى**.

وكان لِبُرُوز **القُوَّة الصفويَّة الشيعيَّة** على المسرح السياسي في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، دوراً في جعل العلاقة بين العُثمانيين والمماليك تدخل في طورٍ جديد. ففي سنة 913هـ-1507م هاجم **الشاه إسماعيل الصفوي**، مناطق الحُدود الشماليَّة الشرقيَّة الفاصلة بين دولته وبين دولة المماليك، مستغلاً الظُروف الاقتصاديَّة الصعبة التي كانت مصر والشّام تمُرُّ بها آنذاك، فهاجم الحدود عدة مرات، ورفض الهدنة مع المماليك، في الوقت نفسه تُوفي السُلطان العُثماني **بايزيد الثاني**، واعتلى ابنه **سليم الأول** العرش، الذي كان واعيًا ومُدركًا لِلخطر الصفوي، وقد عقد العزم على استئصال هذا الخطر قبل أن يستفحل، وكان السُلطان المملوكي آنذاك هو **قنصوه الغوري**، فلمّا بلغه خبر وفاة بايزيد الثاني حزن حُزنًا شديدًا وبكى عليه، ثُمّ صلّى عليه صلاة الغائب.

4. نهاية السلطنة المملوكيَّة:

كان كُل انتصار يُحققه العُثمانيُّون على الصفويين، يعني هزيمةً قاسيةً لِلمماليك، ويُؤدي إلى الانتقاص من هيبتهم بِصفتهم سلاطين المُسلمين وحُماة الخِلافة، كما أنَّ تهديد الصفويين لِكليهما لم يُخفف مُطلقًا من التناقُضات بينهما، فتصرَّفت كُل دولة بِمعزلٍ عن الأُخرى. وفي سنة 920هـ-1514م، انتصر **العُثمانيُّون** على **الصفويُّون** في معركة جالديران، وردُّوهم على أعقابهم إلى إيران، فكانت تلك مُفاجأة غير مُتوقعة لِلمماليك، فلم يبتهجوا لِهذا الانتصار، وخاب أمل **السُلطان قنصوه الغوري** الذي كان يود أن يقوم بِدور الوسيط بين العُثمانيين والصفويين لِيُوجِه السياسات العامَّة في المنطقة لِصالح الحُكم المملوكي.

وقد أدرك **السُلطان الغوري** أنَّ المُنتصر من الجانبين سيعمل على تصفية الموقف في المشرق العربي بِالاصطدام بالمماليك، ومن ثُمَّ كان عليه أن يتخذ موقفًا من التطوُّرات السياسيَّة والعسكريَّة السريعة، فرأى أن يلتزم الحياد تاركًا الدولة العُثمانيَّة وحيدة في مُواجهة الصفويين دون تبصُّرٍ بنتائج ما قد يقوم به الشاه إسماعيل في حال انتصاره من أعمالٍ عُدوانيَّةٍ مُتزايدةٍ ضدَّ المماليك.

وقد حاول **السُلطان سليم** استقطاب **الغوري** إلى جانبه، فأرسل بعثةً عُثمانيَّةً إلى القاهرة سنة920هـ-1514م، حاملةً اقتراحًا بِعقد تحالف بين العُثمانيين والمماليك لِمُحاربة الصفويين، لكنَّ المماليك رفضوا الاقتراح وتمسَّكوا بِسياستهم، مع تفضيل اتخاذ موقف الانتظار؛ مما اعتبر العُثمانيُّون سياسة المماليك هذه مظهرًا من مظاهر العداوة، وأخذوا يعتبرونهم العدو الرئيسي، وسعى السُلطان سليم لإيجاد سببٍ لِفتح باب الحرب مع الدولة المملوكيَّة والقضاء عليها في سبيل توحيد الجبهة الإسلاميَّة السُنيَّة في مُواجهة الصفويين في إيران، ومُواجهة الخطر البرتغالي المُتزايد في البحار الإسلاميَّة كذلك، فبادر السُلطان سليم إلى الاستيلاء على **إمارة ذي القدر التركمانية** المشمولة بِحماية المماليك، والتي تقع على الحدود بين الدولتين المملوكيَّة، والعُثمانيَّة، كما استغلَّ تطلُّع شُعُوب المشرق العربي إلى العُثمانيين كمُنقذين من الحُكم المملوكي الذي أصبح مُتعسفًا؛ لِيتقرَّب من عامَّة الناس.

بِالمُقابل، أزعج ضم **سليم الأوَّل إمارة ذي القدر**، **قنصوه الغوري**، فاعتبر تصرُّفهُ هذا بِمثابة إعلانٍ لِلحرب، وقرَّر أن يستعيد هيبته في المنطقة، فنادى بالتعبئة العامَّة، لكنَّهُ قوبل بِعرقلة الناس في مصر لِتدابير التعبئة هذه، وبِميل الناس إلى العُثمانيين، حتَّى أنَّ صُنَّاع الأسلحة أقفلوا دور صناعتهم، وتعالت في الشوارع التهديدات والشتائم المُوجَّهة ضدَّ السُلطان، وانخفضت درجة الانضباط في الجيش بِشكلٍ كبير، ورفض الجُنود المسير لِقتال العُثمانيين قبل حُصولهم على المال والمُكافآت واللُحوم، وأخذوا في التمرُّد وعاثوا فسادًا في الشوارع. أمَّا في الشَّام فقد أخذت المناطق الشماليَّة تخرج عن طاعة المماليك وتنضم طوعًا إلى العُثمانيين، وبدأ كثيرٌ من الأمراء يتعاطفون مع العُثمانيين ويُقيمون العلاقات السريَّة معهم.

ونتيجةً لِتلك العوامل أيقن **السُلطان الغوري** أنَّهُ غير مُستعد لِخوض غمار حربٍ كبيرة ضدَّ العُثمانيين الأقوياء، لكنَّ إصرار **السُلطان سليم** على الحرب جعل الغوري يُحاول التحالف مع الصفويين ضدَّ العدو المُشترك. وما أن بلغت أخبار هذه المُحاولة مسامع **السُلطان سليم**

حتّى اعتبر أنّ الغوري طعن الدولة العُثمانيّة من الخلف، فأعلن الحرب مُتهمًا إيّاه بِخيانة العالم الإسلامي.

وقد خرج **السُلطان الغوري** من مصر إلى الشّام لِلقاء العُثمانيين والحيلولة دون سيطرتهم على البلاد، فالتقى الجمعان عند مرج دابق شماليّ حلب، حيثُ دارت بينهما معركة هائلة في 25 رجب922هـ–8 آب(أغسطس)1516م، أفضت إلى **هزيمة المماليك، وانتصار العُثمانيين، ومقتل السُلطان الغوري نفسه.** وعمّت الفوضى في صُفوف الجيش المملوكي، فالتحق قسمٌ من المماليك بِالعُثمانيين في حين لاذ الباقون بِالفرار إلى مصر، وقد استثمر **السُلطان سليم** انتصاره بضم مدن عدة في بلاد الشام، منها: **حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبيت المقدس** وغيرها، وكان السُكّان يحتفلون بِمقدمه بِصُورةٍ لم يألفها أيٌّ سُلطانٍ عُثمانيٍّ من قبل.

وبعد مقتل مقتل **قنصوه الغوري** انتخب المماليك **طومان باي** خلفًا له، فعرض عليه السُلطان سليم مُجددًا أن يعترف المماليك بِسيادة العُثمانيين، ودفع خراج سنوي لهم، فأبى **طومان باي**، فبرز إليه **سليم**، فانهزم **طومان باي** على حُدُود الشّام الجنوبيّة وانسحب بسُرعةٍ إلى مصر، فتتبعه **السُلطان سليم** حتّى مدينة القاهرة، واتخذ المماليك رباطهم الأخير في قرية **الريدانية**، وفي29 ذي الحجة922هـ–22 كانون ثان(يناير)1517م، دارت بين الجيشان معركة هائلة، فانتصر فيها العُثمانيون برُغم الدفاع المُستميت لِلمماليك، ووقع **طومان باي** أسيرًا في يد العُثمانيين؛ بسبب خيانة أحد أتباعه له، فعامله السُلطان سليم بداية مُعاملةً كريمة، لكنّهُ أذعن في النهاية لإلحاح بعض القادة والأُمراء، فأمر بِإعدامه، فشُنق على **باب زويلة.**

وبِمقتل **طومان باي** سقطت **الدولة المملوكيّة**، وأصبحت الديار المصريّة والشّاميّة جُزءًا من **الدولة العُثمانيّة.** وفيما كان **السُلطان سليم** في القاهرة، بايعهُ عُلماء الديار المصريّة **بِالخلافة الإسلاميّة** بعد أن تنازل له عنها آخر خُلفاء بني العبّاس **المتوكل على الله**، وقدّم إليه شريف مكّة مفاتيح الحرمين الشريفين كرمزٍ لِدُخول الحجاز تحت جناح الدولة العُثمانيّة.

سادساً: السياسة والإدارة:

1. السلطنة:

تزعَّم دولة المماليك سُلطانٌ لم يتولّ الحُكم نتيجة لِحقٍ شرعيٍّ موروث، وإنما رشّحتهُ قُوّته ومواهبه وكثرة مماليكه لِتولّي ذلك المنصب. فإذا تُوفي السُلطانُ القائم أُتيحت الفُرصة لِأقوى الأُمراء أن يخلفه في الحُكم. ورُبما رأى ذلك الأمير أنّ الظرُوف غير مُواتية وأنّ هُناك من زُملائه الأُمراء من يُنافسه، فيلجأ في تلك الحالة إلى تعيين ابن السُلطان المُتوفى مكان أبيه، لا اعتقادًا من المماليك في أحقيّة ذلك الابن، ولكن كحلٍّ مُؤقت حتّى يتجلّى الموقف، وعندئذٍ يسهل على أقوى الأُمراء عزله واعتلاء عرش السلطنة بدله. ومع أنّ سُلطان المماليك تمتّع بِنُفُوذٍ واسعٍ في الدولة، وبخاصّةً فيما يتعلّق بِبعض الأُمراء وملأ المناصب الكُبرى في الدولة، وتوزيع الإقطاعات، إلا أنّهُ لم يستغنِ في أحوالٍ كثيرةٍ عن استشارة كِبار رجال الدولة في مهام الأُمُور، وبِخاصّةً في المسائل المُتعلّقة بِشن الحرب أو عقد السِلم.

ولِذلك وُجد في عصر المماليك **مجلس المشورة** الذي كان يُعقد بِرآسة **السُلطان** أو من يقوم بِالوصاية عليه، **وعُضويّة أتابك العسكر والخليفة العبّاسي والوزير وقُضاة المذاهب الأربعة، وأُمراء المئين وعددهم أربعة وعشرين أميرًا**. ولم يكن السُلطان مُلزمًا بِدعوة مجلس المشورة أو الأخذ بِرأيه، وإنما تُرك ذلك لِرغبة السُلطان ومشيئته.

وقد وُجد إلى جانب سُلطان المماليك عددٌ من كِبار المُوظفين، مُهمتهم مُساعدته في شُؤون الحُكم والإدارة. وعلى رأس هؤلاء المُوظفين الكِبار: **نُوّابُ السلطنة؛ والأتابك**، وهو **القائد العام لِلجيش المملوكي**، وقد أتاحت لهُ وظيفته التمتّع بِنُفُوذٍ كبيرٍ في الدولة؛ **والوزير** الذي تضاءلت وظيفته في عصر المماليك نتيجةً لِوُجُود **نائب السلطنة**، بِحيثُ لم تتعدّ اختصاصاته تنفيذ تعليمات السُلطان ونائب السلطنة والإشراف على شُؤون الدولة الماليّة. أمّا الإدارة المحليّة في المُدن والأقاليم فقد تولّى الإشراف عليها عددٌ كبيرٌ من الوُلاة اختيروا دائمًا من بين الأُمراء، بالإضافة إلى الشؤون السياسيّة والإداريّة، كانت إحدى مهام السُلطان المملوكي تتمثل في كسوة الكعبة وتعيين **أمير الحج** لِلإشراف على راحة وسلامة الحجاج، **وأوّل من كسى الكعبة من سلاطين المماليك كان شجر الدُّر**، التي أخذت معها كسوة الكعبة أثناء سفرها لِلحج، وسار على نهجها من تلاها من السلاطين.

2. الخِلافة الإسلاميَّة:

ورُغم أنَّ المماليك أعادوا إحياء **الخِلافة الإسلاميَّة** بعد سُقُوط خِلافة بغداد، ونقلوا مقر الخليفة إلى القاهرة، إلا أن **نظام الخلافة** كان في هذا العصر مُصطنعًا إلى حدٍ كبيرٍ، إذ كان **الخليفة العبَّاسي يُفوِّضُ السُلطان المملوكي** في كافَّة أُمُور الحُكم كالولاية والعزل، وتجهيز الجيش، وإعلان الحرب، وإقطاع الإقطاعيَّات وغيرها من الأُمور التي تتصل بالسُلطة التنفيذيَّة بحيث كان الخليفة العبَّاسي نفسُه يقع في دائرة هذه السُلطة، فلا أمرٌ له ولا نهي ولا نُفُوذ، فلم يكن لِلخليفة العبَّاسي في العصر المملوكي إلا سُلطة دينيَّة إسميَّة، ولم يكن له نصيبٌ سوى الدُعاء له على المنابر، وأن يحمل لقب أمير المُؤمنين. ومن مظاهر ضعف الخِلافة العبَّاسيَّة في القاهرة أنَّ الخليفة الذي كان يتحصَّن تجاه السُلطان المملوكي بِسلاح التفويض، لم تكن لهُ سُلطة تعيين نفسه، ولكي يُعيَّن كان عليه أن يحظى بِمُبايعة السُلطان وقُضاة المذاهب الأربعة. من هُنا كان باستطاعة السُلطان أن يعزل الخليفة، بعد استشارةٍ شكليَّةٍ لِلقُضاة الأربعة، وفي هذه الحالة قد يُسجن الخليفة في القلعة.

وكان يتم اختيار الخليفة عادةً في مجلسٍ يضُمُّ **السُلطان والقُضاة والأُمراء**، ويصحب اعتلاء كُل خليفة منصبه عدَّة مظاهر غايةً في الأُبَّهة والعظمة: من فحص نسبه، وتقليد السُلطان لهُ أمر الخِلافة بِالديار المصريَّة، وأخذ البيعة لهُ من القُضاة والأُمراء وسائر النَّاس.

ويُلاحظ أيضًا أنَّ الخِلافة في مصر أصبحت في ذلك العصر منحة يمنحها السُلطان لمن شاء ويصرفها عمَّن يشاء، وذلك لِعدم وُجود ثوابت لِتولية الخُلفاء العبَّاسيين في مصر. فكان أغلبهم يعهد بِالخِلافة لابنه من بعده، ثُمَّ لا يقوم السُلطان بتنفيذ ذلك في أغلب الأحيان، بل يُعيِّن ابن عم الخليفة أو أخًا له بدلًا من الابن. كما كان الأُمراء أنفُسهم يتدخلون في تعيين الخليفة بحال كان السُلطان ضعيفًا.

3. نيابة السلطنة:

كان **نائب السلطان** في العصر المملوكي "**سُلطانًا مُختصرًا، بل هُو السُلطانُ الثاني**"، أمَّا مهمته فكانت **مُساعدة السُلطان أثناء حُضوره، والقيام بِمهامه ومسؤوليَّاته أثناء غيابه.** ويُمكن لِنائب السلطنة أن يكون سُلطانًا آخر ــ بِالفعل دون الاسم ــ في حُضور السُلطان إذا فوضَّهُ الأخير بِتصريف شُؤون الدولة دون الرُّجوع إليه، أو إذا كان السُلطان صغير السن لا قُدرة له على القيام بأعباء السلطنة، فتُلقى تبعتها على نائب السلطنة بِتفويضٍ منه. وكان أبرز

نُوّابُ السلطنة هو **نائبُ الحضرة** أو **النائبُ الكافل** وهو **مُساعد السُلطان الأيمن** في تصريف شُؤون الدولة، ويشترك معهُ في توزيع الإقطاعات ومنح ألقاب الإمارة، ويُقيمُ إلى جانبه في القاهرة. وإذا كان هذا النائب ينوب عن السُلطان في حُضُوره صار لقبه «**نائب الحضرة**»، أمّا إذا كان لا يجوز لهُ أن ينوب عن السُلطان إلا في غيبته، فيكون لقبه «**نائبُ الغيبة**» وهو أقل درجة من الأوّل. وقد وُجد لِلسُلطان نُوّابٌ في أقاليم الدولة المُختلفة، ففي البلاد الشاميّة كان هُناك نُوّابٌ لِلسلطنة، وأعلى هؤلاء درجةً هو **نائب دمشق** الذي أُطلق عليه "**نائبُ الشّام**".

4. القضاء:

بقيام **السلطنة المملوكيّة** استمر **المذهب الشافعي** كمذهبٍ لقاضي القضاة، وجرى أهم تطوُّرٍ في النظام القضائي على يد السُلطان الظاهر بيبرس سنة663هـ–1265م الذي قام بِتحريم أي مذهبٍ عدا المذاهب الأربعة لأهل السنّة والجماعة، زذلك بعدما تقلّد **ابن بنت الأعز الشافعي** منصب قاضي قضُاة مصر سنة1261م، وتأخر في البت بالقضايا بسبب اختلاف المذاهب؛ مما اضطرّ قاضي القضاة للتوقف كثيراً في الأحكام التي تُخالفُ المذهب الشافعي، وتُوافق سواه من المذاهب حتى يستفتي فقهاءَها وعلماءَها، فأشار **الأمير جمال الدين أيد غدي العزيزي** على **الظاهر بيبرس** بِأن يُولّي من كُل مذهبٍ قاضياً مُستقلاً يحكم بمُقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك في اجتماعٍ بدار العدل، حيثُ قضى رأي السُلطان بتعيين قاضي قُضاةٍ لكل مذهبٍ من المذاهب الأربعة، مع بقاء الرئاسة **لقاضي الشافعيّة**، وأضحى لاتُقبل شهادة أحدٍ ولايُرشّح لوظائف القضاء أو الخَطابة أو الإمارة أو التدريس إلّا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب.

لقد قام **القُضاة** في العصر المملوكي بِدورٍ هامٍ في المُجتمع إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مُختلف أنواع القضايا المدنيّة والجنائيّة، وكانت جلسات المحاكم تُعقد في دُور القضاء، فإن لم تُوجد فإنها تُعقد عادةً في المساجد، كما وُجدت محكمةٌ عُليا تُعقد في دار العدل بِرئاسة السُلطان عُرفت باسم «**محكمة المظالم**» مُهمتها **النظر في القضايا التي اختصّ السُلطان بِالنظر فيها مُباشرةً أو التي يستأنفها أصحابها أمام السُلطان بعدما يحكم فيها القضاء العادي، أو تلك التي تنشأ بين الحُكّام والمحكومين**. أمّا رجال الجيش فكان لهم «**قُضاةُ العسكر**»؛ وهُم مُختصُّون بِشُؤون الجُند وليس لهم ولايةٌ على غيرهم، كما كانوا يفصلون في القضايا الناشبة بين العسكر والمدنيين، وقد جرت العادة أن يصحب قُضاةُ العسكر السُلطانَ في أسفاره.

وكان الإجراء المتبع في الدولة الإسلامية أن الحاكم العام (الخليفة أو السلطان أو الملك) هو من يعين كبار رجال القضاء ولم يخالفِ المماليكُ هذه السنّة، وكان في هذا حصانةٌ للقضاء ورجاله من الخضوع للتأثيرات المختلفة.

5. البريد:

تطلّب تحصين الأطراف والثُغُور إيجاد وسيلة نقل سريعة لِربط قلعة القاهرة بِسائر أنحاء البلاد بِهدف تلقّي الأخبار وإصدار الأوامر، وكان **أوّل من تنبّه إلى ذلك** هو **الظاهر بيبرس**، فوضع نظامًا خاصًا لِلبريد لِما لهُ من منفعة، وربط بِواسطته جميع أنحاء البلاد التي يحكُمها بِشبكةٍ من خُطُوط البريد البريّة والجويّة، وكان مركز هذه الشبكة هو قلعة الجبل في القاهرة. وتتفرّع من المركز أربعة فُرُوع هي: **فرعٌ** يتجه جنوبًا إلى قوص بِالوجه القبلي وما يلي ذلك من النوبة، **وفرعٌ** يتجه شرقًا إلى عيذاب، وسواكن على البحر الأحمر، **وفرعٌ** يتجه غربًا إلى الإسكندريّة وبرقة، **وفرعٌ** يتجه شمالاً إلى دمياط ومنها إلى غزة ثُمّ يتفرّع منها إلى سائر الشّام.

واقتصر عمل البريد على إيصال الأوامر السُلطانيّة إلى كافة النيابات في مصر والشّام، واستقبال الرسائل من حُكّام النيابات، واستقبال التقارير من وُلاة الأعمال. وأُقيمت المحطّات البريديّة على مسافاتٍ تبعُدُ إحداها عن الأُخرى اثني عشر ميلًا ورُبما تفاوتت المسافات بين بعضها البعض بِفعل وُجُود ماءٍ أو قرية. وزُوّدت بما يحتاج إليه ناقلُ الخبر من زادٍ وخيلٍ وعلفٍ، كما روعي في اختيار أماكنها توفُّر المياه أو وُجود قريةٍ قريبةٍ كي يستأنس البريديُّون بِسُكّانها.

كان لِقُرب هذه المحطّات بعضها من بعض أثرٌ كبيرٌ في تسهيل مُهمّة الرُسل على اجتياز المسافات بِسُرعةٍ فائقةٍ، وكان يُشرف على **البريد** صاحب **ديوان الإنشاء أو كاتب السر**، كما أضحى يُسمّى مُنذُ أيّام **قلاوون**. ولم يقتصر إرسال البريد بِالطُرُق البريّة، بل استُخدم **البريد الجوّي**، في الحلات المُستعجلة بِواسطة **الحمام الزاجل**، وخُصّص لهُ برّاجون يعتنون به ويُدرّبونه، كانت **قلعة الجبل بِالقاهرة** المركز الرئيسي لأبراج الحمام الزاجل، كما أُقيمت محطّات أُخرى في جهاتٍ مُختلفةٍ من أنحاء السلطنة تمامًا مثل محطّات البريد البرّي، لكن تزيد عليها في المسافة، وخُصّص لِكُلّ محطةٍ عدد من الحمام. فإذا نزل الحمام في محطّةٍ منها، نقل البرّاج الرسالة التي يحملها الطائر إلى طائرٍ آخر لِيُوصلها إلى المحطّة التي تليها.

وكان الحمام يقطع المسافة بين المحطّة والتي تليها، وهي سبعة أميال تقريبًا، في ثُلث الوقت الذي تقطعها فيه الخيل.

6. الدواوين:

اعتمد الجهاز الإداري الضخم لِلدولة المملوكيّة على مجموعةٍ من الدواوين الكبيرة التي ضمّت عددًا ضخمًا من المُوظفين لِإدارة مرافق الدولة المُتنوعة، وأهم هذه الدواوين هي:

أ. **ديوانُ الجيش:** ومُهمّته الإشراف على طوائف الجُند، وتوزيع الإقطاعات عليهم.

ب. **ديوانُ الإنشاء:** ومُهمّته تلقِّي الرسائل المُختلفة التي ترد إلى السُلطان وإبلاغها إليه وإعداد الرُدُود عليها، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد، وهي إدارةٌ ضخمةٌ في عصر المماليك تولّت شُؤون البريد البرّي والجوّي.

ت. **ديوان الأحباس:** أي **الأوقاف**؛ ويقوم صاحبه بِرعاية شُؤون المُؤسسات الدينيّة والخيريّة من مساجد ومدارس وزوايا، كما يُشرف على الأراضي والعقارات المحبوس عليها.

ث. **ديوان النظر:** وقد اختصّ بِمُراقبة حسابات الدولة، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بِصرف مُرتّبات المُوظفين.

سابعاً: الاقتصاد:

1. **الإقطاع:**

نشأ النظام الإقطاعي في الشّام خِلال العهد الصليبي نتيجةً لِعاملين: **أولاً،** كان الصليبيُّون يألفون نظام الحُكم السائد في بُلدانهم الأوروبية في ذلك الوقت، فطبقوه في المناطق التي استولوا عليها في المشرق الإسلامي، **وثانيًا،** لقد شعر الذين كانوا يُقاومون الصليبيين بِالحاجة إلى السيطرة على سُفُوح جبال لُبنان لِمُراقبة خُطُوط مُواصلات الجُيُوش الصليبيّة البحريّة والبريّة وقطعها أو تهديدها بِالقطع عند اللُزُوم.

وكانت جبال لُبنان الوُسطى والجنوبيّة آنذاك شبه خالية من السُكّان تقريبًا. لِذلك استقدم الحُكّام المُسلمون بعض القبائل الشديدة الشكيمة من أتباعهم وأقطعوهم تلك المناطق الجبليّة لِيجعلوهم يستقرُّون فيها ويتشبثون في الدفاع عنها. وكما في الشّام، اعتُمد نظام الإقطاع في مصر حيثُ كان أُمراء المماليك يُقطعون أراضٍ زراعيّةٍ واسعة يدفعون بِموجبها خراجًا سنويًّا

إلى السُلطة المركزيّة ويُزودونها بِحاجتها من الجُنُود عندما يتطلّب الأمر، أمّا في الشّام فقد قُسِّمت الأراضي على عددٍ كبيرٍ من الزُعماء الإقطاعيين – الذين اشتهروا باسم «**المُقاطعجيّة**» – المُنتمين إلى عائلاتٍ قويّةٍ عريقةٍ. وكذلك كان لِلموارنة في القسم الشمالي من جبل لُبنان عائلاتهم الإقطاعيّة الكبيرة. وكان الإقطاعيُّون فئات، فكان منهم **الأُمراء والمُقدّمون والمشايخ**.

وقدعامل المماليك الزُعماء الإقطاعيين في الشّام بِحسب الموقف الذي كانوا قد اتخذوه منهم. فقد كافأوا بِالخير أولئك الذين أيّدُوهم في حُروبهم ضدّ الصليبيين والمغول – كما أُسلف – **كالبُحتريين والمعنيين والشهابيين** وثبّتوهم في إقطاعاتهم. أمّا **الموارنة والشيعة** الذين كانوا يقطنون في النصف الشمالي من جبل لُبنان، والذين ساعدوا الصليبيين والمغول فقد انتقم المماليك منهم بعد تدمير معاقلهم بِأن انتزعوا إقطاعتهم ووزعوها على ثلاثمائة فارس تُركماني من جُنُودهم، وهُم الذين عُرفوا فيما بعد **بِآل عسّاف**، وعهدوا إليهم بِحماية الشواطئ اللُبنانيّة من شمالي بيروت إلى جنوبي طرابُلس.

وفي عهد المماليك البُرجيّة تحسّنت العلاقات بين الموارنة والشيعة والدولة المملوكيّة، فعاد الكثير من الموارنة إلى المناطق التي كان قد هرب منها أجدادهم، وقد تولّى السُلطان المملوكي بِنفسه توزيع الإقطاعات في مُعظم الحالات، وخُصوصًا في مصر.

فقد كان الإقطاع في عصر المماليك يرتبط ارتباطًا قويًّا متينًا بِديوان الجيش، حتّى لقد أُطلق على هذا الديوان اسم ديوان الإقطاع.

2. **الزراعة**:

أدرك سلاطين المماليك أهميّة الزراعة لِلبلاد، بِوصفها عماد الثروة القوميّة، لِذلك عنوا بها عنايةً فائقة، فأنشأوا الجُسُور وشقُّوا الترع لِتوفير مياه الري لِلأراضي التي يتعذّر وُصُول الماء إليها. ومن أهم السلاطين الذين عنوا بِهذه الناحية **السُلطان مُحمّد بن قلاوون** الذي عهد إلى بعض الأُمراء بِعمارة كافّة جُسُور مصر في الوجهين البحري والقبلي والكشف عليها، بل إنّ هذا السُلطان أشرف بِنفسه على إنشاء بعض الجُسُور، فكان يخرج أحيانًا مع المُهندسين لِيُوجههم حتّى يتم بناء الجسر.

وقد قُسِّمت أراضي مصر الزراعيّة إلى أربعة وعشرين قيراطًا اختصّ السُلطان منها بِأربعة قراريط، والأُمراء بِعشرة، وما تبقّى خُصص لِلأجناد. ورُوعي في ذلك التقسيم أن

تُوزَّع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت في مساحتها، وفي خُصُوبتها ومقدار ريعها. على أنَّ زمام الأرض فُكَّ وعُدِّل أكثر من مرَّة في عصر المماليك بعد مسح الأراضي الزراعيَّة في البلاد، وهي العمليَّة التي تُعرف باسم «**الروك**». وقد اشتهر في تاريخ دولة المماليك الروك الذي تمَّ في عهد **السُلطان لاجين** سنة697هـ–1298م، وقد ازداد محصول الأرض الزراعيَّة في مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك نتيجةً لِلعناية بِمرافق الزراعة من جُسُورٍ وترع ومقاييس النيل وغيرها.

3. **الصناعة**:

ارتقت الصناعة في عصر المماليك رُقيًّا كبيرًا حتّى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تُكوِّنُ في مجموعها إنتاجًا فنيًّا رائعًا ازدانت به متاحف العالم في القُرُون اللاحقة. شاع في ذلك العصر صناعة الأقمشة الفاخرة من الحرير، والصوف، والكتان، والقطن التي صُنعت منها الخُلع السُلطانيَّة والفرش والسُتُور والخيام. كذلك انتشرت المصنوعات المعدنيَّة التي تمثّلت في عددٍ كبيرٍ من الأواني النُحاسيَّة والطاسات دقيقة الصُنع ذات النُقُوش والكتابات العربيَّة الجميلة. وانتشرت في ذلك العصر صناعة تكفيت البرونز، والنحاس بالذهب والفضة، أمَّا الزُجاج فقد صُنعت منهُ أنواعٌ جميلة بعضُها من البلُّور الصخري المُحبب، والبعض الآخر من الزُجاج المُلوَّن المُستخدم في النوافذ. وكذلك الخزف الذي صُنعت منهُ أواني مُتقنة جميلة، وكان بعضها يُصنع بناءً على توصيةٍ خاصَّةٍ من السلاطين والأُمراء، ولِذلك زُيِّنت بِرنوكهم. كذلك لم تكن الصناعات الخشبيَّة أقل تقدُمًا في عصر المماليك، إذ ما زالت الأبواب والدكك والمشربيَّات وغيرها من المصنوعات الخشبيَّة الباقية من ذلك العصر تشهد على دقّة الصناعة وتقدُّم وسائلها. وكانت طرابُلس وصيدا وبيروت وبعلبك من أشهر مراكز صناعة السُكّر والزيت والصابون والزُجاج والفخّار والنسيج الحريري والصوفي والقُطني. وكان التُجّار الأوروبيون يُقبلون على شراء هذه المُنتجات إقبالاً شديدًا.

4. **التجارة**:

كان التجارة لها المقام الأوّل في النشاط الاقتصادي في العصر المملوكي، وأنها كانت المصدر الأوّل لِلثروة الهائلة التي عبَّرت عن نفسها في أعمال المماليك وحياتهم وما تركوه من آثارٍ ومُنشآتٍ فخمة. ويرجع السبب في النشاط التجاري الذي تميَّزت به مصر في عصر المماليك إلى انسداد مُعظم طُرق التجارة العالميَّة بين الشرق والغرب مُنذُ القرن الثالث عشر

الميلادي، بِسبب حركة المغول التوسُّعيَّة؛ وبذلك لم يبقَ آمنًا إلّا طريق البحر الأحمر ومصر؛ ممَّا جعل الدولة المملوكيَّة تقومُ في ذلك العصر بِدور الوسيط بين الشرق والغرب.

وفي البداية كانت الحركة التجاريَّة ضعيفة بِسبب انتشار روح العداء والكراهيَّة بين المُسلمين والأوروبيين نتيجة الحُرُوب الصليبيَّة، لكن ما أن خفّت حدَّة الكراهيَّة هذه، وتوقفت الغزوات والغارات، فتح المماليك أبواب ثُغُور الساحل لِلتجارة والحُجَّاج النصارى، فانتعشت الحالة الاقتصاديَّة، حتّى أنَّ بعض المُدن كبيروت ارتفع عدد سُكّانها نتيجة هذه السياسة من بضع مئات إلى نحو عشرة آلاف نسمة.

وقد أدرك سلاطين المماليك ما يُمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجيَّة من ثروة، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها وإنشاء المُؤسسات اللازمة لِلتُجَّار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها. كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية، وإلى التُجَّار الأوروبيين المُترددين على الإسكندريَّة ودُمياط من ناحيةٍ أُخرى. وقد أمر **السُلطان قلاوون** نُوّابه أن يُحسنوا مُعاملة التُجّار ويُلاطفونهم ويتوددون إليهم ولا يجبون منهم سوى الحُقُوق السُلطانيَّة، كذلك، كتب السُلطان قلاوون منشورًا إلى التُجَّار الذين يفدون إلى مصر والشّام من الشرق والغرب يصفُ لهم محاسن البلاد ويُغريهم على القُدُوم إليها بِمتاجرهم ويعدهم بِحُسن المُعاملة والإحسان إليهم.

ومما يدل على النشاط التجاري في عصر سلاطين المماليك انتعاش ثُغُور الدولة وموانيها، مثل أسوان بِالنسبة لِتجارة النوبة، وعيذاب بِالنسبة لِتجارة الصين والهند واليمن، ودُمياط والإسكندريَّة وطرابُلس وبيروت وصيدا بِالنسبة لِلتجارة مع القوى الأوروبيَّة، وخاصَّةً المُدن الإيطاليَّة.

أما التجارة الداخليَّة، فاشتهرت مُدن الشّام ومصر الكُبرى بِأسواقها الحافلة بِالبضائع، وإحكام الرقابة عليها من جانب **المُحتسبين** لِمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة.

وقد دفع الجشع سلاطين **دولة المماليك الشراكسة** إلى اتباع سياسةٍ احتكاريَّةٍ عنيفة، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور، وبالغوا في تحديد أثمانها، وبلغت سياسة الاحتكار أشدّها في عهد السُلطان **الأشرف برسباي** الذي أبطل التعامل **بِالنقد البُنْدُقي والفلورنسي** وسكّ **الدينار الأشرفي لِيكون أساسًا لِلتعامل مع التُجّار** الأوروبيين.

وقد ضاق الأوروبيون ذرعًا بِسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم، فاكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجري المُوافق لِلقرن الخامس عشر لِلميلاد، فكان ذلك إيذانًا بِتدهور مركز الدولة المملوكيّة التجاري في التجارة العالميّة، أدى ذلك لعدم استقرار الحياة الاقتصاديّة في عصر المماليك بِسبب تلاعب السلاطين بِالعملة، وحُدُوث الفتن والمُنازعات بين طوائف المماليك، إضافة إلى أن أهل مصر كانوا يعيشون تحت رحمة فيضان النيل، فإذا انخفض الفيضان حدثت أزمة اقتصاديّة في البلاد وارتفعت الأسعار واشتدّ الجُوع ورُبما انتشر الطاعون في البلاد وسقط الموتى في الطُرُقات دون أن يجدوا من يدفنهم.

ثامناً: الحياة العلميّة والفكريّة:

خُصّ عهد **الناصر محمد بن قلاوون** بلقب «**عصر الموسوعات**» لظهور **موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأبصار** (كتاب في الجغرافية والتاريخ والأدب وعلم الاجتماع والطبيعيات) لرئيس ديوان الإنشاء **شهاب الدين العمري، وموسوعة نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري، وموسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي،** ويصلح إطلاق لقب **العصر الموسوعي** على مجمل **العصر المملوكي** لشيوع التأليف الموسوعي بحفْزٍ من حيوية المجتمع المسلم لجمع التراث العربي الإسلامي وحفظه من الاندثار بعد الضياع الكبير الذي لحقه بسبب الغزو المغولي، فشاع نمط **الكتابة الموسوعية؛** فقد ألف **ابن منظور** معجمه اللغوي الجامع **(لسان العرب)** الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة، **وابن النفيس** الذي ألف موسوعته الطبية الصيدلانية «**الشامل في الطب**»، التي أمضى بتأليفها أكثر من ثلاثين سنةً، وترك منها ثمانين جزءاً، كما شاعت المختصرات والتعليقات، وحتى ظهرت الانتحالات وهو ما كان غريباً دوماً على الحضارة الإسلامية.

وقد اهْتَمّ المَماليكُ بِالعِلْمِ، فَكان لِلْعُلَماءِ في عَهْدِهِمْ مَكانَةٌ كَبيرَةٌ، فأَكثَرَ سلاطينُ المماليك من بناء المدارس والجوامع والرُّبَط، فأنْشأُ **الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية، والناصر محمد** أنشأ **المدرسة الناصرية،** كما أنشأ **السلطان حسن** أكبر بناءٍ مدرسيٍّ في العالم (7900م²) في القاهرة عُرف باسم **مسجد ومدرسة السلطان الناصر،** كما زخر العصر المملوكي بعددٍ كبيرٍ من مشاهير العلماء الذين أثروا الحركة العلمية، مثل **الحافظ النووي صاحب كتاب رياض الصالحين** في الحديث، **والعز بن عبد السلام** العالم الفقيه المعروف الملقب بـــ"**سلطان**

العلماء"، **وابن تيمية، وابن القيم الجوزية، والحافظ المزي، وابن حجر العسقلاني، وشمس الدين الذهبي، وابن كثير، والمقريزي، وابن تغري بردي، والقلقشندي، وابن خلدون، وابن قدامة.**

أما بالنسبة المجال الطبي فكانت القاهرة ودمشق وحماة من أهم مراكز طب العُيُون في العالم، خرّجت عدداً من الأطباء الأفذاذ ممن كانوا حُجّة ومرجعاً في هذا العلم مثل **خليفة بن أبي المحاسن الحلبي** الذي ألّف كتاب «**الكافي في طب العيون**» وفيه شرح إجراء عملية الكتاراكت، وأيضاً **صلاح الدين بن يوسف** من حماة الذي ألف كتاباً في طب العيون أسماه «**نور العيون**».

وفي الملاحة البحرية شاعت مؤلفات وابتكارات **أحمد بن ماجد** الذي ألف **أرجوزةً في الملاحة** يحفظها الربابنة والبحارة لاستذكار تعليمات الإبحار والأنواء، وترك موجزاً في الملاحة النظرية والعملية، وكان لابن ماجد دورٌ هامٌّ في تطوير **البوصلة**، فكان أ**ول من ثبّت إبرةً مغناطيسيةً على سنّ**، وكان قبلئذٍ يتم حك إبرة البوصلة بالمغناطيس ثم وضعها فوق إناءٍ فيه ماء بحيث تطفو على عودين صغيرين من الخشب فتشير إلى الشمال، ولكن بعد اختراع ابن ماجد أصبحت تتحرك حرةً دونما حاجةٍ إلى وعاء الماء.

ويعود التطور العلمي في الدولة المملوكية لاهتمام سلاطين المماليك بالعلم، وتشجيعهم للعلماء، وقد ألحقت بكل مدرسةٍ خزانة كتبٍ يرجِع إليها المدرسون والطلاب في البحث والاستقصاء، فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفُتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك وكتب له إجازةً يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك.

كما أن الحياة العلمية في مدارس العصر المملوكي لم تخلُ من ضروب الترويح عن النفس فأقيمت في المدارس بين الحين والآخر حفلات لمختلف المناسبات العلمية كختم البخاري أو الفراغ من تصنيف كتابٍ أو غير ذلك، وكانت الأوقاف والأحباس هي التي ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها ومكنتها من القيام برسالتها في عصر المماليك. كان تعليم الطلبة مجانيّاً حسبةً لوجه الله إضافةً لضمان المسكن والكساء وبعض المقررات النقدية والعينية الأسبوعية أو الشهرية، إلا أنها كانت في أحيانٍ قليلةٍ تختلف من طالبٍ لآخر وفق ما يراه ناظر الوقف ما يؤدي إلى التحاسد بين الطلبة بسبب نقص مقرر أحدهم عن زميله.

تاسعاً: الحياة الاجتماعيَّة:

1. الأعياد:

امتازت الحياة الاجتماعيّة في مصر والشّام زمن المماليك بِكثرة الأعياد الدينيَّة والقوميّة، والمُبالغة في إحياء تلك الأعياد. ففي الأعياد ذات الصبغة الدينيَّة كان الناس يتبادلون التهنئة ويُقيمون الولائم ويتصدّقون على الفُقراء، ويُبالغون في إظهار السُرُور، وربَّما جاءت هذه الأعياد مصحوبة بِبعض المواكب – مثل الاحتفال **بِدوران المحمل** – وعندئذٍ يخرج الناس من كُل مكانٍ لِلفرجة، ويُزيّن أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بِالحرير والحُليّ.

أمّا في الاحتفالات القوميَّة مثل **الاحتفال بِوفاء النيل أو تولية سُلطان جديد،** فكان السُلطان عادةً يشق القاهرة في موكبٍ حافلٍ وقد فُرشت الشوارع بِشقق الحرير، وأقام الأُمراء القلاع – وهي أقواسُ النصر – في طريق السُلطان. وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السُلطان عائدًا مُنتصرًا من ميدان الحرب، إذ يُبالغ الأُمراء والناس في الزينة؛ ويقوم نائب السلطنة بِإحضار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كُلِّها.

2. طبقات الناس:

كان المُجتمع المملوكي مُجتمعًا طبقياً تَميَّز بِكثرة طبقاته، إذ إنَّ طبيعةَ حُكم المماليك الأغراب عن البلاد، وانعزالهم عن أهل البلاد وعن انخراطهم في سلوكهم، أدّى إلى ظُهُور طبقةٍ مُتميِّزةٍ في المُجتمع تمتلكُ زمام الحُكم فيه هي **طبقة المماليك** أصحاب السيادة والنُفوذ، كما ظهرت أيضاً الطبقات الأخرى، ويُمكن تقسيم سُكّان مصر والشّام في العصر المملوكي إلى **ثماني طبقاتٍ: طبقة المماليك، وطبقة المُعمَّمين، وطبقة التُجّار، وطبقة طوائف السُكّان أرباب المهن في المُدن، وطبقة أهل الذمّة، وطبقة الفلاحين، وطبقة الأعراب، وطبقة الأقليّات الأجنبيَّة.**

وقد عاش **المماليك** أنفُسهم طبقة أرستقراطيَّة يحكمون البلاد ويتمتعون بِالجُزء الأكبر من خيراتها دون أن يُحاولوا الامتزاج بِأهلها إلا قليلاً، أمّا **عامّة الشعب** فقد استطاع بعض فئاتهم -مثل المُعممين والتُجّار- أن يحتفظوا لِأنفُسهم بِمكانةٍ مرموقةٍ في المُجتمع ومُستوىً لائقٍ من المعيشة، في حين عاش غالب أهل البلاد من العوام والفلاحين حياةً أقرب إلى البُؤس والحرمان.

3. الترفيهات:

رغم عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي ساد البلاد التي سيطر عليها المماليك إلا أن الناس عاشوا عيشةً مرحة، فحرصوا على الإقبال على وسائل التسلية، والخُرُوج إلى الحدائق العامّة، والرغبة في سماع الموسيقى، والغناء، والتلهّي بِمُشاهدة خيال الظل، ومُشاهدة نطاح الكباش، ومناقرة الديوك.

ومن أبرز وسائل الترفيه والتسلية آنذاك كان الجُلُوس إلى المقاهي والاستماع إلى الحكواتيّة الذين كانوا يروون القصص العربيّة الخُرافيّة مثل: ألف ليلة وليلة، وسير أبطال الإسلام السابقين كالظاهر بيبرس وصلاح الدين الأيُّوبي، وقد تخصصت بعض المقاهي بِقص سيرة الظاهر بيبرس، وعُرفت باسم «**المقاهي الظاهريّة**»، وأُخرى بِقصص أبي زيد الهلالي، وعُرفت باسم «**المقاهي الهلاليّة**»، وغيرها.

4. اللُغة والمُصطلحات:

كانت **العربية** هي اللُغة الأولى السائدة بين جميع **أطياف الشعب** في العصر المملوكي، أمّا **سلاطين المماليك** فقد تحدثوا **التركية القفجاقيّة** كلُغةٍ أُم.

ورُغم من أنّ **المماليك البُرجيّة** كانوا **شراكسة،** فإنهم تحدثوا **التُركيّة** كذلك كونها كانت لُغة أسيادهم **المماليك البحريّة،** فلقّنوهم إيّاها بِمُجرّد قُدومهم إلى مصر، فكان من نتيجة ذلك أن تترّك هؤلاء لُغةً وثقافةً.

والفترة التي عاشها العرب في ظل الدولة المملوكيّة مع غيرهم من الأعراق كالتُرك والشركس والمغول والأرمن، أفضت إلى تأثُّرهم بِثقافهم هذه الأقوام مثلما تأثّر هؤلاء بِالثقافة العربيّة، وكان من نتائج هذا التأثير أن ألقت كُل ثقافة بِظلالها على الأُخرى فأوحت إليها ببعض الألفاظ والتعابير الاصطلاحيّة التي كانت تنمو مع نُموّ الأزمنة وتخضع لِتطوُّراتها، واستمرّ بعضها صامدًا في مصر والشّام إلى اليوم. ومن أبرز تلك المُصطلحات :**الأعلام** التي تُستخدم اليوم بِمعنى الرايات، ومعناها الأصلي الرّاية العظيمة المصنوعة من الحرير الأصفر المُطرّز بِالذهب وعليها ألقاب السُلطان واسمه، ومنها أيضًا **الأوباش** وهو لفظٌ أُطلق في العصر المملوكي والعُثماني على **الجماعات المُثيرة لِلشغب والتي كانت تقوم بين الحين والآخر بِأعمال النهب والاعتداء على الآمنين وقطع الطُرق على التُجّار والوافدين**. وكذلك

بقسماط، وهو **ضربٌ من الخُبز الجاف المُقطّع يُستعمل أثناء الطوارئ حين لا يتوفّر الرغيف الطازج**، وما زال هذا المُصطلح يُستخدم في مصر وشمال الشّام، والكثير من الألفاظ.

عاشراً: العمارة:

اهتم حُكَام الدَولة المَمْلُوكِية بالعِمَارة، وخَاصة **الناصر محمد بن قلاوون**، والذي أكثر مِنْ بِنَاء العَمَائِر حَيْثُ يُعَد عصرُه من أزْهى عُصور الدَوْلة المَمْلُوكِيَة، ومِن أَهم مُنشآته في مَدينَة القاهرة **المَيدان العَظيم، والقصر الأَبْلق بالقلعة، والإيوان ومَسْجِد القَلْعَة، والمَيْدان الناصري، وبُسْتَان بَاب اللوق، وقَنَاطِر السباع**، ومن بَيْن الأَعْمالِ العَظيمَة التَي أُنجزت في عَصْر الناصِر مُحَمَّد حَفْر قَناة مِن الإسكندرية إلى فوة، وبِذَلك أَعادَ وَصْلَ الإسْكَنْدَرِيَة بِالنيل، وبَلَغَ اهْتِمامُ النَاصِر بالعِمارَة أَنْ أَفْرَدَ لَها **ديوانًا**، وبَلَغَ مَصْروفُها كُل يَوْمٍ اثْني عشر أَلْف دِرْهَم.

وقد تمثلت العمارة في الدولة المملوكية عامة في المساجد، والقبور، وبالنسبة لعمارة المساجد في الدولة المملوكية فقد احتفظت بالتقاليد السابقة الموجودة في الدول السابقة للدولة المملوكية؛ فهي مؤلّفة من صحن مكشوف تحفُّ به أربعة أروقة، ومن حرم مغطى، وقد أخرجت لنا العمارة المملوكية العديد من المساجد الشهيرة منها: **مسجد بيبرس الأوّل**، والذي تم إنشاؤه سنة667هـ-1269م، وهو من أقدم المساجد المملوكية، وبالنسبة لآخر مسجد مملوكي هو **مسجد السلطان مؤيد** (854هـ-1450م)، وقد تم إنشاء العديد من المساجد المهمة، ومنها **مسجد السلطان قلاوون** (684هـ-1285م)، ويُعدُّ من أهمِّ المساجد المملوكيَّة وأجملها، وهو مجموعةٌ معماريَّةٌ تتضمَّن بيمارستانًا، ومسجدًا أُلحقت به مقصورات للطلاب، ثم **ضريح السلطان**، وتبدو واجهة هذه الأبنية شديدة الزخارف مؤلّفة من مشاكٍ عالية ذات أقواسٍ منكسرة، وهناك أيضا **مسجد ومدرسة السلطان حسن**(764هـ-1363م)، والذي يعد نموذجًا معماريًّا متميّزًا، حيث يقوم البناء على سطح منحدر، يبدو بمدخله الفخم وقد سبقه درج يوصل إلى دهليز يُؤدّي إلى الصحن المربّع الشكل، تنفتح من جهاته الأربع إيوانات ذات قبّةٍ منكسرة، ولكن الإيوان المجابه للمدخل هو الأوسع، وفيه محراب القبلة، وفي وسطه مقصورة مرفوعة، وإلى جانبي المحراب بابان يصلان الحرم بصالةٍ كبرى ذات قبّة؛ هي مدفن السلطان حسن، وتتّصل الأواوين الجانبيّة بغرفٍ ومقصوراتٍ تُشكِّل مدرسةً بذاتها، تسمح بإقامة

الطلاب وبدراستهم، وتنهض في مقدِّمة البناء مئذنتان، وهناك في الشام مساجد تعود إلى ذلك العصر أنشأها نوَّاب السلطان، وبالنسبة لمآذن الجوامع المملوكية فقد اهتمَّ المعمار عمومًا بتزيين المآذن بالمقرنصات أو بالقيشاني، وغيرها، وقد ظهرت المئذنة المزدوجة الرؤوس كما في **مئذنة الغوري** في **الجامع الأزهر**، وتُزيّن المساجد المملوكية سقوف مدهونة وزجاج ملوّن في النوافذ، وتنزيل الرخام في الجدران، مع تبليطات هندسيَّة، كما تُزيّن واجهات هذه الأبنية كسوات رخامية أو حجرية حمراء أو بيضاء، ومحاريب شاقولية ومقرنصات، ويتميَّز مسجد قايتباي أيضا بمزايا زخرفيَّة متميِّزة.

وهناك العديد من العمائر الأخرى التي اهتم المماليك بإنشائها، مثل: **المدرسة** وكانت مؤلّفة من إيوانين متقابلين مفتوحين على صحن، وقد تلحق بالمدرسة -غالبًا- أضرحة ومصليّات، وظهر في هذا العصر بناء الجامع والمدرسة، وأنشأ المماليك أيضا **الخانقاه** والتي كانت **أشبه بمدرسة مخصَّصة للصوفيَّة أو للتجار**؛ حيث يكون لهم جناح في هذا المبنى لمزاولة أعمالهم، **والخانات** هي **فنادق للمسافرين والقوافل تتكون من طابقين أو أكثر، الطابق السفلي مخصَّص لحفظ البضائع والدواب، والطوابق العليا للسكن، والوكالات** وكانَت مخصَّصة **للتجار المسافرين**، وبالنسبة لعمارة **المدافن**، والتي كانت من من أكثر المنشآت المعمارية انتشارًا في ذلك العصر، وفيها كانت القبة تأخذ شكل التربة، وكان بعضها مستقلاً، وبعضها الآخر ملحقًا بمنشآت أخرى، وتغطي الصالة المدفنية قبة ذات رقبة دائرية أو مضلعة تنفتح فيها نوافذ عدة، محمولة على عنق مثمن، وتبدو القبة شديدة الارتفاع مقطعها قوسي، مزينة بالمفصصات -حيث كانت زخرفة إهليلجية ناتئة أو غائرة- أو المِشْبَكات الهندسية أو النباتية، ومازال حتى اليوم ما يقرب من خمسة وخمسين مدفنًا متبقيا منهم.

وللعمارة المملوكية مميزات مع أنها كانت محصلة الفنون المعمارية التي ظهرت قبل هذا العصر، إلا أنه امتاز بنضج الزخارف واستخدامها للحجر والآجر والإكساء بالرخام مع زيادة الاهتمام بطراز الأعمدة والدعامات من الرخام والغرانيت، واستعمال موفق لأعمدة قديمة، وأيضا فقد اهتم المعمار بواجهات المنشآت إذ ظهرت عناصر زخرفية جديدة بدت على شكل مقرنصات وشرّافات مسننة مع الاهتمام برشاقة المآذن وزخرفتها حجريًا، وازداد الاهتمام بالمداخل الشامخة التي تظهر واضحة في بناء **مسجد السلطان حسن ومدرسته** في

القاهرة. إضافة إلى المشربيات والشناشيل في عمارة القصور والبيوت التي تحقق الإطلال الخارجي مع احتجاب النساء، كما تحقق تكييفًا هوائيًا.

وبالنسبة **للقصور** في العصر المملوكي فقد اهتم المماليك بها، وقاموا بترميم بعض القصور، حيث هناك قصران من العصر الأيوبي رُمِّما في **عصر بيبرس وقلاوون**، وهما **قصر الهواء** في القلعة، **وقصر نجم الدين** في جزيرة الروضة، وقد أنشأوا أيضا بعض القصور، مثل: **القصر الأبلق** الذي أنشأه **بيبرس** في دمشق، وقصرٍ مماثلٍ له في القاهرة أنشأه قلاوون، وبالنسبة للعمارة العسكرية المملوكية، فأنشأ المماليك **قلعة قيتباي** في الإسكندرية، وفي رشيد.

حادي عشر: الجيش:

وُصفت الدولة المملوكيَّة بِأنها «**دولة إقطاعيِّة حربيَّة**». فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة في اقتنائهم نبعت من فكرة أساسيِّة واحدة هي تكوين فئة من المُحاربين الأشدَّاء وإعدادهم لِيكونوا درعًا حاميًا لِأساتذتهم الذين قاموا بِشرائهم وتعهدوهم بِالتربية. ولا يكاد المملوك يُدرك سن البُلُوغ حتّى يُشرع في تعليمه فُنُون الحرب، من الرمي بِالنشّاب واللعب بِالرِّمح ورُكوب الخيل وأنواع الفُرُوسيِّة. وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة التعليميَّة ينتقل إلى الخدمة ويمر بِأدوارها رُتبةً بعد رُتبة حتّى يصير من الأُمراء.

وقد تكوِّن **الجيش** في عصر سلاطين المماليك من **ثلاث فرق أساسيِّة، الفرقة الأولى** كانت طائفة **المماليك السُلطانيِّة** – أي مماليك **السُلطان القائم بِالحُكم** – وكانو أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدُّهم قُربًا وأوفرهم إقطاعًا، ومنهم تُؤمر الأُمراء رُتبةً بعد رُتبة، **والفرقة الثانية** تشمل **طائفة مماليك الأُمراء**، أي **الذين اشتراهم الأُمراء المُحيطون بِالسُلطان**، كُلٌ حسب درجته ورُتبته، وتعهدوهم بِالرعاية، ومن هؤلاء كانت **تتكوِّن الوحدات الحربيِّة التي تُرافق السُلطان في حُرُوبه**، وكُل واحدة تتألّف من أمير على رأس مماليكه. وأخيرًا تأتي **الفرقة الثالثة** وهم طائفة **أجناد الحلقة**، وهُم **مماليك السلاطين والأُمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجُنديَّة وأصبحوا بِمثابة جيش ثابت لِلدولة لا يتغيِّر بِتغيُّر السُلطان**، ويُشرف على كُل ألفٍ منهم وقت الحرب **أمير مائة مُقدَّم ألف**، أي أمير لهُ الحق في امتلاك وشراء مائة مملوك لِنفسه ويقود في وقت الحرب ألف جُندي من أجناد الحلقة.

وكان السُلطان لا يُقدم على حربٍ عادةً إلا بعد استشارة **مجلس الجيش** الي يضم **كبار الأُمراء** فضلاً عن **الخليفة وقُضاة القضاء الأربعة**، فإذا تقرَّرت الحرب جمع الجُند وأقسموا اليمين الطاعة والولاء لِلسُلطان، وعندئذٍ تفتح السلاح خانة أبوابها لِتوزيع السلاح على المُحاربين.

أمَّا عن نظام الجيش وقت المعركة فكان يقوم على أساس ترتيب الجُند على هيئة صُفُوثٍ مُتراصَّة تُكوِّن **أقسام الجيش الثلاثة** – وهي **القلب والميمنة والميسرة** – فضلاً عن **المُقدِّمة**، ويكونُ **القائد العام** لِلحملة عادةً في **قلب الجيش**، ورُبما في مُقدمته لِيستثير روح الإقدام والشجاعة في الجُند.

وكانت **الطُبُول والمُوسيقى** جُزءًا أساسيًّا في الجيش المماليكي، فكانت تُحملُ على عشرين بغلاً، ويُعتمدُ عليها في تنظيم الحركة وإعطاء الإشارات بِبدء القتال. أما **الأعلام والرَّايات** التي كانت تتقدَّم الجيش ويلتف حولها كُلُ قسمٍ من أقسامه

وكان المماليك فُرسانًا قبل كُل شيء واعتمد نظامهم بِصفةٍ أساسيَّةٍ على **الفُرُوسيَّة**. لِذلك كان الجيش المماليكي يتألّف أساسًا من **الفُرسان**، الأمر الذي جعلهم يهتمُّون بِالخُيُول اهتمامًا بالغًا، ويُعيّنون كبار المُوظفين لِلإشراف عليها وعلى أدواتها وعددها كاللجم والسُرُوج وغيرها. فضلًا عن الإنفاق بِسخاءٍ على الإسطبلات الخاصَّة بِالخيل.

كما اهتم المماليك بشئون البحر والأُسطول، فقد وصفها المُؤرخون المُعاصرون لها بأنها **دولة البرِّين والبحرين**، بِمعنى أنها ملك برِّ مصر وبرِّ الشّام، وأطلّت على البحرين: بحرُ الرُّوم (المُتوسِّط) والقلزم (الأحمر).

ويُعزى إعلاء شأن الأُسطول الإسلامي زمن المماليك إلى **السُلطان الظاهر بيبرس**، إذ منع الناس من التصرُّف في الأخشاب وتقدَّم بِعمارة السُفن في ثغريّ الإسكندريَّة ودُمياط، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بِمصر ويُرتِّب ما يجب ترتيبه من عمل السُفن ومصالحها، واستدعى كبار الصنّاعين إلى مصر، فصار لديه عدد ليس بِقليل من السُفن بِمختلف أنواعها، منها **الشواني والحراريق والطرائد**

وكان دافع المماليك لِلإهتمام بِالأُسطول هو أنّ آخر ما استرجعوه من بلادٍ خاضعةٍ لِلصليبيين كانت ثُغُورًا ساحليَّة، كما أنّ الحُرُوب الصليبيَّة تحوَّلت من معارك بريَّة إلى معارك

بحريّة بعد طرد الصليبيين نهائيًا من بلاد الشّام في أواخر القرن التاسع الهجري المُوافق لِلقرن الثالث عشر الميلادي.

ولقد ظلّ الأُسطُول في عصر سلاطين المماليك يقوم بِدوره كاملاً في الدفاع عن البلاد الإسلاميّة ومُهاجمة الأعداء حتّى نهاية تلك الدولة، ففي أواخر عصر المماليك تسرّبت عوامل الضعف التي نخرت في عظام الدولة وبالعديد من أجهزتها إلى الأُسطُول، فتراجعت قُوّته وسطوته على البحار، وتهاوى أمام الأساطيل البُرتُغاليّة التي كانت قد برزت على الساحة بِوصفها قُوّة عالميّة فتيّة.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم علي طرخان: **مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة**، القاهرة1960م.
2. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولي1987م.
3. ابن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2 1982م.
4. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة،القاهرة 1963م.
5. حكيم أمين عبد السيد: **قيام دولة المماليك الثانية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة1966م.
6. ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت1979م.
7. ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت1398هـ = 1978م.
8. سعيد عبد الفتاح عاشور: **العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية،القاهرة، ط1 الأولي1965م.
9. السيد الباز العريني: **مصر في عصر الأيوبيين**، القاهرة1960م.
10. أبو شامة: **الروضتين في أخبار الدولتين**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة1962م.
11. الطبري: **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
12. ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.
13. القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.
14. ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة1987م.
15. الكندي: **الولاة والقضاء**، نشر رفن جست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت1908م.
16. محمد جمال الدين سرور: **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق**، دار الفكر العربي، القاهرة1957م.
17. محمد عبد الله عنان: **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ = 1959م.
18. محمد كرد علي: **خطط الشام**، دمشق،1925م.
19. المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفي زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1956م.
20. النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، تواريخ مختلفة.
21. ابن واصل الحموي: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق الشيال، القاهرة 1953م.
22. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت1979م.


دراسات في التاريخ الإسلامي -إعداد: أ. حسن أبو حلبية
الفصل السابع
المسلمون في الأندلس
(92-798هـ)

الفصـــل السابـــع

المسلمون في الأندلس (92-798هـ)

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية في الجنوب الغربي من أوروبا على مُثَلّثٍ من الأرض يضيق مع التوجُّه نحو الشرق، ويتسع غربًا، مُقابل السواحل الشماليّة للمغرب العربي، حيثُ يفصل بينهما **مضيق جبل طارق**، وتتصل في الشمال بفرنسا بِواسطة سلسلةٍ جبليّةٍ تُعرف **جبال البرتات، أو البرانس، أو البيرنيه**، وهي جبالٌ شاهقة تمتد من منطقة برشلونة في الشرق حتّى مدينة بيونة في الغرب، وتتخلّلها شعابٌ ضيّقة وممرّاتٌ وعرة أشهرها **باب الشزري** المعروف أيضًا **بِممر الرونسڤال**.

وتحيط المياه بِشبه الجزيرة من كُل جانب، ممّا حدا بِالجُغرافيين المُسلمين إلى وصفها بِالجزيرة تجوزًا، إذ يمتد البحر المتوسط على طول ساحليها الشرقي والجنوبي من السُطوح الشرقيّة لِجبال البرتات حتّى مضيق جبل طارق، الذي يفصل شبه الجزيرة عن شمالي أفريقيا، بما لا يزيد عن اثني عشر ميلاً، ويلتقي عنده البحر المُتوسِّط بالميحط الأطلسي الذي يُطوّق شبه الجزيرة من ناحيتيّ الغرب والشمال، حتّى الحد الغربي لِجبال البرتات حيثُ يُعرف في هذه الناحية الشماليّة بالبحر الكانتبري أو خليج بسكاي، وبِذلك تنعزل شبه الجزيرة عن جيرانها، كما تُشكِّلُ جبال البرتات سدًا يحولُ دون اتصال أيبيريا وفرنسا، وأنّ منطقة جبل طارق تجعل الاتصال مع المغرب أكثر سُهُولةً ويُسرًا، لِذلك أضحت شبه جزيرة أيبيريا تُقبل بِوجهها على شمالي أفريقيا وتُولي ظهرها لأوروبا.

وتنوَّعت الخصائص الجُغرافيّة لأيبيريا من تبايُن سطح الأرض، وتعدُّد الأقاليم المُناخيّة، والغطاء النباتي.

أولاً: الوضع السياسي والاجتماعي قبل الفتوحات الإسلامية:

كانت **مملكة القوط الغربيين** قائمة في شبه الجزيرة الأيبيريَّة مُنذ سنة 418م، عندما خلع الملك «**واليا**» ما بقي من الطاعة للرومان، وضرب النُقود باسمه وفرض الضرائب على رعاياه من القوط والغاليين، وفي الوقت الذي فتح فيه المسلمون بلاد المغرب، كانت المملكة القوطيّة في أيبيريا المُقابلة تشهد تطوُّرات سلبيّة مُتلاحقة أدّت إلى انحلالها وضعفها.

وتجلّت مظاهر الانحلال السياسي بين أفراد الطبقة الحاكمة، ذلك أنّ نظام الحُكم القوطي كان ملكيًّا قائمًا على مبدأ الانتخاب، حيثُ يجتمع النُبلاء ورجال الدين، بعد وفاة الملك، لاختيار خلفٍ له من بينهم.

ونظرًا لِطبيعة التنظيم القبلي لِمُجتمع المملكة القوطيّة، حاول بعض المُلوك الخُروج على هذا المبدأ وجعل نظام الحُكم وراثياً؛ ممّا أدّى إلى إثارة التنافُس بين الطامعين في العرش، حتّى أضحى تاريخ الملكيّة القوطيّة، في أواخر عهدها، سلسلة من المُؤامرات والاغتيالات والحُروب الداخليّة.

ولم يلبث الصراع الداخلي أن دخل مرحلته الأخيرة في عهد **الملك إخيكا**، واستمرّ في عهد خُلفائه، وأدّى إلى ضعف المملكة وسُقوطها بيُسر في أيدي المُسلمين، فقد خرج **إخيكا** على قرارات المجامع المُتعددة حين أشرك معهُ ابنه **غيطشة** في الحُكم تمهيدًا لِتعيينه خلفًا له، وأقدم في الوقت نفسه، على سمل عينيّ **الدوق تيودوفريدو**، مُرشّح المُعارضة، فانسحب هذا من الحياة السياسيّة مع ابنه لُذريق **(رودريك)**. وقد تُوفي **إخيكا** في سنة 83هـ–702م، فخلفه ابنه **غيطشة** متجاهلاً مبدأ الانتخاب المُتفق عليه، ممّا أثار حفيظة النُبلاء ورجال الدين.

وقد بدأ **غيطشة** حياته السياسيّة بِإصلاح أوضاع الدولة التي بلغت مرحلة خطيرة من الانهيار، فتقرّب من المُعارضة، وعيّن **تيودوفريدو** حاكمًا على مُقاطعة «**بيتيكا**»، ومع ذلك لم يستطع أن يُزيل الحقد من نفُوس خُصومه، كما ألّب عليه النُبلاء ورجال الدين عندما حاول أن يحد من نُفوذهم ويُقلِّص امتيازاتهم، ويُخفف الضغط الاقتصادي عن اليهود؛ ممّا دفعهم إلى إعلان الثورة على حُكمه، وحاكوا المُؤامرات لِلتخلُّص منه، فاضطرّ إلى مُحاربتهم، حتّى تقدمت به السن وعجز عن مُتابعة أعماله العسكريّة؛ وممّا زاد أوضاع البلاد تفاقُمًا تدخُّل زوجة غيطشة في سياسة الدولة، إذ أقنعت زوجها بِتعيين ابنه الصبي **أخيلا** خلفًا له، مُكررًا ظُروف اعتلائه السُلطة، كما عيّنهُ حاكمًا على مُقاطعتي طركونة، وناربونة في الشمال، وبِفعل صغر سنِّه، عيّن عمِّه «**خشندس**» وصيًّا عليه.

لقد تأزّمت الأُمور من جديد بعد وفاة **غيطشة** سنة91هـ–710م، ذلك أنّ ابنه وخليفته **أخيلا** امتنع عن الذهاب إلى **طليطلة**، لاستلام الحُكم، وظلّ قابعًا في مقر حُكمه في الشمال، فاضطرّت والدته إلى ملء الفراغ فأدارت الشُؤون العامّة بِمُساعدة أخي زوجها المُطران **أرطباس (أوباس)**، لكنّ النُبلاء ورجال الدين رفضوا تقديم الولاء لِهذه الأُسرة الحاكمة،

وأعلنوا عدم الخُضُوع لِلصبي أخيلا، كما خشوا من استبداد الوصي بِالحُكم؛ فامتنعوا عن طاعته، واستقلّ بعضُهم في الأطراف والنواحي، وسادت الفوضى وعمّ الارتباك في البلاد.

كما اشتدَّت حركة التمرُّد في طُليطلة، الأمر الذي دفع الأُسرة الحاكمة إلى مُغادرتها خوفًا من بطش المُعارضة، فخلت السُلطة السياسيَّة مُجددًا، وعندئذٍ اجتمع كِبار النُبلاء ورجال الدين واختاروا **لُذريق** خليفةً **لغيطشة**.

وقد واجه **لُذريق**، عدَّة صعاب لم يتمكّن من تجاوزها وأدَّت إلى نهاية المملكة القوطيَّة، فقد كان بِحاجةٍ إلى المال لِلإنفاق على الحملات العسكريَّة وإخضاع الثورات التي اندلعت ضدّ حُكمه في جهاتٍ عديدة، وعندما حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيستيّ القديس بدروس والقديس بولس في طُليطلة، وواجه مُعارضة من جانب رجال الدين، عندئذٍ لجأ إلى فرض مزيدٍ من الضرائب ومُصادرة بعض ثروات الكنيسة، كما واجه الملك القوطي انقساماتٍ سياسيَّةٍ حادَّة، وبِخاصَّة في الشمال، نتج عنها فتن وحركات عصيان، فقضى مُعظم أيّام حُكمه قصيرة الأمد ينتقل من جبهة إلى جبهةٍ أُخرى لإخمادها، كما زاد الأمر تعقيدًا هُروب العبيد من الخدمة العسكريَّة، لأنّ غالبيَّة أفراد الجيش القوطي مُنذ أواخر القرن السابع الميلادي كان تتألّف من العبيد المُجنّدين، وذلك بِفعل أنّ القوط ركنوا إلى حياة الدعة والترف، فهجروا مهنة الحرب التي فُطروا عليها، وفقدوا صفاتهم العسكريَّة، ولم يعودوا أولئك الغُزاة الأشدَّاء.

وقد تعرَّض **لُذريق** أيضًا لِضغطٍ عسكريٍّ من جانب خصمه **أخيلا** الذي عدَّهُ مُغتصبًا لِلسُلطة، فأعدّ جيشًا كبيرًا، بِقيادة مُستشاره **ريكيسندو**، ودفعهُ نحو الجنوب إلى طُليطلة لِخلعه واستعادة العرش، وعلى الرُغم من انتصار لُذريق فإنّ هذا النصر كان قصير الأمد، مما زاد من الفوضى في البلاد. كما ظهر حزبان كبيران مُتعارضان في توجُّهاتهما وأهدافهما انقسم بينهما أهالي البلاد، الأمر الذي وضع المملكة في جوٍ مشحونٍ قابلٍ لِلانفجار في أي وقت.

وينقسم المُجتمع الأيبيري قُبيل الفتح الإسلامي عدَّة طبقات اجتماعيَّة كان أهمُّها: **طبقة النُبلاء**، وهُم **الأُمراء القوط** وعلى رأسهم **الملك** الذي مثّل رأس النظام القوطي، بِالإضافة إلى بقايا **طبقة النُبلاء الرومان** الذين تحالفوا معهم لِلمُحافظة على مُكتسباتهم وامتيازاتهم. كان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد، وشكّلوا فئة أرُستُقراطيَّة حاكمة ومُتميزة، نعموا بامتلاك الإقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة، وفُقد الانسجام الحضاري بينهم وبين بقيَّة السُكّان بِفعل

عدم اختلاطهم بهم. والواضح أنّ هذا الاختلال أوجد نوعًا من التنافُر بين الطرفين، وفشلت هذه الطبقة في خلق مُجتمع مُتجانس وطني الانتماء.

وطبقة رجال الدين، التي استغلت مركزها الديني المُتميّز فاستمتعوا بِقسطٍ وافرٍ من النُفوذ والسُلطان. فامتلكوا الأراضي الواسعة والضياع والقُصُور الحافلة بِالعبيد، وأصبحوا على درجةٍ عاليةٍ من الثراء، فتناسوا المُثُل العُليا التي نادوا بها حين كانوا فُقراء، وساعدهم على بُلوغ تلك الدرجة تديُّن الأيبيريين بِعامَّة وسيطرة الدين في العُصُور الوُسطى على مُجمل الحياة. وتمتّع رجالُ الدين بِمركزٍ مرموقٍ لدى الحُكّام ممّا جعل لهم تأثيرًا مكّنهم من توجيه القوانين والنُظم بما يكفل لهم كسب مزيدٍ من النُفوذ والامتيازات، والقُدرة على التدخُّل في الشؤون السياسيَّة والعسكريَّة، وصياغة الحياة العقليَّة والاجتماعيَّة وفقًا لِتوجُّه الكنيسة وغاياتها، فكانوا يحضرون المجالس الوطنيَّة التي كانت تنظر في الشُؤون العامَّة لِلدولة، ويُصادقون على انتخاب الملك، وادّعت هذه الفئة لِنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لِقراراتها، أما **الطبقة الوُسطى** فتألّفت من فئة التُجّار وصغار المُلّاك والمُزارعين الأحرار الذين ينتمون لأصول قوطيَّة ورومانيَّة. وعاشوا في المناطق الريفيَّة والحضريَّة، ومنهم العُمَّال في المُدن الذين كانوا ينتظمون ضمن النقابات، ولا يحق لهم التحوُّل عنها أو الانتقال إلى مدينةٍ أُخرى، وحُرموا من دُخول السلك الكهنوتي والقضائي، أما الطبقة الأخيرة هي **طبقة الشعب الدُنيا**، فتكوَّنت من المُزارعين البُسطاء والعبيد الأرقّاء، وارتبطوا بِالأرض وأُلحقوا بِالضياع، ولِلسيّد عليهم حق الحياة أو الموت. وكان هؤلاء جميعًا مُسخرين لِرفاهيَّة الفئات الرفيعة من النُبلاء والأُسرة الحاكمة وكبار رجال الدين، وكانوا يُستخدمون في الأغراض الزراعيَّة والأعمال المنزليَّة على حدٍ سواء، فرزحوا تحت شقاء الحياة وبؤسها، وسُلبت منهم كُل الحُقوق المدنيَّة، وهُم أكثر عددًا من أفراد الطبقات الأُخرى، وأقل حُقوقًا.

وقد انتشرت **المسيحية** في رُبُوع شبه الجزيرة الأيبيريَّة مُنذُ العهد الروماني، وكان القوط بدايةً على **المذهب الآريوسي** الذي يقول بِالطبيعة الواحدة لِلمسيح، أما **المذهب الخلقيدوني** الذي كان يُدين بِطبيعتين لِلمسيح كان مُنتشرًا في أواسط العامَّة من غير القوط. ولم يفرض القوط مذهبهم، فكان أفراد كُل مذهب يُمارسون شعائرهم الدينيَّة في كنائسهم الخاصَّة بِحُريَّة، بِمُساعدة رجال الدين التابعين لهم.

بالإضافة إلى الديانة المسيحيَّة، كان ما يزال في أيبيريا عددٌ من السُكّان الوثنيين، ولكنّهم تعرّضوا لِلاضطهاد لِحملهم على اعتناق المسيحيَّة. كما عاشت جماعة **يهوديَّة** كبيرة شكّلت أحد عناصر السُكّان في المُجتمع القوطي، واستوطنوا أيبيريا في وقتٍ مُبكرٍ قادمين من المشرق على أثر الاضطهادات المُتعدِدة التي تعرّضوا لها في فلسطين على أيدي الرومان، ولقّبوا أنفُسهم **بالسفارديم**، وتركّزوا في الأماكن الحضريَّة المُتقدمة مثل العاصمة طُليطلة، وفي المناطق الجنوبيَّة، وعلى طول ساحل البحر المُتوسِّط في الشرق. وامتلكوا الضياع الواسعة، وعملوا في الزراعة والتجارة والصيرفة، فحقّقوا قدرًا وافرًا من الثراء أتاح لهم التحكُّم في الحياة الاقتصاديَّة، ومن خِلالها بِالشُؤون السياسيَّة. ولم يتعرَّض اليهود في مُستهل الحُكم القوطي لِلمُضايقات، وسُمح لهم بِحُريَّة العقيدة ومُمارسة شعائرهم الدينيَّة، ومع الامتداد الزمني لِلحُكم القوطي، شعر القوط بِوطأة اليهود من واقع تصرُّفاتهم التي عُدَّت شاذّة ومُعادية، مثل: استغلال الغير، وتعاطي الربا الفاحش، والسيطرة على الحياة الاقتصاديَّة، والتآمُر السياسي لِلمُحافظة على المُكتسبات المُنجزة، والاستعلاء على النصارى، بِالإضافة إلى اتجاه المُجتمع القوطي نحو الوحدة الدينيَّة. نتيجةً لِذلك ظهر في أيبيريا اتجاهٌ مُعادٍ لِليهود، وبدأ هؤلاء يتعرّضون لِشتّى أنواع المُضايقات والاضطهاد، ووصلت ذُروة التضييق عليهم في عهد الملك **إخيكا**، الذي اتهمهم بِالتآمُر ضدَّهُ مع يهودٍ من خارج البلاد، فأصدر عدَّة قرارات تشريعيَّة تهدف إلى شل القُدرة الاقتصاديَّة لهم، والحد من قابليتهم في الحُصُول على المعيشة اللائقة، ما حملهم على بيع عبيدهم ومُمتلكاتهم إلى الدولة، كما مُنعوا من مُزاولة العمل التجاري على مُختلف أنواعه سواء أكان داخلي أم خارجي، وتعرّضوا لِلأذى الجسدي، من السُخرية بهم وامتهان كرامتهم إلى ذبحهم فرادى وجماعات في عمليّاتٍ مُدبَّرة، ولكن استطاع اليهود، في كثيرٍ من الأوقات، تخفيف القيُود المفروضة عليهم عن طريق رشوة النُبلاء ورجال الدين، لكنّهم مع ذلك تأثّروا، إلى حدٍ كبير، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى الفرار من البلاد، كما اشترك بعضهم في العديد من الحركات المُناوئة لِلسُلطة.

ثانياً: دوافع فتح الأندلُس والتمهيدات:

يتّصلُ فتحُ الأندلُس، في كثيرٍ من جوانبه، بِسياسة الفُتُوح في المغرب، وأنَّ الأسباب التي دفعت المُسلمين إلى عُبور المضيق لها علاقة بِالأوضاع التي عاش في ظلّها السُكّان قبل الفتح، وهي دينيَّة وجُغرافيَّة وسياسيَّة وشخصيَّة. ومن أبرز تلك الدوافع، هي:

أ. الرغبة في الجهاد ونشر الإسلام:

وصل المُسلمون إلى أوج قُوّتهم بعد أن سيطروا على المغرب واستتبّ الأمن في **الدولة الأموية** بعد أن استقرّ الأمر لِبني أُميّة، وانتهت الفتن والثورات التي قامت في الدولة، وابتدأ العصر الأُموي الثاني. وأدّى هذا الاستقرار إلى تركيز الحُكومة المركزيّة في دمشق على استئناف نشاط الفُتوح والغزوات وتوسيع رقعة ديار الإسلام ونشر الدين الجديد بين سُكّانٍ جُدد.

وكان **البربر** الذين اعتنقوا الإسلام بعد تمام فتح المغرب ودخلوا في الجُيُوش الإسلاميَّة كجُنُودٍ مُحاربين يتوقون لِلغزو والجهاد، وقُدِّر لِبعضهم أن يُصبح أكثر حماسةً لِلإسلام من العرب أنفُسهم. وقد أدرك والي **إفريقية موسى بن نصير** هذه النزعة فاستغلّها بِتوجيههم إلى الفُتوحات الخارجيّة، وكان من الطبيعي أن يكون المُسلمين قد فكّروا بعد وُصولهم إلى **(بحر الزقاق) مضيق جبل طارق** أن يجتازوه وينساحوا في البلاد الواقعة خلفه لِنشر الإسلام فيها.

وقد وضع **موسى بن نُصير** الخطط لِنشر الإسلام في أوسع بُقعة مُمكنة، وقد تطلّع إلى **الأندلُس** بعد تثبيت أقدام المُسلمين في المغرب الأقصى، فراح يُتابع أخبارها ويستقصي أوضاع أهلها. وأضحت **مدينة طنجة** مركز عمليّات المُسلمين في تلك المرحلة الاستطلاعيّة بِسبب قُربها منها، وبِفعل موقعها على **مضيق جبل طارق** المُؤدي إلى تلك البلاد. وكان مولى **مُوسى بن نُصير** القائد **طارق بن زياد** الذي فتح ما تبقّى من مُدن في المغرب الأقصى قد أثبت حُسن ولائه لِلإسلام من واقع تعبئة شُعُور مُواطنيه من البربر المُسلمين لِلقيام بِالعمل الجهادي المُقبل، وهو فتحُ الأندلُس، وإرسال ما يصل إليه من أخبارها إلى القيادة العُليا في القيروان.

ب. أسباب اقتصاديَّة:

وقد كان أمام **مُوسى بن نُصير** خياران: توجيه الفُتوحات نحو **الصحاري المغربيّة الجنوبيّة** المُؤدية إلى **البلاد السودانية** (السنغال، والنيجر، وغانا)، أو عُبُور **المضيق** نحو **أيبيريا.** ولمّا كانت الأقاليم السودانيّة تُشبه تمامًا الطبيعة العربيّة الصحراويّة من ناحية القحط وصُعُوبة المسالك، وكان المُسلمين قد عرفوا وفتحوا بلادًا غنيّة في الشام، ومصر، والعراق، وفارس، والمغرب، واستفادوا من مواردها الاقتصاديّة والبشريّة، فضّلوا توجيه أنظارهم نحو الأندلُس خاصّةً بعد أن علموا ما كانت عليه هذه البلاد من الغنى.

ت. الأوضاع المُضطربة في بلاد الأندلُس:

ولقد علم **موسى بن نُصير**، عن طريق واليه على طنجة **طارق بن زياد**، بِأوضاع الأندلُس المُتردية بِفعل الصراع على السُلطة بين **لُذريق** وأولاد **غيطشة**، بالإضافة إلى تطلّع السُكّان إلى المُسلمين في شمالي أفريقيا لإنقاذهم من متاعبهم، وبخاصّةً **اليهود** الذين كانوا يتعرّضون لِلاضطهاد. وكتب **أولاد غيطشة** إلى **يوليان** عامل الروم السابق على **طنجة وسبتة** يلتمسون مُساعدته لِلإطاحة بِنظام **لُذريق** بعد أن سلبهم مُلكهم، ورُبّما أوحوا إليه بِفكرة الاستعانة بِالمُسلمين بعد أن علموا بأنّ هؤلاء قد أشرفوا على البحر عند طنجة، ورُبما اشتركوا في الوفد الذي ذهب إلى إفريقية لِمُقابلة موسى بن نُصير وطلب المُساعدة منه، مُعتقدين بِأنّ المُسلمين سيكتفون بِالغنائم ويعودون إلى المغرب، ويستعيدون هُم الحُكم وأملاك والدهم الخاصّة التي تُقدّر بِثلاثة آلاف ضيعة سُميت بعد ذلك بـــ"**صفايا المُلوك**".

ث. طلب يوليان الطنجي الاستعانة بِالمُسلمين:

وتورد المصادر العربيّة والإسلاميّة القديمة، أن **يوليان** صاحب طنجة وسبتة السّابق كان حاقدًا على **لُذريق** بِسبب اعتداء الأخير على شرف ابنته **فلوريندا لا كافا**، والمعروف أنّهُ كان من عادة أشراف القُوط ونُبلائهم أن يُرسلوا بنيُهم وبناتُهم إلى القصر الملكي في طُليطلة لِيكونوا في خدمة مُلوكها، ولِيتأدبوا بِآداب المُلوك، فيقضون مُدّةً من الزمن حتّى يبلغوا سن الزواج، حتّى إذا ما قُرّر عقد قران بعضهم على البعض الآخر، تولّى الملك تجهيزهم، وكان الرجال يُندبون أحيانًا في مُهمّاتٍ سياسيّةٍ وعسكريّة، أمّا البنات فكُنّ يُلازمن القصر.

وكان **يوليان** قد أرسل ابنتهُ « **فلريندا** »، إلى قصر طُليطلة، جريًا على العادة لِتتربّى في البلاط الملكي تربية الأميرات، فأُعجب بها **لُذريق**، فلمّا تمنّعت عن الزواج به فاغتصبها، فاشتكت لأبيها الذي ثارت ثائرته عندما عرف، فذهب إلى طُليطلة وأحضر ابنته.

لِذلك أخذ **يوليان** يسعى لِلاستعانة بِالمُسلمين وإدخالهم إلى الأندلُس لِلقضاء على حُكم **لُذريق**. وقد أدّى **يوليان** دور الوسيط بين المُسلمين وآل **غيطشة**، فاتصل **بِطارق بن زياد** في طنجة وعرض عليه غزو الأندلُس، وبيّن له حُسنها وفضلها وما تويه من الخيرات، وهوّن عليه حال رجالها ووصفهم بِالضُعف.

1- حملة طريف بن مالك الاستكشافيَّة:

فبادر **طارق بن زياد** بالاتصال **بمُوسى بن نُصير** في القيروان، وأبلغهُ بما عرضهُ عليه **يوليان** لاتخاذ القرار بِشأن ذلك. والواقع أنّهُ لم يكن لدى موسى بن نُصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة في الوقت الذي لم يكن واردًا امتداد حركة التوسُّع نحو الجنوب والانتشار في مجاهل الصحراء الكبرى في حركةٍ مُكلفةٍ بلا طائل، فاتجهت أنظاره إلى الأندلُس لِلأسباب سالِفة الذِكر وفي مُقدمتها السبب الاقتصادي الذي من شأنه أن يعود بِالنفع على الإسلام والمُسلمين، بِالإضافة إلى أنَّ هذا الأمر قد يتطوَّر إلى واقع فتح إسلامي شامل لِهذه البلاد يُدخلها في دائرة الدولة الإسلاميَّة، إلا أنَّ عملًا ضخمًا من هذا النوع، لا بُدَّ من دراسته بِصُورةٍ مُتأنية والوُقوف على كافّة تفاصيله.

وفعلاً جرت اتصالات بين **مُوسى بن نُصير ويوليان**، وعُقد اجتماعٌ بينهما وقف خلاله مُوسى بن نُصير على أوضاع الأندلُس والخدمات التي يُمكن أن يُقدمها **يوليان**، كما كان لا بُدَّ من أن ينال هذا العمل مُوافقة الخليفة في دمشق. لِذا اقترح مُوسى على **يوليان** أن يذهب هو أولاً إلى استكشاف ساحل الأندلُس وأن يُحاول النُزول في مكانٍ أمينٍ منه، خشيةً من أن يكون **يوليان** قد دبَّر لِلجيش الإسلامي مهلكًا، فأبحر **يوليان** في خريف سنة 90هـ-709م في عصبةٍ من أتباعه من سبتة ونزل على ساحل الجزيرة الخضراء، فقتل وسبى وغنم وأقام بها أيَّامًا يشُنُّ الغارات، وشاع الخبر عند المُسلمين فأنسوا **بيوليان** واطمئنَّ لهُ مُوسى بن نُصير.

وقد كتب **مُوسى بن نُصير** إلى الخليفة **الوليد بن عبد الملك** يُبلغه بما عرضه **يوليان** وما آلت إليه حملته ويستأذنه في العُبور. وقد تردَّد **الوليد بن عبد الملك** في بادئ الأمر، خشيةً على المُسلمين من أن يُغرِّر بهم، وأمر **مُوسى بن نُصير** بِأن يتروَّى في الأمر، وأن يختبر البلاد بِالسرايا.

والحقيقة أنَّ فتح الأندلُس كان نتيجة خطّة موضوعة نوقشت بين الخليفة وواليه على إفريقية، وأقرَّها الأوّل ضمن سياسة التوسُّع بعد فتح طنجة المُشرفة على الأندلُس. ويبدو أنّهُ كان لِسياسة الدولة الإسلاميّة العامّة وعلاقتها بِالروم البيزنطيين، وتأثير الحملة على هذه العلاقات، وبِخاصّة في المجال البحري والسيطرة على الجُزُر في الحوض الغربي لِلبحر المُتوسِّط؛ تأثيرٌ على قرار الخليفة.

وبعد نُضوج الظُروف التي هيَّأت لِلمُسلمين انتصارًا آخر، وتنفيذًا لأوامر الخليفة، اختار **موسى بن نُصير** أحد القادة المُسلمين، وهو **أبو زرعة طريف بن مالك المعافري**، وسيَّره على رأس أربعمائة راجل ومائة فارس، في أربع سُفن أعدَّها **يوليان**، لِلإغارة على الشواطئ الأندلُسيَّة المُقابلة، وذلك في شهر رمضان سنة91هـ- تمُّوز (يوليو) سنة 710م، ونزل المُسلمون في جزيرةٍ صغيرةٍ اسمها «**بالوماس**» سُميت **بجزيرة طريف**، وقد اجتمع **طريف** فيها بِجماعةٍ من مُؤيدي الملك السابق **غيطشة** ومعهم أحد أحبار اليهود ويُدعى **يعقوب**، كان يتخفّى بزي الخُدَّام ويعمل في قُصُور آل غيطشة، حيثُ تقرَّر أن تقوم قُوَّة قوطيَّة مُعارضة لِلملك لُذريق بِمُساعدة المُسلمين وحراسة المضيق.

وقد شنَّ **طريف**، من مركزه بِتلك الجزيرة، عدَّة حملات استطلاعيَّة ناجحة على سواحل الأندلُس الجنوبيَّة وبِالأخص الجزيرة الخضراء، ودرس خلالها تحصيناتها وتحرَّى أوضاع سُكّانها ومدى علاقتهم بِالحُكّام القوط، ثُمَّ عاد إلى طنجة محملاً بِالغنائم، وأكّدت حملة **طريف بن مالك** صدق **يوليان** حين عرض المُساعدة على المُسلمين، وكشفت عن ضعف المُقاومة في الأندلُس، وأقنعت **مُوسى بن نُصير** بِسُهُولة العُبُور والنُزول على الشاطئ دونما أخطار بحريَّة جديَّة، ونتيجةً لِذلك قرَّر البدء بِتنفيذ عمليَّة الغزو.

2- عُبُور طارق بن زياد والانتصارات الأولى:

لقد شجَّع نجاح **طريف**، **مُوسى بن نُصير** على المضي في خطّته بِفتح الأندلُس بِتكتُّمٍ شديدٍ حتّى لا يتسرَّب خبرها إلى القوط. وبعد انتهاء الاستعدادات وإتمام التجهيزات، أعدَّ قُوَّةً عسكريَّةً مُؤلّفة من سبعة آلاف مُقاتل مُعظمهم من البربر والموالي، واختار لها أحسن قادة المُسلمين آنذاك، وأشدَّهم ثقة به، وهو **طارق بن زياد**.

والواقع أنَّ حملة مُعظم أفرادها من البربر تُعدُّ سابقة تحدث لأول مرَّة في الفتوح الإسلامية، وهو اختيارٌ مقصود من والي إفريقية بِفعل أنَّ سياسته المرنة مع البربر قد أثمرت ودفعت هؤلاء إلى مُشاركة العرب في الجهاد. وكان لِهذه السياسة ردُّ فعلٍ إيجابيٍّ على الطرفين. فقد رأى **مُوسى بن نُصير** أن يستفيد من طاقات البربر العسكريَّة ويكسب مودَّتهم، ولم يكن البربر أقل تجاوُبًا، ويُضافُ إلى ذلك، فقد كان **طارق بن زياد** على معرفةٍ وثيقةٍ بِأوضاع الأندلُس بِفعل مُجاورة البربر لِلقوط وتعامُلهم التجاري معهم، كما تولّى بِنفسه جمع

المعلومات عنها، وأجرى المُفاوضات الأوليّة من **يوليان**. وبِشكلٍ عام، أضحى هذا القائد خبيرًا بِالميدان الجديد من سائر نواحيه السياسيّة والعسكريّة، ويُعد اختياره خُطوة صائبة، إذ أثبتت مدى ما يتمتّع به **مُوسى بن نُصير** من تفكيرٍ مُستنير، وخبرة في الشؤون العسكريّة.

والواقع أنّ **مُوسى بن نُصير** سلك نهج أقرانه من القادة العسكريين الذين فتحوا الشّام والعراق وفارس ومصر وإفريقية، وهو إرسال حملة قليلة العدد ثُمّ تُعزّز بِإمدادات لا تتوقّف حتّى يتم تحقيق الأهداف، كما أنّ ذلك كان مقصودًا لِعدم إثارة ريبة **يوليان**. غير أنّ هذا القائد لم يشأ أن تكون لِلحملة سمة بربريّة مُطلقة، فأنشأ مجلسًا استشاريًّا لِمُساعدة طارق بن زياد في إدارة العمليّات العسكريّة، مُعظم أعضائه من العرب، واشترك القائد البربري **(منوسة)** في الحملة.

وقد عبر **طارق** المضيق يوم الإثنين في 5رجب 92هـ–28 نيسان (أبريل)711م، على متن أربع سُفن تجاريّة قدّمها **يوليان**، والواقع أنّ طابع الحملة السرّي دفع **مُوسى بن نُصير** إلى الاعتماد على سُفن **يوليان** التجاريّة، ونزل **طارق** مع جُنُوده أمام **جبل كالبي** المنيع الذي حمل اسمه مُنذ ذلك الحين وصار يُعرف ب**(جبل طارق)**، واتخذه مركزًا لِتجمُّع قُوّاته وقاعدة لِلانطلاق إلى الداخل الأندلُسي. وحتّى يُؤمّن على جُنُوده ضدّ أي هُجومٍ مُفاجئ من جانب القوط، سوّر تلك القاعدة وحصّنها.

ولم يكد طارق بن زياد يستقر مع جُنُوده في قاعدته عند الجبل، حتّى بادر باستكشاف المنطقة تمهيدًا لِلسيطرة على المناطق المُجاورة المُحيطة بمضيق **جبل طارق**، بهدف تأمين مؤخرة جيشه والمُحافظة على خُطوط مُواصلاته مع قواعده في شمالي أفريقيا، ثم أرسل **طارق بن زياد** قُوّةً عسكريّةً بِقيادة **عبد الملك بن أبي عامر**، سارت بِمُحاذاة الساحل الشمالي الغربي، وفتحت مدينة قرطاجنة، ثُمّ توجّهت جنوبًا وفتحت مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة قِبالة جبل طارق.

وقد فوجئ **لُذريق**، الذي كان في مدينة **بنبلونة** في الشمال، بِنُزول المُسلمين في بلاده، بيد أنّهُ لم يتهيّب الموقف لِلوهلة الأولى، لاعتقاده بِأنّ المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النهب، لن تلبث أن تتلاشى، ولكنّهُ مع ذلك قوّم الموقف حين وصلت إلى مسامعه معلومات تُفيد عن تقدُّم هؤلاء باتجاه **قرطبة**، فأسرع إلى **طُليطلة** لِحشد طاقات المملكة، وأرسل قُوّةً عسكريّةً على وجه السُرعة بِقيادة ابن أُخته «**بنشيو**»، لِلتصدّي لهم، فاشتبك معهم في قتالٍ

خفيفٍ انتهى بِمقتله وانتصار المُسلمين. وجرت المعركة بِالقُرب من **الجزيرة الخضراء**، وفرَّ من نجا من جُنُوده باتجاه الشمال لِيُخبروا لُذريق بما جرى، وبِفداحة الخطر القادم من الجنوب.

أ. معركة وادي لكة:

لقد طلب **لُذريق** من جميع الأشراف والنُبلاء والإقطاعيين أن يحشدوا المُقاتلين، وأخذت الإمدادات ترد عليه من كُل المناطق، حتّى اجتمع لديه في وقتٍ قصير ما بين أربعين إلى مائة ألف مُقاتل، كما طلب المُساعدة من أولاد **غيطشة** نظرًا لِعُموميَّة المحنة، ولكن هؤلاء ظلّوا على ولائهم، سرًا، لِلخطّة التي وضعوها مع **يوليان** من أجل الإطاحة به، ومع ذلك فقد استجاب له اثنان منهم هُما «**ششبرت**» و«**أبّة**»، لكن ظاهريًّا فقط، وهُما ينويان الغدر به، فرحَّب بهما، وعيَّن الأوَّل على ميمنته والثاني على ميسرته.

وكانت وجهة **لُذريق** مدينة **قُرطُبة** لِلمُحافظة عليها نظرًا لأهمية موقعها الوسطي بين العاصمة **طُليطلة والجزيرة الخضراء**، وهي مفتاح الطريق الذي يُسيطرُ على الأندلُس الجنوبيّة الشرقيّة، فوصل إلى ضواحيها ثُمَّ واصل زحفه باتجاه الجنوب.

وأخذت أخبار **لُذريق** تصل إلى مسامع **طارق بن زياد**، فتهيَّب الموقف، وأدرك أنَّهُ لا طاقة لهُ على مواجهته بِهذا العدد الضئيل نسبيًّا الذي معه، فأرسل إلى **مُوسى بن نُصير** يشرح لهُ الموقف ويطلب منهُ الإمدادات. ولم يتردَّد مُوسى، لدى استلامه كتاب طارق، وأمدَّهُ بِخمسة آلاف مُقاتل بِقيادة **طريف بن مالك**.

وقد استأنف **طارق بن زياد** زحفهُ باتجاه الشمال، على أثر وُصول الإمدادات، عبر أرضٍ سهليَّةٍ تتخلّلُها المُستنقعات، واستقرَّ به المقام أخيرًا حول بُحيرة **لاخندا** من كورة شذونة، والتي يخترقها **نهر برباط** وعسكر على ضفّته اليُسرى، ثُمَّ وصل لُذريق وعسكر على الضفّة اليُمنى لِلنهر. وكان في ذلك المكان قرية صغيرة سمّاها المُسلمون «**لكة**» أو «**بكة**»، ومنها جاء اسم المعركة.

وقد تقابل الجمعان يوم الأحد 28 رمضان 92هـ-19 تموز (يوليو) 711م، واشتبكا في قتالٍ عنيفٍ استمرَّ سبعة أيّام. ولمّا تراءى الجيشان ثبت **طارق** في مكانه وأطمع **لُذريق** في أن يقطع المُستنقعات إليه، على غرار الخطّة التي كان خالد بن الوليد قد رتّبها على نهر اليرموك، وقد تكبَّد **لُذريق** الكثير من القتلى والجرحى خِلال المعركة، وحدث في اليوم الرابع من القتال أن انسحب ابنا **غيطشة ششبرت وأبّة** مع فُرسانهما من الجناحين وانضمّا إلى

صُفُوف المُسلمين، وفق الخطّة الموضوعة؛ ممَّا أدَّى إلى تضعضع صُفُوف الجيش القوطي، وبدأ أفراده بِالترنُّح والهرب طلبًا لِلنجاة.

والمعروف أنَّ هذا الجيش ضمَّ كثيرًا من العبيد الساخطين على حُكم القوط ويتمنون زواله، فوجدوا في تلك المعركة فُرصتهم لِلخلاص، لِذلك تراخى هؤلاء في القتال قبل أن يفُرُّوا بعد انسحاب الفُرسان من الجناحين، وأضحى **لُذريق** لا يملك القُوَّة الكافية لِلاستمرار في القتال، ومع ذلك فقد صمد حتّى **اليوم الثامن**، وعندما تحقّق من هزيمته، هرب من ميدان المعركة من دون أن يُعرف مصيره بِالضبط، وقد وُجد فرسه بِالقُرب من إحدى المُستنقعات، كما وُجد أحد خُفّيه وهو طافٍ فوق الطين الأسود؛ ممَّا يدُل على أنّهُ وقع عن حصانه لدى وُصوله إلى المُستنقع وغاص فيه من دون أن يتمكّن من الخُروج فغرق، وفرَّ من نجا من جُنوده إلى الداخل نحو المعاقل والحُصُون.

وكانت معركة **وادي لكة كاليرموك في الشام، والقادسية في العراق ونهاوند** في فارس، إذ دمَّرت القُوَّة الميدانيَّة لِلجيش القوطي؛ ممَّا أفقده القدرة على الدفاع عن المُدن الكُبرى، وأضحت المُقاومة بعدها قصيرة الأمد؛ ممَّا هيَّأ لِلمُسلمين أن ينسابوا إلى جوف الأندلُس ويفتحوا المُدن ويستقرّوا فيها. وقد تكبَّد المُسلمون ثلاثة آلاف قتيل، أمَّا قتلى القوط فكانوا أضعاف ذلك لأن عدد الذين نجوا من المعركة وفرّوا، بعد ذلك، وقد حاز المُسلمون على جميع ما كان في مُعسكر القوط من العدَّة والمتاع والمؤن والأموال، وقُسِّم الفيء بين الآلاف التسعة الذين نجوا، فأصاب كُلًّا منهم مائتان وخمسون دينارًا.

وقد كتب طارق بن زياد إلى مُوسى بن نُصير بِالقيروان يُبشِّره بِالنصر، ويُخبره بِأنَّ الطريق بات مفتوحًا أمامهُ لِلوُلوج إلى قلب البلاد، فأرسل مُوسى بن نُصير بدوره تقريرًا مُفصلًا إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق يصف فيه الانتصار الكبير، الذي أكسب الإسلام أرضًا جديدة، فاستبشر الوليد خيرًا بِهذا النصر، وسمح لِلقادة المُسلمين بِمواصلة الطريق، وفي نفس الوقت تناهى إلى أسماع المُسلمين في المغرب والشّام ومصر بانتصار طارق بن زياد، فتطوَّعوا من كُل جهة لِلحاق به والمُساهمة معهُ في فتح الأندلُس.

وقد ازدادت قُوَّة المُسلمين بعد معركة وادي لكة وارتفعت معنويَّاتهم بعد ذلك الانتصار، ومن جهةٍ أُخرى أصاب القوط الارتباك والذُعر، الأمر الذي أتاح لِطارق بن زياد أن يستغل هذا الوضع كي لا يُتيح لِلجيش القوطي فُرصة لإعادة التنظيم والتجمُّع، ويدعم

سيطرته على جنوبي الأندلُس، فبدأ ما يُمكن تسميته بـ«**حرب المُدن**»، فقد فتح المُسلمون مدينة شذونة، ومدينة إستجة، مدينة مورور.

ب. فتح قُرطُبة:

لقد أضحى الطريق مفتوحًا أمام **طارق بن زياد** لِلزحف إلى **قُرطُبة**، غير أنَّهُ عدل عن خطّته وقرَّر التوجُّه نحو **طُليطلة** عاصمة القوط بِسبب ما استجدَّ فيها من أحداث، حيثُ برز التنافُس بين الجماعتين المُتنافرتين: **جماعة لُذريق وجماعة آل غيطشة**، ذلك أنَّ الهيئات الحاكمة بدأت تُعيد تنظيم صُفوفها لِلتصدي لِلمُسلمين بعد أن تناهت إلى أسماعها الشائعات بِأنَّ **لُذريق** لم يُقتل، وفي الوقت نفسه، راح **أنصار آل غيطشة** يعقدون الاجتماعات، بِدورهم، في طُليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكًا مكان لُذريق المهزوم، وبذل **أخيلا** جُهدًا كبيرًا في مُحاولةٍ لإقناع مجلس المدينة بالاعتراف به ملكًا وسط الذُعر الذي ساد الجميع عقب الهزيمة، ولذلك زحف **طارق بن زياد** بسُرعة إلى **عاصمة القوط** قبل أن يتمكّن أي طرف من الطرفين المُتنازعين من السيطرة عليها؛ ممَّا قد يُصعِّب على المُسلمين مُواجهة الموقف، والمعروف أنَّ آل غيطشة ظلّوا واهمين بِأنَّ المُسلمين لم يدخُلوا الأندلُس لِيستقرُّوا فيها، بل لِمُساعدتهم على استعادة الحُكم مُقابل الحُصُول على الغنائم. وبِفعل أهميَّة قُرطُبة في إحكام السيطرة على جنوبي الأندلُس، استجاب طارق بن زياد إلى نصيحة **يوليان**، ففصل فرقةً عسكريَّةً تُقدَّر بِسبعُمائة فارس، بِقيادة **مُغيث الرومي**، مولى عبدالملك بن مروان، وأرسلهُم إلى **قُرطُبة** لِفتحها.

وقد عسكر **مُغيث الرومي** في **قرية شقندة** على بُعد ثلاثة أميال من **قُرطُبة**، وأرسل الجواسيس لِلوُقوف على أوضاعها، فعلم بِأنَّ النُبلاء غادروا المدينة ولم يبق فيها سوى الضُعفاء وحامية عسكريَّة تُقدَّر بِأربعمائة مُقاتل بِقيادة حاكم المدينة، فزحف إليها وضرب حصارًا عليها واقتحمها، وفرَّت حاميتها إلى كنيسة تقع في غربيّ المدينة وتحصَّنت فيها، فضرب مُغيث الرومي الحصار عليها، وضيَّق على من فيها وقطع الماء عنهم، واستمرَّ الحصار مُدَّة ثلاثة أشهر تضايق المُحاصرون خلالها واضطرُّوا إلى إخلائها والاحتماء بِجبل قُرطُبة. وما أن خرج الحاكم من الكنيسة حتّى شاهده **مُغيث الرومي**، فطارده وقبض عليه، فلمَّا

شاهد أفراد الحامية ما حلّ بِقائدهم استسلموا، فقتلهم **مُغيث الرومي**، وأبقى على حياة القائد لِيُسلِّمه إلى الخليفة.

ت. تقسيم الجيش الإسلامي:

لقد قسَّم طارق بن زياد الجيش الإسلامي **أربعة أقسام:** بعث قسمًا منهُ بِقيادة **مُغيث الرومي** إلى **قُرطُبة** كما أُسلف، وبعث قسمًا آخر إلى **مالقة**، ثُمَّ بعث قسمًا ثالثًا إلى **إلبيرة** وأمرهُ بِأن يُتابع طريقه بعد ذلك إلى **مرسية**، ثُمَّ سار هو بِبقيَّة الجيش في اتجاه **طُليطلة**. وكان قد جعل في كُلٍ من هذه الأقسام أدلاء من أصحاب **يوليان**. أمَّا الجيش الذي توجَّه إلى قُرطُبة فقد فتحها، بينما الجيش الذي توجَّه إلى **مالقة**، على الشاطئ الجنوبي من الأندلُس، فقد فتحها فتحًا يسيرًا هيّنًا، بعد أن هربت حاميتها من القوط والفرنجة إلى جبال رية واعتصموا بها.

أمَّا الجيش الذاهب إلى **إلبيرة** فاتجه أولاً جنوبًا في شرق حتّى فتح **أرشذونة** ثُمَّ عطف شرقًا نحو مدينة **غرناطة** ففتحها فتحًا هيّنًا، لأن كثيرًا من أهلها كانوا **يهودًا**، وقد استعان المُسلمين بهم على ضبط المدينة وإدارتها ومُساندة الحامية الإسلاميَّة فيها، وكان في الجيش الذي فتح غرناطة المُجاهد المشهور **حنش بن عبدالله الصنعاني**، فأسَّس فيها مسجدًا، ثم سار الجيش إلى مرسية، في الجانب الشرقي الجنوبي من الأندلُس. وكان فيها نبيلٌ قوطيٌّ عرفهُ المُسلمين باسم **(تدمير بن عبدوس) (ثيوديمير)** وقد واجه المُسلمين فانهزم أمامهم هزيمة مُنكرة في قرطاجنة، وهي ثغر مدينة مرسية، حتّى كاد جيشه أن يفنى. وعندئذٍ انسحب **تُدمير** بِمن بقي معه إلى مدينة **أوريولة**، وعمد إلى الحيلة، فأمر النساء فنشرن شُعورهُنَّ ثُمَّ أعطاهُنَّ القصب وأوقفهُنَّ على سور المدينة وأوقف معهُنَّ بقيَّة الرجال لِيُوهم المُسلمين بِأنَّ في المدينة حُماةً كثيرين، كما ذهب بنفسه إلى المُسلمين مُتنكرًا على هيئة رسولٍ مُفاوض، فاستأمن على نفسه وما يملك من بلاد، فأمَّنهُ المُسلمين على ذلك كُلِّه، وعقد **عبدُ العزيز بن مُوسى بن نُصير بينه وبين تُدمير مُعاهدة.**

فلمّا تسلّم **تُدمير** كتاب الصُلح من **عبد العزيز بن مُوسى** أدخل المُسلمين إلى **أوريولة** فرأوا ما فيها من ضعف الحامية وأدركوا خدعة تُدمير وعلموا أنّهُ كان بإمكانهم دُخُول المدينة عنوة. وقد أسفوا لِما حدث، ولكنّهم وفوا لِتُدمير بما كانوا قد شرطوا له على أنفُسهم في كتاب الصُلح.

ث. فتح طُليطلة:

لقد عبر **طارق بن زياد** نهر الوادي الكبير، وتقدَّم نحو الشمال حتى وصل **طليطلة** العاصمة القوطيَّة، وقد كانت المدينة خالية ممن يحميها أو يُدافع عنها، فقد فرَّت منها حاميتها مع كبار رجال الدولة، عندما علموا بِتقدُّم المسلمين باتجاه مدينتهم في جوٍ من الارتباك من واقع عدم قُدرتهم على الصمُود والمُقاومة، فهرب حاكمها، وغادرها مُعظم السُكّان باستثناء **اليهود،** فدخلها **طارق بن زياد** من دون قتال، وبعد أن تعرَّف على أوضاعها، ترك فيها حامية عسكريَّة وغادرها باتجاه الشمال لِتعقُّب فُلُول الهاربين، فسلك **وادي الحجارة،** واجتاز الجبل عبر ممر فج، فوصل لقلعة **هنارس،** أطلق المُسلمون عليها اسم «**المائدة**»، لأنهم عثروا فيها على كنزٍ ثمينٍ هو عبارة عن أواني ذهبيَّة مُرصَّعة بِالجواهر والأحجار الكريمة تُشبه أواني الموائد التي يستعملها المُلوك عادةً، فنسبوها إلى النبي سليمان ﷺ، ثم تابع المُسلمون توغُّلهم في منطقة **وادي الحجارة،** وفتحوا **قلعة هنارس،** وعاد طارق بن زياد بِجيشه إلى طُليطلة لِيقضي فيها فصل الشتاء، ولِيدرُس خطّة المرحلة التالية من الفتح على ضوء ما يستجد من تعليمات والي إفريقية.

ج. عُبُور موسى بن نُصير:

كان رد الفعل لِنجاح طارق بن زياد كبيرًا في شمالي أفريقيا، فقد توجَّه البربر إلى الأندلُس بعد سماعهم بانتصارات المُسلمين هُناك، وبدأوا بالاستقرار في المناطق السهليَّة من البلاد لا سيَّما تلك التي هجرها سُكّانها الذين هربوا إلى القلاع والحُصُون. وكان مُوسى بن نُصير يُتابعُ تحرُّكات طارق بن زياد العسكريَّة خُطوةً خُطوة، ويبدو أنّهُ أدرك خُطورة الانتشار الواسعِ لِلقُوّات الإسلاميَّة بدون تغطية عسكريَّة كافية، الأمر الذي يُسهِّل على العدو مُهاجمتها، من دون أن تتمكّن من اتخاذ وسائل الدفاع المُناسبة عن نفسها، فتضيع ثمرات النصر، ذلك أنَّ خُطوط مُواصلاتها، بين طُليطلة والجزيرة الخضراء والمغرب، أضحت غير آمنة، لأن المعاقل الكُبرى المُبعثرة على امتداد تلك الخُطوط لم تخضع لِلمُسلمين، وما زالت جماعاتٌ من القوط تحكم المُدن الواقعة وراء خُطوط مواصلاتهم، وتنتظر الوقت المُناسب للانقضاض عليهم.

كما يبدو أنّهُ رأى أنَّ قائده استنفذ طاقاته القتاليَّة بعد الجُهد الكبير الذي بذله، وبِخاصّةً أنَّ عدد جُنُوده لم يكن كافيًا لِفتح تلك البلاد الواسعة والدفاع عن المُنجزات المُكتسبة، ولا بُدَّ

من دعمه بِمددٍ عسكريٍّ فضّل أن يترأسه بنفسه، فقد استخلف **مُوسى بن نُصير** ابنه **عبد الله** على القيروان ثُمّ غادرها على رأس جيشٍ يُقدّر بثمانية عشر ألف مُقاتل، مُعظمهم من القبائل العربيّة اليمنيّة والقيسيّة والشّاميّة، وضمّ أعدادًا كثيرةً من رجال **قريش** البارزين الذين كانوا في مناصب القيادة في القيروان، إضافةً إلى الإداريين ورجال الدين وبقيّة القادة المشهورين، أمثال: **مُحمّد بن أوس الأنصاري، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري، وعيّاش بن أخيل، وعبدُ الجبّار بن أبي سلمى الزهري**، واصطحب معهُ عددًا من أولاده.

فعبر **مُوسى بن نُصير** مضيق جبل طارق وعسكر في الجزيرة الخضراء في رمضان 93هـ–حُزيران (يونيو) 712م لِعدّة أيّام حيثُ وزّع المُهمّات العسكريّة على قادته، ثم عقد اجتماعًا مع **يوليان**، وناقش فيه التطوُّرات المُستجدّة، وجرى تقييم حملة طارق، ثم زود **يوليان موسى** بِالمعلومات اللازمة عن المعاقل الهامّة في المناطق التي ما زالت خارج نطاق السيطرة الإسلاميّة وبِخاصّةً مدينة **إشبيلية**، بِالإضافة إلى أفضل الطُرُق التي سيسلُكها، وتقرّر اعتماد الطريق الغربي المُؤدي إلى إشبيلية، وهو غير الطريق الذي سلكه طارق بن زياد، وذلك بِهدف غزو غربي الأندلُس، وإحكام السيطرة على المنطقة، وبِخاصّةً أنها كانت مأوى مُعظم الفُلول الهاربة من الجيش القوطي، ثم وضع حجر الأساس لِبناء مسجدٍ هُناك تخليدًا لِذكرى حملته هذه، سُمي **بِمسجد الرايات.**

وقد تقدّمت القُوّات الإسلاميّة على الطريق المُؤدي إلى **إشبيلية** فأعادت إخضاع **شذونة** بعد أن خرج أهلها عن طاعة المُسلمين، فحاصرهم **مُوسى بن نُصير** حتّى أذعنوا من جديد، كما فُتحت **قلعة رعوان**، ثُمّ سار المُسلمون إلى مدينة **قرمونة** المشهورة بِحصانتها، لِذا استخدم **مُوسى** الحيلة في فتحها، فأرسل بعض الجُند على هيئة المُنهزمين ومعهم السلاح، فأظهروا لِحاميتها أنهم أصدقاء جاؤوا فرارًا من المُسلمين، فسمح لهم أفراد الحامية بِالدُخول، وما أن حلّ الليل حتّى هاجم هؤلاء الحُرّاس، وفتحوا أبواب المدينة لِلجيش الإسلامي الذي دخلها وسيطر عليها.

ح. فتح إشبيلية:

لقد تقدّمت القُوّات الإسلاميّة بعد **قرمونة** إلى **إشبيلية** التي تُعدُّ من أكبر مُدن القوط بعد **طُليطلة**، ومصدر الخطر المُباشر على القُوّات الإسلاميّة التي كانت تحت قيادة طارق بن زياد في الداخل، ونُقطة التقاء الطُرق الهامّة في جنوبي الأندلُس، لا سيّما تلك التي تربط الجزيرة

الخضراء بِداخل البلاد، وضربوا عليها حصارًا مُركّزًا استمرّ بضعة أشهر، دافع خلالها القوط عن مدينتهم بِضراوة، ولم تسقط المدينة إلا بعد أن قدم اليهود مُساعداتٍ من الداخل، كما فرت حاميتها إلى مدينة باجة، وقد أمّن فتح إشبيلية، المركز المُسيطر عسكريًّا على جنوبي الأندلُس، وحرم القوط من قطع خُطوط مُواصلات المُسلمين، وشكّلت المدينة، بِفعل أهميّة موقعها، إحدى القواعد الدفاعيّة الكُبرى لِلمُسلمين في الأندلُس.

وقد واصل المُسلمون تقدُّمهم حتّى **ماردة** الواقعة في شمال غربيّ الأندلُس في منطقةٍ وعرة المسالك. وكانت ماردة هذه آخر العواصم القديمة الأربع لِلقُوط بعد **طُليطلة وإشبيلية وقُرطُبة**، وكانت حصينةً جدًا، إذ أحاط بها سورٌ منيع، واحتشدت فيها بقايا القوط وأنصار الملك السابق لُذريق، فمضى إليها مُوسى بن نُصير فقاتلهُ أهلها قتالاً شديدًا، حيث كان أهلها يخرُجون لِقتال المُسلمين نهارًا ثُمَّ يلجأون إلى المدينة ليلاً، وفي ذات ليلة أكمن مُوسى الرجال والخيل في حُفر كانت عبارة عن مقالع يقطعُ منها أهل ماردة الحجارة. فلمّا خرج الأهالي في اليوم التالي على عادتهم لِقتال المُسلمين أثار عليهم مُوسى الكمائن من الرجال والخيل حتّى أوقع بهم هزيمةً مُنكرة، فانسحبوا نهائيًّا إلى المدينة وجعلوا يُقاتلون المُسلمين من وراء سورها، وضرب المُسلمون الحصار على المدينة بضعة أشهر – قيل أنّهُ أطول حصارٍ عرفهُ المُسلمون في الأندلُس – حتّى يئس أهلها من الصمُود في وجه المُسلمين فهرب نفرٌ منهم خفيةً إلى **جليقية** في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيريّة، ومال الذين آثروا البقاء في مدينتهم إلى طلب الصُلح، فأرسلوا وفدًا إلى مُوسى بن نُصير لِلتفاوض بِشأن الاستسلام، وأسفرت المُفاوضات عن عقد مُعاهدة بين الجانبين جاء فيها: ضمان المُسلمين سلامة جميع الأهالي سواء الذين يُفضلون البقاء في ماردة أو مُغادرتها إلى مكانٍ آخر، وضمان الحُريّة الدينيّة لِلسُكّان وعدم إرغامهم على اعتناق الإسلام والحفاظ على كنائسهم من أن تُهدم، وتسليم الأهالي جميع مُمتلكات وأموال الذين قُتلوا في الحرب إلى المُسلمين، بِالإضافة إلى تلك الخاصّة بِالهاربين من القوط إلى جُليقية، والأموال والحُليّ التي كانت الكنائس – ذلك لأنّ القوط كانوا يجعلون من الكنائس قلاعًا يُحاربون المُسلمين من وراء جُدرانها – فقبل أهلُ ماردة بِذلك وتمّ التوقيع على الاتفاق، ثم فتح السُكّانُ أبواب مدينتهم إلى المُسلمين، فدخلوها ونشروا راية السلام. وبعد سُقُوط المدينة، نظّم مُوسى بن نُصير حاميتها العسكريّة من العرب والبربر من

دون اللُجوء إلى جاليتها اليهوديّة الكبيرة، ولعلّ هذا مُؤشّر على أهميّة المدينة من جهة، وبداية السيطرة الإسلاميّة المُركّزة على مرافق البلاد من جهةٍ أُخرى.

وقد ظلّت فُلُول القوط المهزومة، التي التجأت إلى المُدن المُجاورة، خارج نطاق السيطرة الإسلاميّة، فأخذت تُراقب تحرُكات المُسلمين وتنتظر الفُرصة المُناسبة لِلانقضاض على الحاميات الإسلاميّة في المُدن المفتوحة لاستردادها، وبدأت **بإشبيلية**، فهاجمتها وقتلت مُعظم أفراد حاميتها البالغ عددهم نحو ثمانين رجلاً، في حين غادر الباقون المدينة ولحقوا بِمُوسى في ماردة، كانت هذه الحركة أوّل رد فعل قوطي ضدّ السيادة الإسلاميّة، وعنوانًا على شدّة مُقاومة القوط، والخطر الذي كان سيتعرّض لهُ طارق بن زياد لولا مجيء مُوسى بن نُصير لإنقاذ الموقف، وما أن انتهى **مُوسى بن نُصير** من فتح ماردة حتّى أرسل ابنه **عبد العزيز** على رأس قُوّةٍ عسكريّةٍ إلى **إشبيلية** لِقمع التمرُّد. نجح عبد العزيز في القضاء على الثورة وأعاد الأُمور إلى نصابها.

وقد لفتت شدّة مُقاومة القوط انتباه **مُوسى بن نُصير**، وحتّى يدعم مُنجزات المُسلمين، رأى ضرورة وضع المُدن المفتوحة في أيدي قادة من المُسلمين بِدون الاعتماد على السُكّان المحليين أو غيرهم من الجماعات التي انضمّت إليه أثناء زحفه، فعيّن **عبد الجبّار بن أبي سلمى الزهري**، قائد ميسرة جيشه، واليًا على **باجة**.

مكث مُوسى بن نُصير في ماردة مُدّة شهر أراح فيها جُنده قبل أن يستأنف السير إلى طُليطلة، وقد خرج طارق بن زياد من طُليطلة والتقى بسيّدُه في مكانٍ يُدعى «**المعرض**» بين نهري **تاجة والتيتار**، وعقد الرجُلان مجلسًا عسكريًّا قوّما فيه الموقف العسكري العام، وناقشا خطّة المرحلة التالية من الفتح.

خ. فتح شمال أيبيريا:

عاد مُوسى وطارق إلى طُليطلة وقضيا فيها شتاء سنة 95هـ–714م، وأرسل موسى الخبر بِالفتح وبِالغنائم إلى الخليفة **الوليد بن عبد الملك** في دمشق، كما سكّ **مُوسى بن نُصير الدراهم والدنانير الأندلُسيّة الأولى**، مضروبة بِاللُغة العربيّة والألفاظ الإسلاميّة، فجعل على إحدى وجهيها: «**بسم الله. لا إله إلّا الله وحده لا إله غيره**»، وعلى الوجه الآخر: «**هذا الدرهم ضُرب في الأندلُس سنة**».

ولمّا حلّ الربيع سنة 714م، حتى باشر **مُوسى بن نُصير وطارق بن زياد** تنفيذ خطّتهما القاضية بِالسيطرة على الأقاليم الأيبيريّة الشماليّة المُمتدّة من سرقسطة شرقاً حتّى ساحل جُليقية، على المُحيط الأطلسي غربًا، بِهدف إقامة حاجز دفاعي يُؤمّن مُنجزات المُسلمين في جنوب ووسط البلاد، وذلك من خلال القضاء على الجماعات القوطيّة اللاجئة إلى تلك الأقاليم، وكانت مدينة **سرقسطة** أوّل هدفٍ لِلحملة، فاقتربت منها القُوّات الإسلاميّة، على حين غفلة من أهلها، ففوجئ هؤلاء بالمُسلمين يُعسكرون أمام مدينتهم، ودبّ الذُعر بينهم، وبعث إليهم مُوسى بن نُصير من أمّنهم وأعطاهم عهده، فطاب نُفوسهم، وفتحوا أبواب مدينتهم لِلمُسلمين، وقد جالت القُوّات الإسلاميّة في نواحي إقليم سرقسطة، وأقام مُوسى مُدّةً في المدينة نظّم خلالها أوضاعها الإداريّة، وأنشأ فيها مسجدًا خطّهُ التابعي **حنش الصنعاني** مُهندس المساجد في الغرب الإسلامي.

وبِسيطرة المُسلمين على إقليم سرقسطة طُويت صفحة التاريخ القوطي في الأندلُس، ولم يبق أمامهم سوى فتح إقليم جُليقية المُمتد إلى الغرب من سرقسطة حتّى المُحيط الأطلسي، وهو الإقليم الذي اشتمل على أشتوريس في الوسط وكنتبرية في الشرق. وفي الوقت الذي كان فيه مُوسى بن نُصير يتأهّب لِلزحف نحو ذلك الإقليم، عاد إليه **مُغيث الرومي** قادمًا من دمشق، وحمل معهُ أمرًا من الخليفة إلى كُلٍ من مُوسى وطارق بِالتوقُّف فورًا عن الفُتُوح والمُثُول بين يديه، ويبدو أنّ الخليفة شعر أنّهُما تجاوزا حدّ التوسُّع المُتفق عليه.

وقد رأى مُوسى بن نُصير أنّ هذا الاستدعاء جاء في وقتٍ غير مُناسب، لأن تعقُّب القوط لم ينتهِ، وكان حريصًا على **فتح جُليقية** والقضاء نهائيًّا على المُقاومة القوطيّة، كما أنّ مُغادرة المنطقة كانت تعني المُغامرة بِمُستقبل المُسلمين في الأندلُس كُلّها؛ لِذلك تباطأ في الاستجابة لأوامر الخليفة، وتواطأ مع مبعوثه لِيُمهله أيّامًا حتّى ينتهي من تنفيذ خطّته والدُخُول إلى إقليم جُليقية، مُقابل أن يكون شريكه في أجر فتحها، ويهبه موضعًا في مدينة قُرطُبة بِجميع أرضه، فوافقهُ مُغيث ورافقهُ في حملته على هذا الإقليم. وقد سرع موسى من دون أن يُضيّع وقتًا في حصار المُدن أو التحايُل على من يُعصي من سُكّانها كما كان الشأن من قبل، وطبع حملته بِطابع الشدّة والقسوة والعُنف المقرون بِالتدمير؛ مما أدخل الجزع والفزع في قُلُوب السُكّان، وهُم الذين لم يكونوا أصلاً بِحاجةٍ إلى من يزيدهم ذُعرًا ورُعبًا، فتسارع أعيانهم وكبارهم إلى الطاعة وطلب الأمان والصُلح.

وقد غادر مُوسى بن نُصير مدينة **سرقسطة** مُتوجهًا إلى **إقليم جُليقية** لِفتحه، واصطحب معهُ طارق بن زياد. وسلك المُسلمون طريقًا يمتد من الضفّة الجنوبيّة – اليُمنى **لنهر إبرة،** والسُفُوح الجنوبيّة **لِجبال كنتبرية،** ويمُر بِالعديد من المُدن مثل **هارد وبرڤييسكا وأمالية وليون،** وينتهي عند مدينة أستورقة. وسار طارق بن زياد على رأس قسمٍ من الجيش كطليعة، فتقدَّم باتجاه مدينة أماية وفتحها ثُمَّ فتح **مدينة بارد،** ودخل القسم الجنوبي من إقليم **أشتوريس** وفتح مدينته الرئيسيَّة **أستورقة،** ثُمَّ اقتفى مُوسى أثره لِيُؤمِّن ما فتحهُ حتّى وافاه في مدينة **أستورقة،** حسب الخطّة الموضوعة سابقًا، إذ أشارت الروايات الإسلاميّة إلى نبأ تلاقيهما فيها، ومنها سارا سويًّا لإتمام فتح **أشتوريس وجُليقية،** فاخترقا جبال كنتبرية من إحدى ممرّاتها ودخلا شمالي أشتوريس، وسارا بِمُحاذاة مجرى **نهر نالون** واقتحما المنطقة، ثُمَّ تقدَّما نحو الشمال حتّى أدركا **حصن لوغو،** وفتحاه، وفرَّت حاميته إلى مكانٍ جبليٍّ بِأقصى شمالي **أشتوريس** هو **صخرة بلاي،** الواقع في **جبل أوسبة** الوعر في سلسلة جبال كنتبرية، وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف **(كوفا دونكا)،** وقد أقام **مُوسى بن نُصير** عدَّة أيّامٍ في **حصن لوغو،** قبل أن يستأنف حملته لِفتح ما تبقّى من الشمال الأيبيري في أقصر وقتٍ مُمكن، بِفعل أنّهُ كان عليه أن يستجيب لِنداء الخليفة. لِذلك استقرَّ الرأي على أن يُرسل سريّة لِتعقُّب الفارّين إلى **صخرة بُلاي** في شرقيّ **أشتوريس،** ثُمَّ تُواصل التوغُّل في هذا الإقليم وإلى ما يليه شرقًا في المنطقة الشماليّة لِجبال كنتبرية، ثُمَّ تنحدر إلى الثغر الأعلى؛ لِتوطيد أقدام المُسلمين والقضاء على أي أثرٍ لِلمُقاومة هُناك، وعيَّن طارق بن زياد على قيادتها، أمّا هو فكان عليه اقتحام **إقليم جُليقية** الواقع إلى الغرب من أشتوريس.

وقد تقدَّم **طارق بن زياد** إلى **صخرة بُلاي** في أقصى شمال **أشتوريس** وجال هُناك ففتح بلادها ولاذ الأهالي بالصُلح والسلم وبذل الجزية، إلا أنّهُ لم يتمكّن من فتح الصخرة، غير أنّهُ فتح مدينة **خيخون** الأشتوريسيّة الواقعة على ساحل بحر كنتبرية على المُحيط الأطلسي، ومن هُناك واصل تقدُّمه شرقًا في **بلاد البشكنس،** حتّى أدرك **الثغر الأعلى** ثانيةً، ولم يفتح **إقليم كنتبرية** المُمتد إلى الشرق من **إقليم أشتوريس** مُباشرةً بِفعل أنّهُ كان في عجلةٍ من أمره لِيلحق بِمُوسى بن نُصير، وفي تلك الأثناء اقتحم **مُوسى بن نُصير جُليقية** وأدرك فيها مدينةً تُعرفُ أيضًا باسم «**لوغو**» وفتحها. وأتاه، وهو فيها، رسولٌ ثانٍ من الخليفة **الوليد بن عبد**

الملك يأمره بِالتوقُّف فورًا عن الفُتُوح والعودة إلى دمشق، بِدون أن يُتيح لهُ فُرصة فتح ما تبقّى من **إقليم جُليقية**.

د. عودة قادة الفتح إلى دمشق:

استجاب مُوسى بن نُصير لِطلب الخليفة، فغادر مسرح العمليَّات في الشمال، بعد أن وضع فيها حامياتٍ عسكريَّة، وانصرف عائدًا إلى الجنوب، فدخل طُليطلة حيثُ أجرى فيها بعض الترتيبات الإداريَّة ثُمَّ غادرها إلى قُرطُبة **فإشبيلية**، التي اتخذها عاصمة ولاية الأندلُس التليدة، وعيَّن ابنه **عبد العزيز** واليًا عليها طيلة مُدَّة غيابه، وأمرهُ بِمُتابعة الجهاد لِتوطيد الفتح، وترك معهُ جيشًا ونفرًا من أنجاد المُسلمين ووُجوههم منهم **حبيب بن أبي عُبيدة الفهري**.

وقد ترك **مُوسى بن نُصير** الأندلُس في أواخر سنة95هـ-714م، واتجه إلى إفريقية ومعهُ **طارق بن زياد ومُغيث الرومي** والغنائم والسبي، فوصل إلى القيروان واستخلف ابنه **مروان** على **طنجة** وابنه **عبد الله** على **القيروان** وسار إلى دمشق في حاشيةٍ عظيمةٍ وسبيٍ غفير وغنائم كثيرة، فوصل **دمشق** واجتمع **بِالوليد** في مرضه وقدَّم لهُ تقريرًا مفصلاً عن إنجازاته بِالإضافة إلى الأخماس والغنائم، وأقام عندهُ حتّى تُوفي الوليد في شهر جُمادى الآخرة سنة 96هـ- شُباط (فبراير) سنة 715م.

ذ. عصر الولاة في الأندلس:

يقصد بالولاة حكام الأندلس الذين عينتهم الحكومة الأموية فى دمشق، أو والى الشمال الإفريقى الذى كانت الأندلس تابعة له أحيانًا، وقد تولى على الأندلس خلال هذه الفترة (22) واليًا، حكم اثنان منهم مرتين، وهذا يعنى أن متوسط فترة حكم الوالى تقل عن سنتين، وهذا يعنى أن عدم الاستقرار هو السمة الغالبة على هذه الفترة، ويعود ذلك إلى اضطراب السياسة العامة بعد وفاة «الوليد بن عبدالملك» وانتشار العصبيات القبلية والشخصية، ونزاع العرب مع البربر.

وقد تولى بعد **موسى بن نصير** ابنه **عبدالعزيز** حكم الأندلس وكان أول ولاة الأندلس، واستمر فترة، ثم تبعه بعض الولاة، وكان «**السمح بن مالك الخولاني**» من خيرة ولاة «الأندلس»، فضلا وصلاحًا وكفاءة وقدرة؛ حيث نظم شئون البلاد، وأعاد بناء القنطرة التى كانت مقامة على الوادى الكبير، وكانت قد تهدَّمت ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا فى السفن، وكان العرب فى أمسِّ الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور إليها من الجنوب إلى

عاصمتهم الجديدة، كما أعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد لحسن سياسته، وحمله الناس على طريق الحق، ورفقه بهم.

ولم يكن «السمح بن مالك» كفؤاً من الناحية الإدارية فحسب، بل كان أيضًا قائدًا عسكريا ممتازًا قام بحملة شاملة، اخترقت «جبال البرت» من الشرق، وسيطر على عدد من القواعد هناك، واستولى على «سبتمانيا» وأقام حكومة إسلامية بها فى هذا الوقت المبكر، واتخذ من «أربونة» قاعدة للجهاد وراء «البرت»، وقد استشهد فى معركة مع النصارى عند «تولوز» فى يوم عرفة من سنة (102هـ = 721م)، ثم خلفه **عنبسة بن سحيم الكلبى، فأنفق** وقته فى تنظيم الإدارة، وضبط النواحى، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة، وقد عبر «عنبسة» بجيوشه «جبال البرت»، وتمكن من بسط سلطان المسلمين فى شرقى جنوب فرنسا، وفى أثناء عودته داهمته جموع من الفرنجة، فأصيب في المعركة، ثم توفى سنة (107هـ = 725م).

وبعد «عنبسة» توالى على «الأندلس» سبعة من الولاة بين سنتى (107-112هـ= 725-730م) تفاقمت خلالها المشكلات، وازدادت الاضطرابات، وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل في الأندلس، وتجددت المنازعات بين العرب البلدانيين (وهم العرب الذين طال بهم المقام والعمل فى إفريقية حتى سمو **بالبلدانيين)**، والشاميين، وهاجم الأعداء القواعد الإسلامية.

وظلت الأمور تجرى على هذا النحو المضطرب حتى عُيِّن «**عبدالرحمن الغافقى**» واليًا على الأندلس، ظَّم شئون البلاد، وأصلح نظم الحكم والإدارة، وعين أصحاب الكفاءات فى المناصب المختلفة، وقمع الظلم، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم، وفرض ضرائب عادلة وعنى بتنظيم الجيش وإصلاحه، وأنشأ فرقًا من العرب والبربر، وحصن القواعد والثغور الإسلامية، وجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى فرنسا.

- **موقعة بلاط الشهداء:**

فى أوائل سنة (114هـ = 732م) سار «الغافقى» بجيوشه نحو الشمال وعبر جبال «البرت» من طريق «بنبلونة» ودخل فرنسا؛ حيث قام بمعارك ناجحة ضد أعدائه، وفتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب فى بضعة أشهر، وواصل زحفه المظفر حتى أشرف بجيشه على **نهر اللوار**، وهناك احتشد له «**شارل مارتل**» بجيش ضخم من الفرنج

والمرتزقة نصف العراة، ويتشحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية. وقد استولى المسلمون على مدينتى «**بواتيه**» و «**تور**»، ثم فاجأهم العدو دون أن تشعر به طلائع المسلمين أو تحسن تقدير عدده، وأراد عبدالرحمن أن يقتحم «اللوار» ففاجأه «شارل مارتل» بجموعه الجرارة فارتد إلى السهل الواقع بين مدينتى «بواتيه» و «تور»، وعبر جيش الفرنج «اللوار» وعسكر غربى الجيش الإسلامى.

وقد عزم «الغافقى» على لقاء العدو على الرغم من أن بعض قبائل البربر فى جيشه كانت تتوق إلى الانسحاب بما تحمله من غنائم كثيرة، وأن عدد جنوده قد قل بسبب تخلف حاميات كثيرة فى المدن والقرى المفتوحة.

ودامت المعركة تسعة أيام دون أن يحقق الفريقان نصرًا حاسمًا، وفى اليوم العاشر أبدى كلا الطرفين غاية الجلد والشجاعة، وظهر الإعياء على الفرنج، وبدت علامات انتصار المسلمين، لكن حدث أن افتتح الفرنج ثغرة فى معسكر غنائم المسلمين وارتفعت فيه صيحة مجهول تقول إن معسكر الغنائم سيقع فى يد العدو، فارتدت قوات كبيرة إلى ماوراء الغنائم لحمايتها، واختلت صفوف المسلمين، وبينما يحاول «الغافقى» إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم أرداه من فوق جواده قتيلا، فعم الاضطراب بين المسلمين، وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا حتى جن الليل وافترق الجيشان دون فصل فى (أوائل رمضان 114هـ = 21 أكتوبر 732م)، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم فى «سبتمانيا» تاركين غنائمهم.

وفى فجر اليوم التالى تقدم «شارل» بحذر فوجد المعسكرات الإسلامية خالية إلا من الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب فذبحوهم، وخشى «شارل مارتل» الخديعة فاكتفى بانسحاب المسلمين ولم يتعقبهم، وآثر العودة بجيشه إلى الشمال.

وكان مقتل «الغافقى» خسارة فادحة للمسلمين، وضربة شديدة لمشاريع الخلافة فى الغرب؛ إذ أخفقت آخر محاولة بذلتها لفتح العالم الغربى.

وبعد بلاط الشهداء هذه المعركة وبعد هذه الموقعة توقفت تماما الفتح الخارجي والسبب الفتن الداخلية التي حلت بالمغرب الأندلس، حيث شهد الأندلس حروب العصبية القبيلة بين اليمنية والمضربة أو العدنانية أو القيسية وكان السبب المباشر لقيام حرب العصبيات في

الأندلس وقوع خلاف بين شخصين أحدهما مضري والأخر يمني، وانتهت هذه الصراعات بمعركة كبرى عند بلدة شقندة جنوب قرطبة انتصرت فيها القيسية على اليمنية.

ثالثاً: الإمارة الأمويّة (إمارة قُرطُبة):

أصبحت الأندلُس بعد فتحها ولايةً من ولايات الدولة الأُمويّة، واستمرّت تخضع للسُلطة المركزيّة في دمشق حتّى عهد **هشام بن عبد الملك**، وعندما ضعُفت الحُكومة المركزيَّة، وانهمك وُلاة وأُمراء شمالي أفريقيا بِشؤونهم الداخليَّة وفي مُقدِّمتها ثورات البربر بعد أن استقطبهم **الخوارج**، فبات لازمًا على المُسلمين في الأندلُس أن يُدافعوا عن أنفُسهم بأنفُسهم. وقد حاول المُسلمون مُنذُ سنة 100هـ–718م الاندفاع وراء **جبال البرتات** في **غالة (فرنسا)**، فحصلت بينهم وبين الإفرنج عدَّة وقعات عنيفة انتصر المُسلمون في بدايتها، ثُمَّ انهزم المسلمون في مواقع عدة، فقد توقف المدُّ الإسلامي باتجاه قلب أوروبا سنة 114هـ–732م.

وقد انهارت الدولة الأُمويَّة في بلاد الشام عام (132هـ–750م) بعد أن انهزم آخرُ الخُلفاء الأُمويين **مروان بن محمد** في **معركة الزاب** أمام **العبّاسيين**، ودخل هؤلاء إلى دمشق للقضاء على من تبقّى من أُمراء بني أُميَّة، لكنَّ أحد هؤلاء الأُمراء، وهو **عبد الرحمن بن معاوية**، قد نجا من المذبحة المُروِّعة ويفر إلى **المغرب**، وخطط لإنشاء **دولةٍ للأُمويين في ولاية أفريقية** نظرًا لِكثرة من هرب إليها من بني أُميَّة، لكنَّ واليها الأساسي **عبد الرحمن بن حبيب الفهري** رفض لأنها كان قد خطط للاستقلال بها أيضًا، وتشدَّد في مُعاملة الأُمويين وضيَّق الخناق عليهم وصادر أموالهم وقتل بعضهم، فآثر **عبدُ الرحمن بن مُعاوية** مُغادرة الولاية وتوجَّه بِطُموحه إلى **ولاية الأندلُس** التي وجد فيها الفُرصة الأكثر منالاً من المغرب وأفريقية.

وكانت الأندلُس في ذلك الوقت تتعرَّض لِهجمات جيرانها المسيحيين في الشمال، وكان من العسير على الأندلُسيين الاتفاق على زعيمٍ يلتف الجميع حوله بسبب النزاعات المُتواصلة بين القبائل المضرية واليمانية، فشرع **عبدُ الرحمٰن بن مُعاوية** يعمل على استغلال الموقف لِمصلحته، فأرسل مولاهُ **بدرًا** إلى الأندلُس ليُعبّئ أنصارهُ فيها، فاجتمع **بدر** بالأنصار وعرض عليهم مأساة الأُمويين والكارثة المُفجعة التي حلّت بهم، مُشيدًا بِصفات **عبد الرحمٰن بن مُعاوية**

ومُؤهلاته كحفيدٍ لِهشام بن عبد الملك، ومقدرته على ردّ الأمر لِجماعة الأُمويين إذا ما أُتيحت لهُ فُرص المُساعدة، وقد وافقت دعوة عبد الرحمٰن رغبة **اليمانيَّة** المدفوعين بالرغبة في الثأر لهزيمتهم أمام **الفهريَّة والقيسيَّة** في موقعة **شقندة**، فاحتشدوا لِنُصرة عبد الرحمٰن. ثم أرسل زُعماء **الموالي** مركبًا تعبر به إلى الأندلُس، فوصل إلى **ثغر المنكب** سنة138هــ-755م.

وقد أحدث دُخول عبد الرحمٰن بن مُعاوية إلى الأندلُس ردَّ فعلٍ إيجابيّ من جانب أنصاره من الموالي وغيرهم من اليمنيين، فتوافدوا عليه للسّلام والبيعة، وبلغت الأحداث مسامع **يوسف الفهري**، آخر وُلاة الأندلُس، فحاول بدايةً التفاوض مع الأمير الأُموي بعد أن رأى كثرة أنصاره واتساع شعبيّته، ففشل، فدارت معركة حاسمة بين الطرفين سنة 138هــ-756م، انتهت بنصر عبد الرحمٰن، الذي استثمر انتصاره بأن تقدّم نحو قُرطُبة ودخلها، وتربّع على العرش في **قصر الإمارة**، وبايعه الناس البيعة العامّة، وخطب بالنّاس مُعلنًا قيام **الإمارة الأُمويّة**، ومُوضحًا سياسته القائمة على العدل والإحسان.

وعُرف **عبدُ الرحمن بن مُعاوية** باسم «**عبدُ الرحمن الدّاخل**»، كونه «**دخل**» (أي **هاجر**) إلى الأندلُس، ومُنذُ أن تسلّم الحُكم حتّى دخل المُسلمون في الأندلُس في عهدٍ جديدٍ قائمٍ على أُسسٍ سياسيّة بعيدةٍ عن العُنصُريّة والقبليّة من واقع تحجيم نُفوذ زُعماء القبائل وإحلال سُلطة الدولة مُمثلة بالأمير، محل سُلطة القبائل، وبدأت الأندلُس تسير في طريق اكتساب الحضارة، وقد برز في عهد الإمارة الكثير من المعالم الحضاريّة التي استمرّت زهاء قرنين، كما ظهرت خصائص المُجتمع الإسلامي بشكلٍ واضح، وبدأ عهد الإمارة يجني ثِمار ما غُرس أثناء عهد الوُلاة في جوانب التبدُّل الذي تمّ نتيجةً لِدُخول الإسلام إلى الأندلُس، وهو ما شمل الجوانب الحضاريّة المُتعددة والإنسانيّة كافّة.

وأضحى الأندلُس بلدًا إسلاميًا مستقلاً عن الخلافة العباسية في المشرق، بعد أن كان خاضعًا لِمركز الخِلافة في العهد الأُموي، ولم تُحاول الدّولة العبّاسيّة جديًا إعادته إلى حظيرتها. ويبدو أنّ انفصاله النهائي عنها لم يُشكِّل خطرًا حقيقيًا مُباشرًا على كيانها، بالإضافة إلى أنّهُ استمرّ في حمل الرسالة الإسلاميّة، ولا يدعو ذلك بالضرورة للمُواجهة المُباشرة.

وتوقّفت حركة الفُتُوح في هذا العهد، وقنع المُسلمون بما وضعوا أيديهم عليه من أراضٍ، وأخذوا يُنظمون شؤونهم ويُرتبون أوضاعهم حتّى ينعموا بِثمرات الفتح، فظهرت

التنظيمات المُختلفة، مثل **منصب الحِجابة والوزارة**، كما ظهرت **البحريَّة الأندلُسيَّة**، وتطوَّرت التنظيمات العسكريَّة مع العناية بالثُغور والأساطيل.

كما اتبع عبدُ الرحمٰن الدّاخل سياسة حكيمة تجاه الدولة العبّاسيَّة في بداية عهده، وذلك بوصفها صاحبة السيادة الروحيَّة على العالم الإسلامي؛ فلم يُعلن الانفصال عنها بدايةً لكي لا يُثير الشُعور العام على الرُغم من كُرهه الشديد للعبّاسيين، فدعا للخليفة العبّاسي أبو جعفر المنصور، ولكن لِمُدَّة قصيرة لم تتجاوز عشرة أشهر، حتى قطع الدُعاء للعبّاسيين وأعلن انفصال الأندلُس عن الدولة العبّاسيَّة، واستقلالها بأُمورها، وأضحى اسمُه، ومن جاء بعده من بنيه يُذكر فوق منابر الأندلُس.

إلى جانب المُنجزات الحضاريَّة الكثيرة، شهد عهد الإمارة الأُمويَّة عددٌ من القلاقل تمثّلت بعدَّة ثورات، اتخذ بعضُها طابعًا عرقيًا وبعضُها طابعًا دينيًا واجتماعيًا، ومن تلك الثورات على سبيل المِثال: **ثورة البربر** في **شنتبرية** بِقيادة **شقيا أوسفين المكناسي البربري** الذي ادَّعى أنّهُ من نسل **الإمام الحسين بن علي**، فعُرف **بالفاطميّ**، وقد استغلّ الشُعور الديني القوي في الثغرين الأوسط والأدنى، ونظم حركة سياسيَّة دينيَّة، واستمرت الثورة ثماني سنوات (769–777م).

كذلك شهد هذا العهد مُحاولة **الفرنجة** بقيادة **الإمبراطور شارلمان** غزو الأندلُس بعد أن اتفق مع **سُليمان الأعرابي** حاكم **برشلونة**، ومعه **الحسين بن يحيى الأنصاري** زعيم **سرقسطة** اللذين ثارا على السُلطة المركزيَّة، لكنَّ المُحاولة فشلت، وأُخذ **الأعرابي** أسيرًا إلى بلاد الفرنجة، وقُتل الأنصاري.

لقد عاود الفرنجة هُجومهم على الأندلُس بعد بضع سنوات، وفي هذه المرَّة تمكنوا من السيطرة على **برشلونة**، فكانت تلك ضربةً قاسية للمُسلمين، بحيث فقدوا شطرًا هامًا من ثُغورهم القريبة من **جبال البرتات**، وفشلت جميع مُحاولاتهم في استعادتها. بالمُقابل نجح الفرنجة في فرض سيطرتهم على الأراضي الإسلاميَّة المُمتدَّة على طول الحافَّة الجنوبيَّة من تلك الجبال، واتخذوا المدينة قاعدة انطلاق للاستيلاء على المُدن المُجاورة.

كما حاول **النورمان** سنة229هـ–844م، غزو الأندلُس عبر مدينة **أشبونة** الواقعة على السّاحل الغربي، فصدَّهم والي المدينة، لكنَّ غاراتهم استمرَّت طيلة شهرين من الزمن وكادت أن تتعرَّض فيها سلامة البلاد لِخطرٍ مُحقّق لولا يقظة الأمير عبد الرحمن الأوسط،

وقادته وحُسن استعدادهم العسكري، فهُزم النورمان شرَّ هزيمة واضطرَّ ملكهم إلى طلب الصُلح، وأُبرم تفاهمٌ بينهم وبين المُسلمين.

كذلك شهدت هذه الفترة ثورةٌ لعلّها الأشهر في تاريخ الأندلُس هي ثورة **عمر بن حفصون**، التي استمرَّت حتّى سنة 316هـ، عندما توفي عُمر بن حفصون نفسه.

كما نشط المُجاهدون الأندلُسيّون أواخر القرن الثاني الهجري، فكثّفوا غاراتهم عبر البحر ضدّ أراضي الإمبراطورية الكارولنجية **(فرنسا)**، وقد تمكن المُسلمون من السيطرة على إقليم **بروفانس** عليه، ثُمّ تخطوه في أواخر القرن الثالث الهجري وتقدموا شمالاً في عُمق الأراضي الفرنسيّة، وبذلك تحكّموا في مُعظم ممرات جبال الألب، وسيطروا على طريق المُواصلات بين فرنسا وإيطاليا.

رابعاً: الخِلافة الأمويَّة (خِلافة قُرطُبة):

بعد أن بويع الأمير **عبدالرحمن بن محمد** بالإمارة، قام بإصلاح أحوال الأندلُس بعد أن تكاثرت فيها الثورات وتجمّع حولها الأعداء، فأعلن من خِلال منشور عام التأكيد على التسامُح وإسقاط كافّة الجرائم التي اقتُرفت بِحق الدولة في حال أعلن الثائرون الولاء للسُلطة المركزيّة في قُرطُبة، كما توعّد وأنذر باجتثاث معاقل الثائرين والعابثين بأمن البلاد والمُتحالفين مع القوى الأجنبيّة ضدّ الدولة، ولقي منشور الأمير استجابةً من بعض الثائرين، وتوالت اعترافاتهم بحُكمه، غير أنَّ فريقًا ظلّ متجاهلاً نداءه، وهم جماعة **عُمر بن حفصون**، فاضطرَّ **عبدُ الرحمٰن** إلى إرسال حملة عسكريّة للقضاء عليه، وقد نجحت العمليّات العسكريَة في إخضاع الأقاليم والحُصون الثائرة بِقيادة بني حفصون، كما تمكّنت من استرداد عدة مدن كانت قد أصبحت شبه مُستقلّة.

وبعد القضاء على الثورات الدّاخليَة، اتخذ **عبدُ الرحمٰن بن مُحمَّد** أكبر وأخطر قرار لهُ على مدى حياته السياسيّة، لم يتجرّأ أسلافه على اتخاذه، وهو تلقيب نفسه بِلقبين ساميين، الأوّل لقبُ **الخليفة**، والثاني لقب **أمير المؤمنين**، وأضاف إلى اسمه اللقب الشرفي "**النّاصر لِدين الله**". وأمر بأن تتضمَّن خِطبة الجُمعة في المسجد الجامع ذلك. واستمرَّ هذا اللقب في عهده وعهد خُلفائه من بعده حتّى انقرضت دولة الأُمويين سنة 422هـ-1031م.

كما خرج **عبدُ الرحمٰن النّاصر** بِعمله هذا عن الأصل النظري للمذهب السني للخِلافة، القائل بأنّ **الخِلافة كمُؤسسة دينيّة ودُنيويّة** لا يُمكن أن تتجزّأ حسب المفاهيم السّائدة في ذلك الوقت، إلا أنه وضع هذا العمل في موضع الاجتهاد، وأجاز الفُقهاء والعُلماء السُّنّة بِتعدُّد الخِلافة في حال وُجود مصلحة عامّة للمُسلمين، واعترفوا بِشرعيّة وُجود إمامين يتولّيان حُكم المُسلمين في وقتٍ واحد، شرط أن تكون المسافة بينهما كبيرة حتّى لا يحصل التصادم بينهما.

ومن الأسباب الواقعيّة التي دفعت عبد الرحمٰن النّاصر إلى إعلان الخِلافة، كان ضُعف الدولة العبّاسيّة وانحدار سُمعتها إلى الحضيض، بحيثُ تحوّلت إلى مطيّة لأطماع القادة الأتراك المُهيمنين على مصائر الخُلفاء، والذين أضحوا أصحاب الكلمة النافذة في الدّولة غير عابئين بِالخِلافة بوصفها لقبًا لهُ حُرمته، ولا بالخليفة بوصفه صاحب سُلطة دينيّة وزمنيّة.

كذلك فقد كان **الإمام عبيدالله المهدي الفاطمي** قد بُويع **بالإمامة** في أفريقية وتلّقب بأمير المُؤمنين في سنة 297هـ–910م، لِيُنافس عدُوّه الرئيسي خليفة بغداد، ورُبما كانت هذه الحادثة أكثر إلحاحًا من تراجُع نُفوذ الخِلافة العبّاسيّة في المشرق للإقدام على هذه الخُطوة من جانب عبد الرحمٰن النّاصر، لا سيّما وأنّ **الفاطميين** كانوا قد أعلنوا **الخِلافة** على أساسٍ شيعي إسماعيلي، وهو ما مثّل تهديدًا عسكريًا ودينيًا للأُمويين بصفةٍ خاصّة والأندلُس بصفةٍ عامّة. وفي سبيل مُواجهة هذا الخطر حصّن النّاصر الموانئ الجنوبيّة للأندلُس، وضمّ موانئ المغرب المُواجهة، إضافة إلى دعم البربر المُعادين للفاطميين في المغرب ماديًا وعسكريًا، وفي الوقت نفسه، استطاع عبد الرحمٰن النّاصر التصدي لأطماع الممالك المسيحيّة في الشمال.

لقد وصلت الأندلُس إلى حالةٍ كبيرة من الاستقرار والأمن بعد السيطرة على التمرُّدات الداخليّة، وبعد نجاح الحملات التي كانت تُرسل لِقتال الممالك المسيحيّة في الشمال، والتي كانت تعود مُحمّلة بالغنائم والأموال، كما تحسّنت أحوال البلاد الزراعية والصناعية، كما بُنيت ميدنة **الزهراء** شمالي غرب قُرطُبة بنحو خمسة أميال، لِتكون قاعدة ملكيّة جديدة بعدما ضجّت قُرطُبة بساكنيها وازدحموا بها.

وفي هذا العهد خطا المُسلمون في **بروفانس** خُطوةً أُخرى في سبيل التوغُّل في عُمق أوروبا. ففي سنة318هـ–930م، غزوا ثغر **فريجوس**، وهو من أمنع ثُغور فرنسا الجنوبيّة، كما غزوا ثغر طولون، كما غزوا **منطقة ڤاليه** في جنوبي **سويسرا**، واستقرّوا فيها، واتخذوا منها قاعدة لِغزو الأراضي المُجاورة في سويسرة وإيطاليا، كما غزوا **منطقة جزبرون** في

شرقي سويسرا، ووصلوا في توغُلهم إلى بحيرة جنيف، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها، وسيطروا على ولاية **ليكوريا** في شمالي إيطاليا، وفتحوا **آكام الألب** وممرّاتها، ونفذوا إلى منطقة **نيس**، واخترقوا قلب ولاية **دوفينيه**، وغزوا **كرونوبل**، وسيطروا عليها مُدَّةً من الزمن، كما سيطروا على واديها الخصيب.

نتيجة الفتوحات الإسلامية في عمق القارة الأوروبية، نهض المُلوك والأُمراء والأباطرة؛ لِوقف المُسلمين، فتمكن **هيو ملك إيطاليا** بالتعاون مع **الإمبراطور البيزنطي رومانوس الأول** من هزيمة المُسلمين وإرغامهم على التراجع حتّى الآكام، وكاد يقضي على سُلطانهم في تلك الأنحاء لولا اضطراب الأوضاع الدّاخليّة في بلاده، فاضطرّ أن يعقد صُلحًا مع المُسلمين مُقابل أن يتمركزوا في رؤوس الألب وممرّاته ويُغلقوا الطُرق بوجه خُصومه، أمّا في الشمال، فقد أنشأ المُسلمون في الأراضي التي سيطروا عليها سلسلةً من القلاع القويّة لِتكون مركزًا لِغزواتهم في **لومبارديا**، وفي **سويسرا**، غير أنهم أُخرجوا من بعض الجهات في **بيدمونت**.

وقد عرفت **دولة الخِلافة الأندلُسيّة** أوجها الثقافي في عهد الحكم **المستنصر بالله** الذي واصل سياسات أبيه **عبد الرحمٰن النّاصر**، فكان عهده عهد ثقافة وعُمران، لكنه أخطأ حين اختار ابنه الوحيد الطفل **هشام المؤيد بالله** لِولاية عهده، فاستغل بعض رجال الدولة **كالحاجب جعفر بن عثمان، وصاحب الشُرطة محمد بن أبي عامر**، صغر سنِّه وعدم قُدرته على الحُكم في سنِّه الصغيرة، وفرضوا على الخلافة وصاية **أُم الخليفة صُبح البشكنسية**، واستأثروا هُم بكُل السُلطات.

وقد انفرد **مُحمَّد بن أبي عامر** بكُل السُّلطات بعد أن تخلّص من كُل شُركائه في الحُكم الواحد تلو الآخر، وحجر على الخليفة الطفل، لتبقى بذلك السُلطة الإسميّة فقط للخليفة، والحُكم الفعلي **لابن أبي عامر** الذي تلقّب بعد ذلك "**بالحاجب المنصور**"، واستطاع **الحاجب المنصور** أن يؤسس دولة داخل الدولة حتى أن بعض المؤرخين سمّاها «**الدولة العامريّة**». وقد تميزت تلك الفترة بوجود تطور اجتماعي جديد بسيطرة البربر على المناصب القياديّة في الجيش وكثرة عددهم واختفاء القيادة العربيّة من الجيوش، واستمرّت سيطرة العامريين على الحُكم طوال عهد الخليفة **هشام المُؤيِّد بالله**، حتى تولى **الحجابة عبد الرحمن شنجول**، الذي لم يمض شهر على توليه الحجابة، حتى أجبر الخليفة على إعلانه ولاية العهد لشنجول؛ مما أثار ذلك

حنق الأُمويين في الأندلُس بعد أن رأوا في ذلك اغتصابٌ لِحقِّهم في حُكم البلاد، واستطاع أحد أُمرائهم ويُدعى **محمد بن هشام** الذي دبر انقلابًا سنة 399هـ على حكم **المُؤيّد وشنجول**، ويطيح بهما من سُدَّة الحُكم، ويعُلن نفسه الخليفة الجديد.

وقد حرص **مُحمَّد بن هشام** على التنكيل **بالعامريين والبربر** الذين كانوا عماد جيش الحاجب المنصور؛ مما دعا **الفتيان العامريين** إلى الفرار إلى شرق الأندلُس، وتأسيس إمارة في تلك الأرجاء، بينما التف البربر حول أميرٍ أُمويّ آخر يُدعى **سليمان بن الحكم**، الذي ثار على الخليفة، ونجح في اقتلاعه من منصبه وإعلان نفسه خليفة سنة400هـ، لتدخل الأندلس فترة من الفوضى والإضطرابات والمشاكل تصارع فيها الأمويون، والبربر، والحموديين على السُلطة، وقد استمرت الفتنة حتى سنة422هـ عندما سقطت الخِلافة في الأندلس نهائيًا، وتفتت الدولة إلى دُويلاتٍ صغيرة عُرفت تاريخيًا **بدول الطوائف أو ملوك الطوائف**.

خامساً: عهد مُلوك الطوائف:

يُعدُّ **عهد ملوك – دُول الطوائف** من أكثر عُهود التاريخ الأندلُسي تعقيدًا وتشابُكًا واضطرابًا. ففيه انفرط عقدُ البلاد وتقاسمتهُ نحو ستةٍ وعشرين دولة تتفاوت فيما بينها في الحجم والقُوَّة والضعف، حتّى كان لِكُل مدينة تقريبًا حاكمها المُستقل مُتخذًا لقب الملك، أو الأمير، أو الوالي، أو القاضي، تبعًا لِحجم المنطقة أو المدينة التي يحكُمها. وقد أدَّت الحُروب المُتصلة بين مُلوك الطوائف الأندلُسيَّة إلى تحوُّلاتٍ مُستمرَّة في مسار دويلاتها التاريخيّ يتراوح بين النُشوء والسُقوط وعدم ثبات الحُدود. فالقوي انقضّ على الضعيف وبطش به وسلبهُ أملاكه، حربًا أو صُلحًا، أو اقتطع أجزاء منها. ولجأ الضعيف حتّى يدرأ الخطر عنه، إلى التحالف مع جارٍ أقوى، فغدى تابعًا له. وكانت الممالك المسيحيَّة في الشمال تتزايد قُوَّتها ولا تكُف عن التدخُّل في شؤون تلك الدُول، فتفرض الجزية على الكثير منها، وتعمل على الاستيلاء على ما تستطيع من أملاكها.

وقد قسّم بعض المُؤرخين أُسر الطوائف، من **الناحية الاجتماعيَّة**، إلى **أربع فئات: الأرُستقراطيَّة العربيَّة** وأشهر أُسرها **بنو عباد اللخميون، وبنو تجيب اليمنيون، وبنو صمادح، وبنو هود الأدارسة، وبنو طار القيسيون؛ موالي بني أُميَّة** الذين كانت أُسرُهم عماد الدولة في عهد الأُسرة الأُمويَّة وشتّت **الحاجب المنصور العامري** أكثر هؤلاء ولم يبقى منهم إلا **بنو**

جهور؛ بقايا أُسرة الحاجب المنصور؛ البربر، وينتظمون في **ثلاث مجموعات: البربر المُستعربون** ومنهم **بنو الأفطس، وبنو ذي النون، وبنو رزين، والبربر حديثي الوفود** ومنهم **بنو زيري الصنهاجيين، وبنو زناتة، وبنو برزال، العرب المُتبربرين** ومنهم **بنو حمود الأدارسة الحسينيين**، وقد تكوَّنت، بعد معارك دامية بين الأُسر الطوائفيَّة، سبع دُولٍ رئيسيَّة غلبت على جميع الدُويلات الأُخرى أو تحالفت معها، وهي:

1. **دولة بنو جهور**: في **قُرطُبة** وما يُجاورها من المُدن والأراضي الوُسطى. وهؤلاء من الموالي، وقد قضى عليهم **بنو عبَّاد**.
2. **دولة بنو عبَّاد**: في **إشبيلية**. وقد توسَّع هؤلاء على حساب **بني حمّود والبربر**، واضطرَّ أميرا **قُرطُبة وبطليوس** إلى الانضواء تحت لوائهم حُلفاء، أو مغلوبين، وحاولوا الاستيلاء على الأندلُس كُلّها، إلا أنّهم اصطدموا **ببني ذي النون**، حُكّام **طُليطلة** الأقوياء، غير أنَّ أراضيهم امتدَّت حتّى المُحيط الأطلسي.
3. **دولة بنو ذو النون**: في **طُليطلة** أو الثغر الأوسط، ودخلوا في صراعٍ مع **بني عبَّاد**، وتصدَّوا لِطُموحاتهم التوسُّعيَّة، غير أنَّ ذلك لم يكن إلا على حساب استقلالهم، ذلك أنّهم كانوا يدفعون الجزير **لِملك قشتالة** التماسًا لِمُساعدته ضدَّ خُصومهم.
4. **دولة بنو زيري**: في **غرناطة، ومالقة** في جنوبي الأندلُس، بعد **بني حمّود الأدارسة**.
5. **دولة بنو هود**: في منطقة **سرقسطة**، أو **الثغر الأعلى**.
6. **دولة بنو الأفطس**: في **بطليوس**.
7. **دولة بنو عامر**: في **بلنسية، ومرسية**، في شرقيّ الأندلُس، إلا أنهم كانوا أضعف من الأُسر الأُخرى وأقل استقلالاً.

ويختلف **عهد دُول الطوائف**، في كثيرٍ من مظاهره، عن العُهود الأندلُسيَّة السابقة، ذلك أنَّ هذه التجمُّعات الأُسريَّة لم تسترشد بِسياسةٍ إسلاميَّة سواء في علاقاتها بعضها ببعض أو في علاقاتها بِشُعوبها، تقوم على الجهاد وتوسيع رُقعة أراضيها على حساب النصارى في الشمال الأندلُسي. ويُلاحظ، في مجال العلاقات المُتبادلة فيما بينهم، أنَّ مُلوك الطوائف كانوا في نزاعٍ مُستمر، ولم يُقيموا سياستهم على أساس التعايش السلمي، والمُحافظة على الأمر الواقع، ولعلَّ سبب ذلك يعود إلى التفاوت فيما بينهم من حيثُ القوَّة والضعف والأطماع الشخصيَّة وحُب الظُهور والتملُّك، بالإضافة إلى اشتداد الخطر المسيحي.

ولم تكن دُول الطوائف دولاً بالمعنى المعروف بل إنها كانت أقرب إلى وحدات الإقطاع وإلى عصبيّة الأُسرة القويّة، ومن ثُمّ لم تكن بها حُكوماتٍ مُنظّمة بالمعنى الصحيح تعمل على رفاهيّة شعبها، وإنما كانت أُسرًا أو زعامات تعمل لِمصلحتها ورفعة شأنها وتنمية مواردها وثرواتها وتدعيم سُلطانها.

ومن الأمثلة على استهتار عدد من مُلوك الطوائف نحو أُمّتهم ودينهم ما فعله **محمد المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية** عندما تعاهد مع **ملك قشتالة** على غزو أراضي مملكة **طُليطلة الجنوبيّة** على أن يُسلِّم منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي جبال **سيراموريتا – الشارات**، وأن لا يعترض على مشروع **ألفونسو السادس** القاضي بالاستيلاء على طُليطلة.

وقد تمكن **ألفونسو السّادس** بالتعاون مع بعض ملوك الطوائف من الاستيلاء على **طُليطلة** سنة478هــ–1085م، وكان لِسُقوط طُليطلة أثرٌ عظيمٌ في مسار الحُروب اللاتينيَة الأندلُسيّة، وفي إلهاب حماس القوى المسيحيّة، فقد كانت هذه المدينة في الماضي عاصمةً لِمملكة القوط، وكانت السيطرة عليها نذيرٌ بإحياء مُلك القُوط القديم، والعمل على طرد المُسلمين نهائيًا من الأندلُس.

سادساً: العهد المُرابطي:

ونتيجة التمزّق السياسي وتفرّق كلمة المُسلمين في الأندلس وانقضاض اللاتين الإفرنج على البلاد ونهشها القلعة تلو الأُخرى، إلتمس الأندلُسيين المُساعدة من **دولة المُرابطين** بالمغرب الأقصى، خُصوصًا بعد أن أمعن ألفونسو السادس في إذلال مُلوك الطوائف المُجاورين لِبلاده وفي تطاوله على الإسلام، غير أنّ طلب النُصرة الفعليّ من المغرب لم يؤخذ على محمل الجد في بداية الأمر نظرًا لِتوجّس مُلوك الطوائف خيفةً من القُوّة الجديدة الآتية من الجنوب والتي قد تُزيحهم عن عُروشهم.

وكان لسُقوط **طُليطلة** بيد اللاتين أثره في جعل الفُقهاء والعُلماء الأندلُسيين يعقدون مؤتمرًا في **قُرطُبة** للتشاور فيما يجب عمله، وعرضوا على قاضي المدينة **عُبيد الله بن أدهم** ما وصل إليه حالُ المُسلمين من الذُل، واقترحوا عليه التماس المُساعدة من الهلاليين في أفريقية، ولكنّ القاضي خشي من أن يُقدموا على تخريب الأندلُس كما فعلوا بأفريقية، وأشار

عليهم الاتصال **بالمُرابطين** لأنّهم أصلح منهم وأقرب إلى الأندلُس، ففوّضوه بهذا الأمر، وكان من الطبيعي أن يقف العامّة وراء الفُقهاء يُساندونهم في دعوتهم. وهكذا أضحت كفّة الاستعانة **بالمُرابطين**، من أجل تقويم الموقف الصعب في الأندلُس، هي الراجحة، وضغطت على مُلوك الطوائف وبخاصّة **المعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس**، وقد تقرر إرسال وفد إلى المغرب لِمُقابلة **أمير المُرابطين يوسف بن تاشفين**، والطلب منه العُبور إلى الأندلُس لِمُساعدة الأندلُسيين.

وتمكنت البعثة الرسميّة برئاسة قاضي قُرطُبة **عبدُ الله بن أدهم**، من مقابلة **يُوسُف بن تاشفين** في مراكش، وبينوا له ما تتعرض له المُدن والحُصون من الغارات المُدمِّرة من جانب المملك النصرانيّة، ويدعوه للعُبور إليهم وإغاثة المُسلمين، وقد وافق **يوسف بن تاشفين** على طلب الاستغاثة، وعدها واجبًا على كُلِّ مُسلمٍ قادرٍ على القتال.

ثم أعلن **الأمير يُوسُف** حالة النفير العام من أجل الجهاد في الأندلُس، فجاءتهُ قُوّاتٌ كثيرة من مُرّاكش ومن الصحراء، ومن مُختلف نواحي المغرب، وما أن اكتملت الحُشود حتّى أصدر أوامره بالعُبور إلى الأندلُس، وكان هو وكبار قادة الجيش والفقهاء آخر من عبر البحر سنة479هـ-1086م، ونزل في **الجزيرة الخضراء** وعمل على تحصينها وترميم أسوارها وأبراجها، ثُمّ سار مُتوجهًا إلى بطليوس، وثم استراح في إشبيلية، وأرسل رسائل إلى مُلوك الطوائف يستنفرهم للجهاد، فكان أوّل من لبّى الدعوة صاحب **غرناطة عبد الله بن بلقين الصنهاجي**، وأخوه **تميم** صاحب **مالقة**، وأرسل **ابن صمادح** ملك **ألمرية** ابنه **المعز**، وتوافد أيضًا أصحاب **الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وبنو عزون**.

وقد سار هذا الحشد الإسلامي الكبير حتّى وصل **سهل الزلاقة** الذي يبعد عن بطليوس ثمانية أميال. وفي تلك الأثناء كان **الملك ألفونسو** مشغولاً بمُحاصرة سرقسطة؛ فاضطرّ إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى طُليطلة لجمع جيشه، واستدعى الجُنود والفُرسان من الممالك المسيحيّة المُجاورة، فجاؤوه من إيطاليا وفرنسا بمُباركة الكنيسة، والتحم الجيشان الصليبي والإسلامي في **معركة الزلاقة** يوم 12 رجب479هـ-23 تشرين أول (أكتوبر) 1086م، التي انتصر فيها المُسلمون نصرًا كبيرًا قورن بِنصر **القادسية، واليرموك**، ولُقِّب **يُوسُف بن تاشفين «أميرُ المُسلمين»**، وقام قبل رجوعه إلى المغرب بجمع مُلوك الطوائف ونصحهم بالاتفاق والائتلاف، وأن تكون كلمتهم واحدة.

وما أن رجع يُوسُف بن تاشفين إلى المغرب حتّى تدهوت الأوضاع مُجددًا في الأندلُس، فعادت الخلافات بين مُلوك الطوائف إلى سابق عهدها، وأخذ **ألفونسو السادس** يفيق من هول الصدمة ويسترد قوّته، ويعمل على مُواصلة عُدوانه على الأراضي الإسلاميّة، وضغطه على مُلوك الطوائف، والثأر لما نالهُ من المُرابطين. فاضطرَّ **يُوسُف بن تاشفين** إلى أن يعود ثانيةً إلى الأندلُس مُجاهدًا سنة481هـ–1088م، ودعى مُلوك الطوائف إلى الجهاد معه فلم يستجب له سوى **المُعتمد بن عبّاد وتميم وعبد الله** ابنا بلقين **بن زيري** صاحبا **مالقة وغرناطة**، وأُمراء آخرون أقل أهميّة.

كما عمد مُلوك الطوائف إلى الغدر بابن تاشفين وقُوّاته عندما قطعوا الإمدادات عن مُعسكراته، وأبرموا مُعاهدات سريّة مع **ألفونسو السادس** وزوّدوه بالأموال والهدايا كي يكون نصيرهم ضدّ التدخُّل المُرابطي في بلادهم، فرأى ابن تاشفين أنَّ الحل يكمن في عزل مُلوك الطوائف وتوحيد الأندلُس مع المغرب، وفي نفسه الوقت اشتكى الناس وفُقهاء الأندلُس إلى يُوسُف بن تاشفين وأجازوا له خلع مُلوك الطوائف وتفكيك دُولهم، بل جاءته فتاوى عُلماء المشرق تؤيّد هذا الرأي.

وبناءً على فتاوى العُلماء ومطالب الشعب، عبر **المُرابطون** إلى الأندلُس وهاجموا **طُليطلة** أولاً وقطعوا الطريق على **ألفونسو السادس** وجُيوشه كي لا يمُد مُلوك الطوائف بالمُساعدة، ثُمَّ شرعوا يضمّون المدينة تلو المدينة والحصن تلو الحصن، فخُلع صاحب **غرناطة عبد الله بن بلقين** أولاً، وضُمّت مدينته إلى الدولة المُرابطيّة، ثم استسلم أخوه **تميم** صاحب **مالقة**، وضُمّت **جيان والمنكّب**، فسقطت بذلك **دولة بني زيري**، كما ضُمّت **قُرطُبة وإشبيلية**، وحاول **المُعتمد بن عبّاد** الاستنجاد **بألفونسو السادس**، فأرسل إليه الأخير قوّة عسكريّة، لكنَّ **المُرابطين** هزموها وشتتوها وقطعوا الاتصال بين **الملك القشتالي والمُعتمد**، وبذلك سقطت **دولة بني عبّاد**، ثُمَّ ضُمّت **ألمرية** ليُسيطر المُرابطون بذلك على **القسم الجنوبي** من الأندلُس.

وما كاد **يُوسُف بن تاشفين** ينتهي من تحقيق انتصاراته حتّى تهيّأ للنضال في شرق الأندلُس التي بدت وكأنها على وشك السُقوط في أيدي الممالك المسيحيّة المُجاورة، فسيّر ابنه **مُحمّدًا بن عائشة** على رأس جيشٍ كبير إلى **مرسية**، فخلع صاحبها وضمّها، ثُمَّ دخل وابرة **ودانية، وشاطبة**، ثُمَّ ضُمّت **بلنسية** وتلتها **بطليوس**، وبذلك توحّدت الأندلُس لِتتحوّل إلى ولايةٍ

تابعة للدولة المُرابطيّة، ولم يبقَ خارج نطاق هذه الوحدة سوى إمارة سرقسطة، وذلك بفعل وضعها الحُدوديّ الخاص.

وتوفي **يُوسُف بن تاشفين** سنة500هــ-1106م، وخلفه ابنه **علي**، الذي تابع سياسة أبيه في حرب النصارى، فأرسل حملةً عسكريّة لغزو أراضي **قشتالة**، ففتحت مدينة **أقليش** وأعادت إليها طابعها الإسلامي، وقضت على **الجيش القشتالي** الذي حاول استردادها وقتلت قائده **الأمير شانجة بن ألفونسو**، وكان وقع الهزيمة ثقيلاً على **الملك القشتالي** الذي توفي في أقل من سنة، وخلفته ابنتهُ **أوراكة** وزوجها **ألفونسو الأرجوني**، وسُرعان ما تفجّرت الخلافات بين الزوجين بسبب مُمارسة السُلطة وتطوّرت إلى حد الحرب الأهليّة بين اللاتين، فاستغلّ **المُرابطون** هذه الفُرصة وهاجموا **طُليطلة**، لكنّهم فشلوا في اقتحامها بفعل متانة أسوارها وقُوّة حاميتها، وعوض ذلك فتحوا عدد من الحُصون والقلاع المُجاورة بالإضافة لِمدينة مجريط (مدريد)، ووادي الحجارة، وقلعة هنارس.

وفي ذات الوقت سار جيشٌ مُرابطيٌ آخر إلى **البرتغال** حليفة **قشتالة** لِقطع طريق الإمدادات بينهما، ففتحت بعض المُدن في غربي الأندلُس، مثل بطليوس، ويابرة، وأشبونة (لشبونة)، وشنترين وغيرها.

وقد سيطر المُرابطون على سرقسطة بناءً على فتوى شرعيّة سنة503هــ-1110م، فالتجأ صاحبها إلى **ألفونسو الأرجوني**، الذي حشد بدوره قوّة أوروبية صليبيّة ضمّت جُموعًا مُختلفة، إفرنجيّة ونورمانيّة وبشكنسيّة وأرجوانية ونبريّة وقشتاليّة، وهاجمت المدينة وضربت عليها الحصار نحو ستة أشهر، فاضطرّ أهلها إلى الاستسلام، وغادرها نحو 50 ألفًا من المُسلمين بعد سُقوطها.

وبعد سقوط سرقسطة حاول **ألفونسو الأرجوني** السيطرة على **غرناطة** بعد أن أغراه أبنائها من المسيحيين المستعربين، فضرب عليها الحصار لكنّهُ فشل في اقتحامها، وحاول الاستيلاء على بعض المُدن والحُصون الأُخرى، لكنّه فشل أيضًا وتكبّد خسائر جسيمة، فتطوّرت الحرب بينهُ وبين المُسلمين إلى المُناوشات الحُدوديّة والغارات المُتقطّعة.

سابعاً: العهد المُوحدي:

سقطت **مُرّاكش** العاصمة المُرابطيَّة بيد **عبد المؤمن بن علي** زعيم الحركة المُوحديَّة الثوريَّة سنة 541هـ-1147م، وقُتل آخر أُمرائها **إبراهيم بن تاشفين**، وجلس **المُوحدون** على عرش **المُرابطين** وآلت إليهم أملاكهم، بما فيها الأندلُس.

وكانت الأندلُس في تلك الفترة على وشك أن تضيع مُجددًا بعد أن ضعفت الدولة المُرابطيَّة ونتيجة الثورات والحركات الاستقلاليَّة فيها، وتوثُّب الممالك النصرانيَّة واستعدادها لاستئناف حركة الهُجوم عليها. فأرسل **عبد المُؤمن بن عليّ** ثلاثة جُيوشٍ عبرت إلى الأندلُس سنة541هـ-1146م، وانتشرت في جنوبي البلاد بعد أن نجحت في السيطرة عليها، ووضعت حاميات عسكريَّة في طريف والجزيرة الخضراء وغيرها، ودخل سُكّانُ تلك المناطق في طاعة المُوحدين وخطبوا لهم على المنابر، وبعد فترةٍ من دُخول **المُوحدين** إلى الأندلُس، إرتدّت مُعظم المُدن التي سيطر عليها الموحدين عن طاعتهم، ومنع بعضُ أُمرائها وُصول المُساعدات من المغرب، ومردُّ ذلك أنَّ الأندلُسيين بعامّة كانوا يكرهون كُل ما هو مغربيّ، وقد اضطرّتهم الظُروف السياسيَّة إلى الاستعانة بالمُوحدين لِطرد المُرابطين من بلادهم آملين أن يتغيّر وضعهم السياسي في ظل حُكمهم، ولكن عندما تصرَّف المُوحدون كالمُرابطين ومنعوا سيادة الزعامات المحليَّة، ثاروا عليهم.

نتيجةً لِهذا الوضع المُتدهور، أرسل **عبدُ المُؤمن بن عليّ** تعزيزاتٍ عسكريَّةٍ بِقيادة **يُوسُف بن سُليمان**، وأمره بالقضاء على الثورات التي اندلعت ضدَّ حُكمه، واستكمال ضمِّ البلاد، فاستسلمت له مدينتيّ **قُرطُبة وقرمونة**، وأرسل السرايا لِضم بقيَّة أراضي وسط الأندلُس، وآثر ملك قشتالة عدم الاشتباك بهم، فسحب قُوّاته من مدينتيّ أبدة وبياسة، ودخلتهُما القُوّات المُوحديَّة. وضمَّ المُوحدون بقيَّة مناطق وحُصون المنطقة بعد أن هرب منها أُمرائها، باستثناء غرناطة وأنتقيرة ومالقة ووادي آش، بينما كانت ألمرية بيد النصارى مُنذُ استيلائهم عليها سنة542هـ-1147م، وكان جميع أصحاب وأُمراء المُدن قد تنازلوا عنها إلى المُوحدين أو انضوا تحت لوائهم بكامل إرادتهم، أو تمَّ خلعهم، وقد تمكن الموحدون من استرجاع ألمرية من القشتاليين بعد حصارٍ دامع سبعة أشهر سنة552هـ-1157م.

وقد المُسلمون في بداية العهد المُوحدي جميع قواعدهم في الثغر الأعلى، وفي عهد **أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن** ضمَّ المُوحدون شرقيّ الأندلُس، وتفرَّغوا للجهاد ضدّ

الممالك المسيحيَّة المُجاورة، وفي سنة566هـ-1170م، أعلن الخليفة المُوحدي **أبو يعقوب يُوسُف** بدء الجهاد، فغزا مدينة وبذة قُرب إشبيلية، وفتح حصنيّ بلج والكرس، واشتبك مع القشتاليين في مكانٍ يُعرف بِفحص كركوي على مقربة من قلعة رباح وهزمهم شرَّ هزيمة وقتل قائدهم **الكونت خمينو.** كما هاجم أحواز طلبيرة وطُليطلة، فخشيت قشتالة من غزواتٍ أُخرى في الوقت الذي كانت فيه في حربٍ مع مملكة نبرَّة بشأن السيطرة على الحُصون الحُدوديَّة؛ فمالت إلى الصُلح، وأبرمت مُعاهدة سلام مع الخليفة استمرَّت ثلاث سنوات قضاها الأخير في بناء وتعمير الأماكن المُقفرة وإصلاح الثُغور.

وما كاد **الخليفة أبو يعقوب يُوسُف** يُغادر الأندلُس عائدًا إلى **مُرَّاكش** حتّى نقض **ألفونسو الثامن** الهدنة واستأنف الحرب ضدَّ المُسلمين، فسار بقوَّاته إلى **قونقة**، وهي من حُصون ولاية بلنسية الأماميَّة المنيعة، وحاصرها فترةً من الزمن، فاضطرَّ سُكّانُها عندئذٍ تحت ضغط الجوع والمرض والعطش إلى الاستسلام، فدخلها الملك القشتالي وجعلها مركزًا أسقفيًا، وترتّب على سُقوط **قونقة** امتداد حُدود مملكة قشتالة ناحية الشرق، كما شجَّعت ملك **أراجون** على غزو الأندلُس. وتجنُبًا لِنُشوب الخِلاف بينهما بشأن تقسيم المناطق الإسلاميَّة، عقد الملكان **اتفاقيَّة كاسولا** سنة574هـ-1179م، ورسما حُدود مناطق الاقتطاع، فكان نصيب **ملك أراجون** الأراضي الإسلاميَّة الواقعة في شرقيّ الأندلُس، واختصَّ **ملك قشتالة** بالأراضي الواقعة وراء تلك البلاد

وفي سنة 578هـ-1182م، غزا ملك قشتالة **قُرطُبة وإشبيلية**، وعاث في أراضيهما، وهاجم **إستجة ورندة** واستولى على حصنيّ **المنار وشنتفيلة**، وقد أدرك المُوحدون أهميَّة وخُطورة الضربة التي تلقوها بِفُقدان حصن شنتفيلة، فحاولوا استعادته لكنهم فشلوا، فغزوا أراضي قشتالة عوض ذلك حتّى وصلوا طلبيرة واشبكوا مع القشتاليين وانتصروا عليهم.

وبعد وفاة **أبو يعقوب يُوسُف**، تولّى ولده **أبو يوسف يعقوب المنصور** شؤون الخِلافة المُوحديَّة، فأبرم صُلحًا مع **ألفونسو الثامن** لِيتفرَّغ لِقتال **مملكة البرتغال** انتقامًا لِهزيمة والده ومقتله على أيدي البرتغاليين. وبعد أن استردَّ بعض الحُصون عاد إلى المغرب، فانتهز **ألفونسو الثامن** هذه الفُرصة ونقض مُعاهدة الصُلح، وهاجم أراضي الأندلُس حتّى بلغ جنوبها، ودمَّرت قوَّاته في طريقها كُلّ شيءٍ بدون هوادة أو رحمة، وما أن علم **الخليفة المُوحدي** بما جرى في الأندلُس حتّى عبر إليها على رأس جيشٍ كبير بلغ تعداده أكثر من مئة ألف مُقاتل،

والتحم مع القشتاليين في معركة طاحنة في معركة **معركة الأرك**، وهزمهم هزيمة قاسية وكبّدهم نحو ثلاثين ألف قتيل، وقضى على قُوّتهم الميدانيّة وأدخلهم في كبوةٍ عسكريَّة دامت عدَّة سنوات، وأسر منهم نحو عشرين ألف جُندي، عاد وأطلق سراحهم جميعًا من دون افتداء.

وقد عملت الممالك النصرانيَّة، بعد أن أدركت مدى حرج وضعها على إثر هزيمتها في **معركة الأرك**، على التحالف ونبذ الخلافات للتصدي للخطر الإسلامي، واتفق الجميع على غزو الأندلُس والتعاون على قتال المُسلمين، وبارك **البابا أنوسنت الثالث** ذلك، وأيّد قيام حملة صليبيَّة في أيبيريا، مُناشدًا المُلوك والأُمراء المسيحيين المُساعدة، فتوافد المُتطوعون وفُرسان الجمعيّات الدينيَّة من كافّة أنحاء المُدن الإسپانيَّة والفرنسيَّة بِقيادة رجال الدين، وقد تقلّدوا شارة الصليب.

وقد احتشدت الجيوش الأوروبية في طُليطلة وتكونت من مائتيّ ألف مُقاتل من الفُرسان والمُشاة، فاستولت على **قلعة رباح وحصن العُقاب**، والتقى الجمعان يوم الإثنين 15 صفر609هـ–17 تموز (يوليو)1212م، فدارت بينهما رحى معركة حامية في موقعة العُقاب، وانهزم فيها المُسلمون وانسحبوا عائدين إلى إشبيلية.

وقد قضت تلك الهزيمة نهائيًا على سُمعة **المُوحدين** العسكريَّة في شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وتحطّم ذلك الدرع الذي كانت تُشكلهُ الجُيوشُ المُوحدية القادمة من وراء البحر لِحماية المُسلمين في الأندلُس من هجمات النصارى، وتضعضع الحُكم المُوحدي في هذه البلاد التي أخذت مُنذ ذلك الحين تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة. كما فتحت المعركة الباب واسعًا لاستئناف الهُجوم المُنظم على بِلاد المُسلمين وانتزاع مُدنهم واقتطاع أشلاء الأندلُس بِصورةٍ مُتتابعة، وفي مُددٍ زمنيَّةٍ قصيرة، ومع وفاة **مُحمَّد الناصر**، أخذت دولة المُوحدين تنهار في المغرب والأندلُس، فقد جاء بعده خُلفاء ضعاف لم يكونوا على مُستوى الأحداث الخطيرة آنذاك، وأبرزُها اتحاد مملكتيّ قشتالة وليون.

ثامناً: سقوط الأندلس:

انهيار الدولة الموحدية اندلعت الثورات في رُبوع الأندلُس، كما استغلت الممالك المسيحيَّة انهيار الجبهة الدفاعيَّة للمُسلمين، وتراجع قُوّتهم العسكريَّة. فهاجم **ألفونسو التاسع ملك ليون**، عدة مدن وسيطر عليها مثل ماردة وبطليوس، كما استغلّ **فرناندو الثالث** تنافس

وتحارب الأُمراء المُسلمون، فأرسل حملةً عسكريّةً من السيطرة على عدة حصون وقلاع، ومن أهم المدن التي استولى عليها هي: **قُرطُبة** سنة 633هـ-1236م، حيث سار جيشٌ مسيحيٌ ضخم، وضرب الحصار وشدده عليها، وعزلها عن الخارج، فنضبت أقواتُها واضطرَّ سُكّانُها إلى التفاوض معهم بشأن التسليم مُقابل الأمان على أنفُسهم، فوافق على ذلك، ودخل النصارى المدينة يوم الأحد 22 شوّال 633م-29 حُزيران (يونيو) 1236م، وغادرها سُكّانها وتفرّقوا في أنحاء ما تبقى من مُدن الأندلُس، وأعقب سُقوطها خُضوع مُعظم البلدات والحُصون التابعة لها. بعد أن حكمها المُسلمون مُدّة خمسمئة وخمسةٍ وعشرين سنة.

وقد اجتمع **لمحمد بن الأحمر** أمير **جيان وأرجونة،** تحت ظلال إمارته أشلاء الأندلُس المُنهارة والتي انكمشت أطرافُها فيما وراء الوادي الكبير جنوبًا، وشغلت شرقًا رقعة مُتواضعة تمتد من جيان وبياسة وأستجّة حتّى البحر، ومن ألمرية وإلبيرة غربًا حتّى مصب الوادي الكبير. وعُرفت هذه الدولة باسم **الدولة النصرية أو مملكة غرناطة،** وكانت آخر ممالك المُسلمين في الأندلُس، واستمرّت بفضل وعي حُكّامها وسياساتهم المرنة زهاء مائتين وخمسين سنة أُخرى كمُستودع للحضارة الأندلُسيّة.

وفي الوقت نفسه تمكن **جايم الأول ملك أراجون** من الاستيلاء على **الجزائر الشرقيّة** جزيرة **ميورقة** سنة627هـ-1229م، جهز حملة صليبية للاستيلاء على **بلنسية،** الثغر الإسلامي الكبير، وأضفى على حملته هذه الطابع الصليبي بمُباركة البابا جريجوري التاسع، الأمر الذي دفع بالكثير من الفُرسان والمُقاتلين من فرنسا وإنجلترا للاشتراك بالحملة. وتمكن من حصارها حصارًا شديدًا حتّى نضبت مواردها وبلغ سُكّانُها الإعياء، فاستسلم صاحبها سنة 645هـ-1247م، كما تمكن **فرناندو الثالث ملك قشتالة** من حصار **إشبيلية** من ناحية البر والبحر، وضيّق الخناق على أهلها حتّى استسلموا دون قيدٍ أو شرط، فدخلها في موكب النصر سنة646هـ-1248م، وهكذا سقط إشبيلية حاضرة المُوحدين بالأندلُس، بعد أن حكمها المُسلمون خمسة قُرونٍ وثُلث القرن.

وبِسُقوط **إشبيلية** سقطت جميع المُدن الواقعة على مصب نهر الوادي الكبير وفي منطقة **وادي لكة،** وكان ذلك بمثابة التصفية النهائيّة لِسُلطان المُسلمين في شبه الجزيرة الأيبيريّة، وخِلال الفترة المُمتدّة بين سنتيّ 614-648هـ-1217-1250م، كانت جميع مُدن

وثُغور غربيّ الأندلُس قد سقطت كُلها في أيدي **البرتغاليين**، وبذلك تمّ القضاء نهائيًا على سُلطان المُسلمين في الأراضي البرتغالية.

ولم يبقَ في أيدي المُسلمين في **أيبيريا** سوى **مملكة غرناطة**، وقد عمَّرت هذه المملكة مُدَّة قرنين ونصف على الرُغم من صغر حجمها الجُغرافي وقلّة عدد سُكّانها، وحافظت على ما بقي للمُسلمين من سُلطانٍ سياسيٍّ وتُراثٍ حضاريّ، ويرجع صُمودها هذا إلى عدَّة أسباب لعلّ أهمُها: بُعدها من مُتناول أيدي الممالك النصرانيّة، وقُربها من المغرب؛ ممّا سهّل عليها طلب العون والمدد العسكري عند الحاجة، وتدريب أهلها على القتال وحمل السلاح والاستعداد الدائم لِمُلاقاة العدو، وتصميم الهاربين إليها من سائر مُدن الأندلُس على الصُمود والتضحية، والتزام سُكّانها بالجهاد.

وقد شهد هذا العصر ذُروة الصراع بين المُسلمين والقشتاليين، ذلك أنَّ **ألفونسو الحادي عشر** حاول اقتطاع جُزءًا من أراضي مملكة غرناطة الصغيرة، فكثُرت غزواته لِأراضيها، الأمر الذي دفع أميرها إلى الاستنجاد **بسُلطان المغرب المريني**، الذي أمدَّهُ بالرجال والعتاد، فقاتل حلفًا صليبيًا تمكن من هزيمته في بادئ الأمر، لكنه عاد وانهزم هزيمةً قاسية في **معركة طريف**، وكانت تلك الهزيمة نذيرًا باقتراب نهاية الصراع على مصير الأندلُس.

وخِلال رُبع القرن التالي توالت الهزائم على المُسلمين، فخسروا مُعظم أراضي **مملكة غرناطة**، حيث خسروا **جبل طارق** سنة 1462م

وفي12 صفر897هـ–15 كانون أول(ديسمبر) 1491م، وقّع **الوزير أبا القاسم بن عبد الملك**، بالنيابة عن الملك **أبو عبدالله محمد بن علي**، مُعاهدةً مع **الملك فرناندو الخامس**، سلّم بموجبها **غرناطة** وكافّة أعمالها إلى **القشتاليين**، فدخلوها يوم الإثنين في 1 ربيع الأوّل 897هـ–2 كانون الثاني (يناير) 1492م. وبِسُقوط غرناطة سقطت الأندلُس نهائيًا، وأُسدل الستار على تاريخ المُسلمين فيها.

تاسعاً: التقسيم المناطقي والتنظيم الإداري:

خلال أوائل العهد الإسلامي، ترددت الأندلُس في ارتباطها الإداريّ، بين ولاية أفريقية، والإشراف المباشر لمركز الخلافة الأموية في دمشق، وعندما كانت الأندلُس تتبع لولاية أفريقية كان والي القيروان يقوم بتعيين وُلاتها، وفي بعض الأحيان كانت الظُروف

تفرض تعيين والٍ بسُرعة، فيتفق أهل الأندلُس على شخصٍ مُعيَّن يولونه أمر البلاد، حتى يأتي غيره، ويؤيد الخليفة أو والي أفريقية هذا الأمر. وكانت الأندلُس، أغلب فترة الوُلاة (95 – 138هــ) تابعة لِولاية أفريقية، وكانت مدينة إشبيلية قاعدة الولاية، ثم انتقلت إلى مدينة قُرطُبة ذات الموقع المُتوسِّط بين السَّاحل والدَّاخل.

ويبدو أنَّ النظام الإداريّ للأندلُس لم تتضح معالمه إلا في أواخر عصر الوُلاة، وذلك عندما قسم الوالي يوسف الفهرس الأندلُس إلى **خمس ولايات** هي: **ولاية باطقة**، و**ولاية طُليطلة**، و**ولاية ماردة**، و**ولاية سرقسطة**، و**ولاية أربونة**، وكان **الوالي الكبير في قُرطُبة** مسؤولٌ عن الوّلاة الخمسة لهذا التنظيم الإداري، وكُلٌ والٍ مسؤولٌ عن ولايته، وكُلّ ولايةٍ تتبعها مجموعة مُدن وهي الكُور، وكل كُورةٍ يتبعها عدَّة أقاليم، وكُلٌ إقليمٍ يتبعه عدَّة أرياف.

وقد بقي النظام الإداري الأندلُسي على حاله في **عهد الإمارة**، واعتمد **عبد الرحمٰن الداخل والأُمراء** من بعده في إدارة الثُغور والولايات والكُور على جماعةٍ مُختارة من الأعوان المُخلصين، ومن أفراد البيت الحاكم، مع الاعتماد على أُسرٍ اشتهرت في الأندلُس، مثل أسرة **أبي عبدة، وأُسرة بني شُهيد وأُسرة مُغيث الرومي** وغيرهم.

ويُلاحظ أنَّ طبيعة البلاد الأندلُسيَّة كانت هي الأساس الأوّل للتقسيم الإداري السياسي، فالجبال والوديان والأنهار هي أصل التقسيم، فحُدود أيبيريا الطبيعيَّة تصلحُ تمامًا لأن تكون حُدودًا سياسيَّة، ويُمكنُ تحويلها إلى حُدودٍ إداريَّة واضحة المعالم بكُل سُهولة، فما كان على الإداري أو المُنظِّم إلّا أن يُثبِّت حُدود هذه الوحدات ويُعيِّن قواعدها، فلا يجد صُعوبة في إدارتها وجباية خِراجها، وهذا ما فعله الرومان والقُوط، ومن ثُمَّ المُسلمون.

وقد تأثر الأندلُسيين بنمط التنظيم الإداري المشرقي، فاقتبسوا العديد من المُصطلحات والأساليب المشرقيَّة، منها على سبيل المِثال مُصطلح «**الكورة**» وهو لفظٌ من أصلٍ مصريّ إغريقيّ استقر في مصر واستُعمل فيها منذ القرن الثامن الميلادي، وكان **يُستخدم للدلالة على الأجزاء الإداريَّة التي قُسِّمت إليها أرض مصر في ظل الحكم البيزنطي**، ثم انتقل اللفظ بدلاته الإداريَّة هذه لأرض الأندلُس.

عاشراً: الاقتصاد:

لقد أحدثت الحضارة الإسلاميَّة في شبه الجزيرة الإيبيريَّة تحوُّلاتٍ اقتصاديَّة هامّة، حيث تحول الاقتصاد من كونه زراعيًا بالمقام الأول إلى حضريًا. وتنوع النشاط الاقتصادي

في بلاد الأندلس بين زراعة وصناعة وتعدين. ويُعد **السوق** واحدًا من أهم الأماكن في المدينة الإسلامية، حيث تجارة مختلف المنتجات، وقد شهدت الأسواق ميلادها بشبه الجزيرة في العهد الإسلامي. ولاقت منتجات المعادن والمشغولات اليدوية الرواج التجاري. وكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر وبرعوا في الزراعة. وكان يتم تصدير بعض المشغولات الفارهة، والتي تم إنتاجها بالأندلُس، إلى أوروبا المسيحيَّة والمغرب العربي، والشرق.

وكانت الورش والمحال التي يُصنع بها هذه المنتجات ملكًا للدولة. وكانت **مالقة** تشكل إحدى أهم أقطاب صناعة الفخار في العالم، حيث كانت تُحاك الألواح والمزهريات المزخرفة، والتي حققت شهرة كبيرة في دول البحر المتوسط.

1- الزراعة:

استخدم المُسلمون طرقًا حديثة للزراعة أو ما يُعرف باسم **وسائل الهندسة الزراعية**، إضافة إلى الطرق العملية في الري مع الاستعمال الجيد للأسمدة لزيادة إنتاجية الأرض، وقد أنتجوا أنواعًا جديدة من الفاكهة والأزهار، مثل قصب السكر والأرز والقطن والموز، ووضعوا تقويمًا زراعيًا خاصًا سُمي بالتقويم القرطبي، وأبدعوا في طرق تطعيم النباتات.

ولأن علماء الزراعة كانوا قد استحسنوا هذه العملية، أقيمت البساتين التي كانت بمثابة حقل تجاربهم، حيث كانوا يستعينون بأحدث المؤلفات في العلوم الزراعية. وبفضل ما قدموه للزراعة، فقد تطورت وبلغت ذروتها، واقتبست أوروبا الأسس العلمية الزراعية التي توصل إليها المُسلمون.

تمت زراعة **القمح والشعير** بالمناطق الأندلُسيِّة الجافة، كما راجت زراعة **الحبوب والفول**، الذين كانا يُشكلان الغذاء الأساسي للشعب، كما نمت الزراعة نموًا مزدهرًا وأُدخلت زراعة **الأرز**، والباذنجان، والقصب السكر وغيرها إلى شبه الجزيرة خلال هذه الفترة، كما اشتهرت بعض المناطق بزراعة أنواع مُعينة من الفواكه، فعلى سبيل المِثال اشتهرت بلدة سينترا بالكمثري والتفاح، ومنطقة الغرب بالبرتغال تتميز حاليًا بإنتاج التين والعنب.

كما دمج المسلمون النظم الهيدروليكية التي طورها الرومان مع تلك التي طورها القوط الغربيون وطوروها بشكل يتناسب مع التقنيات الزراعية التي جلبوها من المشرق،

وأنشأوا طواحين المياه على طول الأنهار، وساعدتهم الرياح على التحكم بذلك، وأدخلوا السواقي لسحب مياه الآبار رفعها، وقد أخذت أوروبا عنهم هذه التقنية.

2- **الثروة الحيوانيَّة**:

كان للثروة الحيوانية دورًا أقل تأثيرًا في الجانب الاقتصادي، فظهرت أهميتها القصوى في الغذاء والنقل، فيما لعبت دورًا أقل في الأعمال الزراعية. وكانت تربية الماشية أمرًا شائعًا، وخاصة الأبقار، والماعز، ومثلت الأرانب والدجاج، مصدرًا للغذاء.

3- **الصناعة والتجارة**:

كانت الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة دائمة الرواج الصناعي والتجاري على الرغم من بعض الاضطرابات التي ضربتها من حين لحين. فتطورت أشكالهما بشكل كبير، وحظيت بشهرة واسعة في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، واشتهرت عدد من مدنها بصناعات مختلفة **كمالقة وألمرية وغرناطة**.

ويُعد هذا التطور تقدمًا لم تشهده البلاد قبل الفتح الإسلامي. وبرز هذا النشاط في صناعة الجلود والخشب والأسلحة وضرب العملة وصناعة الخمور والسكر والزيوت والزيتون والصابون والأدوية، والصناعات المعدنية مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص وصناعة الزجاج والزئبق والرخام والكُحْل والكبريت الأحمر.

وكانت تصدر من هذه الصناعات الجلدية والفخارية والزجاجية ومبريات الخشب وأدوات الموسيقى والمصنوعات المعدنية والبسط والورق والكتان والحرير، ومواد الصباغة مثل الزعفران.

وقام أهل الأندلس بتصنيع الورق لتسهيل العلم ونشر الكتب والمعرفة، ليصبح هو الأداة التي يتم استخدامها في الكتابة بدلًا من الجلود. واشتهرت بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة وشاطبة بصناعة الورق. وقاموا بتأليف كتاب للطبخ الأندلسي حتى يعلموا الناس كيفية استخدام التوابل المصدرة إليهم.

وترجع أسباب تطور الصناعة والتجارة إلى قيام الدولة بتشجيع ودعم النشاط الصناعي، مما نتج عنه تقدم في مختلف الصناعات خاصة الأسلحة والسفن، بالإضافة إلى تقدم الصناعات النسيجية والخزفية والعاجية والجلدية وغيرها من الصناعات التي لها دور في

الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ وتقنين التجارة وتعيين مراقبين يراقبون الحركة التجارية في الأسواق وقوة الأسطول التي أدت إلى تأمين السواحل والإعفاء من المكوس أو المغارم التي كانت مفروضة أيام دويلات الطوائف وعدم إقحام الدولة نفسها في النشاط التجاري، إلا تلك التي كانت تتطلب الحصول على إذن خاص، مثل بناء الحمامات وصنع الأسلحة وصك النقود وتركيب الأدوية والتطبيب والحجامة، وتعويض الخسائر التجارية وتوفير سيولة الإقراض، وكان خير مثال على ذلك طائفة قرطبة التي كانت تُقرض التجار رأس المال، ويحتفظوا هم بالربح فيما يعود رأس المال للدولة، وظهور الأسواق الخاصة بالبضائع مثل سوق للنحاسين، وسوق للزهور والشحوم وسوق للزيتون.

ولعبت **مملكة غرناطة** دورًا كبيرًا في الحفاظ على تراثها والصناعات التقليدية الأندلسية بها. فقد تنوعت صناعات النسيج والفخار والرخام والمعادن الزجاج والزيوت والسفن والسلاح. فأصبحت هذه المملكة تعج بالنجارين والمهندسين والزلاجين والخياطين والعشابين والسراجين والحدادين. وقد تعاون هؤلاء الفنانون في حرفاتهم، واستطاعوا إبراز الفن الحرفي الغرناطي في أبهى صورة. وقد بدأت المنسوجات الغرناطية في الظهور بسبب وفرة كل من أشجار التوت في وادي آش وبسطة والمنكب، والقطن والكتان والحرير والصوف في غرناطة، وكانت تُباع لملوك أوروبا. وأدت زراعة شجر التوت إلى إنتاج الحرير الطبيعي ليتم تصديره لتصبح بذلك الأندلس أكبر مصدر للحرير الطبيعي.

وبفضل الكيمياء وتوفر القرمز والعصفر كمواد صبغية، أصبح المسلمون قادرين على تلوين المنسوجات بأفضل الألوان. وعليه فقد تقدموا في صناعة السجاد والمنسوجات لتصبح واحدة من أهم الصناعات. وكانت هذه الصناعة ذات أهمية بالغة لقاطني المنطقة

لقد اشتهرت **مالقة** بصناعة الجلود وخاصة الأغشية والحزم، وصناعة الجلود الغليظة المسماة بالسفن، والتي كانت تُستخدم في صناعة مقابض السيوف.

لقد اعتنى الأندلسيون بمراقبة الأسواق وتوسيعها وتنظيم المهن بها والحرص على تخصص المهنيين والتجار، ومراقبة التجارة وجودة السلع وعدل الموازين ومراقبة الأطعمة لحماية صحة السكان. وكانت تتم عملية مراقبة الصناع والحرفيين من خلال تعيين شخص يُدعى **الأمين** أو **العريف**، ويكون مسؤولاً عن طائفة حرفية معينة ويدافع عنها أمام **المحتسب** إذا اقتضى الأمر، وكانوا يحددون السلع وأسعارها، كما كان يقوم بدور **الخبير الفني** في

الخلافات التي تقع بين أهل الحرفة وعملائهم حول سلعة من السلع، ورأيه كان فاصلاً أمام القاضي أو المحتسب، وكان **الأمين** يأخذ أجرًا من أصحاب الحرف.

وكان من وظائف الدولة الكبرى **الحسبة وصاحب السوق وصاحب الشرطة**. وألف الأندلسيون كتبًا كثيرة عن هذه الوظائف.

حادي عشر: المُجتمع:

1- التركيبة السُكَانيَّة:

ينتمي فاتحو الأندلس إلى فرقتين رئيسيتين وهم **العرب** من **بلديين وشاميين** ومن **قيسية ويمنية**، ثم **البربر** وهم بدورهم ينتمون إلى بطنين كبيرين، **بتر وبرانس**، ومنهما تتفرع قبائل كثيرة. وكان البربر هم الأكثر عددًا من العرب، إلا أنهم سرعان ما اندمجوا معهم لغويًا وثقافيًا وبدوا كيانًا واحدًا. إضافة إلى ذلك كان هناك فئة **المواليين** للعرب، الذين اشتغل البعض منهم بالصنائع وبعض المهن والتجارة وتقديم الخدمات مثل الحياكة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه؛ ومنهم من امتهن الصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم؛ وكانت تجارتهم مركزة في مواضع عدة في النعال والحياك والجلاليب واللحم؛ بينما تمركزت خدماتهم التي يقدمونها للمجتمع على ضرب الطبول والبنود والقيام بالمساجد والآذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلاً وحمل السلع من بلد إلى بلد.

وعند دخول المسلمين الفاتحين إلى الأندلس، كانوا فرادى امتزجوا وتزاوجوا مع المجتمع **القوطي** الطبقي، الذي كان منقسمًا إلى قسمين فحسب، **الحكام والرعايا**. وضرب المسلمون مثالاً حيًا في السياسة المتسامحة في حسن التعامل مع أهل البلاد، فلم يثقلوا كاهلهم بالضرائب وتركوا لهم الحرية الشخصية في البقاء على دينهم أو الدخول في الإسلام. وبدوره أدى ذلك إلى **اعتناق الكثير منهم الإسلام** وتم تسميتهم **بالأسالمة** أو **المسالمة**، فيما سُمي أبناؤهم **بالمولدين**؛ فيما بقيت بعض الفئات المسيحية، إلا أنهم تعربوا وتم تسميتهم بالمستعربين. وهناك فئة أخرى كانت في المجتمع الأندلس هي الصقالبة (السلاف)، وهم خليط من الخدم والمماليك الذين جلبهم النخاسون الجرمان واليهود أطفالاً من بلاد الفرنجة، وحوض نهر الدانوب ليتم بيعهم في الأندلس، يرجع أصلهم إلى أسرى الجيوش الجرمانية في حروبها

مع السلافيين، وعمل عدد منهم في خدمة الحريم، وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة، وصار لهم ذكر وصيت.

وقد رحبت الخلافة الأموية في الأندلس **باليهود** حوالي عام 750م وسمحت لهم بممارسة جميع الأعمال. وقد جذب تسامح الأندلسيين معهم الكثير من اليهود من البلدان الأخرى. وحذا اليهود حذو العرب وحاكوهم في فنون الشعر والنثر والقواعد باللغة العربية عن اللغة العبرية، لما وجدوا بها من فرصة للترقي والاندماج في المجتمع سريعًا، وتلاقت أهداف العرب واليهود حينئذ لتفضيلهم اللغة عن الصور والفعل عن ما هو بصري.

وظل اليهود في الأندلُس يعملون في العلوم والرياضيات وكانوا يساهمون في نشر العلوم العربية عبر ترجمة المؤلفات العلمية من العربية إلى العبرية. وقد أنشأ العلماء اليهود **الإسطرلاب** لقياس خطوط العرض، في محاولة منهم للارتقاء بالتقويمات وأدوات الملاحة عبر الرحلات الاستكشافية التي كانت تجرى في البلاد الأندلُسية.

وعندما بدأ الخلافة الإسلامية في قرطبة في الانهيار، ضعفت حماية السكان عامة واليهود خاصةً وتجزأت الخلافة الأموية إلى دويلات عديدة وكثرت الخلافات بينها. واضطر اليهود إلى الهجرة من الجزيرة الأيبيرية الإسلامية، وبعد سقوط الأندلس، شاركوا بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في مدرسة طليطلة.

2- الدين:

لقد اعتنق أغلب سُكّان الأندلُس **الإسلام** دينًا، وقد أقبل أهلُ البلاد الأصليين من القُوط على اعتناق هذا الدين بعد استقرار وإرساء قواعد الحُكم الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيريّة، وبقي قسمٌ كبيرٌ منهم على **المسيحية**، كما كان هُناك قسمٌ يدين **باليهودية**، وآخرٌ ضئيل يدينُ **بالوثنية**، وعرفوا **بالمجوس**.

ومن الناحية المذهبيّة، كان **المذهب الأوزاعي** هو أوّلُ **مذهبٍ فقهيٍّ عرفته بلادُ الأندلُس**. وقد ظهر هذا المذهب زمن **الوُلاة**، عندما كانت الأندلُس ما تزالُ ولايةً أُمويّة تتبع السُلطة المركزيّة في دمشق، ويرجعُ سبب انتشار المذهب الأوزاعي في رُبوع الأندلُس إلى أنها كانت مُتأثرة بالمظاهر الحضاريّة الشاميّة جميعًا، وال**مذهب الأوزاعي كان مذهب أهل الشّام** في ذلك الوقت، وصاحبه هو **الإمام الأوزاعي**، الذي كان من المُجاهدين في صد غارات

الروم البيزنطيّون البحريّة، ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربيّة وأحكام الجهاد، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلُسيين في هذه الفترة من حياتهم القائمة على حُروب الجهاد، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب.

وفي **عهد الإمارة**، عظِم التأثير الحجازي في الأندلُس، وبالأخص خِلال مرحلة توطيد الحُكم زمن **هشام بن عبد الرحمن، والحكم بن هشام**، ومن مظاهر هذا التأثير شُيوع **المذهب المالكي**، الذي استهوى الأمير هشام ومن حوله من الفُقهاء ورُوّاد الحديث، فتركوا مذهب الأوزاعي وأقبلوا على اعتناق المذهب المالكي، واعتمدوه المذهب الرسميِّ للبلاد.

وفي نهاية المطاف أصبح القضاء والفتوى على المذهب المالكي. وخلال عصر المرابطين، وقد طغى طابع المذهب المالكي على سياسة الدولة، وكانت زعامة القضاء راجعة لقاضي مراكش، عاصمة الدولة، الذي كان عضوا في مجلس الشورى والذي أصبحت له سُلطة كُبرى على قُضاة المغرب والأندلُس، وكان كبير قُضاة وعُلماء الأندلُس يُعرفُ باسم **(قاضي الجماعة)** أو «**شيخ الجماعة**».

وبقي قسمٌ كبيرٌ من أهالي الأندلُس **القُوط** على **المسيحيّة**، فكفلت لهم الدولة الحُريّة الدينيّة لقاء الجزية السنويّة. وقد تمتّع نصارى الأندلُس زمن الإمارة الأُمويّة بحقوقٍ وامتيازاتٍ لم يحصلوا عليها خِلال العهد القوطي، من ذلك أن المُسلمين سمحوا لهم بالحفاظ على مُمتلكاتهم الدينيّة كالكنائس ومُمتلكاتها، والأديرة وغيرها، وعلى مُمتلكاتهم الخاصّة مثل الأموال والعقارات المُختلفة كالمساكن، والمحلّات التجاريّة، والأراضي الزراعيّة.

كما منحت السُلطة الإسلاميّة في الأندلُس للمسيحيين امتيازات منها قرع النواقيس، ومرور المواكب في شوارع المُدن أثناء الاحتفالات الدينيّة حاملين الصليب، وبناء كنائس جديدة، إضافةً إلى السماح لهم باستعمال اللُغة العربيّة في التراتيم الكنسية، وعدم تدخلها في الأُمور التنظيميّة الدّاخليّة للكنيسة.

3- **اللُغة**:

كانت **اللغة العربية** هي أكثر اللغات شيوعًا في الأندلس، واللغة الرسمية للإمارة والخلافة الأموية وعدد من ممالك الطوائف. وكُتبت بها الكثير من أهم الأعمال الدينية والفكرية الإسلامية والمسيحية واليهودية في أيبيريا. وكانت اللغة العربية هي لغة السياسة

والعلم والأدب لقرون طويلة، وأثرت تأثيرًا مباشراً أو غير مباشر على كثير من اللغات الأخرى التي شاركها أهلها الوطن، كالبربر والقوطية.

ونتيجة لأهميتها في المجال العلمي والثقافي، اقتبست منها بعض اللغات الأوروربية كلمات عن طريق التثاقف والاختلاط مع عرب الأندلس. وقد انتشرت اللغة العربية بشكل سريع في نطاق واسع بين سكان الأندلس. وكانت تُعد وقتها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق ولسان الممتازين ذوي السلطان، وأقبل سكان شبه الجزيرة أنفسهم على تعلم اللغة العربية. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، أخذت اللغة العربية في الانحسار في شبه الجزيرة الأيبيرية مع قيام القشتاليين بإسقاط المدن الأندلسية شيئاً فشيئًا وقتل أو نفي أهلها المسلمين، كذلك فقد أخذت أهميتها العلمية تتراجع بعد ركود الاكتشافات العلمية الإسلامية، وبدء انتقال شعلة الحضارة إلى أوروبا.

وإلى جانب اللغة العربية، شاعت اللغة المستعربة، كانت تُستخدم من قبل المستعربين أو المواطنين النصارى بالأراضي الإسلامية، واختفت اللغة المستعربية في القرن الخامس عشر بعد استبدالها باللغات البارزة في الممالك المسيحية عقب الحروب الصليبية في الأندلس.

وكانت اللهجة العربية الأندلسية إحدى لهجات اللغة العربية المستخدمة في الأندلس ولهجة سكان الأندلس من عرب ومستعربين. وكانت هذه اللهجة مطعمة باللاتينية والكلمات الرومانسية، وتميزت الأندلس بخط خاص رُسمت فيه الحروف العربية هو **الخط الأندلسي**، وقد ظهرت فيه بعض مؤثرات الحروف الأفرنجيّة.

ثاني عشر: العُلوم:

اعتمدت الحركة العلمية في بلاد الأندلس في بادئ الأمر على علوم الإغريق، ومجهودات علماء المشرق الإسلامي، ولم يدم الأمر طويلاً، فلم تبلث الأندلس إلا أن استقلت فكريًا في **عهد عبد الرحمٰن الناصر**، وظهر العديد من العلماء والفلاسفة والمؤرخين مثل: ابن رشد، وابن زهر، وابن طفيل، وابن باجة، وعباس بن فرناس، ولسان الدين بن الخطيب، وابن خلدون، وكان يهدف حكام الأندلس إلى الاعتناء بالعلم والمعرفة وتثقيف الأمة والسعي كي تحتل الأندلس مكانة كبيرة في العالم، فقاموا ببناء دور للكتب وأنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية وترجموا الكتب المختلفة ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية، وأسسوا **الكتاتيب** لتعليم الصبيان اللغة العربية وآدابها ومبادئ الدين الإسلامي، كما

اتخذوا **المؤدبين** يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين اللغة العربية ومبادئ الإسلام، ولم يقتصر دورهم على تعلم العلوم العملية بل كانت لهم دراسات في علوم أخرى كالفيزياء والصيدلة والزراعة، ويُعد **عباس بن فرناس**، واحدًا من عباقرة العرب المسلمين الذين استطاعوا تحقيق أنبغ الكشوفات في ميادين العلوم التجريبية وأن يمهدوا باكتشافاتهم العظيمة الطريق للأجيال اللاحقة من علماء العصر الحديث.

كما اهتم خلفاء بني أمية بتأسيس **المكتبات** فنُقلت من كتب الشرق الشيء الكثير من الكتب وشارك الرحالة من الأندلسيين في ذلك، وقام العلماء وطلاب المسلمين بنقل الكتب وأقبلوا على ترجمتها في مختلف صنوف العلم والمعرفة، فقد أنشأ **المستنصر بالله** مكتبة عظيمة، فقد كان عالمًا مهتمًا بالعلم والقراءة واقتناء الكتب النادرة من بغداد، ودمشق، والقاهرة، وتحوي المكتبة على ما يزيد على 400 ألف مصنف في شتى العلوم والفنون، كما أنشأ دارًا لنسخ الكتب وأودعها بمدينة الزهراء.

كما ألف الأندلسيون كتبًا في علوم القرآن والحديث والفقه، وفي القضاء واللغة وآدابها وعلومها والمعاجم والتراجم، والتاريخ والسيرة والجغرافية، وألفوا في علوم الطب والحساب والهندسة والفلك والكيمياء والمنطق والفلاحة والملل والنحل، وفي الفلسفة والموسيقى، بحيث لم يتركوا حقلًا من حقول العلم والمعرفة إلا طرقوها. ومن أبرز العلماء والمترجمات يبرز كل من **ابن حزم** الذي ألف العديد من الكتب في أنساب العرب وفي علماء الأندلس وفي تاريخ الأديان مثل **كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، وعبد الملك بن حبيب السلمي** وكتابه **التاريخ** الذي تناول فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى فتح الأندلس وإلى عصره وقتئذ، وألف **ابن القوطية** كتاب **تاريخ افتتاح الأندلس عن تاريخ الأندلس.**

1. **الطب والصيدلة**:

لقد أثمرت جهود المسلمين في تطوير علم الطب، وتأثرت ثقافة الغرب الطبية تأثرًا كبيرًا بما اقتبسوه من المسلمين في هذا المجال، وكان **المسلمون** هم **أول من مارس عمليات الجراحة** في العالم على الإطلاق، ووضعوا المؤلفات فيها وفي طرقها، والأمراض التي يجب استئصالها والآلات والأدوات التي تستعمل، وهم **أول من اكتشف وسائل التخدير**، وأنشأوا **المستشفيات**، وقسموها قسمين: **قسم للرجال والنساء**، وقسموا كل قسم إلى أقسام على حسب

المرض، وأقاموا المعازل لعزل المرضى المصابين بأمراض معدية بل أن لهم الفضل في إنشاء المستشفيات المتنقلة.

وعلى الرغم من حالة النضج التي حققها الطب في أواخر القرن العاشر الميلادي، كما يظهر في أعمال **أبو القاسم الزهراوي،** ووصوله لدرجة عالية من الرقي في شبه الجزيرة الإيبيرية في القرن التالي، إلا أن تأثيره الأولي في أوروبا المسيحية كان تأثيرًا ضئيلاً، ويعد **الزهراوي** أشهر أطباء وجراحي الأندلس حيث كان طبيبًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة وله تصانيف في الطب، ومن مؤلفاته كتاب **التصريف لمن عجز عن التأليف،** وهو عبارة عن دائرة معارف طبية كبيرة في ثلاثة أجزاء، قسم في الطب وآخر في الصيدلة وآخر في الجراحة، وقد حصل على أعلى درجات التقدير في أوروبا، وتُرجم إلى مختلف اللغات، ولُقب **الزهراوي بأبو الجراحة** بعدما كان **أول من ربط الشرايين واستأصل حصى المثانة، في النساء عن طريق المهبل، وأول من أوقف النزيف ونجح في عملية شق القصبة الهوائية، وبحث في التهاب المفاصل، واكتشف آلة لتوسيع باب الرحم للعمليات.**

وبالمثل، نالت **الصيدلة** حظًا من التطوير الإسلامي لها، بعد أن استفاد العلماء من النص العربي لكتاب **ديوسقوريدس المادة الطبية،** الذي أعده أطباء قرطبة في القرن العاشر الميلادي، في حين تُرجم كتابا **ابن وافد** في العلاج بالحمامات والينابيع الطبية والعقاقير النباتية المفردة إلى اللاتينية والقطلونية، في **كتابه العقاقير المفردة،** كما يُعد **أبو جعفر محمد بن أحمد الغافقي،** من **أشهر صيادلة الأندلس وأعلمهم بالأدوية المفردة ومنافعها وخواصها،** وعكف على دراسة النبات الأندلسي، وألف كتابًا في الأدوية المفردة ووصف النباتات بشكل دقيق، إضافة إلى ذكر أسمائها باللغة العربية واللاتينية والبربرية.

ويرجع اهتمام المسلمين بالنبات إلى القرن الأول للهجرة، وقد عني علماء النبات المسلمون بوضع أسماء الكثير من النباتات. بدوره، وضع الطبيب الأندلسي **ابن جلجل** كتابًا عن الأشياء التي أغفلها غيره، وألحق هذا الكتاب بكتاب **ابن باسيل** المترجم فجاء الكتابان مؤلفًا كاملاً. وسيرًا على هذا المنهج التجريبي، استطاع العلماء العرب دراسة الكثير من النباتات الطبيعية التي لم يسبقهم إلى دراستها أحد وأدخلوها في العقاقير الطبية. واستطاعوا أيضًا أن يستولدوا بعض النباتات التي لم تكن معروفة **كالورد الأسود،** وأن يكسبوا بعض

النباتات خصائص العقاقير في أثرها الطبي، إضافة إلى عالم النبات والأدوية **أبو العباس بن الرومية**، الذي أتقن علم النبات والأدوية، وألف كتابًا في تركيب الأدوية.

2. **الفلسفة**:

كان ظهور الفلسفة في الأندلس مرافقًا للعلوم التطبيقية مثل الطب والفلك، وكان الفلاسفة الأندلسيون الأولون أطباءً أو منجمين، ثم أخذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة مدة سنين، حتى ظهر الفلاسفة الحقيقيين. وكان لوجود الكتب الفلسفية اليونانية الأثر الكبير في تبلور الفكر الفلسفي. ومرت الفلسفة الأندلسية بعدة مراحل وتطورت وأثرت فيها عدة أفكار، فكانت بدايتها مع إدارجها مع العوم التطبيقية، ثم بدأ الاهتمام بالمنطق ودراسته، إلا أن تطورت لتصل إلى الفلسفة البحتة مع **ابن باجة**، وبدأ ظهور الفلسفة بشكل مستقل في أوائل القرن العاشر الميلادي على يد **محمد بن عبدالله مسرة، رائد الفلسفة الإسلامية في الأندلس**، ويُعتبر **أول مؤسس للفكر الأندلسي**، الذي كان منصبًا على تركيب المبادئ المعتزلية المتعلقة بالوحدة الإلهية، والعدل الإلهي، والقدرية مع النظريات والتطبيقات الصوفية؛ ويرجع الفضل إليه في تعريف **الإسبان الأندلسيين المذهب الوجداني الأفلاطوني**، الذي أثر بشكل ملحوظ في تفكير ابن جبيرول، وابن عربي.

وقد ازدهرت الفلسفة في **عهد ملوك الطوائف**، فكانت في بدايتها أقرب إلى التصوف من الفلسفة البحتة، وتعتمد على الذوق والكشف ومراقبة النفس أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق ومقدمات القياس ونتائجه، ولم يعرف المسلمون علم الفلسفة إلا بعد حركة الترجمة من الفلسفة اليونانية، ونقلوها إلى الغرب وما أضافوا إليها من شروحات وتلخيصات مع ابتكارات فلسفية تميزت بالأصالة.

وكان من أكبر مشكلات المسلمين الفلسفية محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وقد حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين أو بين العقل والوحي، وكان **ابن رشد القرطبي** يحذو حذو **ابن سينا** بتحمسه للفلسفة اليونانية وشروحه لفلسفة أرسطو.

ويُعد **ابن رشد** أول وآخر أرسطوطالي كبير على المسرح الفلسفي في الإسلام. ولعب مركزه بوصفه قاضيًا في إشبيلية على تخصيص الكثير من وقته لتفسير كتب أرسطو وشرحها وتلخيصها. وقد أثر نتاجه الفلسفي بشكل كبير على أوروبا، وكان كتاب **تهافت التهافت** من أشهر كتبه، كان بمثابة ردًا على **الإمام الغزالي** في كتابه **تهافت الفلاسفة**، شكلت محاولة ابن

رشد في الجمع بين الشريعة والفلسفة خطوة نوعية في سلسلة الفلاسفة التي بدأت أنشطتها المعرفية منذ نهاية القرن الهجري الأول.

3. **الرياضيَّات والهندسة والفلك**:

كان اهتمام علماء المسلمين **بالفلك** مقتصرًا على رصد الكواكب وحركاتها وعلاقتها بالكسوف والخسوف، وكذلك لمعرفة علاماتها بالحرب والسلم والظواهر الطبيعية. وبالمثل كان ارتباط بعض أحكام الدين الإسلامي بالظواهر الفلكية دافعًا لاهتمام المسلمين بأمور الفلك، فاقتضى معرفة المواقع الجغرافية للبلدان، ومركز الشمس في البروج، وذلك لاختلاف أوقات الصلاة ومعرفة جهة القبلة.

وقد تطور هذا العلم إلى دراسة حركات النجوم وظهور حركة التنجيم واختراع **الساعات الشمسية لمعرفة الأوقات**، وبدوره ابتكر **عباس بن فرناس أول آلة**، والتي تُعد نوعًا مبتكرًا من الساعات، وتوصل علماء المسلمين إلى حقائق علمية رائدة، في علم الفلك، ويبرز صاحب القبلة أبو عبيدة البلنسي الذي أقر بكروية الأرض واختلاف المناخ في أنحائها.

وقد طبق المسلمون النظريات الهندسية على فن البناء فشيدوا الأبنية التي تميزت بالفخامة والإتقان والمتانة كالمدن والقصور والجوامع، ومنها مدينة الزهراء وجامع الزهراء وقصور الحمراء، والنافورات المائية، بالإضافة إلى عنايتهم بالنقوش والزخارف، كما اهتموا بهندسة الري أيضًا، وذلك لأن تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية الماء وسرعة مجراها، ومواد البناء وطرق بنائها.

4. **الكيمياء والخيمياء (الفيزياء)**:

كان الكيميائيون والخيميائيون المسلمون أول من استخدم المنهج العلمي التجريبي، كما يُمارس في الكيمياء الحديثة، أما الخيميائيين (الفيزيائيون) المسلمين وضعوا نظريات عن تحويل الفلزات وحجر الفلاسفة والتكوين (حياة اصطناعية للحياة في المختبر).

وقد لمس الأوروبيون بشكل جلي الجهود العلمية التي بذلها الأندلسيين في علم الكيمياء فوصلت إليهم ثروة كبيرة من المعرفة والحقائق، والتجارب والنظريات العلمية، فأخذوا يقبلون على دراستها وترجمتها إلى لغاتهم. وهناك بعض من الكلمات العربية المستخدمة في اللغات الأوروربية في حقل الكيمياء، والتي تدل بدورها على جهود المسلمين في هذا العلم عند

الغربيين، وذلك مثل الكيمياء والكمل والزرنيخ والبورق والإكسير والقرمز والكبريت والأنبيق والنفط والعطر والزئبق والقطران البنج والسموم.

ثالث عشر: الفُنون:

1. **الآداب:**

انقسم الأدب العربي تاريخيًا في الأندلس إلى فترتين، **فترة المد**، وتبدأ بالفتح حتى عصر ملوك الطوائف، حيث حكمها أمراء وحكام من المشرق أو الأندلس نفسها؛ **وفترة الجزر**، حيث حكمها دولتي المرابطين والموحدين من شمال أفريقيا. وتميزت الفترة الثانية عن الأولى أدبيًا. ولم تشهد الفترة الأولى غير المعرفة بالقرآن الكريم وعلومه، والشعر الغنائي المشرقي الذي كان ذائعًا أواخر القرن الأول الهجري، وتركز شعرهم على الافتخار بالأصل والتغني بالشجاعة في الحروب والحنين إلى الوطن الأم والبكاء على شهداء الفتوحات؛ فيما نقل إليهم أدباء الفترة الثانية المزيج التطوري من الآداب والفنون.

2. **الشعر:**

نظم الأندلسيون الشعر في الأغراض التقليدية كالغزل والمجون والزهد والتصوف والمدح والهجاء والرثاء، وقد طوروا موضوع الرثاء فأوجدوا رثاء المدن والممالك الزائلة وتأثروا بأحداث العصر السياسية فنظموا **شعر الاستغاثة والاستنجاد بالرسول وكبار الصحابة** ونظم العلوم والفنون والشعر الفلسفي، وتوسعوا في وصف البيئة الأندلسية، واستحدثوا **فن الموشحات والأزجال**. وامتازت معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة والبعد عن التعقيد والتلميح إلى الوقائع التاريخية ولاسيما في رثاء الممالك الزائلة؛ بينما كانت ألفاظه وعباراته واضحة وسهلة وفيه معانٍ من الرقة والعذوبة وتجنب الغريب من الألفاظ مع الاهتمام بالصنعة اللفظية. واستمد تصويره وخياله من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعي وتزاحم الصور. وفيما يخص الأوزان والقوافي، فقد التزموا بوحدة الأوزان والقوافي بدايةً، ثم ابتدعوا أوزانًا جديدة لانتشار الغناء في مجالسهم ونوعوا في القوافي، ومن بينها ظهرت **الموشحات**، ومن أشهر شعراء العصر الأندلسي: ابن زيدون، وابن حزم، وابن خفاجة، والمعتمد بن عباد، وابن عبد ربه، وابن هانئ الأندلسي، وغيرهم.

3. **النثر**:

تعددت فنون النثر العربي في الأندلس، فتناول الأندلسيون ما كان معروفًا في المشرق من خطب ورسائل ومناظرات ومقامات، وزادوا عليها بعض ما أملته ظروف حياتهم وبيئاتهم، وقد شاع فيهم تصنيف كتب برامج العلماء، التي تضمنت ذكر شيوخهم ومروياتهم وإجازاتهم. وكان للكتاب مزية الجمع بين الشعر والنثر والإجادة فيهما. ومن أشهر النثريين الأندلسيين يأتي كل من ابن زيدون وابن حزم وأبي حفص ابن برد.

كانت **الخطابة** وليدة الفتح، فقد استدعت الغزوات التي قام بها المسلمون قيام الخطباء باستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله. وبعد تدهور حال البلاد وانقسامها إلى دويلات كثيرة، وُجهت الخطابة للدعوة إلى لم الشمل وترك التناحر. وكانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية.

ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوعة ومنها الديوانية والإخوانية. بينما هدفت المناظرات إلى إظهار الكاتب مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان خيالية وغير خيالية.

4. **العمارة**:

كانت الأندلس قبل الفتح الإسلامي الأقل عمارة عن سائر الممالك الأوروبية، وإن كانت تحفل بكثير من آثار العمارة التي تعود لحضارات مختلفة، وكانت لها وظائف عدة كالدينية في حالة المعابد، والدفاعية كالقلاع والحصون، والمدنية كالقصور والمسارح والقناطر. وبعد الفتح، صبغ المسلمون مدنهم بطابع إسلامي مميز، وذلك بإقامة المساجد التي تُعد نواة لعمارة المدن وتمددها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، حيث كان يشهد عقد الاجتماعات السياسية وتوزيع ألوية الجيش وتدريس العلوم الدينية والعلوم العامة. وكان يتفرع منه الطرق الكبيرة المؤدية إلى أبواب المدينة ومنها الشوارع والأزقة الموصلة للأحياء، وتُقام حول ساحته الأسواق والحمامات والفنادق والقيساريات.

ونظم المسلمون المدن التي أقاموا بها وفق الأسلوب المشرقي بشوارع ضيقة ذات محاور متكسرة درءًا للشمس وحماية للسكان، واتخذوا شكلًا مميزًا في بناء قصورهم، فقد

جعلوا في المسكن صحنًا يتوسطه بركة ماء، وعلى جانبها الأزهار والأشجار، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل إلى الدار من دهليز. كان بناء الأندلسيين بالآجر والحجر، وكان الحجر ينقسم إلى الحموي والأحمر والأبيض، وكانوا ينحتون السواري والعمد من مقالعهم على الأغلب.

واشتهرت الأندلس بالمنشآت المعمارية ذات الشأن، وانقسمت الحقبة إلى ثلاثة مراحل معمارية، شملت المرحلة الأولى **جامع قرطبة**، الذي تم بناءه في القرن الثاني للهجرةالثامن الميلادي، جنبًا إلى جنب مع بعض مبانٍ طليطلة؛ فيما شملت المرحلة الوسطى **منارة إشبيلية**، التي أنشأها الموحدون في القرن السادس للهجرة–الثاني عشر الميلادي **وقصر المعتمد**، بينما اشتملت الثالثة على **قصر الحمراء في غرناطة**، الذي شُيد في القرن الثامن للهجرة–الرابع عشر الميلادي، وكان بمثابة عنوان صريحًا لما انتهت إليه العمارة الأندلسية.

وقد اهتم **عبد الرحمٰن الداخل** بتنظيم قرطبة لتتلاءم مع مكانة الدولة وعظمتها، فجدد معانيها وشد مبانيها وحصنها بالسور، وبنى قصر الإمارة، والمسجد الجامع ووسع فناءه، ثم بنى **مدينة الرصافة**، وفقًا لفن العمارة الإسلامية في الشام سواءً في زخارفها المعمارية أم في بعض عناصر بنائها، وفي نظام عقودها، كما بنى **قصر الرصافة** ونقل إلى مدينته غرائب الأشجار المثمرة الشائعة في فارس، فانتشرت إلى سائر أنحاء الأندلس، وقُيل أن قرطبة بوقتها كانت تحتوي على مئتي ألف قصر وستمئة مسجد وسبعمئة حمام، وكانت طرقها مرصوفة بالحجارة ومحفوفة بطوارين على الجانبين، وكانت تُضاء في الليل حتى يقال إن المسافر كان يستطيع أن يسير على ضوء المصابيح وبين صفين من المباني مسافة عشرة أميال. ولم يغفل الخلفاء والأمراء بناء الجسور على الأنهار ومد قنوات مياه الشرب إلى المنازل والقصور والحمامات إضافة إلى الحدائق والمتنزهات التي تزينها برك الماء المتدفق.

- **معالم الأندلس:**

كان **جامع قرطبة** كيانًا شامخًا في بنائه وهندسته، فقد بناه عبد الرحمٰن الداخل سنة 170هـ–786م، وتتابع الأمراء والخلفاء في العناية به وتوسعته، وكان **الناصر والمستنصر وابن أبي عامر** ممن أسهموا في هذا الأمر، وأصبح أعظم جامعة عربية في أوروبا في العصر الوسيط، فكان البابا سلفستر الثاني قد تعلم في هذا الجامع يوم كان راهبًا، كما أن كثيرًا

من نصارى الأندلس كانوا يتلقون علومهم العليا فيه، واستأثر المسجد في الأندلس بتدريس علوم الشريعة واللغة إضافة إلى العلوم الأخرى.

وتعد **مدينة الزهراء** من أشهر المشيدات العمرانية في حقبتي **الإمارة والخلافة الأموية**، وقد بنيت على بعد 30 كم شرق قرطبة، أمر بتشييدها ال**خليفة الأموي عبد الرحمٰن الناصر** تخليدًا لاسم زوجته، واستغرق بناؤها سنوات طويلة، وقد ازدهرت لنحو 80 عامًا، ثم هجرها أهلها من جند قرطبة خلال ثورة البربر.

وقصر المورق كما عرفه **الموحدون** أو **قصر المبارك** كما عرفه **بنو عباد** أو كما يعرف حديثًا باسم «**قصر إشبيلية**»، كان في الأصل حصنًا بناه المسلمون في إشبيلية، ثم تحول إلى قصر للحكم، وهو أقدم قصر ملكي لا يزال مستخدمًا في أوروبا، وكان يحوي ساحات ونوافير وقاعة مشابهة لقاعة السفراء في قصر الحمراء سميت قاعة العدل والحكم.

وقصر الحمراء هو قصر أثري وحصن شيده **الملك أبو عبدالله محمد بن الأحمر** في مملكة **غرناطة** خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، وترجع بعض أجزائه إلى القرن الثالث عشر الميلادي، ويُعد من أهم المعالم السياحية الأندلس ويقع على بعد 430 كم جنوب مدريد. وتظهر به بعض من سمات العمارة الإسلامية الواضحة مثل: استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، مع بعض من المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القيشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

والخيرالدة أو ما يُعرف **بمئذنة الجامع الكبير** في عهد الموحدين، هو برج قائم من الآجر في **إشبيلية**، بُني عام 1184م بأمر من **الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب المنصور**، ويُعد من أهم معالم المدينة. وأصبح برجًا لأجراس **كاتدرائية إشبيلية** التي أسسها **الإسبان** بعد سقوط **إشبيلية** بيد **القشتاليين**، ويعتبر أحد المشيدات المعمارية الهامة في الفن الإسلامي في الأندلس، حيث تُبرز قدرة الفنانين الأندلسيين على الربط بين ضخامة العمارة ودقة التزيينات.

وأقام الأمويون عدد كبير من القلاع والحصون المنيعة لضمان سلامة بلادهم، وقد أصبحت بعد ذلك مدنًا، وشيدت أسوار أكثر المدن من الحجر المنحوت المرصوف بتناسب

هندسي. أما أسوار القلاع ومراكز الخفر وبعض أبراج المراقبة داخل المدن فكانت تُشيد من الطين المدكوك على أساس من الحجر الغشيم وتعلوها شراريف هرمية.

ويُعد **برج الذهب** من أحد أشهر الأبراج في الأندلس، ويُعد آخر صرح حضاري بناه **الموحدون** في **إشبيلية**، وقد أقيم لحراسة المدينة ومراقبة حركة الملاحة في نهر الوادي الكبير. وهو مكون من اثني عشر ضلعًا، ومن طابقين، شيد فوقهما طابق ثالث في القرن الثامن عشر بأسلوب مختلف عن الطابقين القديمين.

5. الموسيقى والمُوشحات:

الموسيقى الأندلسية وقد نشأت هذه الموسيقى بالأندلس وارتبطت في بعض الأحيان بالمدائح غير المتقيدة بالأوزان والقوافي. وتُعتبر إحدى الامتدادات والروافد التي تفرعت عن الموسيقى العربية بمفهومها العام.

وازدهرت الحياة الاجتماعية في الأندلس بظهور المدارس الموسيقية، ونهضت الموسيقى فيما بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلادي. فقد شاع الغناء الحجازي والموسيقى الحجازية، وانتقل هذا الفن إلى الأندلس عن طريق الجواري والمغنيات والمغنين.

ولعبت الموسيقى العربية دورها في الأندلس، فالمدرسة الموسيقية التي أسسها **زرياب،** وكان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية، وعرف الأوروبيون في لغتهم أسماء كثير من الآلات الموسيقية العربية واستعملوها بألفاظها العربية، مثل **القانون والطبل والنقارة والقيثارة والربابة والعود.**

وقد استخدم العود ذو الأوتار الخمسة بدل الأربعة، وكذلك استخدم الطنبور والشهرود والقيثارة والزهر والكنارة والقانون والربابة والكمنجة والمزمار والسرناي والناي والشبابة والصفارة، إضافة إلى الآلات الإيقاعية وآلات النفخ النحاسية.

وكان **الزجل** هو فن **العامة** بالأندلس، وكانوا ينظمونه في سائر البحور للخمسة عشر بالعامية، وكان يلتقي كبار العلماء والأدباء والشعراء في قصور الخلفاء والأمراء في الأندلس في منتديات علمية وأدبية وفنية.

أما **الموشحات الأندلسية** كانت واحدة من أهم الأشكال الشعرية الغنائية والموسيقة التي ابتكرت بالأندلس، حيث تتنوع الأوزان وتتعدد القوافي مع استخدام اللغة الدارجة في

خرجته. ونشأت أواخر القرن التاسع الميلادي، وازدهرت الموسيقى وشاع الغناء من جانب، وقوي احتكاك العنصر الإسلامي بالعنصر الأسباني من جانب آخر.

ويرجع ظهور الموشحات إلى الحاجة إلى التحرر من قيود الأوزان الشعرية التي لازمتهم طيلة حياتهم، والبحث عن نوع شعري جديد يواكب الموسيقى والغناء في تنوعها واختلاف ألحانها، وإلى ولعهم بالموسيقى والغناء منذ أن قدم عليهم زرياب، وأشاع فيهم فنه.

وتتألف الموشحة غالباً من خمس فقرات، تسمى كل فقرة بيتًا. والبيت في الموشحة ليس كالبيت في القصيدة، لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار، وليس من شطرين فقط كبيت القصيدة. وتنقسم كل فقرة من فقرات الموشحة الخمس إلى جزأين: الجزء الأول مجموعة أشطار تنتهي بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة في الوقت نفسه للمجموعة التي تقابلها في فقرة أخرى من فقرات الموشحة؛ أما الجزء الثاني من جزئي بيت الموشحة، فهو شطران – أو أكثر– تتحد فيها القافية في كل الموشحة. والجزء الأول الذي تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصناً، والجزء الآخر الذي تتحد قافيته في كل الموشحة، يسمى قفلاً. وسرعان ما انتشر هذا الفن الجديد في المشرق والمغرب، وقاربت الموشحة القصيدة الشعرية، واستخدمها الصوفيين في مدائحهم وأذكارهم.

المصادر والمراجع

1. ابن عبد الحكم: **فتوح أفريقيا والأندلس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1964.
2. ابن قتيبة الدينوري: **الإمامة والسياسة**، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، ط3، 1963م.
3. دوزي، رينهارت: **المسلمون في إسبانيا**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م
4. مؤنس، حسين: **فجر الأندلس**، العصر الحديث للنشر، بيروت – لبنان، ط1، 2002م.
5. ابن القوطية: **تاريخ افتتاح الأندلس**، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1994،1م.
6. رمضان، عبد العظيم: **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1998م.
7. ابن عذاري: **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط3، 1983م.
8. المقري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار صادر، بيروت– لبنان، ط1، 1968م.
9. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1987م.
10. عنان، محمد: **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م.
11. السامرائي، وأخرون: **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، دار الكتب الجديدة المتحدة، القاهرة، 2000م.
12. مؤلف مجهول: **أخبار مجموعة في فتح الأندلس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، 1989م.
13. طقوش: **تاريخ المسلمين في الأندلس**، دار النفائس، بيروت – لبنان، 2010م.
14. بيضون: **الدولة العربية في الأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، 1980م.
15. مكي: **تاريخ الأندلس السياسي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط2، 1999م.
16. ابن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1998م.

الفصل الثامن

الدولة العثمانية

(698-1342هـ)

الفصل الثامن
الدولة العثمانية (698-1342هـ)

الدولة العثمانية هي إمبراطورية إسلامية أسسها **عثمان بن أرطغرل**، واستمرت قائمة لما يقرب من 600 سنة، ونشأت بدايةً كإمارة حُدود تُركمانيّة تعمل في خدمة **سلطنة سلاجقة الروم**، والتصدي للغارات البيزنطيَّة، وبعد سُقُوط دولة السلاجقة استقلّت الإمارات التُركمانيَّة التابعة لها، بما فيها **الإمارة العُثمانيِّة**، التي سيطرت على سائر الإمارات التركمانية بِمُرور الوقت.

وقد عبر العُثمانيُّون إلى أوروبا الشرقية سنة 1354م، وخلال السنوات اللاحقة تمكّن العُثمانيُّون من فتح أغلب البلاد البلقانيَّة، فتحوّلت إمارتهم الصغيرة إلى دولة كبيرة، كما فتح العثمانيون **القسطنطينية** سنة1453م، وأسقطوا **الإمبراطوريِّة البيزنطيِّة** على يد السُلطان محمد الفاتح.

وبلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة: أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، كما خضعت لها كامل آسيا الصغرى، وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا.

ووصل عدد الولايات العثمانية إلى 29 ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحى بعضها يُشكل جزءًا فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي، وعندما ضمَّ العُثمانيُّون الشام ومصر والحجاز سنة 1517م، وأسقطوا **الدولة المملوكية** بعد أن تراجعت قوتها، وقد تنازل آخر الخلفاء العباسيين المُقيم في القاهرة **محمد المتوكل على الله** عن الخلافة **لِلسُلطان سليم الأول**، ومُنذ ذلك الحين أصبح سلاطين آل عُثمان خُلفاء المُسلمين.

وكان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعًا سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "**أمير المؤمنين**" و"**خليفة المسلمين**"،

وقد أضحت الدولة العثمانية في عهد **السلطان سليمان القانوني** بين سنتي1520-1566م، قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها **القسطنطينية** تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي.

كما كان لها سيطرة مُطلقة على البحار: المتوسط، والأحمر، والأسود، والعربي، والمحيط الهندي، وبعد انتهاء عهد **السلطان سليمان القانوني،** أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً، منذ سنة 1740م، حيث عانت من خسائر عسكرية قاتلة على يد خصومها الأوروبيين والروس خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وتغلغلت القوى الأوروبية في البلاد العثمانية وتدخلت في شؤون الدولة وفرض بعضها الحماية على الأقليات الدينية، مما أدى إلى ازدياد أوضاع الدولة سوءًا.

حثّت هذه الحالة السلاطين العُثمانيين كي يتصرفوا ويُحاولوا انتشال السلطنة مما آلت إليه، فكان أن أُطلقت التنظيمات التي طالت الجيش والإدارة والتعليم وجوانب الحياة، فأُلبست الدولة حُلّةً مُعاصرة، وتماسكت وأصبحت أكثر قُوّةً وتنظيمًا من ذي قبل، رُغم أنّها لم تسترجع البلاد الي خسرتها لصالح الغرب وروسيا، بل خسرت مزيدًا منها، وخصوصًا في البلقان.

وقد تحول نظام الحكم في الدولة العثمانية من **الملكي المطلق** إلى **الملكي الدستوري** في بدايات عهد **السلطان عبد الحميد الثاني،** بعد أن افتتح **المجلس العمومي** وتمثلت فيه كل الولايات عن طريق نوابٍ مُنتخبين، ووضع هؤلاء دستورًا للدولة.

لكن ما لبث السُلطان أن عطل العمل بالدستور لأسبابٍ مُختلفة، فعادت البلاد إلى النظام الملكي المُطلق طيلة 33 سنة، عُرفت باسم "**العهد الحميدي**" الذي تميز بكونه آخر عهد سُلطاني فعلي نظرًا لأن عبد الحميد الثاني كان آخر سلطانٍ فعليٍ للدولة، كون من تلوه كانوا مُجردين من القوة السياسية. وتميز العهد الحميدي بتوسع نطاق التعليم وازدياد المؤسسات التعليمية في الدولة، وازدياد الانفتاح على الغرب، كما برزت فيه **المطامع الصهيونية بأرض فلسطين**، وظهرت **الأزمة الأرمنية.**

وأُعيد العمل بالدستور العُثماني سنة 1908م وسيطر حزب الاتحاد والترفي على أغلب مقاعد البرلمان، فعادت السلطنة للنظام **الملكي الدستوري** وبقيت كذلك حتى انهارت بعد عشر سنوات.

وقد شاركت الدولة العثمانية بالحرب العالمية الأولى (1914-1918م) إلى جانب الإمبراطورية الألمانية في محاولة لكسر عزلتها السياسية المفروضة عليها من قبل الدول الأوروبية مُنذ العهد الحميدي، وعلى الرُغم من تمكنها من الصمُود على عدَّة جبهات إلا أنها عانت من الثورات الداخليَّة التي أشعلتها الحركات القوميَّة في الداخل العُثماني، ردًا على عنصريِّة حزب الاتحاد والترقي من جهة، وبسبب التحريض الأجنبي من جهةٍ أُخرى.

وفي نهاية المطاف لم تتمكن السلطنة من الصمُود بوجه القوى العظمى، فاستسلمت للحلفاء سنة 1918م، وقد انتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية بتاريخ 1 تشرين ثان (نوفمبر)1922م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في 24 تموز(يوليو) 1923م، بعد توقيعها على **معاهدة لوزان**، وزالت نهائيًا في 29 تشرين أول (أكتوبر) 1923م عند قيام **الجمهورية التركية**، كما أدَّى سقوط الدولة العُثمانيِّة إلى ولادة مُعظم دُول المشرق العربي للاحتلال الغربي بعد أن اقتسمت بريطانيا، وفرنسا ممتلكاتها في العراق والشام، بعد أن انتزعت منها سابقًا مصر وبلاد المغرب العربي.

أولاً: أصل العثمانيين وموطنهم الأول:

العثمانيون قوم من **الأتراك**، فهم ينتسبون – من وجهة النظر العرقية – إلى العرق **الأصفر** أو **العرق المغولي**، وهو العرق الذي ينتسب إليه **المغول والصينيون** وغيرهم من شعوب شرق آسيا.

وكان موطن الأتراك الأول في **آسيا الوسطى**، في البوادي الواقعة بين **جبال آلطاي شرقًا وبحر قزوين في الغرب**، وقد انقسموا إلى عشائر وقبائل عديدة منها **(عشيرة الكايي)**، التي نزحت في عهد زعيمها "**جوندوز ألب**" إلى المراعي الواقعة شماليّ غربي **أرمينيا** قرب مدينة **الأخلاط**، عندما استولى **المغول** بقيادة **جنكيزخان** على **خراسان**.

إن الحياة السياسية المبكرة لهذه العشيرة يكتنفها الغموض، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وإنما كل ما يُعرف عنها هو استقرارها في تلك المنطقة لفترة من الزمن، ويُستدل على صحة هذا القول عن طريق عدد من الأحجار والقبور تعود لأجداد بني عثمان، ويُستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت **منطقة الأخلاط** حوالي سنة1229م تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، بفعل الحروب التي أثارها السلطان **جلال الدين الخوارزمي** وهبطت إلى حوض نهر دجلة.

ثانياً: قيام الدولة العثمانية (1299–1453م):

توفي "**جوندوز ألب**" في العام التالي لنزوح عشيرته إلى حوض دجلة، فترأس العشيرة ابنه "**سليمان شاه**"، ثم حفيده "**أرطغرل بن سليمان**" الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة **إرزنجان**، وكانت مسرحًا للقتال بين **السلاجقة والخوارزميين**، فالتحق بخدمة **السلطان علاء الدين سلطان قونية**، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام، وسانده في حروبه ضد **الخوارزميين**، فكافأه **السلطان السلجوقي** بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة **أنقرة**، وظل **أرطغرل** حليفًا للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي منطقة في أقصى الشمال الغربي من **الأناضول** على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم "**سكود**" حول مدينة "**إسكي شهر**"، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب إمارات تركمانية سبقتها إلى المنطقة، وقد علا شأن **أرطغرل** لدى السلطان بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دومًا في

مقدمة الجيوش وتمّ النصر على يدي أبنائها، فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب "**أوج بكي**"، أي "**محافظ الحدود**"، اعترافًا بعظم أمره، غير أن **أرطغرل** طموحه السياسية كانت بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول، فاستولى على مدينة "**إسكي شهر**"، وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة 1281م عن عمر يُناهز التسعين عامًا، بعد أن حصل على لقب "**غازي**" تقديرًا لفتوحاته وغزواته.

1. تأسيس الدولة العثمانية:

وقد تولّى زعامة الإمارة بعد **أرطغرل** ابنه الأصغر "**عثمان**"، فأخلص الولاء للدولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهددها من أخطار.

وقد أظهر **عثمان** في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية؛ لاستكمال فتحها كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي **الأناضول**، وفي عبور **الدردنيل** إلى أوروبا الشرقية والجنوبية.

ومن الناحية الإدارية، فقد أظهر **عثمان** مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحول من **نظام القبيلة المتنقلة** إلى **نظام الإدارة المستقرة**، وما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعًا إلى دولة كبرى، وقد أبدى **السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث** تقديره العميق لخدمات **عثمان**، فمنحه لقب "**عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا**".

وقد أقدم عثمان بعد أن ثبّت أقدامه في إمارته على توسيع حدودها على حساب البيزنطيين، وفي عام1291م فتح مدينة "**قره جه حصار**" الواقعة إلى الجنوب من **سكود**، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو **أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة**، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة، والبحر الأسود، وحين تغلب **المغول** على **دولة قونية**

السلجوقية، سارع **عثمان** إلى إعلان **استقلاله** عن السلاجقة ولقّب نفسه "**باديشاه آل عثمان**" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نُسبت إليه لاحقًا، وظلّ **عثمان** يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانًا مستقلاً حتى سنة 726هـ- 1326م عندما توفي أثناء فتح ابنه "**أورخان**" مدينة **بورصة** الواقعة على مقربة من **بحر مرمرة** عن عمر يناهز السبعين عامًا، بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخُلع عليه لقب آخر هو "**قره عثمان**"، وهو يعني "**عثمان الأسود**" يُقصد به "**الشجاع**" أو "**الكبير**" أو "**العظيم**".

لقد عني **أورخان** بتنظيم مملكته تنظيمًا محكمًا، فقسمها إلى **سناجق** أو **ولايات**، وجعل من مدينة **بورصة** عاصمةً لها، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم، والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بجيش **الإنكشارية**، وقد درّب **أورخان** هؤلاء الفتيان تدريبًا صارمًا وخصّهم بامتيازات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء.

وعمل **أورخان** على توسيع الدولة، وحدث صراع عنيف بينه وبين البيزنطيين تمكن من الاستيلاء على مدينتي أزمير ونيقية، كما شن هجومًا على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين سنة1337م، ولكنه أخفق في فتحها؛ مما أوقع الرعب في قلب إمبراطور الروم "**أندرونيقوس الثالث**"، فسعى إلى التحالف مع الأوروبيين، ولكن لم يثني أورخان عن الإندفاع إلى الأمام وتثبيت أقدام العثمانيين، فسيطروا على شبه جزيرة غاليبولي سنة 1357م.

كما شهد المسلمون في عهد **أورخان** أوّل استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار **أنقرة** في آسيا الصغرى إلى **تراقيا** في البلقان، وشرع الدعاة يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام، وقد توفي **أورخان الأول** سنة 1360م، وتولّى بعده ابنه "**مراد الله**"، الملقب ب"**مراد الأول**".

2. التوسُع العثماني الأوَّل:

كانت فاتحة أعمال **مراد الأول** فتح مدينة **أنقرة** مقر **إمارة القرمان**، وذلك أن أميرها واسمه **علاء الدين**، أراد انتهاز فرصة انتقال **المُلك** من السلطان **أورخان** إلى ابنه **مراد**: لإثارة

حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يومًا فيومًا، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه، وتحالف **مراد** مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضمّ جزء من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثمانية.

ثم وجّه اهتمامه نحو **شبه جزيرة البلقان** التي كانت في ذلك الحين مسرحًا لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة **أدرنة** سنة1362م، ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما فُتحت عدّة مدن أخرى مثل صوفيا، وسالونيك، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا.

وفي سنة791هـ–1385م، التقت **الجيوش العثمانية** بالقوى **الصربية** – تساندها قوًى من **المجر والبلغار والألبانيين** – في إقليم "**قوصوة**"، المعروف حاليًا باسم "**كوسوفو**"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلا أن **السلطان مراد الأول** قُتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت.

وتولّى عرش آل عثمان بعد **مراد الأول** ابنه **بايزيد**، وعند ذلك كانت الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكل ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطينيين مدينة **آلاشهر**، وكانت آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، وأخضع **البلغار** سنة 1393م إخضاعًا تامًا، فجزع "**جون سيجسموند**" ملك **المجر** من هذا التوسع العثماني، خصوصًا بعد أن وصلت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية، فدعا **البابا** "**بونيفاس التاسع**" إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة عدد من أمراء فرنسا، وبافاريا، والنمسا، وفرسان القديس يوحنا في رودس، وجمهورية البندقية، وقدمت إنجلترا مساعدات عسكرية، وتقابل الجيشان العثماني والأوروبي في معركة ضارية عُرفت باسم (**معركة نيقوبوليس**) سنة798هـ–1396م، وهُزم فيها الأوروبيون وردوا على أعقابهم، وحاصر **بايزيد** القسطنطينية مرتين متواليتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة، فارتد عنها خائبًا. وأثناء استعداد **بايزيد** مواصلة فتوحاته في الغرب، إلا أن **المغول** بقيادة **تيمورلنك** انقضوا عليه من جهة الشرق ،

وفي سنة1402م، تقدّم **تيمورلنك** نحو سهل أنقرة لقتال **بايزيد**، فالتقى الجمعان عند "**جُبق آباد**" ودارت معركة طاحنة انهزم فيها **العثمانيون** وأُسر **السلطان بايزيد** وحمله المغول معهم عائدين إلى **سمرقند** عاصمة الدولة التيمورية، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة 1403م.

3. عهد الفترة:

بعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارت صغيرة، كما استقل كل من البلغار، والصرب، ولم يبق تابعًا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان: ومما زاد الخطر على الدولة عدم اتفاق **أولاد بايزيد** على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه، فنشبت بينهم حروب ضارية، ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب **محمد بن بايزيد**، المُلقب **بمحمد الأول** أو "**محمد جلبي**"، الذي استطاع أن يعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في **الأناضول**.

4. عودة التوسُع وفتح القُسطنطينيَّة:

بعد **محمد الأول** تولّى عرش السلطنة العثمانية **مراد الثاني**، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية، وحاصر **القسطنطينية**، ولكنه لم يُوفق إلى احتلالها، ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة **بلغراد** لكنه فشل في اقتحامها، فكان هذا الهجوم إنذارًا جديدًا لأوروبا بالخطر العثماني، فقامت قوات **مجرية** – وعلى رأسها **يوحنا هونياد**– بالالتحام مع العثمانيين في معركة **نيش** سنة 1442م وهزمتهم هزيمة قاسية كان من نتائجها بعث الروح الصليبية في أوروبا، وإعلان النضال الديني ضد العثمانيين.

ولمّا توفي السلطان **مراد الثاني** ارتقى عرش العثمانيين ابنه **محمد**، فكان عليه بادئ الأمر أن يُخضع ثورة نشبت ضده في إمارة قرمان بآسيا الصغرى، فاستغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر هذا الأمر، وطلب من السلطان مضاعفة الجزية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين لقاء أسرهم **الأمير أورخان** حفيد **سليمان بن بايزيد** المطالب بالعرش العثماني، فاستاء **السلطان محمد** من هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من تهديد بتحريض **أورخان** هذا على العصيان، فأمر بإلغاء الراتب المخصص له، وراح يتجهّز لحصار

القسطنطينية، والقضاء على هذه المدينة في أقرب فرصة ممكنة. وكان أوّل ما قام به في هذا السبيل تشييده عند أضيق نقطة من مضيق **البوسفور** قلعة "**روملي حصار**" القائمة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية، وعندئذ أرسل **الإمبراطور قسطنطين** بعثة من السفراء إلى السلطان محمد لتحتجّ لديه على ذلك، فلم يلقوا منه جوابًا شافيًا، بل أصرّ على البناء لما في القلعة من أهمية استراتيجية.

واستنجد **الإمبراطور قسطنطين** بالدول الأوروبية فلم تنجده إلا بعض المدن الإيطالية، أما **البابا** فقد أبدى استعداده لمساعدة الإمبراطور شرط أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية، ووافق **قسطنطين** على المشروع، ولكنّ تعصّب الشعب حال دون تحقيق ذلك.

وكان السلطان قد حشد لقتال البيزنطيين جيشًا عظيمًا مزودًا بالمدافع الكبيرة، وأسطولاً ضخمًا، وبذلك حاصرهم من ناحيتيّ البر والبحر معًا. والواقع أن البيزنطيين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، وبعد 53 يومًا تمكن العثمانيين من دخول المدينة بعد أن هُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف جدًا دارت رحاه في الشوارع، وذهب ضحيته الإمبراطور نفسه وكثير من جنوده.

وقد اتخذ **السلطان محمد** لقب "**الفاتح**" بعد فتح المدينة، وأضاف إليه لقب "**قيصر الروم**"، على الرغم من عدم اعتراف بطريركية القسطنطينية ولا أوروبا الغربية بهذا الأمر، ونقل مركز العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي غيّر اسمها إلى "إسلامبول"، أي مدينة الإسلام أو تخت الإسلام، وأعطى للمسيحين الآمان وحرية إقامة شعائرهم الدينية، ودعا من هاجر منهم خوفًا إلى العودة إلى بيوتهم.

وقد تابع **السلطان محمد** فتوحاته في أوروبا، فأخضع **بلاد الصرب** وقضى على استقلالها، وفتح **بلاد المورة** في جنوب **اليونان**، وإقليم **الأفلاق وبلاد البشناق وألبانيا**، وهزم **البندقية**، ووحد **الأناضول** عبر قضائه على إمبراطورية **طرابزون** الرومية، وإمارة قرمان، وقد حاول **السلطان محمد** أيضًا فتح **إيطاليا** لكن وافته المنية سنة 1481م، فانصرف العثمانيون عن هذه الجهة.

ثالثاً: دور التوسع والقوة (1453–1683م):

يُمكن تقسيم هذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة1566م، وحقبة شهدت بأغلبها ركودًا سياسيًا وعسكريًا، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد دامت حتى سنة1683م.

1. **انتقال الخلافة إلى العُثمانيين:**

وبعد موت **السلطان محمد الفاتح** تنازع ابناه "**جم**"، و"**بايزيد الثاني**" على العرش، ولكن الغلبة كانت من نصيب **بايزيد**، ففر "**جم**" إلى مصر حيث احتمى بسلطان **المماليك** "**قيتباي**"، ثم إلى **رودس** حيث حاول أن يتعاون مع **فرسان القديس يوحنا** والدول الغربية على أخيه، إلى أن قُتل ونقل جثمانه فيما بعد إلى **بورصة** ودُفن فيها.

وقد اتصف **السلطان بايزيد** بأنه سلطان مسالم لا يدخل الحروب إلا مدافعًا، فقاتل **جمهورية البندقية** بسبب الهجمات التي قام بها أسطولها على **بلاد المورة**، وحارب **المماليك** حين قرر السلطان "**قيتباي**" السيطرة على **إمارة ذي القدر ومدينة ألبستان** التابعتين للدولة العثمانية، وعدا ذلك فكان يفضل مجالسة العلماء، والأدباء، وفي عهده سقطت **غرناطة** آخر معاقل المسلمين في الأندلس؛ فبعث بعدّة سفن لتحمل الأندلسيين المسلمين واليهود إلى **القسطنطينية** وغيرها من مدن الدولة، وفي عهده أيضًا ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس، هي **(السلالة الصفوية)**، التي استطاعت بزعامة **الشاه إسماعيل بن حيدر**، أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق.

وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النزاع بين أولاده بسبب من ولاية العهد. ذلك أن بايزيد اختار ابنه **أحمد** لخلافته، فغضب ابنه الآخر **سليم**، وأعلن الثورة على والده، وكان لثورة سليم أسباب سياسية ومذهبية وتجارية وعرقية، ذلك أن **الصفويين** كانوا يعملون على نشر **المذهب الشيعي** في **الأناضول** على حساب **المذهب السني**، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الصغرى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية، وكان **الشاه إسماعيل** يدعم **الأمير أحمد** للوصول إلى سدة الحكم ولم يحرك الأخير ساكنًا لمنع التدخل الصفوي في الشؤون العثمانية.

ونتيجة لذلك ثار **سليم** على والده وشقيقه ثم استولى على **أدرنة**، فما كان من **بايزيد** إلا أن انبرى لقتال ابنه **سليم**، فهزمه وقرر نفيه، لكن الجنود **الإنكشارية** قاموا بالضغط على السلطان وأرغموه بالتنازل عن العرش لصالح ابنه **سليم**، وقد مات بايزيد سنة 1512م، واختلف المؤرخون على سبب الوفاة.

قام سليم بعد اعتلائه العرش، بتثبيت أقدامه في الحكم والتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة ليتفرغ لأخطر أزمة واجهتها الدولة منذ أعقاب معركة أنقرة، ألا وهي **القضية الصفوية**، فأقدم على قتل **إخوته وأولادهم** حتى لا يبقى له منازع في الحكم، ثم أبرم هدنة طويلة مع الدول الأوروبية المجاورة، وحوّل انتباهه إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين، والمماليك، وكان **السلطان سليم** يهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، والقضاء على المد الشيعي، وتوحيد الأمصار الإسلامية الأخرى حتى تكون يدًا واحدة في مواجهة أوروبا، وخاصة بعد سقوط الأندلس، وقيام **البرتغاليين** بالتحالف مع الصفويين وإنشائهم لمستعمرات في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي، كما ثار **الشيعة** المقيمون في آسيا الصغرى على الدولة العثمانية اعتمادًا على تأييد **الصفويين**، فأخضع سليم هذه الثورة وعمد إلى اضطهاد الشيعة، فذهب ضحية هذه السياسة أربعون ألفًا منهم، ثم انبرى لقتال الشاه، فالتقى الفريقان في **سهل جالديران** والتحما في معركة كبيرة سنة 1514م، وكان النصر فيها لصالح **السلطان سليم**، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته، أما سليم فتقدم إلى **تبريز** عاصمة خصمه **الصفوي**، فاستولى عليها ورجع عائدًا إلى بلاده.

وقد تقدم **العثمانيون**، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع **السلطنة المملوكية**، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشاميّة التركية تُعرف **بمعركة مرج دابق** سنة 1516م، وانتصر فيها العثمانيون وقُتل **سلطان المماليك "قنصوه الغوري"**، ثم تابعوا زحفهم نحو **مصر** والتحموا بالمماليك من جديد في معركة الريدانية سنة 1517م التي انتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين.

وفي أثناء ذلك قدّم **شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين** إلى **السلطان سليم** اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين، وتنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء

العباسيين، **محمد الثالث المتوكل على الله**، عن الخلافة لسلطان آل عثمان، فأصبح كل سلطان منذ ذلك التاريخ خليفة للمسلمين، ويحمل لقب "**أمير المؤمنين**" و"**خليفة رسول الله**". وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا **للإمبراطورية البرتغالية** على زعامة المنافذ المائية العربية.

2. العصر الذهبي للدولة العثمانية:

بعد وفاة **السلطان سليم** سنة1520م، تولى العرش من بعده ابنه **سليمان**، الذي يُعرف في الشرق باسم "**القانوني**"، ويُعرف في الغرب باسم "**العظيم**". والواقع أن الفتوح في الشرق شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعيًا أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله.

فقد فتح **سليمان** مدينة **بلغراد** بسهولة سنة1521م، ثم استولى على **جزيرة رودس** بعد هزيمة **فرسان القديس يوحنا** سنة1523م، ثمّ ضمّ إلى الأملاك العثمانية القسم الجنوبي والأوسط من **مملكة المجر**، بعد انتصاره على القوات المجرية في **معركة موهاج** سنة 1526م، مما ثبت أقدام العثمانيون في البلاد لفترة طويلة من الزمن، وعين السلطان "**جان زابوليا**" ملك **ترانسلفانيا** حاكمًا عليها.

كما أرسل **فرديناند** ملك **النمسا**، وفدًا إلى السلطان يلتمس منه الاعتراف به ملكًا على المجر، فسخر سليمان من الوفد وزجّ أعضاءه في السجن فترة من الزمن، ولمّا أفرج عنهم حمّلهم رسالة إلى الملك ليستعد لملاقاته.

وقاتل **سليمان فرديناد** بجيش عظيم، فلم يصمد في وجهه، فراح سليمان يتعقبه حتى **فينا** العاصمة، وقد ضرب **سليمان** الحصار على تلك المدينة، وقد أحدثت القوات العثمانية ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفدت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفل السلطان ورجع إلى بلاده، ثم عاود **سليمان** الكرّة سنة1532م، فحاصر **فينا** من جديد، ولكن التوفيق خانه في حملته الثانية هذه أيضًا، فعقد مع **فرديناند** صلحًا احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية. وكان مما رغّب سليمان في عقد الصلح اضطراره إلى الالتفات صوب الشرق بعد أن توترت العلاقات بينه وبين **طهماسب بن إسماعيل الصفوي** شاه **فارس**، حيث

انقض على **بلاد فارس**، وفتح مدينة **تبريز** عاصمة **الصفويين**، ثم استولى على بغداد ودخلها في أبّهة بالغة.

وقد حقق **العثمانيون** أيام **السلطان سليمان** عدّة فتوحات بحرية مهمة، وذلك بفضل البحّار يوناني الأصل، **خير الدين بربروسا**، الذي كان سبق وضم **الجزائر** للدولة العثمانية أيام **السلطان سليم**، وقد عيّن **السلطان سليمان خير الدين بربروسا** أميراً للبحر سنة 1533م، كما انتزع الأسطول العثماني **تونس** من أيدي **الإسبان** وإخضاعها للسلطة العثمانية.

كما حقق **خير الدين بربروسا** للدولة العثمانية نصرًا بحريًا كبيرًا، حيث تمكن من إنزال هزيمة قاسية **بأندريا دوريا** الذي كان يقود أساطيل **كارلوس الخامس** ملك **إسبانيا، والبابا بولس الثالث، والبندقية** مجتمعة سنة1538م، في **معركة بروزة**، الواقعة على خليج آرتا في الشمال الغربي من اليونان.

ومن الفتوح الهامة التي حققها الأسطول العثماني في عهد **السلطان سليمان**، فتح **طرابلس الغرب**، وتحريرها من **الإسبان**، **وفرسان القديس يوحنا** على يد القبطان "**طورغول بك**". وقد توفي **السلطان سليمان** سنة1566م.

3. حقبة الركود والانتعاشات (1566–1683م):

يُعتبر **عصر سليمان القانوني** عصر الدولة العثمانية الذهبي، وما أن انقضى هذا العصر حتى أصاب الدولة الضعف والتفسخ. فقد كان **سليم الثاني**، خليفة سليمان، سلطاناً ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها، بالإضافة إلى أنه كان حاكمًا منحلاً خاملاً، وكان ماجنًا سكّيرًا، وما يميّز عهد هذا السلطان هو أن وظيفة **الصدر الأعظم** أصبحت تجعل من يتقلدها **الحاكم الفعلي وقائد الجيوش**، فلولا وجود **الصدر الأعظم محمد باشا صقللي** المخضرم في الأعمال السياسية والحربية للحق الدولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الرجل وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة.

ومن أعمال **الصدر الأعظم محمد باشا صقللي** أن أرسل جيشًا كبيرًا إلى اليمن سنة1569م بقيادة **عثمان باشا** يسانده **سنان باشا** والي **مصر**، لقمع ثورة الأهالي، وتمكن

الجيش من إخماد الثورة، ودخل مدينة **صنعاء** بعد أن فتح جميع القلاع، كما تمكن من فتح جزيرة **قبرص** وانتزاعها من أيدي **البنادقة**، إضافة إلى شن الدولة العثمانية في سنة1569م حملة على مدينة **أسترخان**، الواقعة على مصب **نهر الفولغا** في **بحر قزوين**، بهدف استرداد الإمارة ووضع حد لامتداد **روسيا** من ناحية الجنوب، خشية أن يؤدي توسعها إلى استيلائها على الطرق التجارية والأسواق الكبرى وإلى هيمنتها على تجارة البلدان الإسلامية؛ لكن كان مصير هذه الحملة الفشل، بسبب امتناع **خاقان القرم**، "**دولت جراي الأول**"، عن التعاون مع الجيش العثماني وسعيه شخصيًا لأن يقوم بالاستيلاء على **أسترخان وقازان**، كما تعذر ضرب الحصار على المدينة لأن **الروس** بنوا قلعة قوية إلى الجنوب منها، على الطريق المؤدية إليها حالت دون تقدم الجيش العثماني.

كما وقعت في عهد السلطان سليم الثاني موقعة ليبانتو البحرية سنة 1571م، التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر؛ وذلك عندما ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح **جزيرة قبرص**، وبعض المواقع على **البحر الأدرياتيكي**، تحالف **فيليب الثاني** ملك **إسبانيا**، مع **البابا بيوس الخامس**، **وجمهورية البندقية**؛ لوقف التقدم العثماني باتجاه **إيطاليا** من جهة، واسترداد جميع المواقع التي فتحوها على حساب أوروبا وبخاصة في شمال أفريقيا، فجمعوا **مائتين وثلاثين سفينة وثلاثين ألف جندي**، وسلموا لواء **القيادة** إلى **الدون دون خوان النمساوي**، الذي أبحر إلى **خليج باتريس**، أحد فروع **البحر الأيوني**، وهناك اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ الحديث، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة، ولم تُقعد هذه الحادثة همّة **الصدر الأعظم محمد باشا صقللي**، بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكانية استمرار الحرب لتجهيز أسطولٍ جديد، وبذل النفس والنفيس في تجهيزه وتسليحه حتى إذا أقبل صيف سنة 1572م كان قد تمّ بناء 250 سفينة بما فيها 8 غلايين حديثة، وأعلم الصدر الأعظم البنادقة باستعداده للجولة الثانية؛ ففضلت **البندقية** أن تجنح للسلام ووقعت مع الدولة العثمانية معاهدة بذلك سنة1573م، فتفرغ العثمانيون لمحاربة **إسبانيا** التي عادت لاحتلال **تونس**، وكذلك هزموا أمير البغدان الذي تمرّد على الدولة طلبًا للاستقلال.

وقد توفي **السلطان سليم الثاني** سنة1574م، وتولّى بعده ابنه **مراد الثالث**، وفي عهده تدخلت الدولة العثمانية في انتخاب حليفها "**أتيين باتوري**"، أمير **ترانسلفانيا**، ملكًا على **بولندا** بعد شغور العرش، وبذا تحولت الحماية العثمانية على **بولندا** من حماية اسمية إلى حماية فعلية.

كما ساعد **العثمانيون سلطان مراكش أبو مروان عبدالملك السعدي**؛ لإخماد ثورة اندلعت في بلاده بقيادة **محمد المتوكل**، فاصطدموا مع الثوار **والبرتغاليين** بقيادة الملك **سيبستيان الأول** الذين ساندوهم في **موقعة القصر الكبير** (وادي المخازن) سنة1578م، وانتصروا عليهم وأعادوا السلطان **أبو مروان عبدالملك السعدي** إلى الحكم.

أما أهم ما حصل في عهد **السلطان مراد الثالث** هو التوسع العثماني في الشرق، على حساب **الدولة الصفوية**، فبعد وفاة الشاه طهماسب الأول من غير أن يسمي من سيخلفه، تنازع أبناؤه على السلطة، فأرسل **الصدر الأعظم محمد باشا صقللي** حملة عسكرية إلى بلاد فارس؛ لفتح ما تيسر من مدنها، فضموا إليهم من أملاكها **بلاد الكرج (جورجيا)**، ثم **أذربيجان الشمالية**، ثم بلاد **داغستان**.

وقد تعرضت الدولة العثمانية بعد هذه الغزوات لأحداث سياسية عنيفة، عندما تقلّص نفوذ **الصدر الأعظم محمد باشا صقللي**، ومقتله سنة1579م، فعمّت الفوضى بعد موته بفعل ضعف حلفائه وتمرّد الإنكشارية، وراح الولاة يتنافسون فيما بينهم على منصب الصدارة العظمى.

كما أبرم **العثمانيون** صلحًا مع **الصفويين** سنة1590م، اعترفوا فيه بما تم ضمه إلى الدولة العثمانية، إضافةً إلى جنوب أذربيجان بما فيها العاصمة تبريز، وبعد إبرام الصلح استتب الأمن على حدود الدولة، إن في الشرق أو في الغرب، فثار **الإنكشارية** في القسطنطينية، وفي الولايات نظرًا لهبوط قيمة أجورهم، الأمر الذي دفع **الصدر الأعظم سنان باشا**، أن يشغلهم بالحروب مع النمسا في المجر، ونظرًا لما وصل إليه **الإنكشارية** من فوضى توالت عليهم الهزائم، وفقدوا بعض القلاع، ورغم أن **سنان باشا** استطاع أن يستردها لاحقًا، إلا أن أمراء **الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا**، استغلوا الموقف وانتصروا على الجيوش العثمانية في بضعة معارك واستردوا منهم بعض المدن.

وقد توفي **السلطان مراد الثالث** سنة 1595م، وتولى من بعده ابنه **محمد الثالث،** الذي خرج عن القاعدة التي استفحلت منذ أيام جده سليم الثاني، وهي تولي الصدر الأعظم قيادة الجيش، فقاد الجيوش بنفسه وخرج لقتال **المجر والنمسا**، وانتصر عليهم في **موقعة كرزت** سنة1596م.

وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي حصلت في **الأناضول** ثورة داخلية عُرفت باسم **(ثورة فراري)** سنة 1601م، وأطلق عليها اسم **فراري** كنوع من الإهانة لها حتى تكون عبرة لغيرها، كادت أن تكون عاقبتها وخيمة على الدولة، خصوصًا وأن نار الحروب كانت مشتعلة على حدود المجر والنمسا، وخلاصتها أن قائد إحدى فرق **الإنكشارية (قره يازجي)** التي نفيت إلى الأناضول عقابًا لها لعدم ثباتها في **موقعة كرزت،** أعلن العصيان وثار على الدولة وقام بعدد من الفتن إلى جانب شقيقه **(ولي حسن)**، ثم مات بعد أن أصيب بجراح في إحدى المعارك، لكن **(ولي حسن)** استمر يعصي الدولة، وهزم جيشها إلى أن أعطته ولاية **البوسنة؛** ليحارب الأوروبيين حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين النمسا والمجر، وأعقبت تلك الثورة الكبيرة ثورة أخرى في **القسطنطينية** هي **ثورة الخيالة (السباهية)**، الذين طالبوا بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار جرّاء **ثورة فراري**، فاستعانت الدولة عليهم بجنود **الإنكشارية** التي تمكنت من إخمادهم وأدخلتهم في طاعتها مجددًا.

وقد تميزت المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر الميلادي بالفوضى والإضطرابات التي أثرت على الدولة العثمانية فيما بعد، فبعد وفاة **السلطان محمد الثالث** ظهر سلاطين أكثر ضعفًا وانغماسًا في الملذات، رغم بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان **عثمان الثاني، ومراد الرابع**، وبعض الوزراء الذين عملوا على صون هيبة وسلطان الدولة، ومن هؤلاء **مراد باشا القبوجي،** الذي كان عونًا وعضدًا للسلطان **أحمد الأول**، فقد تراجعت الدولة العثمانية حيث تنازلت عن تبريز وشمال العراق للدولة الصفوية، فكانت تلك أول معاهدة تركت فيها الدولة فتوحاتها، وكانت بمثابة فاتحة الانحطاط.

وبعد **السلطان أحمد الأول** تولّى أخوه **مصطفى** العرش لثلاثة أشهر فقط، قبل أن يُعيّن **عثمان الثاني** بدلاً منه، الذي حدثت في عهده سابقة كانت الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة آنذاك، إذ تخاذل **الإنكشارية في القتال**، فأراد أن يؤدبهم

ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه وأعادوا عمه **مصطفى** إلى الحكم، وما إن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة، فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل **مصطفى الأول** وتعيين ابن أخيه مراد الرابع.

وقد استطاع **مراد الرابع** أن يُطهّر الدولة من بعض الثورات مثل: **ثورة أباظة باشا** والي **أرضروم**، وثورة قام بها **الإنكشارية**، وحركة أمير لبنان فـ**خر الدين المعني الثاني** الاستقلالية، كما استرجع بغداد، وهمدان، وتبريز، ويريفان، وأذربيجان من الصفويين، وفي عهد خليفته **إبراهيم الأول**، انتعشت الدولة بعض الانتعاش، فدخل الأسطول العثماني جزيرة **كريت** من غير أن يلقى مقاومة تذكر.

وبعد هذا العهد عرف العثمانيون فترةً من الضعف والعجز لم ينتشلهم منها إلا المصلح الكبير "**محمد كوبريللي**" الذي تولّى منصب **الصدارة العظمي** سنة1656م في عهد **السلطان محمد الرابع**، فنهض بالدولة نهضة جديدة وطهرها من آفاتها الفتاكة، وهكذا اشتد ساعدها من جديد، وبعد **محمد كوبرولي** تولّى ابنه "**فاضل أحمد**" ذات المنصب وسار على نهج أبيه، فقامت القوات العثمانية سنة1663م بهجوم على **بلاد المجر** وهددت **فيينا** بالسقوط.

كما استولى العثمانيون على أوكرانيا سنة 1672م، وكانت تابعة لملك بولندا، كما حاصرت جيوش **السلطان محمد الرابع** مدينة **فيينا** للمرة الأخيرة، ولكنها صُدّت عنها.

رابعاً: دور الركود (1683–1827م):

عُزل **السلطان محمد الرابع** سنة 1687م؛ فعمّت الفوضى بعد عزله، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، فاحتلت **النمسا بلغراد** وأجزاء من **بلاد الصرب**، واحتلت **البندقية** أجزاء كثيرة من كرواتيا ودلماسيا، وأجزاء من **بلاد المورة**، ولم يُنقذ الدولة من تلك المشاكل إلا "**مصطفى كوبرولي باشا**"، الابن الآخر للمصلح الكبير **محمد كوبرولي**، فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود، وأحسن للنصارى بشكل كبير حتى استمال جميع مسيحيي الدولة، واستطاع استرجاع بلغراد، وإقليم ترانسلفانيا.

ورغم إن الدولة العثمانية لم تحقق أي فتوحات جديدة وراء الحدود التي رسمها **السلطان سليمان القانوني**، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما سُلب منها إجمالاً، ففي عهد **السلطان مصطفى الثاني**، انتصر العثمانيون على بولندا وأجبروا **قيصر الروس بطرس الأكبر** على فك الحصار عن مدينة **آزوف**، واستعادوا **البوسنة** وبعض الجزر في بحر إيجة، لكن الروس ما لبثوا أن عادوا لإحتلال **آزوف**، وانتصر **النمساويون** بقيادة أسرة **(الهايسبورغ)** مرة أخرى على العثمانيين في معركة زانطة جنوب مدينة زينتا الصربية سنة 1697م، وتحالفوا مع بضعة دول أوروبية ضد الدولة العثمانية وأجبروها على توقيع **معاهدة** "**كارلوفتش**" سنة 1699م، التي خسرت بموجبها أراضي شاسعة من أوروبا نهائياً، وهي: **مدينة آزوف** لصالح **روسيا**، وما بقي لها من بلاد المجر **للنمسا**، وأوكرانيا وبودوليا **لبولندا**، وساحل دلماسيا وبعض جزر بحر إيجة **للبندقية**.

1. الحروب مع روسيا:

لقد إزداد وضع الدولة العثمانية سوءًا، ففي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، وفي عهد **السلطان أحمد الثالث**، طلب **ملك السويد (شارل الثاني عشر)** دعم **العثمانيين** في حربه ضد **الروس**، لكن العثمانيون في بداية الأمر، فمالت كفة الميزان لصالح الروس الذين هزموا **السويد** وأرغموا ملكها على الفرار ملتجئاً إلى ببلاد الأتراك، وعندما قررت الدولة العثمانية خوض الحرب، سنحت لها الفرصة للقضاء على **القيصر بطرس الأكبر**، لكن الصدر الأعظم رفع الحصار عنه بعد تلقيه رشوة من خليلة القيصر **كاترين**؛ مما أجبر **العثمانيون** على توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة "**بيساروفتش**" سنة1784م، وذلك استنجدت **البندقية بالنمسا**؛ لتجبر النمسا العثمانيين على إعادة **جزيرة كريت** إلى **البندقية**، واضطرت الدولة العثمانية في معاهدة "**بيساروفتش**" أن تستغني أيضاً عن أراضٍ جديدة في أوروبا، وهي: بلغراد، ومعظم بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق **للنمسا**، وأن تظل **البندقية** مسيطرة على سواحل ديلماسيا، مقابل عودة **بلاد المورة** للعثمانيين.

لقد سجّلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب، وبدأت ترجمة بعض المؤلفات الغربية، وسُمح بإنشاء مكتب للطباعة في العاصمة، وجرت الاستعانة بمجريّ اعتنق الإسلام، لبناء المطبعة وتشغيلها، وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من

الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية، إذ كانت الحضارة الغربية تتسرب، بشكل أو بآخر، إلى الدولة ولكن ببطء، وظهر عدد من المثقفين العلمانيين، كما وفد إلى البلاد عدد من الخبراء الأجانب الذين وضعوا خبراتهم في خدمة الدولة.

كما قامت الحرب مرة أخرى بين **روسيا والدولة العثمانية** خلال عقدي الثلاثينيات والسبعينيات من القرن الثامن عشر الميلادي، عندما فقد العثمانيون عدة مناطق لصالح الإمبراطورية الروسية، منها : إقليمي **الأفلاق (رومانيا) والبغدان (مولدوفا)**، كما استطاعوا لاحقًا فصل **القرم** عن الدولة العثمانية، كما لجأت روسيا إلى أسلوب آخر لزعزعة كيان الدولة العثمانية، هو أسلوب **الفتنة الداخلية**، فقامت بإثارة **مسيحيي المورة** على العثمانيين، ودعمتهم بالأسطول الروسي، ولكنه مُني بالهزيمة، وأخمدت الثورة في المورة.

وقد تهادن الفريقان سنة 1772م مقابل بعض الامتيازات لصالح روسيا لعلّ أهمها هو حقها في حماية جميع **المسيحيين الأرثوذكس** في الدولة العثمانية، وفي غضون الحرب العثمانية الروسية، ظهرت حركتان استقلاليتان عن الدولة العثمانية هي: حركة **على بيك الكبير** في **مصر**، وحركة **الشيخ ظاهر العمر** في **فلسطين**، وقد تمكن العثمانيون من القضاء عليهما.

2. مُحاولات الإصلاح الأولى:

لقد بدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد **السلطان سليم الثالث**، وقد استهدفت إصلاحاته نواحي الحياة كافة، إدارية، وثقافية، واقتصادية، واجتماعية، وعسكرية، حيث تلقى تعليمًا خاصًا بالطرق الأوروبية، واطّلع على كتابات المؤلفين الأوروبيين، وعندما اعتلى العرش كانت ثروات البلاد قد وصلت إلى حالة متدنية، كما عادت الحروب بين الدولة العثمانية، وروسيا والنمسا مرة أخرى، كما واجهت **السلطان سليم الثالث** في بداية حياته السياسية، المشكلات التقليدية القديمة: تفوّق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان بطبعه ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ ببعض الأنماط الغربية، بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسات المدنية والعسكرية لدول أوروبا الغربية وأسباب تفوقها على العثمانيين. فجاء بفكرة **الجنود النظامية** ليتخلص من **الإنكشارية** الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائم، وأصلح الثغور وبنى القلاع الحصينة لحمايتها وجعل إنشاء السفن على الطريقة الفرنسية، واستعان

بالسويد في وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية في الرياضيات والفن العسكري، كما وضع نظامًا هرميًا للقيادة العسكرية، وأخضع التجنيد لقواعد أكثر صرامة، ووضع نظامًا للجنود المشاة تضمن تعليمات لمساعدة الجنود على التصرف كوحدة.

ووجدت إصلاحات السلطان سليم الثالث العسكرية معارضة من الإنكشارية، فثاروا ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة على إلغاء **النظام العسكري الجديد**، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا السلطان وقاموا بقتله لاحقًا بناءً على أمر خليفته، ويُعتبر سليم الثالث السلطان العثماني الوحيد الذي قُتل بسلاح أبيض.

3. الحركات الاستقلالية في البلقان والفتن في المشرق:

وكان من أبرز الأحداث التي حصلت في عهد **السلطان سليم الثالث** قيام **الحملة الفرنسية على مصر** سنة 1798م بقيادة **نابليون بونابرت**، مما أدى إلى انهيار الصداقة العثمانية الفرنسية التي قامت منذ عهد السلطان سليمان القانوني، كما تحالفت روسيا وبريطانيا مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر.

كما تكونت في عهده أيضًا جمهورية مستقلة في **اليونان** تحت حماية الدولة العثمانية، وبعد **سليم الثالث** تولّى **مصطفى الرابع** العرش، ولم يدم ملكه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه ويقوموا بعزله وتنصيب أخاه **محمود** بدلاً منه سنة 1808م.

وقد امتلأ عهد **السلطان محمود الثاني** بأحداث مهمة، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فنتيجة للضعف الشديد الذي دب في أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان: **الاتجاه الأول** الذي أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام، والذي ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة في الأرض إلا بالتمسك به، وتمثل هذا الاتجاه **بالحركة الوهابية** التي قامت في **الجزيرة العربية**، واجتذبت إليها الكثير من أهلها، ودعت إلى تطهير الإسلام من كامل الشوائب التي تعلقت به عبر القرون، ولما رأى **السلطان محمود** أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام، كلّف **محمد على باشا، والي مصر**؛ بمحاربتها والقضاء عليها، ففعل ما طُلب منه وأباد الحركة الوهابية، ثمّ شرع في إصلاح مصر وتنظيمها وفق النظام الأوروبي، **والاتجاه الثاني** الذي يقوم على

ضرورة تقليد أوروبا تقليدًا أعمى، لكي يصل العثمانيون إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار.

وفي بداية **عهد محمود الثاني** استقلّت عدّة دول أوروبية عن الدولة العثمانية، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية عندما ثار الصربيون وطالبوا باستقلالهم، فقمعتهم الدولة العثمانية مرتين، وتعهدت ألا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية، وتكون السيطرة للعثمانيين في الصرب على القلاع فقط، كما قام "**علي باشا**" والي مدينة **يانية الألبانية** بعصيان الدولة العثمانية، وامتنع عن دفع الخراج واحترام الأوامر التي تُرسل إليه من الآستانة، فأرسل إليه السلطان جيشًا تمكن قائده من القبض عليه وإعدامه، كما ثار اليونانيون طلباً للاستقلال، وهزموا فرقة عسكرية عثمانية أرسلت لقمعهم، فلم يجد السلطان لإخماد الثورة في اليونان غير **محمد على باشا والي مصر**، فاستجاب الأخير لطلبه وأرسل سفنًا حربية محملة بالجنود إلى اليونان، واستطاعت أن تحقق انتصارات كاسحة على الثوّار، ولكن تمكن الثائرون أن يستقلوا ببلدهم عن الدولة العثمانية بعد المساعدات التي تلقوها من الدول الأوروبية. وكذلك تحطم الأسطول العثماني في **معركة نافارين** عام 1827م، على يد السفن البريطانية والروسية.

خامساً: دور الأفول والتنظيمات (1828–1908م):

تتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعًا وفقدانها لمعظم ممتلكاتها الباقية في أوروبا، وقيام **السلطان محمود الثاني** بعدد من الإصلاحات الكبيرة الهادفة لجعل الدولة تواكب أوروبا الغربية في التطور والازدهار، وأوّل ما قام به إلغائه الإنكشارية بعد أن أصبحت إحدى عوامل الفوضى والفتنة، وقد اعترضوا على ذلك، وحاولوا التمرد وتجمعوا في أحد ميادين الآستانة، فحصدتهم المدفعية العثمانية حصدًا.

كما أعلن السلطان بعد قضائه على الإنكشارية نظامًا جديدًا للجند قلّد فيه الأوروبيين، كذلك قام بعدد من الإصلاحات المدنية مثل إقامة المدارس الحديثة ورفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم، وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى إنه تزيا بزيهم، واستبدل **العمامة بالطربوش**، والعباءة والجلباب بالبذلة الغربية.

1. المسألة الشرقيّة:

وقد أعلنت **روسيا** الحرب على العثمانيين بعد أن رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات **مؤتمر لندن** سنة 1827م الذي نص على **استقلال اليونان**، وتمكنت من احتلال **البغدان والأفلاق**، بل وصلت إلى مدينة **أدرنة**، وهددت **الآستانة** بالسقوط، فتدخلت **بريطانيا، وفرنسا**؛ لوقف تقدم روسيا خوفًا على مصالحها في الشرق، فعُقدت بين الروس والعثمانيين **معاهدة أدرنة** سنة1829م التي نصت على عودة المناطق التي احتلها الروس إلى الدولة العثمانية مقابل تمتع روسيا ببعض الامتيازات وتعويضها عن الخسائر التي تكبدتها في الحرب، واستقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها.

وفي أواسط سنة 1830م، ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية **وفرنسا** مجددًا، بعد أن نفذت الأخيرة ما كانت تنويه من مدّة، ألا وهو الاستيلاء على **الجزائر** بدعوى منع تعدي الأسطول الإسلامي على مراكبها التجارية، وبذلك فقدت الدولة العثمانية **الجزائر** إلى الأبد.

وقد استمرت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية بعد سقوط الجزائر، وذلك أن والي مصر **محمد علي باشا** طمع في توسيع رقعة نفوذه بعد أن غدا أقوى ولاة السلطان العثماني في المشرق العربي، وكان **السلطان محمود الثاني** قد وعد محمد علي بأن يوليه على **بلاد الشام** لقاء خدماته الجليلة التي قدمها للدولة، لكنه عاد وأخلف وعده، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها. فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة، فوجه جيشه إلى فلسطين بقيادة ابنه **إبراهيم باشا** وأخضعها سنة1831م، وسرعان ما ضم **بلاد الشام**، وامتد زحف الجيش المصري إلى **الأناضول**، حيث هزم الجيش العثماني في **معركة نصيبين** بالقرب من قونية سنة1839م، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من **الآستانة**، حتى استنجد **السلطان محمود الثاني** بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم، فلم ينجده إلا **روسيا**، التي أرسلت 15 ألف جندي إلى **الآستانة** للدفاع عنها، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي، حيث أقر له السلطان بولاية مصر وجزيرة كريت وفلسطين وبلاد الشام، وأضنة، لقاء نفس الأموال التي كان يؤديها عن الشام الولاة العثمانيون من قبل، فيما يُعرف **بصلح كوتاهية** سنة **1833م**.

وقد خلف **السلطان عبد المجيد الأول** أباه **السلطان محمود الثاني**، وكانت الدولة العثمانية على شفير الانهيار، إذ أصبحت بلا جيش، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشتيت القوى المسلحة، وبلا أسطول، بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية؛ فسارع **السلطان عبد المجيد** إلى إجراء مفاوضات مع **محمد علي**، فاشترط الأخير، لعقد الصلح، أن يكون الحكم في الشام ومصر حقًا وراثيًا في أسرته، وكاد السلطان أن يقبل شروط محمد حتى وصلته مذكرة مشتركة من الدول الأوروبية الكبرى، تطلب منه بألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك، ثم اجتمعت الدول الكبرى وعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون، وعرضوها على **محمد على**، وهي تنص على بقاء ولاية **مصر** وراثية في عائلته، وولاية **عكا** مدى حياته، ولكنه رفض وطرد المندوبين الأوروبيين والمندوب العثماني من مصر، ولكن بضغط من الدول الأوروبية أجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وأصبحت سيادة الدولة على مصر سيادةً اسميّة بموجب **معاهدة لندن** عام1840م.

وقد توصلت الدول الأوروبية الكبرى، بعد انتهاء الأزمة العثمانية – المصرية، إلى عقد اتفاقية جماعية مع الدولة العثمانية، أُطلق عليها تسمية "**معاهدة المضائق**" أو "**اتفاقية لندن للمضائق**" سنة1841م، وقد أرست هذه الاتفاقية نظامًا للمضائق العثمانية ظل مطبقًا بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة1914م.

وحدث في عهد **السلطان عبد المجيد** عدد من الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفًا على ضعف، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم "**الرجل المريض**"، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها مستقبلاً.

وقد اتخذت **المسألة الشرقية** في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، شكلها الحديث، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، وقد فقد العثمانيين تفوقهم العسكري أمام الدول الأوروبية، وقد تحكمت بها ثلاثة عوامل هي: ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة في البلقان، والفتن الداخلية المستمرة في بعض الولايات، وقد سمحت جميع تلك العوامل للدول الأوروبية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة وتسيرها حسب مصالحها.

ومن أبرز الأحداث التي استغلتها أوروبا للتدخل في الشؤون العثمانية كانت الفتن الطائفية التي وقعت في بلاد الشام خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، وبلغت ذروتها في **جبل لبنان**، فتدخلت **فرنسا** لحماية **الموارنة الكاثوليك**، أما **بريطانيا** فتدخلت لدعم **الدروز**، بينما **روسيا** تدخلت لدعم **الأرثوذكس**، فوقعت في البلاد مذابح عظيمة تخللتها سنوات قليلة من السلام.

وتُعد **حرب القرم** سنة 1854م بين **روسيا والدولة العثمانية**، من أهم مراحل المسألة الشرقية، فقد دفعت تلك الحرب بالعلاقات الدولية نحو التأزم، وغيّرت التحالفات السياسية، فوقفت **بريطانيا وفرنسا** إلى جانب **الدولة العثمانية** للدفاع عن سلامة أراضيها ضد الروس، وتتخلص هذه الحرب في أن **القيصر الروسي نيقولا الأول** اعتقد أن بإمكانه أن يطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري، وأبدى نيته في اقتسام أملاك الدولة العثمانية، فعرض على **بريطانيا** تقسيم الدولة العثمانية بينهما، فرفضت، فحاول إغراء **فرنسا** بنفس الإغراء، فرفضت أيضًا، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان، كما لم تعد الدولة العثمانية للإمبراطورية الروسية حق حماية المسيحيين الأرثوذكس الذي فقدته وفق نص معاهدة المضائق، فلم يعرها السلطان أي اهتمام بعد أن وعدته بريطانيا وفرنسا بالدفاع عن الدولة ضد أي هجوم محتمل، فأقدمت روسيا على تنفيذ تهديدها، فتحالف العثمانيون مع **بريطانيا وفرنسا والنمسا ومملكة البيمونت بإيطاليا والسويد**، وقصفت أساطيلهم **ميناء سيفاستوبول** في شبه **جزيرة القرم**، وضربت الكثير من قلاعه بالإضافة للإغارة على الكثير من موانئ روسيا على البحر الأسود، وتوغلت القوات المتحالفة في أراضي روسيا حتى طلبت الصلح، فعُقدت معاهدة سلام في باريس سنة 1856م أنهت الحرب وأنقذت الدولة العثمانية من الخطر الروسي الذي كان يتهددها.

وفي أواخر عهد السلطان عبد المجيد الأول نشبت فتنة طائفية كبرى في الشام وتحديدًا في دمشق وسهل البقاع وجبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين عمومًا، والدروز والموارنة خصوصًا، فوقعت مذابح مؤلمة وبلغ عدد القتلى اثني عشر ألفًا، وكان ممثلو بريطانيا وفرنسا يشجعون الفريقين على الانتقام ويساعدونهم على الثأر، فخشي السلطان أن تؤدي هذه الفتنة إلى تدخل الدول الأجنبية العسكري، فأوعز إلى المسؤولين العثمانيين في بيروت ودمشق

بوجوب إخمادها حالاً، وأوفد في الوقت ذاته **وزير الخارجية فؤاد باشا** الذي عُرف بالدهاء والحزم، وخوله سلطات مطلقة لمعالجة الموقف، فقام بمهمته خير قيام وأعدم معظم الذين تسببوا بالمذابح وسجن الباقين ونفى بعضهم وأعاد بعض المسلوبات إلى أصحابها من المنكوبين المسيحيين، وجمع تبرعات كثيرة أنفقها على ترميم القرى.

قد ضغطت الدول الأوروبية على السلطان وحملته على القبول بتشكيل لجنة دولية يوكل إليها أمر إعادة الهدوء إلى جبل لبنان ودمشق، وتصفية ذيول الفتنة، وانفصلت لبنان عن سوريا الكبرى فيما يعرف باسم **سنجق لبنان**.

وقد توفي **السلطان عبد المجيد** سنة1861م، بعد أن قام ببعض الإصلاحات الكبيرة في الدولة، أبرزها فرمانه الشهير الصادر سنة 1856م، الذي ساوى فيه بين جميع رعايا الدولة مهما اختلفت عقيدتهم الدينية، فتحسن وضع المسيحيين بشكل أكبر، وازدادت نسبة المتعلمين منهم، الأمر الذي ساهم في إنعاش اقتصاد الدولة لاحقًا.

ثم بويع **السلطان عبد العزيز الأول** بالخلافة وبدأ عهده بافتتاح قناة السويس سنة1869م، وقيام ثورة في جزيرة كريت جرى إخمادها، وكان هذا السلطان كثير التجوال في البلاد الخارجية، وحاول تقريب روسيا إليه حتى تخافه دول أوروبا، لكنه عُزل بناءً على فتوى شرعية بسبب تبذيره أموال الدولة، وعُثر عليه ميتًا في غرفته فقيل أنه انتحر وقيل أنه قُتل، وتولّى بعده ابن شقيقه **عبد المجيد الأول (مراد الخامس)**، ولم يستمر عهده أكثر من 3 أشهر، وعُزل بسبب اختلال عقله.

2. العهد الحميدي:

وبعد **مراد الخامس** بويع **عبد الحميد الثاني** بالخلافة وعرش السلطنة، وفي ذلك الحين كانت البلاد تمر في أزمات حادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشهد ثورات عاتية في البلقان تقوم بها عناصر قومية تتوثبّ لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسية بهدف اقتسام تركة الدولة العثمانية.

ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش، واجه **السلطان عبد الحميد** موقفًا دقيقًا وعصيبًا، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية

معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السلطان نفسه مشبع بالثورة والاضطراب، فقد تجددت الثورة في الأقاليم المختلفة، مثل: البوسنة والهرسك، وبلغاريا، والصرب، ولتلك الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السلام. فشجعت **روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود** على حرب العثمانيين، حيث رغبت **النمسا** بضم **البوسنة والهرسك**، وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب.

كما قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين، فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سببًا كافيًا للحرب، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا، ووصلت أدرنة، وأصبحت على بعد 50 كيلومترًا فقط من الآستانة، فاضطرت الدولة العثمانية إلى طلب الصلح، وأبرمت **معاهدة سان ستيفانو** سنة 1878م مع روسيا، التي اعترفت فيها باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في **مؤتمر برلين** 1878م وتمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية، وقد كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية ذلك الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في ذلك، حيث احتلت **بريطانيا قبرص** سنة 1878م، ثم لحقتها **تونس** وانضمت إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهده عندما احتلتها **فرنسا** سنة 1881م، كما احتلت **بريطانيا مصر** سنة1882م **والسودان** سنة1899م، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء.

3. الأزمة الأرمنية والحركة الصهيونية:

لعلّ أهم الأحداث التي جرت في عهد عبد الحميد هي الأزمة الأرمنية وقيام الحركة الصهيونية، وقد ساهم هذين الحدثين في تشويه صورة الدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد الثاني.

وقد بدأت **الأزمة الأرمنية** عندما طالب الأرمن في مؤتمر برلين عام 1878م باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يقم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التبشيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، كما اعتقدت الدوائر الحاكمة في الآستانة أن بعض **الأرمن** يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها، وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي 4000 أرمني عن طاعة السلطان في بدليس بعد تأخر الإصلاحات الموعودة، فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشًا مؤلفًا بمعظمه من الأكراد إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيرًا من الثوّار ومن ساندهم، فيما أصبح يُعرف باسم "**المجازر الحميدية**" بين سنتي 1894–1896م، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام كالسريان كما في مجازر ديار بكر.

أما **الحركة الصهيونية**، فنشأت بقيادة **هرتزل**، ودعت إلى إنشاء وطن قومي ليهود العالم في **فلسطين** الخاضعة للدولة العثمانية وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، فأصدر السلطان عبد الحميد فرماناً يمنع هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة.

سادساً: دور الانحلال وخاتمة الدولة (1908–1922م):

لقد تغلغلت الأفكار القومية بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية أواخر عهد **السلطان عبد الحميد الثاني**، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم، وكان من أهمها **جمعية تركيا الفتاة**، التي تأسست في **باريس** وكان لها فروع أخرى في أنحاء الدولة العثمانية، وقد استطاعت أن تضع لها قدمًا في الجيش العثماني، وكان لها **جناح عسكري** عرف **بتنظيم الاتحاد العثماني**، وكان لها **جناح مدني** هو **الانتظام والترقي**، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم "**الاتحاد والترقي**"، وامتد نفوذ الاتحاد والترقي في الدولة، فضم إليه الكثير من **ضباط الفيلق الأول** المسيطر على **الآستانة**، وكذلك الفيلقين الثاني والثالث المرابطين في الولايات العثمانية الباقية في أوروبا.

وقد حاول **السلطان عبد الحميد** مقاومة تلك الجمعيات، فنادى وتمسّك بفكرة الجامعة الإسلامية، لكنه فشل أمامهم، خصوصًا بعد أن سيطروا على أكثر الجيش، وقد فرض

الاتحاديون على السلطان إعلان دستور جديد للبلاد يخلف الدستور الأول أو "**القانون الأساسي**" الذي أعلنه سنة1876م، فذعن لمطلبهم وأعلن الدستور، فسيطر **الاتحاديون** على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن السلطان سيكون عائقًا في تحقيق أهدافهم، فعزلوه سنة 1909م، وولوا أخاه **السلطان محمد الخامس** مكانه.

وقد تولّى **السلطان محمد** "**رشاد**" **الخامس** سنة1909م العرش والدولة في احتضار، ولكنها كانت ما تزال متماسكة، وأصبح **الاتحاديون** هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرّد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت الدولة قد أضاعت كثيرًا من بلادها في أوروبا، كذلك انتشر الأفكار القومية يومًا بعد يوم، والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوروبيون قد تسلطوا على مالية الدولة لاستيفاء ما لهم عليها من ديون.

وفي نفس السنة لاعتلاء محمد رشاد العرش، سيطرت **الإمبراطورية النمساوية المجرية** على **البوسنة والهرسك**، كما احتلت **إيطاليا ليبيا** سنة **1912م**، وهي آخر الممتلكات العثمانية الفعلية في شمال أفريقيا، فقاومها العثمانيون بكل طاقتهم، لكنهم لم يستطيعوا شيءًا، فسقطت البلاد بعد سنة من المعارك الشديدة.

كما انتهت حرب البلقان الأولى التي خاضتها الدولة العثمانية بين عامي 1912-1913م، وانتهت باستقلال كل من: مملكة صربيا، ومملكة الجبل الأسود، ومملكة اليونان، ومملكة بلغاريا، وبذلك فقدت الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا **تراقيا الشرقية** ومدينة **أدرنة**، كما انسحب حوالي 400,000 مسلم من سكّان تلك البلاد إلى تركيا خوفًا من انتقام أهل البلقان منهم، واضطهادهم.

كما ظهرت النزعة **التركية الطورانية (القومية التركية)** بقوة وعنف، حيث سعى **حزب الاتحاد والترقي** إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية، مثل: العرب والشركس والأكراد والأرمن.

كما عقد القوميين العرب مؤتمراً في باريس سنة 1913م، رداً على قرارات القومية التركية، واتخذوا مقررات أكدوا فيها على رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة، وطالب هؤلاء أن

تُحكم الأراضي العربية حكمًا ذاتيًا وفق نظام اللامركزية، وقد وعد الاتحاديون الزعماء العرب الأحرار بقبول مطالبهم، لكن ذلك لم يتحقق بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914م.

- **الحرب العالمية الأولى** (1914– 1918م):

لقد انطلقت شرارة الحرب العالمية الأولى في 28 حزيران (يونيو) سنة1914م، عندما كان **الأرشيدوق فرانز فرديناند**، وليّ عهد العرش النمساوي المجري يقود سيارته في مدينة **سراييفو** في **البوسنة** الخاضعة **للنمسا**، فاغتاله أحد القوميين الصرب، فاعتبرت **الإمبراطورية النمساوية المجرية صربيا** مسؤولة عن هذا الاغتيال، فتدخلت **روسيا** لدعم **صربيا** مدعومة من **فرنسا**، فتحركت **ألمانيا** ضدهما، وما لبثت أن دخلت **بريطانيا** الحرب بعد ذلك بفترة قليلة، ومن ثم تشكلت الأحلاف، فدخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب **معسكر دول المحور**، أي **ألمانيا والنمسا وبلغاريا**، بعد أن فقد **العثمانيون** الأمل في محاولات التقارب مع **بريطانيا وفرنسا**، وفشلوا في الحصول على قروض عاجلة منهما لدعم الخزينة، وعُزلت الدولة سياسيًا بعد **حروب البلقان وإيطاليا**؛ فلم يكن لهم سوى خيار التقارب مع **ألمانيا** التي رأت مصلحتها في "**الانتشار نحو الشرق**، وقد دخلت **الدولة العثمانية** الحرب بشكل فعليّ في 10 آب (أغسطس) سنة 1914م، وقد أعلنت الدولة العثمانية إلغاء الامتيازات الأجنبية، وإغلاق المضائق بوجه الملاحة التجارية، كما ألغت مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية، فأعلنت روسيا وبريطانيا وفرنسا الحرب على الدولة العثمانية، واقتدت بها كل من بريطانيا وفرنسا، فردّ **السلطان محمد الخامس** بإعلان الحرب، ودعا المسلمين إلى **الجهاد**، إلا أن ذلك لم يتحقق، فأغلب مسلمي العالم كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، وكانت السلطات الاستعمارية قد جندت بعضًا منهم أيضًا في جيوشها.

وقد خاضت الجيوش العثمانية الحرب على جبهات متعددة من دون استعداد كامل، فعلى الجبهة الروسية مُنيت الحملة العثمانية بهزيمة فادحة، بسبب الصقيع، كما استول البريطانيون على العراق، كما قام أسطول **الحلفاء** بمهاجمة مضيق الدردنيل في خطوة للاستيلاء على الآستانة وإخراج الدولة العثمانية من الحرب، وإمداد الجبهة الروسية، وأثناء المعارك، التي اندلعت على الجبهة الشرقية وهجوم الحلفاء، أثيرت **قضية الأرمن** مرة أخرى، إذ قام الاتحاديون بنقل سكان المناطق الأرمنية في ولايات الشرق إلى بلاد الشام، بهدف تأمين

حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا، إضافة إلى أن بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي وقتلوا عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحلون لعمليات تعذيب وقتل فيما أصبح يُعرف باسم "**مذابح الأرمن**".

كما جرت اتصالات سريّة بين البريطانيين **وشريف مكة حسين بن علي**، وبعض الزعماء العرب، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد من هؤلاء بمنح العرب الاستقلال وإعادة الخلافة إليهم إليهم. وتنفيذًا لهذا الاتفاق أعلن شريف مكة حسين في حزيران (يونيو) سنة 1916م **الثورة العربية الكبرى** على الأتراك، فأخرجهم من الحجاز وأرسل قوّاته شمالاً بقيادة ولديه **فيصل وعبدالله** لتشارك القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام.

أدرك **الباب العالي (الدولة العثمانية)** خطورة الموقف، لأن الحرب أضحت قريبة من الأراضي التركية، ويمكن للعدو أن يتغلغل بحريّة، ويزحف حتى أبواب **الآستانة**، فأبرم العثمانيون **معاهدة مودروس** سنة 1918م مع الحلفاء، خرجوا بموجبها من الحرب.

- **حرب الاستقلال التركية** (1919–1922م):

بعد وفاة **السلطان محمد الخامس** قبل أشهر من انتهاء الحرب، وخلفه أخاه **محمد وحيد الدين السادس**. وبعد مرور شهر على توقيع **هدنة مودروس**، دخلت استولت قوات الحلفاء على **القرن الذهبي**، وأنزلت قواتها في **الآستانة** التي حوّلتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها.

وقد سيطر الحلفاء على موانئ **البحر الأسود** كلها، واقتسموا الأراضي التركية، وكان ردّ الفعل الداخلي لاتفاق الهدنة سلبيًا، فقد رفض الأتراك الخضوع للاحتلال والقبول بمشاريعه، فقامت ثورة وطنية في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة القائد **مصطفى كمال أتاتورك**، والتي عُرفت باسمه "**الحركة الكماليّة**"، لتواجه خضوع الحكومة لرغبات الحلفاء وتعاون **السلطان محمد السادس** مع المحتلين.

وقد عقدت **الحركة الكمالية** مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكّلت حكومة برئاسة **مصطفى كمال** بهدف إقامة دولة تركية مستقلة، وألغت جميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون، وحاول السلطان القضاء عليها لكنه فلم يُفلح.

وقد فرضت **معاهدة سيفر** سنة 1920م على السلطان، التي مزّقت أوصال الدولة، وقد وقّع عليها مرغمًا، في حين رفضتها **الحكومة الكمالية**، ووضعت مخططًا لإنقاذ تركيا بمعزل عن السلطان.

وقد تمكّن **مصطفى كمال** بعد جهود مضنية واصطدامات شديدة مع اليونانيين، من الانتصار، فاستعاد كمال الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا، وقد أضحى مصطفى كمال بطلاً قوميًا، وبرز في الواجهة السياسية في حين ظل السلطان في الظل، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة، سنة1922م.

وقد اعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل **السلطان محمد السادس،** وليّ العهد **عبد المجيد الثاني،** وكان مصطفى كمال أتاتورك مسيطراً على الوضع في البلاد، فوقع **معاهدة لوزان** سنة 1923م مع الحلفاء التي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية، ثم جرّد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرّد خليفة، أي أشبه بشيخ الإسلام، ولكن من غير سلطة روحيّة أيضًا. ثم ألغى الخلافة سنة 1924م، وطرد عبد المجيد من البلاد، وبذلك سقطت الدولة العثمانية فعليًا بعد أن استمرت لما يقرب من 600 سنة، وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة.

سابعاً: الاقتصاد:

لقد اعتنى العثمانيون بالعواصم المختلفة لدولتهم عناية خاصة، فجعلوا من مدن بورصة وأدرنة والقسطنطينية مراكز صناعية وتجارية مهمة في المشرق وأوروبا، واستقطبوا إليها الصنّاع والحرفيين والتجّار المهرة من مختلف أنحاء الأراضي الخاضعة لهم.

ومن أبرز السلاطين الذين عملوا على تنمية الدولة العثمانية من الناحية الاقتصادية: **محمد الفاتح، وبايزيد الثاني، وسليم الأول**، فخلال عهد هؤلاء السلاطين فُتحت مناطق كثيرة في أوروبا الشرقية والعالم الإسلامي.

كما نظّم العثمانيون ماليّة دولتهم وخزينتها بشكل أفضل وأكثر فعاليّة من أي دولة إسلامية سابقة، واستمر نظامهم المالي أفضل نظم عصره وفاق جميع النظم المالية للدول الأخرى حتى القرن السابع عشر الميلادي.

ويُعزى ازدهار الخزينة العثمانية خلال العصر الذهبي للدولة إلى إنشائهم لوزارة خاصة تختص بالأمور المالية للدولة من إنفاق واستدانة وإدانة، عُرفت لاحقًا باسم "**وزارة المالية**"، وكان يرأسها شخص مختص هو "**الدفتردار**" الذي أصبح يُعرف لاحقًا باسم "**وزير المالية**"، وكان لحسن تدبير بعض وزراء المالية أثر كبير في نجاح فتوحات السلاطين وحملاتهم العسكرية، إذ استطاعوا بفضل هؤلاء وسلامة سياستهم المالية التي رسموها للدولة، أن يصرفوا على الجيش ويزودوه بكامل المعدات اللازمة وأحدث أسلحة العصر.

أ. العملة:

كانت **العملة العثمانية** في بداية عهد الدولة تُعرف باسم "**الغروش**" أو "**القروش**"، وكانت تُسك من معدن البرونز النحاس، وفي أواخر عهد الدولة أصبحت "**الليرة**" مرادفًا لاسم العملة العثمانية، وكان يُضاف إليها اسم السلطان الذي صدرت في عهده، فكان يُقال "**ليرة مجيدية**" و"**ليرة رشادية**" على سبيل المثال.

وكانت الليرات العثمانية نقودًا ذهبية في بادئ الأمر، ثم أصدرت الدولة في عهد الحرب العالمية الأزولى **أوراقًا نقدية** لأول مرة في تاريخ البلاد، بسبب المبالغ الطائلة التي أنفقتها على الحرب

ب. التجارة:

بنى العثمانيون الكثير من المراكز التجارية والأسواق الكبيرة والخانات على الطرق الرئيسية للتجارة لينزل فيها التجّار المسافرون والقوافل. وكان هناك مراكز تُجمع فيها البضائع التجارية وتقوّم قيمها وتُثبت أسعارها، أي كانت تعمل عمل **البورصة** حالياًا، وكان يُطلق على

هذه المراكز التجارية اسم "**بَدَسْتان**"، وتأسست تلك المراكز أولاً في مدينة **بورصه** وفي **أدرنه** ثم انتشرت منهما إلى سائر أرجاء الدولة العثمانية، وكانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى في هذه المراكز التجارية.

وكانت التجارة الدولية في القرن الرابع عشر الميلادي بيد البرتغاليين والبنادقة، وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ، حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن. وكانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يساعد على ازدهاره، وتخلفها يعني تخلفه. لذا قامت بإحياء **طريق الحرير التاريخي**، وأمّنت بذلك تحول التجارة إلى الطريق البري مرة أخرى، وبنت الخانات ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة، وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضاً. واستطاعت الدولة – بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم – السيطرة على التجارة الدولية حتى القرن السابع عشر الميلادي.

كان التجّار في العهد العثماني على نوعين: **التجار المتجولون، والتجار المقيمون** في المدن. فكانت مباني **البدستان** محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزًا لتعيين أسعار البضائع، كما كانت دائرة لاستيفاء الضرائب. أما **الموظفون الرسميون** الذين يعيّنون الأسعار ويستوفون الضرائب يقيمون فيها، وكان أصحاب الحرف المختلفة يعملون في البدستان كعائلة واحدة، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل "**نقابة الأخوة**". ولم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة **المتعلم الناشئ** أو **العامل المبتدئ** إلى **المتدرب** إلى **المعلم** أو "**الأسطة**".

ت. الزراعة والصناعة:

كانت الدولة العثمانية تسيطر على أراض زراعية خصبة جدًا موزعة في جميع أنحائها، وكان الإنتاج الزراعي متنوعًا، فالقمح والحبوب الأخرى كان يُعتمد في إنتاجها على سهول الشام ومصر والأناضول، وزيت الزيتون كان يُنتج في الشام والأناضول والبلقان، أما اليونان وبلاد الشام وبعض أنحاء شمالي أفريقيا بالفاكهة والأثمار المختلفة.

ولم تكن الثروة الحيوانية أقل أهمية من الإنتاج الزراعي، فقد انتشرت في الكثير من أنحاء الدولة الصناعات الغذائية والمستخرجة من مصادر حيوانية ونباتية، وأبرزها صناعة الحرير والصوف والصابون.

وفي عصر الدولة الذهبي نشطت الصناعة العسكرية لتلبي حاجة الجيوش الفاتحة، وفي مقدمتها صناعة الأسلحة النارية من بنادق، ومسدسات، ومدافع، وفي الكثير من الأحيان تولّى هذه الصناعة مهندسون مجريون ونمساويون وفرنسيون وسويديون.

ثامناً: نظام الحكم:

لقد اتبع العثمانيون تنظيمًا بسيطًا لدولتهم، حيث ابتكروا جهازين إداريين للحكم: جهاز إداري مركزي وجهاز إداري محلي، وكان تُتبع هرميّة معينة في كل جهاز منها، وكان السلطان بوصفه حاكم البلاد، وكان **خليفة المسلمين**، يوجد على قمّة هذا الهرم. أخذ العثمانيون بالكثير من العادات العربية والفارسية والبيزنطية في تنظيمهم للأجهزة الإدارية، ودمجوا معها بعض العادات التركية القديمة، وصهروها كلها في بوتقة واحدة مميزة، مما جعل الدولة العثمانية تظهر بمظهر الوريث الشرعي لجميع تلك الحضارات التي سبقتها.

1. الجهاز الإداري المركزي:

كان الجهاز الإداري المركزي يتكوّن من **السلطان وحاشيته**، وهؤلاء جميعًا يُعرفون باسم "**آل عثمان**"، ويُعاونهم في الحكم ما يُعرف باسم "**الديوان**"، وهو جهاز إداري مضمّن يتكوّن من **الصدر الأعظم وأفراد الطبقة الحاكمة**. ومنصب **الصدر الأعظم** هو **أعلى مناصب الدولة بعد منصب السلطان**، وكان من يتبوأ هذا المنصب يلعب دور **رئيس الوزراء ورئيس الديوان**، ومن **صلاحياته تعيين قادة الجيش وجميع أصحاب المناصب الإدارية المركزية أو الإقليمية**. أما **الطبقة الحاكمة** فكان يُشار إلى أفرادها باسم "**العساكرة**" أو "**العسكر**"، ومفردها "**عسكري**"، وهي تشمل: **الدفتردار**، أي الشخص المُك**لف بالشؤون المالية وحساب موارد الدولة ومصاريفها**، و**الكاهية باشا**، وهو الموظ**ف العسكري الذي يتكلف بتسير الشؤون العسكرية للدولة**، **والشاويش باشا** وهو **موظف ينفذ الأحكام القضائية التي يصدرها القضاة؛ ورئيس الكُتاب، وشيخ الإسلام، وطبقة العلماء.**

كان **السلطان العثماني** هو **صاحب القرار النهائي الفاصل في أغلب الأحيان**، وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى عهد السلطان مراد الرابع، عندما ازداد نفوذ **الديوان** وأخذ السلاطين لا يشاركون في جلساته أكثر فأكثر.

وقد جرت العادة منذ العهد العثماني على إطلاق تسمية "**الباب العالي**" على **الحكومة العثمانية**، وهي تسمية تعني في الأصل **قصر السلطان**، ومع مرور الوقت أصبح المقصود بالباب العالي: **أعلى سلطة تتجسد في قوة السلطان المستمدة من قوة جيشه.**

وتعتبر السلالة العثمانية أطول سلالات الأسر الإسلامية الحاكمة عمرًا، وكان رأس الأسرة هو **السلطان**، وهو في نفس الوقت **رأس الدولة، وخليفة المسلمين**، وكان يُشار إليه باسم "**باديشاه**" بمعنى "**ملك الملوك**" أو "**سيّد الملوك**"، وكان يحكم الدولة حكمًا مطلقًا، ولا يقيده إلا حدود الشريعة الإسلامية، وكان ش**يخ الإسلام يتمتع بسلطة عزل السلطان لو ثبت أنه تخطى حدود الشريعة أو أصيب بعاهة عقلية أو جسدية تمنعه من ممارسة عمله والاهتمام بشؤون العباد على أكمل وجه.**

وقد كان السلاطين الأوائل الذين بلغت الدولة في عهدهم ذروة مجدها وقوتها ملتزمين بحدود الشريعة عادةً، أما بعد عهد **السلطان سليمان القانوني**، أصيب البلاط العثماني بفساد شديد استمرّ حتى تولّي **السلطان مصطفى الرابع** العرش، فقد حكم خلال هذه المدة ثمانية عشر سلطانًا، لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم إلاّ بواسطة **وزراء** كانوا أحيانًا مثالاً للفساد، وأحيانًا أخرى مشفقين على الدولة من الانهيار، كما كانوا يقومون بإصلاحات تعطي الدولة حيوية تمكنها من إدارة أمورها لسنوات عدّة.

كانت الأسرة العثمانية أسرة تركية من الناحية العرقية والإرثية فقط، وفي واقع الأمر أصبح البيت العثماني في ذروة اتساع الدولة مزيجًا ثقافيًا واسعًا للحضارات والثقافات المجاورة المجاورة، الأمر الذي جعل العنصر التركي للدولة يفقد هيمنته مع مرور الزمن، وأصبحت الدولة ككل يُشار إليها في أوروبا باسم "**المشرق**".

كان لكل سلطان ختم خاص به يُصنع في بداية عهده ويستخدمه لختم **الفرمانات** والرسائل التي يبعثها للملوك والأباطرة وغيرهم من الحكّام، ويُعرف هذا الختم باسم

"**الطغراء**"، وقد تطوّر شكل الطغراء منذ أن ابتدعها **السلطان أورخان الأول** حتى عهد **السلطان سليمان القانوني،** عندما اتخذت شكلاً ثابتًا استخدمه باقي السلاطين الذين تلوه.

2. دار الحريم في قصر الباب العالي:

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، ضعف اهتمام السلاطين بمزاولة شؤون الدولة. وكان عدد من هؤلاء السلاطين، قبل أن يتولوا العرش، سجناء في **دار الحريم** أو في أقبية، ما انعكس سلبًا على سلوكهم خلال توليهم الحكم، ومنهم من كان شديد الإسراف في الأبهة والقتل، فيما البعض الآخر شُغل بالقنص ومعاقرة الخمر والفساد والسطو على مالية الدولة وأخذ الرشوة وبيع المناصب، وكان لنساء القصر تأثيرهنّ القويّ على السلاطين، وخصوصًا في القرن السابع عشر الميلادي، حيث كانت الدولة في بعض الأوقات تحت حكمهنّ.

وقد استمر السلاطين هم الحكّام الفعليين للدولة منذ عهد **مصطفى الرابع** حتى **عبد الحميد الثاني،** عندما أصبح تسيير أمور البلاد بيد **جمعية الاتحاد والترقي** وأصبح **السلطان** مجرّد أداة في أيديهم يسيرونها كما يشاؤون، وتحوّل لقبه إلى "**سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين**"، بعد أن كان لقب **السلطان** من أطول ألقاب الحكّام في العالم سابقًا.

كان لقب "**الوزير**" هو المستخدم خلال المراحل الأولى للدولة العثمانية. وأوّل من لُقب **بالصدر الأعظم** كان **الوزير** "**خليل خير الدين باشا**" وزير **السلطان مراد الأول.** والغرض من اللقب الجديد هو **تمييز حامل الختم السلطاني من الوزراء الآخرين.** ثم بدأ اللقب الجديد "**صدر أعظم**" يحل محل اللقب القديم "**وزير أعظم**" تدريجيًا وإن كانا لهما نفس المعنى والرتبة.

وخلال التاريخ العثماني ظهرت ألقاب جديدة للصدر الأعظم مثل **الصدر العالي والوكيل المطلق وصاحب الدولة والسردار الأكرم والسردار الأعظم والذات العالي.** وقد برزت أهمية **الصدور العظام** بعد عهد **السلطان سليمان القانوني،** عندما أصبحوا يتولون شؤون الدولة، ومن أشهرهم آل "**كوبرولي**"، وبعد فترة التنظيمات في القرن التاسع عشر الميلادي، أصبح من يتولّى منصب **الصدر الأعظم** يقوم بدور أكبر مما هو في **منصب رئيس**

الوزراء في الملكيات الغربية، وبعد إقرار دستور سنة 1908م أصبح **الصدر الأعظم** مسؤولاً عن أعماله أمام البرلمان.

3. الجهاز الإداري المحلي:

نظرًا لاتساع رقعة الدولة فقد قسمها العثمانيون إلى **ولايات أو إيالات**، ثم قسموا كل **ولاية** إلى **سناجق أو مقاطعات**، وكلّ **سنجق** إلى **نواح**، وكل **ناحية** إلى **أحياء وحارات**. وكان **حاكم الولاية**، أو **الوالي** ولقبه "**الباشا**"، تبعًا للحكومة المركزية في **الآستانة**، في حين كان **حاكم السنجق**، أو "**الحكمدار**" ولقبه "**البيك**"، تابعًا **للباشا**، ويساعده **ديوان** و"**صوباشي**"، أي **ضابط أمن**؛ وكان **حاكم الناحية**، ولقبه "**الأغا**" تابعًا **للبيك**، وكان على **رئس كل حي أو حارة** "**مختار**" تابع **للآغا**.

وكان **الوالي** يُعيد شراء منصبه من **الصدر الأعظم** كل سنة، فكان طبيعيًا أن يعمد إلى ابتزاز ما دُفع من الضرائب الباهظة التي كان يفرضها على الرعيّة ومن الموظفين الخاضعين لسلطته، كما كان طبيعيًا أن يعمد هؤلاء الموظفون بدورهم إلى ابتزاز المال بمختلف الوسائل من أفراد الشعب، وعُرف هذا النظام، أي **جباية الضرائب السنوية عن مساحة من الأرض من أهلها من الفلاحين**، باسم "**نظام الالتزام**".

وكان **والي الشام** متميزًا عن غيره من الولاة بإضافة **منصب إمارة الحج عليه**، وكانت مهمة "**أمير الحج**" **الإشراف على قافلة الحج الشامي** التي تضم حجاجًا من أنحاء **بلاد الشام والأناضول والبلقان، وتأمين ما يلزم لسلامة الحجاج، من ماء وجنود ودليل خبير بالطريق أو أكثر من دليل، وغير ذلك من الأمور**.

لقد أنشأ العثمانيون خلال بعض الفترات من تاريخهم تقسيمات إدارية محلية جديدة، ففي عهد التوسع والفتوحات أصبحت الدولة تضم ألوية جديدة كان من الصعب ربطها بالعاصمة، فاضطرت إلى ضم عدد منها في ولاية واحدة، وعُين على رأس **كل ولاية أمير أمراء الألوية**، ولقبه "**بكلر بك**".

كذلك أنشأ العثمانيون نظام "**المتصرفية**" خلال فترة أفول نجم الدولة، بضغط من الأوروبيين، وهذا النظام يهدف من الأساس **لحماية الأقليات الدينية المسيحية في الدولة**

وإعطائها نوعًا من الاستقلال الذاتي، كما في حالة **متصرفية جبل لبنان،** وكان يُعين على رأس المتصرفية موظف عثماني يُعرف باسم "**المتصرّف**"، وفي حالة متصرفية جبل لبنان، فقد كان يجب أن يكون مسيحيًا عثمانيًا غير لبناني أو تركي.

4. البرلمان والدستور العثماني:

وترجع بداية **الحياة الدستورية** في الدولة العثمانية إلى عام1808م، وهو العام الذي تبوأ فيه **السلطان محمود الثاني** عرش السلطنة، ففي بداية عهده دعا **الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار** إلى عقد مجلس استشاري في الآستانة، وعرض فيه برنامجًا إصلاحيًا أبرز ما جاء فيه إلزام حكّام الولايات بالولاء للسلطان، وتعهّد الدولة المركزية بالطاعة التامة لقراراته، وحدد الاتفاق العلاقات بين حكّام الولايات بعضهم ببعض، وبالتالي بين موظفي الدولة على أساس ضمانات متبادلة قائمة على العدالة.

كما صدرت في عهد **السلطان عبدالمجيد الأول** قوانين إصلاحية عدّة ذات طابع شبه دستوري، مثل **منشور الكلخانة ومنشور التنظيمات الخيرية،** كما أنشأ سنة1856م مجلسًا عُرف باسم "**مجلس أعيان الولايات**" يتكون من عضوين عن كل ولاية، يختاران من بين أصحاب المعرفة والاحترام، هدفه **إبداء الرأي بالإصلاحات الواجب إدخالها على أجهزة الدولة،** كما أنشأ **السلطان عبد العزيز الأول** سنة 1876م "**مجلس الدولة**" أو "**شوري دولت**"، الذي تميز بطابع شبه دستوري، وشملت اختصاصاته **إعداد مشاريع القوانين للدولة وإبداء الرأي للوزارات بالمسائل الخاصة بتطبيق القوانين،** كما كان بمثابة **محكمة ينظر بالقضايا الإدارية ويُحاكم الموظفين المتهمين بالانحراف،** وقد وُصف بأن هذا المجلس هو بداية انطلاق لمجلس النواب.

وقد اشتهر **السلطان عبد الحميد الثاني** أنه أوّل **سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية،** فقد أعلن دستورًا للبلاد بعد أن أقنعه زعيم تكتل "**اتفاق الحمية**" **مدحت باشا** أن الإقدام على هذا العمل يجعل الدول الأوروبية تتوقف عن تدخلها في الشؤون الداخلية للدولة لا سيما وإنه سيُصلح وضع الرعايا المسيحيين في البلقان والشام.

وتشكلت لجنة عامة برئاسة **مدحت باشا**، ولجان فرعية لدرس مشروع الدستور قبل إصداره، وانتهت بعد مداولات طويلة إلى وضع هيكل للنظام البرلماني يقوم على مجلسين: **مجلس الشيوخ**، يُطلق عليه "**مجلس الأعيان**"، ومجلس النواب ويُطلق عليه "**مجلس المبعوثان**".

وكان الدستور العثماني ينص على تقييد السلطة المطلقة للسلطان وإنه حامي الدين الإسلامي، يتمتع شخصه بحرمة قدسية، وهو غير مسؤول عن تصرفاته أمام أحد، وحدد الدولة وعاصمتها والحقوق العامّة للرعايا.وقد انتقص الدستور كثيرًا من سلطات الصدر الأعظم التنفيذية وأعطاها للسلطان. وجعل الدستور للسلطان الحق في تعيين أعضاء مجلس الأعيان مدى الحياة، على أن لا تقل سن العضو عن أربعين عامًا، أما مجلس المبعوثان فكان أعضاؤه يعينوا عن طريق إجراء انتخابات عامّة، وكان المجلسان يجتمعان كل سنة في دورة عاديّة، تبدأ في الأول من شهر نوفمبر وتنتهي في آخر شهر فبراير، ويحق للسلطان تقديم موعد الدورة أو اختصار مدتها.

وكانت الحكومة هي التي تقترح التشريعات الجديدة على البرلمان، أما اقتراحات أعضاء المجلسين فيجب أن تُعرض على السلطان، فإذا وافق عليها يُحيلها إلى البرلمان عن طريق مجلس الدولة الذي يوافق عليها، وينتهي الأمر بصدور موافقة السلطان، أما إذا رفض أحد المجلسين مشروع قانون فلا يعيد النظر فيه في دورة انعقاده نفسها.

تاسعاً: المجتمع والثقافة:

أجمع المؤرخون على أنه لم تكن ثمّة حضارة عثمانية بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد كانت الحضارة العثمانية مجرّد مزيج من حضارات الأمم التي سبقتها وحضارات الأمم التي عاصرتهم. وهي امتداد امتدادٌ للحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوجها في العصر العبّاسي، ولكنه امتداد طبعه العثمانيون بطابعهم التركي وطبعوه بكثير من المؤثرات البيزنطية والأوروبية.

1. البنية الاجتماعية:

لقد وضع السلاطين نظامًا خاصًا عُرف بنظام "**الملل**"، قسموا بمقتضاه الشعوب الخاضعة لهم، ووضعوا كل ملّة أو عصبية تحت حكم زعيم لها هو المسؤول عنها أمام السلطان، وقد أدت تلك السياسة لضعف الدولة وانفصال بعض القوميات عنها في وقت لاحق.

وقد طُبعت بعض المدن الكبرى في الدولة العثمانية بطابع ثقافي واجتماعي مختلط كما القسطنطينية، كونها كانت إما مرافئ تجارية مهمة أو عواصم ولايات، أو ذات أهمية دينية، ومن هذه المدن التي ما زالت تحتفظ بطابع عثماني.

2. التعليم:

لقد أهملت الدولة العثمانية التعليم المدني، خلال مراحل تاريخها، إلا في نطاق المدارس التابعة للهيئة الدينية الإسلامية، ولم يتطور التعليم في الدولة العثمانية إلاّ في بداية عهد **السلطان عبد المجيد الأول** وباقي السلاطين الذين تلوه، وأبرزهم **عبدالحميد الثاني**.

فقد اهتمت الدولة العثمانية بالتعليم وأنشأت **المدارس،** التي كانت تمد الدولة بالموظفين، فقد كان السلاطين العثمانيون دائمًا ما يطورون نظام التعليم ويقدمون الدعم له، واهتموا بتدريس العلوم الدينية والدنيوية وأنشأت الجامعات لتدريس تلك المواد العلوم، فقد أُنشأت **أول جامعة للطب في الدولة العثمانية** أواخر الرابع عشر الميلادي في عهد **السلطان يلدرم بايزيد** في مدينة **بورصة** التي كانت عاصمة الدولة العثمانية وقتها، ثم أُنشئ **المجمع الطبي** في القرن الخامس عشر الميلادي، كما أُنشأت العديد من الكليات منذ عهد **السلطان محمد الفاتح،** حتى سقوط الدولة العثمانية، وكانت تلك الكليات تدرس مختلف العلوم.

وفي عهد الخليفة **عبدالحميد الثاني** تطور نظام التعليم حيث أنشأ العديد من المدارس المتوسطة والعليا والمعاهد الفنية لتخريج الشباب العثماني، وإعداده لتولّي المناصب الحكومية والنهوض بالدولة. وتوّج **عبدالحميد الثاني** جهوده في الحقل التعليمي بتطوير "**مدرسة إستانبول الكبرى**"، التي أنشئت في عهد **السلطان محمد الفاتح،** وأضحت **جامعة استنبول،** كما أنشأ السلطان عددًا كبيرًا من المدارس الرشدية التي كانت بمثابة مدارس متوسطة.

3. العبودية:

كانت **طبقة العبيد** تُشكل جزءًا مهمًا لا غنى عنه في المجتمع العثماني، وكانت تلك الطبقة تتألف من **الصبية والبنات الأوروبيين** الذين يخطفهم القراصنة أو يسبَوا خلال المعارك والحروب، ومن الأفارقة الذين كان يخطفهم تجار الرقيق.

وقد ألغى **السلطان محمود الثاني** تجارة الرقيق الأبيض في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، فتحرر جميع العبيد، وأصبحوا مواطنين عثمانيين يتمتعون بسائر الحقوق التي يتمتع بها الأحرار. إلا أن تجارة الرقيق الأسود استمرت قائمة حتى أواخر عهد الدولة العثمانية.

أما تجارة **الإماء** استمرت قائمة حتى سنة 1908م، وكان **حريم السلطان** يتألف بمعظمه من **الإماء**، وقد تزوّج بعض السلاطين بآمة أو أكثر مما ملكوا، مثل **السلطان سليمان القانوني**، الذي عشق آمته **الأوكرانية** المدعوة "**روكسلانا**" التي عُرفت باسم **(هويام)** عشقًا شديدًا وتزوج بها، فولدت له **السلطان سليم الثاني**.

وقد أخذت الدولة العثمانية **بنظام الخصاء** في قصور السلاطين، على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تُحرّم مبدأ **الخصاء**، حيث قام العثمانيون بشراء العبيد الخصيان من خارج حدود الدولة حيث تكون عملية الإخصاء قد أجريت للعبد في صغره ليباع في سوق النخاسة إلى الملوك والأمراء حيث كان اخصاء العبيد وبيعهم للخدمة في قصور ملوك الدول المختلفة تجارة رائجة في العصور القديمة والوسطى وشطر من العصور الحديثة قبل منع الرق دوليًا، وكانت هناك طائفتان من الخصيان: **الخصيان السود** وهم **المخصيون خصاءً كاملاً، والخصيان البيض** وهم **المخصيون خصاءً جزئيًا**، وكان يُطلق على رئيسهم "**قبو آغاسي**"، وكان يُطلق على **رئيس الخصيان السود**، الذي هو في الوقت نفسه الرئيس **الأعلى في القصور السلطانية**، "**قيزلر آغاسي**"، أي "**آغا البنات**" و"**آغا دار السعادة**".

لقد وضعت الدولة أنظمة خاصة تُطبق على خدمتهم في القصور السلطانية. وقام تنافس شديد بين هذين النوعين كان مرده رغبة كل فريق الاستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور السلطانية وفي شؤون الدولة، وقد ارتفع مقام **رئيس الخصيان السود** نتيجة اتصاله المباشر بالسلطان ووصل إلى **المركز الثالث** من حيث الأهمية بعد الصدر الأعظم، وشيخ

الإسلام، وأضحى الوزراء يتملقونه والمستوزرون يتقربون منه. يتحدر اليوم جميع الأتراك من أصل أفريقي من هؤلاء الأشخاص الذين عملوا كرؤساء للخصيان في قصر السلطان.

4. العمران:

عُني العثمانيون بالناحية العمرانية عناية واضحة، فأقاموا شبكة واسعة من الطرق والجسور في طول الدولة وعرضها مستعينين على ذلك بمهرة الصنّاع البيزنطيين والبلغار، لأغراض عسكرية، وسهّلت حركة المواصلات العامّة، كذلك عُني العثمانيون بتشييد المدارس ومعاهد التعليم التي كانت تتسع لسكنى الأساتذة والطلاّب، وبإقامة المستشفيات، والبيمارستانات ودور العجزة، وبإنشاء المطاعم الشعبية، والتكايا للفقراء، والخانات التي كان التجّار الغرباء ينزلون فيها؛ وكذلك عنوا ببناء الحمامات الشعبية، والمكتبات العامة، والمتاحف، والقصور، والمساجد، وبخاصة في الآستانة وعواصم الولايات.

لقد تأثّر النمط العمراني العثماني بالأنماط الفارسية، والبيزنطية، والإسلامية في بداية عهده، فجاء خليطًا بينها ومطورًا لبعضها، فعلى سبيل المثال، اقتبس العثمانيون القبة الفارسية من الفرس الساسانيين، وأدخلوا عليها بعض التعديلات حتى أصبحت سمة بارزة في معظم آثارهم المعمارية.

لقد ازدهرت العمارة العثمانية في عهد التوسع والفتوحات، ثم أصبح النشاط المعماري راكدًا كما الدولة في فترة الركود، وفي فترة لاحقة أدخل المعماريون أنماطًا معمارية من أوروبا الغربية، ودمجوها مع النمط العثماني، ومن هذه الأنماط: الباروكيه، والروكوكو، والنمط الإمبراطوري.

وتعتبر بعض **المساجد** من أبرز آثار العمارة العثمانية، ومنها: **مسجدي السلطان محمد الفاتح ، السلطان أحمد في استنبول**، ومسجد **السلطان بايزيد** الذي يمتاز بفخامة موادّه البنائية وبزخرفته على الطريقة الفارسية، **ومسجد السلطان سليمان القانوني**، الذي نافس في جماله **آيا صوفيا**، والذي عُهد بتشييده إلى المهندس العثماني الشهير "**سنان باشا**"".

وكان **سنان باشا** هذا كان أعظم المهندسين العثمانيين على الإطلاق، فقد أنشأ عشرات المساجد، وخمسًا وخمسين مدرسة، وسبعة عشر مطعمًا عموميًا، وثلاثة مستشفيات، وسبعة

جسور، وثلاثة وثلاثين قصرًا، وثمانية عشر خانًا، وخمسة متاحف، وقد بلغ من براعة سنان آغا وبعض المهندسين الذين تلوه أنهم دمجوا في تصاميمهم النمط البيزنطي بالنمط الصيني.

5. الفنون والآداب:

لقد اهتمت الطبقة الحاكمة العثمانية بالموسيقى والطرب، وبلغ من درجة اهتمام بعض السلاطين بالموسيقى والغناء أن نظموا بعض المقاطع الموسيقية بأنفسهم ولحنوها، ومن هؤلاء **السلطان سليم الثالث**.

وتتميز الموسيقى العثمانية، كما معظم السمات الحضارية للعثمانيين، أنها خليط بين الموسيقى البيزنطية والعربية والفارسية، وكانت تُنظم وفق وحدات إيقاعية تُسمى "**أصول**"، ووحدات لحنيّة تُسمى "**مقام**".

وقد استخدم العثمانيون أدوات موسيقية ابتُكرت في آسيا الوسطى، مثل: **الساز والكمانچه**، وأخرى ابتكرها العرب مثل: العود والتنبور، والقانون، والناي، ومن ثم أضافوا إليها بعض الأدوات الأوروبية مثل: الكمان والبيانو.

وبرز نوعان من **الموسيقى** في الدولة العثمانية بفعل اتساع رقعة الدولة وبعد الأقاليم عن بعضها البعض: **الموسيقى العثمانية التقليدية أو الكلاسيكية، والموسيقى العثمانية الفلكلورية**؛ وكان هناك أشكل مميزة من الموسيقى العثمانية أبرزها: موسيقى الإنكشارية، وموسيقى الغجر، وموسيقى الرقص الشرقي، وموسيقى الترك الفلكلورية.

وقد تأثّر **الشعر العثماني** بنظيره الفارسي بشكل كبير، وبالشعر العربي إلى حد أقل، وكان لهذا الدمج بين اللغتين العربية والفارسية تأثير كبير في نشأة اللغة التركية العثمانية.

وكان **النثر العثماني** سردًا لأحداث قديمة وقعت بالفعل، واستمر بصفته هذه حتى القرن التاسع عشر الميلادي عندما تأثّر بالروايات الأوروبية، وخاصةً الفرنسية، وأخذ الكتّاب يبتدعون قصصًا خيالية.

وأهمل العثمانيون **فن التمثيل** في بداية عهدهم، واستعاضوا عنه بعروض الدمى المتحركة، المعروفة باسم "**كركوز وعواظ**"، وقد انتشرت هذه الظاهرة الثقافية في معظم البلدان

الشرقية الخاضعة للدولة، ولجأ إليها الناس للترفيه عن أنفسهم طيلة العهد العثماني، واستمرت قائمة في بعض الأماكن لحين ظهور دور السينما.

6. اللغة:

كان هناك ثلاث لغات كبرى سائدة في الدولة العثمانية: **التركية،** وهي اللغة الأم للأتراك، وقد تكلّم بها أغلبية سكان الأناضول، بالإضافة إلى المسلمين البلقانيين عدا الألبان وسكان البوسنة، وبطبيعة الحال انتشرت اللغة التركية بين الأشخاص المثقفين من غير الأتراك وبشكل خاص أولئك الموظفين في الدوائر الحكومية، كذلك كان للغة الفارسية انتشار محدود بين المثقفين العثمانيين، أما ثاني لغة من حيث الأهمية فكانت **اللغة العربية،** وقد تكلمها سكان المناطق العربية الخاضعة للحكم العثماني، بالإضافة إلى الأتراك وباقي الشعوب المسلمة في الدولة، كونها لغة الدين الإسلامي، غير أن من أتقنها وتكلمها بطلاقة كما العرب كان الطبقة المثقفة أيضًا.

وكانت **اللغة التركية** هي **اللغة الرسمية للدولة العثمانية،** وتختلف اللغة التركية العثمانية عن اللغة التركية الحديثة، من ناحية أنها كانت أكثر تأثرًا باللغتين العربية والفارسية، واقتبست منهما مصطلحات عديدة اختفت اليوم من المعجم التركي.

وقد انتشرت بعض اللغات الأخرى على نطاق ضيّق في الدولة العثمانية، وكذلك كان لبعض الطوائف لغاتها الطقسية الخاصة.

وقد اقتبس العرب، عدد من الكلمات التركية وأصبحت تشكل جزءًا من لغة التواصل اليومية في بلادهم، ومن هذه الكلمات: **بصمة،** وأصلها "**باصماق**" وتشير إلى **وطأة القدم،** "**بلكي**" وتعني **التوقع والاحتمال،** "**بويا**" أصلها "**بوياغ**" وتعني **الطلاء،** "**جمرك**" وتعني **الضريبة التي تؤخذ على البضائع،** "**دوغري**" أصلها "**دوغرو**" وتعني **المستقيم،** وتُستخدم أيضًا **للإشارة في السير إلى الأمام؛** "**أوضة**" أصلها "**أودة**" وتعني **غرفة؛** "**برطمان**" أي **إناء زجاجي،** وكلمات أخرى كثيرة.

عاشراً: الدين:

ونتيجة اتساع رقعة الدولة العثمانية، فقد ضمت الكثير من أتباع المذاهب والديانات المختلفة، سواء أكانت إبراهيمية أم غير إبراهيمية، فقد عاشت في رُبوعها عدة ديانات مميزة لم توجد في مناطق أخرى من العالم، كما سمح العثمانيون لليهود والمسيحيين أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية تحت حماية الدولة، وفقًا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية، وكانوا يعتبرون رعايا عثمانيين لكن دون أن يُطبق عليهم قانون الدولة، أي أحكام الشريعة الإسلامية، وفرض العثمانيون، كجميع الدول الإسلامية من قبلهم، الجزية على الرعايا غير المسلمين مقابل إعفائهم من الخدمة في الجيش.

وكان **الإسلام** هو الدين الرسمي في الدولة العثمانية، وقد اعتنقته الأغلبية الساحقة من السكان في الولايات الآسيوية والأفريقية، وفي بعض أنحاء البلقان، وفقًا للمذهب السني، وكان هناك أقلية شيعية تنتشر بشكل رئيسي في بعض مناطق العراق ووبعض أنحاء الشام.

وكانت **المسيحية الأرثوذكسية** أكبر الملل غير الإسلامية في الدولة العثمانية، وقد انقسم أتباعها إلى عدّة كنائس أبرزها كنيسة الروم الأرثوذكس، والأرمن، والأقباط، والبلغار، والصرب، والسريان، وكانت هذه الكنائس تُطبق **قانون جستنيان** في مسائل الأحوال الشخصية.

وقد خصّ العثمانيون المسيحيين الأرثوذكس بعدد من الامتيازات في مجالي السياسة والتجارة، وكانت هذه في بعض الأحيان بسبب ولاء الأرثوذكسيين للدولة العثمانية، واتبع بعض المسيحيين الخاضعين للدولة العثمانية المذهب الكاثوليكي، وكانت علاقة الدولة العثمانية ببعض الكنائس علاقة سلمية أغلب عهدها، فكان الروم الأرثوذكس يذعنون عن طيب خاطر للسلطان طالما لم يتعرض لهم أحد في دينهم، وسمح السلاطين، ببناء كنائسهم داخل حدود الآستانة.

وقد سكن اليهود مناطق عديدة من الدولة العثمانية، وقد ازداد عدد اليهود السفارديم بعد سقوط الأندلس، عندما وفدت جموع منهم إلى جانب الأندلسيين المسلمين إلى أنحاء مختلفة من الدولة، وكان رئيس الطوائف اليهودية يُعرف باسم "**حاخام باشي**" أو "**باشا الحاخامات**".

وقد لعب اليهود العثمانيين دورًا في إسقاط الدولة العثمانية عن طريق تعاونهم مع اليهود الأوروبيين والداعين للصهيونية، كما وساهموا في تشويه صورة الدولة لاحقًا.

وقد ساءت علاقة العثمانيين بالعديد من الطوائف غير الإسلامية في أواخر عهد الدولة لأسباب مختلفة، منها بروز الحركات القومية التي تبنتها شعوب غالبًا ما كانت تتعاطف معها بعض الطوائف كونها تنتمي لذات القومية أو المذهب الديني، وعند نشوب الحرب العالمية الأولى سنة1914م، ضيّق العثمانيون الخناق على الرعايا المسيحيين منعًا لحصول أي اتصال بينهم وبين أعداء الدولة من البريطانيين والروس والفرنسيين، وخلال هذه الفترة ارتكبت الدولة بضعة أعمال واتخذت بعض الإجراءات التي نجم عنها قتل وتشريد الكثير من المسيحيين واليهود، وقد اعتبر البعض هذه الأعمال مجازر ومذابح هادفة لاضطهاد الأقليات الدينية، فيما اعتبرها آخرون أعمالًا قد تقوم بها أي دولة في زمن الحرب للحفاظ على أمنها.

حادي عشر: القانون والقضاء:

كانت **الشريعة الإسلامية** هي أساس القانون العثماني. وفي بادئ الأمر كان "**قاضي العسكر**" هو **رأس الهيئة القضائية**. ثم عُيّن إلى جانبه قاضيان آخران أحدهما لأفريقيا، والثاني لأوروبا، ولم تكن سلطة قضاة الجيش هؤلاء مقصورة على الشؤون العسكرية، بل تعدتها إلى نواحي القانون بأكمله. وكان هؤلاء القضاة هم الذين يُعينون الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم. وكان يتلو قضاة الجيش في الترتيب "**العلماء الكبار**" وهم **قضاة العاصمة**، ثم "**العلماء الصغار**" الذين كانوا يتولون القضاء في المدن الثانوية، أما **قضاة الدرجة الثانية** وما دونها فكانوا ينقسمون إلى طبقات ثلاث وهم: **المفتشون، والقضاة، ونواب القضاة**. وكانت الهيئات القضائية كلها تخضع **لمفتي الآستانة** الذي كان يحمل لقب "**شيخ الإسلام**". وكان **شيخ الإسلام** هذا **يُفتي في ما يُرفع إليه من المسائل القضائية، وكثيرًا ما كان السلاطين يستصدرون منه الفتوى كلّما أقدموا على اتخاذ قرار مصيري يتصل بشؤون السلم أو الحرب.**

لقد اعتمد **السلطان عبدالمجيد الأول** تدوين القانون المدني العثماني كخطوة من خطواته التنظيمية، فجعل كبار الفقهاء والعلماء يجمعون التشريعات في ما أصبح يُعرف **بمجلة الأحكام العدلية**. تتكون هذه المجلة من ستة عشر كتاب أولها **كتاب البيوع** وآخرها **كتاب**

القضاء، وكل كتاب يتناول موضوع ومكون من أبواب، وكل باب مكون من فصول، وصدرت المجلة سنة1882م، وهي تعتبر **أول تدوين للفقه الإسلامي في المجال المدني** في إطار بنود قانونية، على **مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان**.

ثاني عشر: الجيش:

لم يكن للإمارة العثمانية عند قيامها جيش نظامي تعتمد عليه، وقد وقع عبء الفتوح الأولى على عاتق **المجاهدين**، وجماعات **الدراويش**، وكانوا كلهم من **الفرسان**، فيجتمعون في مكان محدد عن طريق المنادين ثم يخرجون إلى الحرب، فإذا انتهت تفرّقت جموعهم وعاد كل واحد إلى عمله الأساسي.

وقد اعتمد العثمانيون منذ أول ظهورهم في التاريخ، نظاماً إقطاعياً كان الهدف منه تأمين مصدر ثابت لإمداد جيوشهم بالجند، يغنيهم عن إنشاء جيش نظامي دائم ويُوفر لهم نفقاته، وكان أساس هذا النظام هو إقطاع أو منح المحاربين بعض المقاطعات الزراعية مقابل التزامهم بأن يكونوا دومًا على استعداد للسير إلى الحرب متى يُدعون إليها.

1. الجيش النظامي الأول (1365–1828م):

يُعتبر **السلطان أورخان الأول** مؤسس **الجيش العثماني الحقيقي**، فقد أدرك من خلال معاركه حاجته إلى جيش من المشاة يستطيع فتح القلاع واقتحام الأسوار المنيعة، ولا يعرف أفراده حرفة سوى القتال، فأنشأ أول الأمر جيشًا نظاميًا مؤلفًا من فرق متعددة، كل فرقة منقسمة إلى وحدات تتألف من عشرة أنفار، ومئة نفر، وألف نفر، ثم اختار ألفًا من أسرى الحروب، وأغلبهم من صغار السن، بين السابعة والعاشرة، وضمّ إليهم الأولاد المسيحيين المشردين والأيتام الذين توفي آباؤهم أو أمهاتهم خلال الغزوات والمعارك، ثم صهر الجميع في بوتقة واحدة، وأنشأهم على الدين الإسلامي وعلى التعلق بشخصه والإخلاص له وللدين والوطن، فكان هؤلاء هم نواة **(جيش الإنكشارية؛ أي الجيش الحديث)**.

كان **الإنكشارية** لا يعرفون حرفة ولا عمل إلا القتال والحرب، وتألّف الجيش الإنكشاري من ثلاث فرق مختلفة هي: **السكمان والجماعة والفرقة**، وكان رئيسه الأعلى يُعرف باسم "**آغا الإنكشارية**". وتكاثر عدد الإنكشارية مع الزمن فبلغ في بعض الأحوال ستين

ألفًا. تميز الإنكشارية في بداية نشأتهم بروح النظام في **العصر الذهبي للدولة**، ولكن الفساد ما لبث أن دبّ إلى هذا الجيش مع الزمن، فاعتاد الإنكشارية أن يتمردوا ويطالبوا بالهبات السخية كلما ارتقى العرش سلطان جديد. وقد شكلوا في العهود المتأخرة عقبة كانت تحول دون الإصلاح والتجديد، فأبادهم **السلطان محمود الثاني** عن بكرة أبيهم وألغى جميع أزيائهم وألقابهم.

وقد أنشأ العثمانيون إلى جانب **جيش المشاة** جيشًا من **الفرسان** عُرف باسم "**الفرسان السواري**" أو **سباهي**، أو"**الفرسان السيباه**"، وقد لعب هؤلاء دورًا كبيرًا في تقدم الفتوح عبر أوروبا، لكنهم أصيبوا بالفساد كما الإنكشارية في أواخر عهدهم، واشتركوا معهم في نفس المصير،

كما عُني العثمانيون بسلاح المدفعية عناية عظمى، وأنشأوا فرقة خاصة في الجيش هي فرقة **المدفعية** أو "**الطوبجيّة**". وكانت المدفعية تتقدم الجيش عند الهجوم، في حين كان الإنكشارية يرافقون طليعة الجيش.

2. الجيش النظامي الثاني (1826ـ1922م):

بعد أن قضى **السلطان محمود الثاني** على **الإنكشارية** ، أقدم على إلغاء جميع الفرق العسكرية غير المنتظمة، وأضحى الجيش كله مؤلفًا من جنود منتظمين مسلحين بالأسلحة الحديثة، أطلق السلطان على الجيش الجديد اسم "**العساكر المنصورة المحمدية**"، واستدعى ضباطًا ومهندسين فرنسيين وألمانًا لتدريب أفراده وفق النموذج الأوروبي. وأسس السلطان أكاديمية عسكرية سنة 1834م، وأرسل بعض خريجيها إلى العواصم الأوروبية لاستكمال دراساتهم العليا. واستمر الجيش العثماني موجودًا بصفة رسمية حتى قيام الجمهورية التركية، عندما أصبحت جميع القوات العثمانية إلى جانب **قوّات مصطفى كمال** تُشكل **القوات المسلحة التركية**. وكان للجيش العُثماني الثاني نشيداً خاصاً.

3. البحرية والأسطول

لقد أنشأ العثمانيون أسطولاً بحريًا كبيرًا ساعدهم في كثير من فتوحاتهم البرية والبحرية على السواء. ولعلّ الفضل في تعزيز الأسطول العثماني يعود إلى **السلطان محمد**

الفاتح أولاً، ولمّا تولّى العرش **السلطان سليم الأول** واصل تعزيز هذا السلاح، ثم جاء **سليمان القانوني** فزاد عدد سفنه فبلغت ثلاثمئة.

وكان الأسطول العثماني يتألّف من دوارع ثقيلة وطرّادات خفيفة، وكان مزودًا بمدفعية قوية. ولكن الدولة أهملت الأسطول، في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، فتضاءل عدد قطعه، واقتصر نشاطه على خفر السواحل تقريبًا.

وفي عهد الإصلاحات والتنظيمات حاول **السلطان محمود الثاني** النهوض بالبحرية فبنى سفينة "**المحمودية**" التي كانت طيلة سنوات أكبر سفينة حربية في العالم، وحاول السلطان **عبد العزيز الأول** إحياء البحرية العثمانية من جديد وزيادة قطعها، فبنى أسطولاً كان الأكبر في العالم بعد أساطيل بريطانيا وفرنسا، وحصل من بريطانيا على أوّل غواصة حربية من نوعها. وبعد أن تأسست **جمعية الاتحاد والترقي**، واستلمت الحكم في البلاد، أسست "**جمعية البحرية العثمانية**" الهادفة لشراء سفن حربية جديدة بغية تطوير الأسطول العثماني.

المصادر والمراجع

1. فريد بك: **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، دار النفائس، بيروت – لبنان، ط10، 2006م.
2. جحا: **المصور في التاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان.
3. طقوش: **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة.**
4. طقوش: **تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة.**
5. مانتران: **تاريخ الدولة العثمانية**، ج1 **الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، اتجاه إلى الاستقرار أم انحدار؟**
6. نوّار ونعنعي: **التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الثانية.**
7. ألماظ أوزتونا: **تاريخ الدولة العثمانية**، مؤسسة فيصل للتمويل، إستنبول- تركيا، 1988م
8. نوري، عثمان: **عبد المجيد ودور سلطنتي، حيات خصوصية وسياسة سي**، إستنبول- تركيا، 1909م.
9. الشناوي: **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984م.
10. آق كوندز: **الدولة العثمانية المجهولة**، وقف البحوث العثمانية، 2008م.
11. حرب: **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، دار القلم، دمشق، ط1، 1989م.

فهرس المحتويات



أ.حسن عبدالله يوسف أبوحلبية
استاذ التاريخ في كلية الدعوة الإسلامية – فرع الشمال
رئيس قسم الدعوة الإسلامية ومتطلباتها – مشرف البحث العلمي
جوال: 00972599058328 **إيميل:** hasanabuhalabia@gmail.com

